

نعوم تشومسكي



فراق جديدة في دراسة
اللغة و الذهن

ترجمة : حمزة بن قبلان المزيني

790

آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن

تأليف

نعوم تشومسكى

ترجمة

حمزة بن قبلان المزينى



٢٠٠٥



المشروع القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٧٩٦
- آفاق جديدة في دراسة اللغة والذهن
- نعوم تشومسكي
- حمزة بن قبلاز المزيني
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

**New Horizons in the Study
of Language and Mind.**

Noam Chomsky

© Cambridge University Press, 2000

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

7.....	تقديم المترجم.....
61.....	تمهيد نبيل سميث.....
81.....	مقدمة.....
85.....	الفصل الأول: آفاق جديدة في دراسة اللغة.....
111.....	الفصل الثاني: تفسير استخدام اللغة.....
161.....	الفصل الثالث: اللغة والتأويل: التأملات الفلسفية والبحث الاختباري.....
	الفصل الرابع: المقاربة العلمية الطبيعية والمقاربة الثنائية في دراسة اللغة والذهن.....
215.....	215.....
267.....	الفصل الخامس: اللغة موضوعاً طبيعياً.....
311.....	الفصل السادس: اللغة من المنظور الداخلي.....
361.....	الفصل السابع: المقاربة الداخلية.....
417.....	المصطلحات الواردة في الكتاب.....
425.....	المراجع.....

تقديم المترجم

كنت كتبتُ مقالاً من سبع حلقات في ملحق ثقافة اليوم في جريدة الرياض، سنة ١٤٢٠هـ بمناسبة بلوغ اللساني والناقد السياسي والاجتماعي الأمريكي المشهور نعوم تشومسكي السبعين من عمره في السابع من شهر ديسمبر ١٩٩٨م. ولما كان كتاب تشومسكي الذي أترجمه هنا يمثل مراجعة شاملة للمنطلقات الفكرية والفلسفية والعلمية التي يقوم عليها المنهج الذي شرعته في دراسة اللغة؛ فإنني أود أيراد تلك الحلقات التي كتبتها عن تشومسكي ومشروعه اللساني بصورة عامة لتكون مقدمة لهذا الكتاب. والسبب الآخر لهذا القرار أن نيل سميث، محرر كتاب تشومسكي هنا، كتب مقدمة ضافية لما تتضمنه فصوله من قضايا. لذلك فمقدمتي إطلالة عامة على تشومسكي ومشروعه العلمي. كما تتضمن معالجة لقضية تثار دائماً في الثقافة العربية؛ وهي الادعاء بأن تشومسكي استقى منهجه في دراسة اللغة من المصادر النحوية العربية.

ويستحق تشومسكي أن يكتب عنه دائماً؛ للأثر الكبير الذي تركه على مختلف النشاطات العلمية والفكرية والاجتماعية والسياسية. وهو يستحق أن يكتب عنه في العالم العربي خاصة، لما يستحقه من الاعتراف بإنجازاته العلمية، ولمواقفه المشرفة من القضية الفلسطينية التي لم يتوقف عن الدفاع عنها منذ أكثر من خمس وأربعين سنة.

وسأتناول هذا الموضوع من جوانب مختلفة تتعلق بإنجازات تشومسكي في دراسة اللغة وبنشاطه الذي لا يعرف الكلل في النقد السياسي والاجتماعي وبيعض المزايا الشخصية التي تميز شخصيته الفريدة.

وأبدأ بتناول بعض جوانب حياته؛ تلك أن هذه الجوانب تلفت النظر بالقدر نفسه الذي تلفته آثاره العلمية والاجتماعية والسياسية. كما تلقى ضوءاً

ربما يساعدنا في فهم كثير من الظروف التي أثرت في نشأته وفي تكوين شخصيته ورسم مسار حياته.

وساعتمداً اعتماداً كبيراً على سيرة حياة تشومسكي التي ألفها روبرت بارسكي، ونشرت في سنة ١٩٩٧م بعنوان: "تعموم تشومسكي: حياة من المعارضة"

Robert Barsky, Naom Chomsky: A Life of Dissent. MIT Press, 1997

وترجمها إلى العربية ياسين الحاج صالح وصفوان عكاش، بعنوان "تعموم تشومسكي: حياة منشق"، حلب: فصلات للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩٨م، وهي ترجمة مبنية، خاصة فيما يتعلق بنشاطه العلمي في اللسانيات. وعلى كتاب نيل سميث، "تشومسكي: أفكاره ومثالياته"

Neil Smith, Chomsky: Ideas and Ideals, Cambridge University Press, 1999

وعلى عدد من المصادر الأخرى، وبعض المقالات التي نشرت عنه في أماكن متفرقة.

ولد نعوم تشومسكي في السابع من شهر ديسمبر ١٩٢٨م، في مدينة فيلادلفيا في ولاية بنسلفانيا الأمريكية. وكان أبوه وأمه قد نزحا من روسيا سنة ١٩١٣م؛ هرباً من تجنيد أبيه في الجيش القيصري رغمًا عنه. ومرا بحياة تنسم بالفقر كما هي حال كثير من النازحين إلى أمريكا.

لكن الفارق الحاسم أن والدي تشومسكي كانا متعلمين تعليماً عالياً قبل وصولهما إلى أمريكا؛ لذلك كان عثورهما على عمل مجز أمراً سهلاً. وكان والد تشومسكي من أبرز المتخصصين في اللغة العبرية، فوجد عملاً في تدريس العبرية في أماكن متفرقة. وألف عددًا من الكتب في الموضوع. ومنها تحقيقه لكتاب النحوى اليهودى الأندلسى ديفيد قمحى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى، ويعد هذا الكتاب واحداً من الكتب الرئيسة فى نحو اللغة العبرية. وقرأ نعوم تشومسكى مسودة هذا الكتاب للضخم المتخصص وهو فى الثانية عشرة تقريباً.

ونشأ تشومسكى فى هذا البيت الذى يهتم بالعلم والثقافة، كما كان للجو الاجتماعى الحافز الذى يتمثل فى تلك المحادثات الطويلة التى كانت تجرى بين أبويه أو بين أبويه وعدد من أقاربه، على مائدة العشاء كما يقول تشومسكى، أثرٌ فاعل فى حث ملكته اللغوية، وتوجيه اهتمامه إلى التفكير فى المسائل والآراء التى كان يتناولها أولئك. وكان أفراد أسرة أبيه وأفراد أسرة أمه ينتمون إلى تيارات فكرية وسياسية مختلفة، بل متعارضة أحياناً. وكان ينشأ فى هذه البيئة الغنية بالاختلاف كثيرٌ من النقاش الذى فتح بصيرته على أهمية اختلاف الآراء وأهمية الحوار حولها.

ومن الأمور اللافتة للنظر فى صباه انكيايه على القراءة. ومن ذلك ما تروييه صديقة لأسرته أنها كانت فى زيارة للأسرة، وسألته وهو فى السابعة من عمره، وأشارت إلى دائرة المعارف المسماة بـ Compton's Encyclopaedia التى تتألف من عدد من المجلدات الضخمة، إن كان سبق له النظر فى واحد من هذه المجلدات. وكانت إجابة تشومسكى، كما ترويها، أنه قرأ نصفها فقط. وكان منكبا على قراءة الأدب العبرى الحديث، وأبرز الآثار الأدبية فى اللغة العبرية، ومنها الكتب الدينية اليهودية بلغتها العبرية.

وكان قارئاً نهماً للأثار الأدبية المشهورة فى اللغة الإنجليزية وتلك المترجمة إليها، ومنها الروايات الواقعية لكبار الروائيين مثل دستوفسكى وهاردي وهوجو وتولستوى ومارك توين وزولا، وهو ما شكّل وعيه نحو كثير من القضايا الاجتماعية. وكان وهو فى التاسعة من عمره كثيراً ما ينصرف بذهنه عن متابعة المدرسة التى كانت، فى الغالب، والدته، ذلك أن ما يدرس فى ذلك الصف كان قد فرغ من معرفته فى بيته منذ زمن، لكثافة ما يقرأ.

ومن أهم المؤثرات فى حياته أن والديه ألقاه وهو فى الثانية من عمره بمدرسة متأثرة بفكر عالم التربية الأمريكى جون ديوى، وظل فيها حتى الثانية

عشرة من عمره. وكانت الفلسفة التي تقوم عليها أفكار ديوى كما يقول تشومسكى، أن مهمة التعليم يجب ". . . أن تكون توفير الفرص من أجل أن يحقق الطفل ذاته بنفسه، فأحسن ما يمكن أن يقوم به التعليم هو توفير بيئة غنية متحديّة للفرد كي يتفحصها، معتمداً على نفسه هو". وما يزال تشومسكى يرى أن هذا ما يجب أن يقوم به التعليم، ذلك "أن الأفراد يتطورون بطريقة أفضل إذا ما وفرت الفرصة لهم لكي يكتشفوا ما حولهم معتمدين على أنفسهم، ويتفحصوا بحرية بدلاً من إرغامهم على اتباع بعض المبادئ التربوية الصارمة". ويرى أن التعليم يجب ألا يكون شبيهاً بمحاولة ملء كأس فارغ، بل يجب أن ينظر إليه بمثابة توفير أفضل الظروف لزهرة أن تتفتح. وهو ما يعنى أن يساعد الطفل على أن يتعلم بنفسه، بدلاً من الوصاية عليه.

واستطاع في هذه المدرسة، التي تضم أطقماً آخرين من مختلف البيئات ويتمتعون بمستويات مختلفة من الاستعدادات، أن يطور قواه الخلاقة من غير تنغيص من النظام التربوي الذي يقوم على التقويم التنافسي. فقد كان الأطفال يتابعون إنجاز ما يهتمون به إما أفراداً أو في مجموعات، وكان يُشجع كل عضو في الفصل على أن ينظر إلى نفسه على أنه طالب ناجح جداً. وكان الهدف في هذه المدرسة "الإبداع لا الدرجات، ولم يكن يُنظر إلى أى عمل أنه أكثر أهمية من الأعمال الأخرى التي ينجزها الآخرون أو أقل منها"، كما يقول تشومسكى.

ويقارن تشومسكى بين ذلك النظام التربوي الفاعل والنظام التربوي السائد في التعليم، فيقول إن أولاده لم يصلوا إلى السنة الثانية الابتدائية إلا وهم يستطيعون أن يصنفوا الطلاب الآخرين بأنهم إما أنكياء أو أغبياء. وذلك نتيجة للنظام التعليمي الذي يقصد إلى إنكفاء روح التنافس بين الطلاب، بدلاً من بث روح التعاون بينهم وتعليمهم أن يقدروا أى عمل يمكن أن يكون نتيجة للاجتهاد الفردي.

وكان لهذه التربية التي تهتم بالاستقلال الفردي أثرها في حياته؛ فكان يذهب بمفرده في الإجازة الأسبوعية، وهو دون العاشرة، من مدينة فيلادلفيا إلى مدينة نيويورك، ويقضى الإجازة منتقلاً بين المكتبات قارناً كل ما يقع تحت يده، ثم يزور عمه الذي يبيع الصحف في دكان جانبي، وينصت إلى المناقشات التي لا نهاية لها بين المفكرين اليهود النازحين من روسيا وأوروبا الشرقية وكان معظمهم ينتمي إلى الفكر اليساري. وهي مناقشات تتركز على الفكر والسياسة والعلوم المختلفة. وترك ذلك فيه أثراً بالغاً، حتى إنه انتمى منذ تلك الفترة المبكرة من حياته إلى الفكر اليساري، بل الفوضوي. وكان من نتيجة اهتمامه السياسي وانتمائه إلى الحركات اليسارية تأليفه كتاباً عن الثورة الإسبانية وهو في العاشرة.

ولما بلغ الثانية عشرة التحق بالمدرسة الثانوية. لكنه وجد الجو فيها مختلفاً؛ فقد كان النظام فيها يقوم على الضبط والتحكم، وعلى غرس الاعتقادات الكاذبة في عقول الطلاب، وتجريدهم من الحرية التي فطر الناس عليها، وذلك عكس ما كان عليه الأمر في مدرسته السابقة، كما يقول. لذلك يعضد تلك الفترة من أسوأ الفترات في حياته؛ ويحاول دائماً أن يعتمد محوها من ذاكرته. ولم يجد شيئاً جديداً في تلك المدرسة، إذ سبق له أن قرأ أضعاف ما كان مقرراً فيها. لكنه فوجئ بأنه كان متفوقاً فيها، ويحوز دائماً على أعلى الدرجات.

وتخرج في تلك المدرسة بتفوق، ثم التحق بجامعة بنسلفانيا وهو في السادسة عشرة، وكان يدفع مصاريف الدراسة في الجامعة من عمله مدرساً للغة العبرية في أوقات فراغه. وكان الطالب الوحيد الذي تخصص في تلك الفترة في دراسة اللغة العربية في تلك الجامعة، بالإضافة إلى دراسته الفلمسة واللسانيات. وكان من أساتذته الذين أثروا فيه تأثيراً حاسماً جورجيو ليفي ديلا فيدا، وزيك هاريس. ومما شجعه على الدراسة مع هذين الأستاذين انتمأؤهما السياسي إلى التيارات اليسارية.

ومن الطريف أن والده أحقه بجامعة بنسلفانيا للدراسة مع هاريس لكي يحول بينه وبين الهجرة إلى إسرائيل.

وكان طابع الدراسة الجامعية في قسم اللسانيات الذي كان يدرس فيه يشبه الطابع الذي كان سائدًا في مدرسته الابتدائية. إذ كانت الدراسة بعيدة عن النمط المألوف، وتقوم بدلاً عن تلك على النقاش المستمر الذي لا تحده ساعات أو فصول معينة. وكانت تلك الفترة من أكثر سنوات حياته الفكرية خصباً؛ فقد تعرض في أثناء دراسته في تلك الجامعة لتأثير كبار المتخصصين في العلوم كلها تقريباً، كالفلسفة وعلم النفس والتحليل النفسي والمنطق والرياضيات وغير ذلك.

ثم حصل على البكالوريوس بطريقة غير معهودة؛ إذ أعطى تلك الدرجة وهو في الحادية والعشرين من عمره في الرياضيات واللسانيات والمنطق، مع أنه لم يكن متخصصاً في أي من هذه العلوم تحديداً. وكانت رسالته للتخرج عن النظام المصرفي في العبرية، وهي التي تضمنت اليذور المبكرة لنظريته التي اقترحها فيما بعد.

ثم التحق ببرنامج الماجستير في الجامعة نفسها، وحصل عليه في سنة ١٩٥١م، ثم حصل على منحة للعمل باحثاً في هارقارد. وانصرف في تلك الفترة إلى البحث والمحاضرات العامة في الجامعات المختلفة. وأتجز فيها كتابة بحث طويل يقرب من ألف صفحة بعنوان: "البنية المنطقية للنظرية اللسانية". وكان مضمون هذا البحث غريباً عن المؤلف مما يسمى باللسانيات في تلك الفترة التي كان يسيطر فيها المنهج اللبنيوي المتأثر بالمدرسة السلوكية في علم النفس. وهو منهج يقوم على وصف الظاهرة اللغوية لا تفسيرها، كما يقوم على الاهتمام بما كان يسمى بإجراءات الاكتشاف التي تتبع في ذلك الوصف.

وعلى الرغم من انقطاعه عن الدراسة في جامعة بنسلفانيا منذ ١٩٥١ إلا أن صلته التي لم تنقطع بأستاذه زيبك هاريس شفعت له في تلك الجامعة. لذلك منحت درجة الدكتوراه على الرغم من أنه لم يدرس فيها بانتظام، ولم

يتقدم إليها للوفاء بمتطلبات تلك الدرجة إلا بفصل واحد من العمل الضخم الذي أنجزه في هارفارد.

وتقدم بعدها بمخطوطة ذلك البحث الطويل إلى عدد من دور النشر، لكنها رفضت نشره. وكان سبب رفضها طول البحث طولاً مفرطاً، وعجاجة محتواه عن السياق السائد في اللسانيات حينذاك. لكنه اكتفى في نهاية الأمر بمحاولة نشر الفصل الذي تقدم به إلى جامعة بنسلفانيا ومنح الدكتوراه عليه بعنوان "البنى التركيبية" Syntactic Structures، ومع ذلك رفضت نشره دور النشر الأمريكية التي تقدم به إليها. لكن دار نشر هولندية نشرته في سنة ١٩٥٧م.

وكان نشر ذلك الكتاب ضئيل الحجم إيداناً بشق طريق غير مألوف في البحث اللغوي. وسرعان ما استقبل استقبالاً منقطع النظير، ونشرت مراجعات كثيرة له، كان من أشهرها المراجعة التي كتبها روبرت ليز وقال فيها: "إن كتاب تشومسكي، 'البنى التركيبية'، أول محاولة جادة يقوم بها لساني لبناء نظرية شاملة عن اللغة في إطار التقاليد المعروفة لبناء النظريات العلمية، وهي النظرية التي يمكن أن تفهم بالمعنى نفسه الذي تفهم به أية نظرية كيميائية أو أحيائية في تلك الحقول العلمية".

وفي ١٩٥٥ تعاقدت معه جامعة ماساتشوستس للتقنية للعمل باحثاً في معمل الألكترونيات في هذه الجامعة العلمية. وكان الغرض من التعاقد معه العمل في برنامج أبحاث يهتم بتطوير الترجمة الآلية، لكن تشومسكي لم يكن معنياً بمثل هذه المشروعات التي كانت تمويلها وزارة الدفاع الأمريكية لأغراض معينة. وانشغل بدلاً من ذلك بتدريس بعض اللغات الأجنبية لطلاب الدراسات العليا. ويصف تشومسكي ذلك العمل بأنه كان إعطاء "دروس مكثفة لتعليم أولئك الطلاب بعض الحيل التي يمكن أن يستخدموها لكي ينجحوا في امتحان اللغة في برنامج الدكتوراه". واستغل بعض الدروس

الأخرى التي أسند إليه تدريسها لعرض منهجه الجديد في دراسة النحو واللغة بدلاً من تدريس المحتوى الدقيق لتلك الدروس.

لكنه التقى بصديقه وزميله «مورس هالي» الذي سبقه إلى التدريس في تلك الجامعة. ثم أسس قسم اللسانيات الذي أصبح بتأثيرهما أشهر قسم لللسانيات في العالم. وترقى في السلم الأكاديمي بسرعة فائقة حتى حصل على درجة أستاذ في تلك الجامعة وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وعين أستاذ شرف جامعي وهو في السابعة والأربعين، وذلك أمر غير مسبوق.

وبعد أن نشر كتابه الأول "البنى التركيبية" أخذ نجمه في الصعود، وبدأ الصراع العنيف بين منهجه الجديد والمناهج السائدة في اللسانيات. لكن منهجه أخذ في الشيوع والانتشار، وبدأ المتخصصون يتخلون بسرعة عن المناهج التي ألفوها من قبل، وأخذوا ينضمون إلى التيار التوليدي الذي يقوده تشومسكي مسلحاً بتلك الطاقة على التفكير والتظير والإنجاز التي لا يكاد يجاريه أحد فيها.

وتتبع الإشارة هنا إلى قدرته غير المألوفة على العمل لساعات طويلة من غير تعب ولا كسل أو ملل. فمما يعرفه المقربون منه أنه لا ينام إلا أربع ساعات في اليوم، وأنه يقضى أكثر من عشرين ساعة في الأسبوع في كتابة ربود على الرسائل التي ترده من مختلف أنحاء العالم، وتتعلق بشتى المواضيع اللسانية والسياسية والمواضيع العادية جداً التي يود مرسلوها الاستئناس برأيه فيها. وهناك موقع خاص في شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت" يحوى نماذج من الرسائل التي يكتبها يومياً في الرد على الرسائل التي ترد إليه. ويقول أحد عارفيه إن تشومسكي لا يعرف معنى الإجازة التي يعرفها للناس؛ إذ إن الإجازة في عرفه لا تعنو أن تكون إنقاص العمل من عشر ساعات في اليوم إلى ثمان!

ومن الشواهد على هذه الطاقة الفائقة على العمل المتواصل ما يقوله أحد الباحثين عن إنجازات تشومسكي في إحدى الفترات المبكرة من حياته التي أنجز فيها عدداً من الكتب والمقالات المهمة: "إن قليلاً من العلماء يمكن

لهم أن ينشروا هذا الكم الكبير من الأبحاث ذات القيمة العالية عن مختلف المسائل في مثل هذا الوقت القصير".

ويصف تشومسكى تلك الطاقة في تعليقه على ما كان يقوم به يومياً في أواخر الستينيات: لقد كانت تلك الفترة متعبة جداً؛ فقد كنت غالباً ما ألقى عدداً كبيراً من المحاضرات السياسية في اليوم الواحد في عدد من الأماكن، وكنت أتعرض لاحتجاز الشرطة لى، وأذهب إلى الاجتماعات التي تعقد من أجل العصيان المدني وغيره، وكنت ألقى محاضراتي في الجامعة، وألعب مع أطفالى، وغير ذلك. بل إنى كنت أجد بعض الوقت الذى أستطيع فيه أن أغرس في اليوم نفسه كثيراً من الشجيرات والنباتات. وحين أعود بذاكرتى إلى تلك الأيام يصعب على تخيل القيام بكل هذه النشاطات في وقت واحد".

وبما أننا عرفنا شيئاً عن طفولته يحسن أن نطلع على رأى ابنه هارى تشومسكى فى التربية التي تلقاها منه. فيقول فى تهنئته لأبيه بمناسبة بلوغه السبعين: "ما مدى الأثر الذى تركته في؟" والواقع أن الناس كثيراً ما يسألوننى السؤال نفسه بطريقة مختلفة هي: لىت شعري كيف كانت نشأتك مع أب مثل هذا؟ وأحسن طريقة أجيب بها عن مثل هذا السؤال هي القول بأنها كانت تبدو أمراً طبيعياً بالنسبة لى. لقد كنت تقرأ لى قبل أن أنام من بعض الكتب عن نظرية النسبية. وكنت ترسم لى الزرافات على هيئة رسوم ساخرة - وتحوى هذه الرسوم معادلات خطية linear equations ثم تعلمنى كيفية حل تلك المعادلات. وكنت تدلنى على المصادر التي أرجع إليها فى التقارير التي أكتبها لمادة الدراسات الاجتماعية فى المدرسة، ذلك من غير أن أكتشف كم أن تلك المصادر مختلفة عن المصادر التي يرجع إليها معظم الطلاب. . . . إننى لا أستطيع أن أتخيل طفولة تخلو من مثل تلك الحوافز الفكرية فى كل لحظة، ومن غير تلك القطارات الكهربائية، وتلك القصص الطويلة التي كنت ترويها لى بكل حب، أو صحبتى لك فى مشى تلك المسافات الطويلة حين كبرت. . . ."

وليس من السهل إيراد آراء العلماء في تشومسكى وفي إنجازاته، لكنه يكفى إيراد بعضها فى الدلالة على المنزلة التى يحتلها فى السياق العلمى والفكرى المعاصر.

فيقول ستيفن بنكر عنه: "... يُعدّ تشومسكى الآن واحداً من الكُتاب العشرة الأول للذين يكثر الاستشهادُ بهم فى الدراسات الإنسانية (وهو يتقدم على هيجل وشيشرون، ولا يسبقه إلا ماركس ولينين وشكسبير والإنجيل وأرسطو وأفلاطون وفرويد) وهو الوحيد الحى من أفراد هذه المجموعة.

وهو يثير الناس ويجعلهم يتخذون مواقف محدّدة مما يقوم به، وتتراوح ردود الأفعال على عمله بين الإعجاب به إعجاباً مفرطاً وتعظيمه تعظيماً يليق بأئمة الطوائف الدينية الغربية، والهجوم المُرس الذى طوّره الأكاديميون وجعلوه فناً رفيعاً. وتعود هذه المواقف إلى أن تشومسكى يُهاجم واحدة من الركائز السائدة الآن للحياة الفكرية فى القرن العشرين - وهى (نموذج علم الاجتماع المعيار) الذى يرى أن النفس الإنسانية تُشكّلها الثقافة المحيطة بها. كما أن هناك سبباً لهذه المواقف، وهو أنه ليس بإمكان أى مفكر أن يتجاهل تشومسكى.

وكما يعترف الفيلسوف هيلارى بتنام، وهو من أشرس المناوئين له،

فإننا:

حين نقرأ ما يكتبه تشومسكى نحس إحساساً عميقاً بأننا فى حضرة قوة فكرية عظيمة؛ إذ نكتشف أننا أمام عقل مُتفوق. ويعود ذلك بقدر مُتساو إلى سحر شخصيته القوية، وإلى المزاي الفكرية الواضحة التى يتمتع بها، ومنها الأصالة والأنفة من السطحى الماذج؛ والرغبة فى إحياء مواقف تبدو بالية (مثل فكرة الأفكار الفطرية)، والقدرة على ذلك؛ والاهتمام بمواضيع لها أهمية عظيمة مثل بنية العقل الإنسانى.

وأنتج تشومسكى إنتاجاً علمياً غزيراً فى عدد من التخصصات. ويقول بارسكى إن تشومسكى نشر، إلى سنة 1997، أكثر من سبعين كتاباً وأكثر

من ألف مقالة في اللسانيات والفلسفة والسياسة وعلوم المعرفة وعلم النفس. ويزيد العدد الآن كثيراً عن تلك الإحصائية.

كما أن تشومسكي، كما قال بنكر آنفاً، من أكثر من يستشهد به في العلوم المختلفة. فقد استشهد به فيما بين ١٩٨٠ و ١٩٩٢ أربعة آلاف مرة في العلوم الإنسانية، و ١٦١٩ مرة فيما يسمى بالعلوم الصحيحة.

ويقول عنه اللساني الأمريكي البارز راي جاكندوف، وهو أحد طلابه السابقين: "لا أعرف أحداً استطاع أن يهيمن على علم معين [مثل هيمنة تشومسكي على اللسانيات]، إلا فرويد [الذي هيمن على علم النفس]".

ويتصف تشومسكي بالحياة الذي ربما يصل إلى حد الخجل. وبالتواضع الشديد، على الرغم من إنجازه الذي لا يكاد يماثله إنجاز. ومما يدل دلالة واضحة على هذا التواضع ما يلي.

فقد عُقد في القدس، سنة ١٩٨٨، مؤتمر تحت مسمى "المنعطف التشومسكي: اللسانيات التوليدية، والفلسفة، والرياضيات، وعلم النفس"، وسمى بهذا الاسم للدلالة على النظرية الجديدة التي وضعها تشومسكي لدراسة اللغة. وقد جمع أسا كاشير، منسق المؤتمر، الأبحاث التي أقيمت في كتاب بعنوان:

The Chomskyan Turn. ASA KASHER (ed.).1991.

وأسهم تشومسكي نفسه ببحثين نُشرا في الكتاب. يقول تشومسكي في بداية بحثه الأول ما ترجمته:

أشعر أن من واجبي أن أبدأ بما يمكن وصفه ببداية غير مهذبة بعض الشيء، ذلك أنني أود تسجيل اعتراضي على الصورة العامة المقترحة للمؤتمر، وهو ما عبرت عنه لأسا كاشير حين الإعلان عنه. فمع أن ما أريد الإشارة إليه واضح بما يكفي، لكن ربما يحسن بي أن أقول إن علامة أهمية

مجال بحث معين، وأنه يستحق بذل الجهد فيه يتناسبان عكسا مع شخصيته
يربطه باسم شخص معين؛ وأنا أظن أن المسائل التي نعالجها [في اللسانيات]
مهمة وتستحق البحث فيها. أما المواضيع التي من قبيل: "علم أحياء فلان" –
أو "اقتصاد فلان"، أو "علم نفس فلان"، أو ما إلى ذلك – ولك أن تختار فلان
الذي تريد، فلا يمكن أن تكون مفيدة إلا في الطور البدائي للبحث في
موضوع ما، وهو المستوى الذي يأمل المرء أن يتجاوزه الباحثون بسرعة
ليصبح البحث مشروعًا تعاونيًا مشتركًا، حيث تتغير، في حالتنا، "لسانيات
فلان" كلما ظهر عند جديد من دورية علمية، أو كلما دخل طالب دراسات
عليا ببعض الأفكار الجديدة مكتب أستاذه المشرف على رسالته، أو مع كل
مناقشة تحدث في فصل دراسي وتقود إلى فهم جديد ومشكلات جديدة. وقد
أصبح كل ذلك، لحسن الحظ، أمرًا مألوفًا [في اللسانيات] منذ سنوات طويلة،
لذلك فعبارة "لسانيات فلان" ليست في محلها، إلا إذا كان فلان هذا هو
[اللغوي الهندي القديم] بانيني أو وليم فون همبولت [اللغوي الألماني الشهير]،
أو فرديناند دي سوسور، ذلك بشرط أن يفهم هذا الحكم أيضًا على أنه لا
يزيد عن كونه تجريديًا بعيدًا من واقع أكثر تعقيدًا.

والشيء نفسه ينطبق على "النظريات" المتكاثرة التي تربط باسم فلان
أو علان أو باسم جماعة معينة، إذ إن ذلك، مرة أخرى، علامة على عدم
نضج ذلك الموضوع المعين أو هو علامة على الانطباع الخاطيء عن حقل
التخصص المعين بصورته التي يتطور بها في الواقع.

ويعنى قوله هذا أنه على الرغم من المكانة التي يتبوأها تشومسكي في
اللسانيات بخاصة إلا أنه لا يرى لنفسه فضلًا على غيره.

وهذه المعلومات الشخصية عن تشومسكي مهمة؛ إذ إنها ربما تساعدنا
في فهم هذه الشخصية الفريدة، والنظر بجديّة إلى الجوانب التي أسهمت في

تكوينه، وهي التي يمكن لها أن تفيدنا في تربية الناشئين وتعليمهم؛ لينشأوا أفراداً مستقلين مبدعين. كما تشهد بأهمية العمل الجاد الدعوي، وضرورة تحلي الباحثين بالتواضع.

ومن المسائل الكبرى التي ينشغل بها بعض الباحثين العرب اللذين يهتمون بدراسة اللغة في الثقافة العربية المعاصرة، وبخاصة عند الحديث عن النظرية اللسانية التي ارتبطت باسم نعوم تشومسكي، تكرار القول عن الصلة بين هذه النظرية والنحو العربي.

وملخص هذا القول، أن هناك تشابهاً واضحاً بين النظرية التي ارتبطت باسم تشومسكي والنحو العربي. ويورد بعض هؤلاء الباحثين ما يرونه أدلة على هذا التشابه؛ ويحاول بعضهم أن يذهب أبعد من ملاحظة هذا التشابه إلى القول بأن تشومسكي انطلق فعلاً، في تنظيره اللساني، من المبادئ التي وضعها النحويون العرب القدماء. ثم يذهب هؤلاء خطوة أبعد لينتبعوا المسار الذي سلكته هذه المبادئ حتى وصلت إلى تشومسكي.

ولا بد هنا من ملاحظة هامشية تكشف عن البنية المعرفية للثقافة العربية المعاصرة. فقد رأى بعض الباحثين الغربيين، وبعض العرب أيضاً، أن نشأة النحو العربي نفسه إنما كانت بتأثير من الثقافات الأجنبية كالسريانية والهندية واليونانية. وحين يعرض بعض الباحثين العرب المعاصرين لهذا الرأي نراهم يكادون يجمعون على استنكاره ونفيه واتهام من يقول به بالجهل بالنحو العربي، بل بالعداء للثقافة العربية نفسها.

ومع ذلك فكثير من هؤلاء الذين ينكرون أثر الثقافات الأجنبية في النحو العربي لا يجدون غصاصة في إرجاع كثير من الإنجازات الفكرية الغربية المعاصرة إلى تأثير الثقافة العربية. وما الإيحاء بتأثير تشومسكي بالنحو العربي، بل تأكيد انطلاق تشومسكي من النحو العربي، إلا وجهاً من أوجه هذه البنية المعرفية.

ويجب أن أشير منذ البدء أنه ليس من العيب أو المستغرب أن تتقل ثقافة عن ثقافة أخرى؛ بل إن هذا ما يحصل دائماً، سواء أكان ذلك بوعي أم من غير وعي. بل ربما أمكن القول، إن التأثير الإيجابي، والسلبى، نتيجة لازمة للتلاقى بين الثقافات.

ومن الأمور الأخرى اللافتة للنظر أن الباحثين العرب المحدثين يقعون دائماً في شرك إعادة النظر في النحو العربى فى ضوء النظريات اللسانية الحديثة. وهو ما يقود إما لنقده نقدًا موجعًا أو تيجيله تيجيلًا مفرطًا.

فقد تعرض النحو العربى، فى القرن العشرين، إلى نقد عنيف من مصدرين اثنين: فالمصدر الأول هو النقد العنيف الذى وجهه بعض الباحثين إلى أصول النحو العربى والمبادئ التى يقوم عليها والتحليلات التى يتضمنها، انطلاقاً من التأثير باين مضاء الأندلسى.

فقد أحدث تحقيق الدكتور شوقى ضيف لكتاب ابن مضاء الأندلسى "الرد على النحاة"، سنة ١٩٤٧م، موجة عارمة من نقد النحو العربى الذى ينحو نحو التعليل.

ويكفى إيراد ما يقوله محقق الكتاب فى مقدمته للطبعة الأولى (الطبعة الثانية، ١٩٨٢م، ص ص ٧-٨): "وقد سدد ابن مضاء سهام دعوته، أو قل سهام ثورته، إلى نظرية العامل، التى أحالت كثيراً من جوانب كتاب النحو العربى إلى عقد صعبة الحل، عسيرة الفهم. وما للعلل؟ إن كل ما تصوره النحاة فى عواملهم النحوية تصور باطل، . . .".

و: "ليس هذا كل ما تجره نظرية «العامل» فى كتاب النحو العربى، فهى تجر وراءها أيضاً حشداً من علل وأقيسة، يعجز الثاقب الحس والعقل عن فهم كثير منها، لأنها لا تفسر غامضة من غوامض التعبير، ولا دفينة من دفائن الأسلوب، وإنما تفسر فروضاً للنحاة، وظنوناً مبهمة".

و: "وهذا كله أفسد كتاب النحو العربي إفساداً، لأنه ملاءم بمسائل ومشاكل، لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا، وتقويم لساننا".

ومع أن كتاب الرد على النحاة يمثل انتكاسة للتفكير النحوي العربي إلا أنه لقي قبولا واسعا وما يزال ينظر إليه على أنه يمثل منهجا جيدا لإنقاذ النحو العربي من المنطق والتعليل، كما يقال.

ولا شك أن المناخ الفكري في مصر وبخاصة في الأربعينيات من القرن العشرين كان مواتيا لانتشار أفكار ابن مضاء. ذلك بسبب ما سبق تلك الحقبة من محاولات لمراجعة كثير من المسلمات الثقافية والفكرية. ومن أهم الكتب الأساسية التي صدرت منذ العشرينيات في هذه المراجعة: كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي^{١٩٢٦م}، وكتاب علي عبد الرازق نظام الحكم في الإسلام^{١٩٢٤م}، وكتاب إبراهيم مصطفى عن النحو العربي في ١٩٣٧م، وغيرها.

ويتمثل المصدر الثاني لتقد النحو العربي في النقد العنيف الذي صدر عن عدد من الأساتذة الذين درسوا اللسانيات في أوروبا في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وكان جلهم قد درس اللسانيات في ضوء النظرية الوصفية التي كانت سائدة في تلك الفترة في أمريكا وأوروبا.

ومن أهم المبادئ التي تقوم عليها الدراسة الوصفية للغة جمع المادة ووصفها والاكتفاء بذلك. فلم تكن تلك الدراسة تعنى بما وراء الظواهر اللغوية من الآليات التي تسيّرهما، ولا بما في ذهن المتكلم حين يتكلم لفته. لذلك اكتفت بوصف المادة اللغوية ولم تحاول استكناه ما يختبئ وراءها.

ولما كان النحو العربي يقوم على بعض الأصول والمقولات والآليات التي لا تظهر في المادة اللغوية نفسها، كالعامل الذي يفسر الإعراب، والأصول الصرفية للكلمات التي ربما لا تتوافق مع الأشكال المنطوقة لها، فقد نظر هؤلاء الباحثون إلى هذه المبادئ والمقولات والأصول على أنها لا

تتوافق مع الأصول والمبادئ وطرائق التحليل التي تقوم عليها الدراسة الوصفية الحديثة للغة.

لذلك شنوا حملة شعواء على النحو العربي تضمنتها بعض الكتب المشهورة التي نشرت في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. ومن أشهرها كتاب الدكتور عبد الرحمن أيوب "دراسات نقدية في النحو العربي" الذي نشر أول مرة في سنة ١٩٥٧م، وقد كتب الدكتور إبراهيم مصطفى - الثائر الأول على النحو العربي - مقدمة لهذا الكتاب.

وكانت معظم المآخذ التي أخذها الدكتور أيوب على النحو العربي موجهة إلى التقدير والتعليل اللذين يقوم عليهما التحليل النحوي العربي القديم. ويبين الدكتور أيوب تلك المآخذ في تحليله لكثير من الظواهر اللغوية والنحوية والصرفية. ويكفي أن نرى رأيه مجملاً فيما يلي.

فقد عرض الدكتور أيوب للتقدير في مواضع عدة؛ ويمكن أن يلخص رأيه فيه قوله (ص ٥٢): "يلعب التقدير دوراً كبيراً في النحو العربي. وذلك لأن النحاة كثيراً ما يلجئون إليه لتصحيح رأي قالوا به. والتقدير ولا شك أمر غير واقعي، . . . ونحن حين نرفض نظرية التقدير نرفضها لعدم واقعيته هذه".

أما عن التعليل فيقول (ص ٣٣): ". . . ولم يبق إلا أن نطلع عن [التعليل] ونكتفى بتقرير الواقع لا غير. وهذا ما تفعله المدرسة التحليلية الشكلية اليوم".

وتكرر هذا النقد عند الدكتور إبراهيم أنيس والدكتور كمال بشر والدكتور تمام حسان. وكان الدكتور تمام حسان أكثر الناقدین جذرية؛ ذلك أنه اقترح بديلاً لمبدأ العامل وبعض الآليات التحليلية التي تقوم إلى جانب الإعراب في تفسير البنية النحوية للعربية. وقد أوضح ذلك البديل في كتابه "اللغة العربية ميناها ومعناها"، ١٩٥٩م، وظل وفياً لها إلى الآن، وذلك في كتابه الجديد "الخلاصة النحوية"، ١٤٢٠هـ، الذي يمثل تطبيقاً لنظريته البديلة تلك.

لكنه استبدل بهذا النقد الذي كان يوجه للنحو العربي بصورته التي

نجدها في المصادر العربية الأساسية، منذ أوائل السبعينيات من القرن العشرين، ما يشبه إعادة الاعتبار لمقولات النحويين العرب القدماء وآرائهم وطرانقهم في التحليل.

أما هذا الانقلاب المفاجئ الذي يتمثل في إعادة الاعتبار لمنطلقات النحو العربي القديم فكان نتيجة لاتصال بعض الدارسين العرب المعاصرين بالنظرية اللسانية التي بدأها تشومسكي في أواسط الخمسينيات. فقد لفت نظر كثير من الدارسين العرب تمييز تشومسكي بين مستويين للجملة، أحدهما المستوى الظاهري المنجز لها والثاني المستوى الذي تشتق منه الجملة بشكل من الأشكال. ولما كان النحو العربي يقوم على بعض المقولات المجردة كالإضمار والحذف وما يتبع ذلك من تعليل وتقدير للعناصر اللغوية المضمرة والمحنوفة من الشكل الظاهري للجملة، فقد رأى هؤلاء أن النحو العربي القديم يقول، هو أيضاً، بوجود مستويين للجملة، وهو ما يماثل ما تقوله نظرية تشومسكي.

بل تجاوز الأمر ملاحظة هذا التشابه بين النحو العربي ونظرية تشومسكي إلى القول بأن تشومسكي لم يكن إلا ناقلاً لهذه المقولات من النحو العربي مباشرة. ثم يورد هؤلاء بعض الأدلة التي تشهد لهذا الرأي.

ومن هذه الأدلة أن والد تشومسكي كان من نحاة اللغة العبرية المعاصرين البارزين. ولأن النحو العبري أسس في العصور الوسطى على مثال النحو العربي فلا بد أن تكون معرفة تشومسكي بهذه المقولات العربية قد أتت عن طريق معرفته بالنحو العبري. ومن وجه آخر، يوحى هؤلاء الباحثون بأن مقولات النحو العربي انتقلت إلى تشومسكي عبر اطلاعه على أعمال المفكرين الفرنسيين والألمان في القرن الثامن عشر، ومن أشهرهم فون همبولت الذي كان قد اطلع على اللغة العربية والدراسات النحوية فيها خاصة. ومن وجه ثالث، فقد صرح تشومسكي نفسه بأنه درس اللغة العربية في المستوى الجامعي الأول وصرح بأنه قرأ سيوييه. وكان قد درس العربية

في جامعة بنسلفانيا على أيدي مستشرقين معروفين هما جورجيو دي لافيديا وفرانز روزنتال، كما رأينا.

لهذا، كما يرى هؤلاء الباحثون، فمعرفة النحو العربي كانت عميقة، ومن غير المستبعد إذن أن يكون قد نقل مقولات النحويين العرب بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ولما كان هذا الموضوع واحداً من أكثر الموضوعات المتعلقة بتشومسكي أهمية من حيث التاريخ لمساره العلمي فسوف أعرض له بتوسع، مستعرضاً الأدلة المتوفرة لي عنه كلها.

ويجب القول هنا أن الدارسين العرب المعاصرين لم يكونوا الوحيدين الذين لاحظوا أوجه الشبه بين التنظير النحوي العربي ونظرية تشومسكي. لذلك سأورد بعض آراء الدارسين الغربيين الذين لفتت أنظارهم هذه التشابهات كذلك.

وسأحاول إيراد بعض الآراء الممثلة للقول بهذا التأثير وبعض الآراء الأخرى التي تنفيه. ثم أعود إلى ما يقوله تشومسكي عن هذه المسألة، وإلى الأسس التي صرح بأن نظريته تقوم عليها.

ولا يتسع المقام هنا لعرض كل ما قيل عن وجود هذا التشابه أو ما قيل عن أخذ تشومسكي عن النحو العربي؛ لكنني سأكتفي بإيراد عينات ممثلة لهذه الآراء، وسأحاول تبيان المعطيات التي استندت إليها.

وتأتي هذه الآراء أحياناً على هيئة ملحوظات عابرة تشير إلى هذا التشابه؛ لكن بعضها يأتي بصور أكثر تفصيلاً لأوجه التشابه بين النحو العربي والنظرية التوليدية، وللطرق التي وصلت بها المفاهيم النحوية العربية إلى تشومسكي.

ومن أوائل الإشارات العربية إلى أوجه التشابه بين النحو العربي أو الدراسات العربية بشكل عام ما ورد في كتاب كمال أبو ديب *Al-Jurjani's Theory of poetic Imagery, 1979* نظرية الجرجاني عن التخيل الشعري² وكان في الأصل رسالته للدكتوراه التي أنجزها في جامعة

أكسفورد في بريطانيا قبل ذلك التاريخ بسنوات. فقد أشار في أربعة مواضع من هذا الكتاب إلى التماثل التام بين بعض المفاهيم وطرق التحليل التي قال بها الجرجاني وتلك التي جاء بها تشومسكي (الهامش ٢١ ص ٢٩؛ الهامش ٣٦ ص ٣٣؛ الهامش ٦٥ ص ٣٩ و ص ٥٧). ويلخص النص التالي مضمون هذه الإشارات جميعها (ص ٥٧؛ وهو ترجمتي):

«وربما كان نوع التحليل الذي أتى به الجرجاني في هذا الفصل أول، بل أفضل، تحليل في اللغة العربية لـ "البنية السطحية و"البنية العميقة". وإيضاح التماثل بين المفاهيم التي طورها الجرجاني، وطورها تشومسكي مؤخرًا سهل جدًا. . . . ولتوضيح الفرق بين البنيتين فقد أعاد الجرجاني صياغة كل واحدة منهما بالطريقة نفسها التي يستعملها تشومسكي الآن، من أجل الكشف عن البنى العميقة للتركيبات التركيبية المماثلة».

ولعل أفضل كتاب يمثل وجهات النظر التي تتلمس مظاهر الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التوليدية كتاب الدكتور نهاد الموسى: "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م). وقد صرح بأن اتجاه البحث في هذا الكتاب " . . . تشكل في نفس صاحبه شكله الأول على هيئة إحسان قوى بأن كثيرا من الأنظار التي وجدها في كتب المحدثين من الغربيين، ولاسيما في محاضراتهم ومقابساتهم، يوافق عند عناصر كثيرة منه ما قرأ عند النحويين العرب مصرحين به حينًا وصانرين عنه — فيما يقدر الباحث — كثيرا من الأحيان" (ص ٩).

وأول ما تلفت النظر في كتاب الدكتور الموسى أن النحو العربي بدأ كأنه يتشابه مع كثير من المدارس اللسانية الحديثة لا المدرسة التوليدية وحسب. فالنحو العربي، كما يرى الدكتور الموسى، يتشابه مع المدرسة البنوية التوزيعية. ويتبين ذلك في قوله: "إن معطيات هذا المنهج في التحليل

هي بعض ما استشعره النحويون العرب في الإعراب وصدروا عنه، حتى إنها لتعد من قبيل تحصيل الحاصل لدى المشتغلين بالعربية ومعلميها" (ص ٢٩). ويقول عن مبدأ "التوزيع" في هذه المدرسة: "وقد وقف النحويون العرب على هذا المبدأ في حقيقته" (ص ٣٣)، و". . . يضيق مجال القول هنا عن استيعاب أمثلة هذا "المبدأ" لديهم، ففعل فيما تقدم قليلاً مقتعاً" (ص ٣٧)، و"إن هذا الإرهاص بمبدأ التوزيع ظاهر في كثير من وجوه التحليل النحوي عند العرب، ولكن النحويين كانوا يحتكمون إليه بقدر ما يكون مسعفاً دون قصر" (ص ٣٨). ثم يورد رأي الباحث الأسترالي المعاصر مايكل كارتر عن كتاب سيبويه: "ويرى كارتر، في منتهى النظر، أن كتاب سيبويه يقدم نموذجاً من التحليل البنيوي لم يعرفه الغرب حتى في القرن العشرين، ويُقَرَّر أن لو ولد سيبويه في عصرنا هذا لتبوأ منزلة وسطاً بين دي سوسير وبلومفيلد" (ص ٤٠).

كما يرى الدكتور الموسى أن هناك اتفاقاً بين النحو العربي والمدرسة اللسانية المسماة بـ Tagmemics التي يترجمها إلى "الخائئة". ويتحدث عن بعض الخصائص المميزة لهذه النظرية ثم يعقب قائلاً: "إن مجموع هذه العناصر بالإجمال متحصل ضمناً في معطيات النحو العربي. . . ." (ص ٤٣).

وإذا انتقل إلى المدرسة التوليدية، نراه يقول عن اعتراضات تشومسكي على مبادئ المدرسة البنيوية: "وتلتقى جل منطلقات تشومسكي، نظرية التحويل والتفريع، في اعتراضاتها على البنيوية من الجهات التي وجدت أن البنيوية تتخلف فيها عن تفسير صور أساسية من الظاهرة اللغوية، مع الأصول التي رسمها ابن هشام في (المعنى)، للتحليل النحوي، وساقها في هيئة "وجهات نظر يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها". وكان للمعرب، عند ابن هشام، هو "البنيوي" عند التحويليين" (ص ٤٦). ثم

يعرض أوجه الاتفاق بين النحو العربي والنظرية التحويلية في المفاهيم الأساسية لها.

ويرى كذلك أن النحو العربي يتشابه في كثير من المفاهيم والتحليلات مع بعض المدارس اللسانية المعاصرة الأخرى كالمدرسة الوظيفية، وعلم اللغة الاجتماعي، والداليات المعجمية، وغيرها.

ويرى "أن هناك ثلاثة أبعاد من أبعاد النظر في اللغة هي من مستلزمات أية نظرية مشتركة أو انتلافية في التحليل اللغوي" (ص ١١٠)؛ وبعد أن يحدد هذه الأبعاد يختم بالقول: "وهذه الأبعاد الثلاثة أيضا قد وسعها النظر النحوي عند العرب من خلال دأبهم المتصل في استكمال نظرية للتحليل النحوي لا تتخلف" (ص ١١١).

ويوضح الدكتور الموسى أن فسى عنوان كتابه: "... تجوزا كبيرا؛ فالأمر في هذا البحث لا يعدو المقابلة بين "أنظار" و"اتجاهات" و"ملاحظ" و"معالجات" تهدي إليها النحاة العرب، وهي في الوقت نفسه مما أخذ به غيرهم في التقليد الغربي سواء أكان ذلك على وجه التوارد الذي يقع بالضرورة أو على وجه التأثر المحقق بالتاريخ الصحيح" (ص ١٥)، كما يصف عمله بـ"المجازفة الاستطلاعية الخلافية المنقطعة" (ص ١١١).

والواقع أن القول بأن النحو العربي يتشابه مع هذه المدارس المتعددة المختلفة المتنافرة من حيث المنطلقات النظرية ووسائل التحليل يكفي في رد القول بأن النحو العربي يتشابه مع النحو التوليدي تخصيصا.

ومن وجه آخر فوصف الدكتور الموسى لعمله بـ"فقرغ فرضيته من

مضمونها؛ إذ إن كل ما تقدم من أوجه المشابهة يمكن أن يكون من توارد الخواطر "الذي يقع بالضرورة".

ويتجاوز الدكتور الموسى القول بتشابه النحو العربي مع النظرية اللسانية التوليديّة إلى النظر في إمكان أخذ تشومسكى عن النحو العربي، ويجب أن أشير هنا إلى أن الدكتور الموسى كان في تتبعه مسار المفاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكى حذراً جداً، فقد أطر كلامه بأدق ما يكون من التحفظ.

فهو يقول في (ص ص ٥٤-٥٥): "وليس تقرير الشبه بين ابن هشام وهومبولت ثم تشومسكى من هذه الجهة محتاجاً إلى أن يُتكلف له التأويل؛ ثم يعلق في الهامش (ص ص ٥٤-٥٥) قائلاً: "إن التشابه يغرى بالتأمل، ويقوى معه الهاجس بأن هذه المسألة قد تكون بعض ما ورد على الغرب من العرب في إطار "انتقال العلم العربي إلى الغرب اللاتيني". ذلك أن [المستعرب] سلفستر دي ساسسى كان متضلعا. . . من علوم اللغة العربية". وما أنتجته من الدراسات في نحو العربية وما ترجمه إلى الفرنسية من كتب النحو والتجويد القديمة يدل بوضوح على أنه أدرك - إيراكاً لا بأس به - مفاهيم ومناهج النحاة العرب". ودي ساسسى "هو الذي كوّن. . . فون هومبولت" وغيره. "وأهم شيء اكتسبه هؤلاء من دروس دي ساسسى هو اطلاعهم من خلال دراستهم للعربية واللغات السامية الأخرى على المفاهيم اللغوية والنحوية العربي التي كانت تتفصّل في ثقافتهم الفيلولوجية التقليدية، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنحو والصوتيات". وكان دي ساسسى "متشعباً بمبادئ النحو الوصفي التعليلي. وهو يمثل في زمانه ذلك المذهب الذي تناقله عدد من العلماء منذ القرن الثالث عشر من طريق جيمس هارس وسنكتيوس الإسياني عن النحاة العرب مباشرة أو عن لغويي السكولاستيك عن فلاسفة العرب". "وتلا دي ساسسى في العمل بهذه المبادئ تلميذه فون هومبولت".

ثم يشير إلى مقال للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح عنوانه "مدخل إلى علم اللسان الحديث (٣)" منشور في مجلة اللسانيات، التي كانت تصدر في الجزائر، المجلد الثاني، ١٩٧٢، العدد الأول، ص ص ٩-١٠.

ويعلق بعد ذلك قائلا: "فهل تكون هذه المسألة عند ابن هشام [انظر الإشارة إليها فيما تقدم] مما أورده دي ساسي على هومبولت ثم لقفها تشومسكي؟"

ثم يبدي تحفظه قائلا، نقلاً عن عبد الرحمن الحاج صالح أيضاً: "إنه لا بد من التحفظ على القطع بقول حاسم، ذلك أنه، مثلاً، رغم . . . معرفة دي ساسي لمقاصد النحاة العرب فإن الكثير مما تركوه من التحليلات العميقة والمفاهيم الدقيقة ما كان يمكن أن يفهم في ذلك العصر لعدم خوض الغربيين بعد في هذا النوع من البحث. ونخص بالذكر مناهج الوصف البنوي ومفهومي الأصل والفرع والطريقة التفريعية. . .".

وهكذا نجد أنه على الرغم من هذه الافتراضات المتكاثرة عن المسار الذي سلكه النحو العربي حتى وصل إلى تشومسكي فلا تعدو هذه الافتراضات أن تكون افتراضات يصعب التذليل عليها.

بل إننا نجد الدكتور الموسى يصرح بأن أوجه التشابه بين النحو العربي ومدارس النظر في اللغة (وبخاصة النحو التحويلي) ربما تكون نتيجة لما يسميه بـ "المشترك" بين اللغات، وإن قلَّ من هذا الاحتمال. ومؤدى هذا أن . . . بين مناهج النظر اللغوي، على اختلاف الزمان والمكان والإنسان، قدراً مشتركاً يقع بالضرورة. . .

"وكان مضمون ذلك الحدس [حدسه بـ "المشترك"] بديلاً راجحاً عن القول بتأثير تلك المناهج بعضها في بعض، أو أخذ أصحابها بعضهم عن بعض. . ." (ص ٩).

ومحصلة القول إن الطريقتين اللذين كان يمكن اللجوء إليهما في تقرير أخذ تشومسكي عن النحو العربي ليسا كافيين ولا قاطعين، اعتماداً على ما نجده في كتاب الدكتور الموسى. وهذا مما يشكك في هذا الاحتمال.

ومع أن كتاب الدكتور الموسى يمثل وجهة نظر عدد كبير من الباحثين العرب الذين يقولون بالصلة بين النحو العربي وتشومسكي إلا أننا نجد باحثين آخرين لا يرون تلك صلة. ويمكن أن يستشهد على عدم افتراض كثير من الباحثين وجود مثل هذه الصلة بالحالات التالية.

فعلى الرغم مما ذكره الدكتور الموسى نقلاً عن الدكتور الحاج صالح من تتبع المسار الذي سلكته المفاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكي إلا أن الدكتور عبد السلام المسدي في كتابه ("الفكر العربي والألسنية"، منشور في كتاب: اللسانيات واللغة العربية. الجامعة التونسية، ١٩٧٨، ص ٣٠-٣١؛ ويوجد هذا النص في كتابه "التفكير اللساني عند العرب" كذلك) يرى أن ". . . الغرب قد أهمل التراث اللغوي عند العرب فلم ينقل منه شيئاً؛ وبذلك استلمت الأمم اللاتينية مشعل الحضارة الإنسانية من العرب في كل ميادين المعرفة تقريباً إلا في التفكير اللغوي".

و"أما النتيجة المبدئية التي آل إليها "تسيان" تراث العرب في اللغويات العامة فهي حصول قطع في تسلسل التفكير الألسني عبر الحضارات الإنسانية، فنهضت الحضارة الغربية على حصيلة التراث اليوناني، ولكن في معزل عن مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب، وإذا جاز لنا أن نبسط القول مصانرة في البحث أمكننا أن نقرر افتراضاً أن أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة لكانت الألسنية المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد".

وما دام أن الدراسات اللغوية العربية لم تنتقل إلى الغرب، فهي بالتالي لم تصل إلى تشومسكي بالطريقة التي نفترض دائما.

ومن الباحثين الذين لا يرون صلة بين النحو العربي وتشومسكي الدكتور تمام حسان. فقد عُرف الدكتور حسان بدراساته عن أصول التنظير النحوي العربي في كتبه المتعددة، ولم ينكر في أي منها، فيما أعلم، تشابها بين النحو العربي والنظرية التوليدية. بل إننا نجد في بحث منشور في الكتاب سالف الذكر عنوانه "إعادة وصف اللغة العربية ألسنيا" (ص ١٤٥-١٨٤) يستعرض المدارس النحوية العربية المعروفة، ثم يعرض تطبيقا لنموذج النحو التوليدي على اللغة العربية مأخوذا من كتاب تشومسكي Aspects. وفي ختام عرضه للكيفية التي ينطبق بها النموذج التحويلي على اللغة العربية يقول: "وهكذا يبدو أن النموذج التحويلي يمكن أن يطبق على اللغة العربية، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها ألسنيا من خلاله" (ص ١٨٤).

ومعنى هذا القول أنه لو وجد الدكتور تمام حسان تشابها بين النحو العربي والنحو التحويلي لكان تعبيره عن هذا الأمر مختلفا؛ ولكان من المحتمل أن يقول، بدلا مما قال، إن هذا النموذج هو ما نجده في النحو العربي.

وهناك دليل آخر على عدم أخذ تشومسكي عن النحو العربي في نظريته. ويؤخذ هذا الدليل من قول الدكتور مازن الوعر (علم اللسانيات الحديث: مدخل، ١٩٨٨، ص ٣٥٩-٣٦٠): "إنه لا غرابة أن نرى عالما لسانيا أمريكيا معاصرا هو نوم تشومسكي يقف وقفة دهشة وعجب من التراث العربي اللغوي (النحوي والدلالي)، عندما قرأ وعلق على عمل لسانى كنت قد تقدمت به كرسالة للدكتوراه. ففي رسالة بعثها إلي في ٢٦ نيسان ١٩٨٢ قل فيها:

"إنه من الواضح أن هذه الدراسة هي دراسة جديدة ورائعة ومهمة . . .
ولقد دهشت بشكل خاص من تلك التعليقات اللغوية التي وردت في ثنايا
هذه الدراسة والتي كان قد قالها العرب القدامى. إن هذا وحده يجعل هذه
الدراسة إسهاما قيما جدا لتطوير الدراسات اللسانية الغربية. . .".

كما أورد ما حدثه به الدكتور أحمد المتوكل (وهو لساني مغربي
معروف) من أنه [أي المتوكل] قد قال لي بأنه أرسل رسالة الدكتوراه التي
وضعها والتي تدور حول النظرية الدلالية عند العرب القدامى إلى عالم
اللسانيات الأمريكي تشومسكي وقد كان تعليق تشومسكي عليها في رسالة
بعثها إلى الدكتور المتوكل [بأن ما قاله العرب القدماء في حقل الدلاليات يعد
فكرا فلسفيا عميقا لا بد من الأخذ به في الفكر الدلالي المعاصر، وقد وعد
تشومسكي المتوكل بأنه سيعتمد هذه النظرية في الأعمال التي سيقوم بها في
المستقبل".

وكما هو واضح نكل هاتان الحالتان بشكل صريح على أن تشومسكي
لم يسبق له أن اطلع على إنجازات العلماء العرب القدماء قبل أن يقرأ ما
كتبه هذان الباحثان العربيان المعاصران عن تلك الإنجازات.

ونخلص مما سبق إلى نتيجتين هما:

١- أن القول الذي يقضى بأخذ تشومسكي عن النحويين العرب لا دليل
عليه؛ ذلك أن أكثر المعالجات تفصيلاً واستقصاء لهذه الدعوى لم تصل
إلى نتيجة حاسمة يلزم منها الاطمئنان إلى حدوث هذا الأخذ المباشر،
أو غير المباشر.

٢- ما يقوله تشومسكي نفسه من عدم اطلاعه على المنجزات النحوية
واللغوية التي وصل إليها العلماء العرب القدماء. ولكي يلزم الرأي
القائل بأخذ تشومسكي المباشر أو غير المباشر عن النحو العربي فإنه
يلزم القائلين بهذا الرأي أن يثبتوا أن كلام تشومسكي ليس صحيحاً،
وأنه كان يعرف أكثر مما صرح به.

وسنرى فيما يلي بياناً واضحاً لرأى تشومسكى فى هذه المسألة،
وتفسيراً لأوجه التشابه بين النحو العربى وما نجده فى النحو التولىدى.

فمن أوائل الباحثين الذين اهتموا فى أبحاثهم بطبيعة الدراسات النحوية
العربية اللسانية الأمريكى المعاصر المعروف مايكل بريم فى رسالته
للكتوراه. وهى رسالة حلل فيها النظام الصوتى للغة العربية الفصحى،
وأنجزها فى جامعة ماساتشوستس للتقنية بإشراف عالم الصوتة المشهور
موريس هالى فى سنة ١٩٧٠م. وينظر الباحثون إلى هذه الرسالة على أنها
عمل بارز استخدم فيه مايكل بريم دراسة التراكيب الصوتية للغة العربية
مثلاً يحتج به لتطبيق النظرية الصوتية التى جاء بها تشومسكى وموريس
هاله فى كتابهما الشهير "نمط الأصوات فى اللغة الإنجليزية" The Sound
Pattern of English, 1968. وقد انتشرت هذه الرسالة انتشاراً واسعاً فى
أقسام اللسانيات فى أمريكا وغيرها، واعتمدت مرجعاً رئيساً فى الدراسة
الصوتية، وظهرت الإشارة إليها فى عدد لا يحصى من الكتب والمقالات فى
تلك الفترة. وما يزال يشار إليها بوصفها عملاً كلاسيكياً فى النظرية
الصوتية وفى الدراسات العربية على السواء.

ومما قاله بريم فى مقدمة الرسالة (وهى ترجمتى):

أعتقد أن النحو العربى خاصة قد بلغ أدنى درجات الانحطاط على
أيدى العلماء الغربيين. فقد تجاهلت اللسانيات الغربية تجاهلاً يكاد يكون تاماً
كثيراً من مظاهر العمق والأصالة اللذين أورثناهما النحويون العرب. وسوف
أعالج هذا الموضوع [أى النظام الصوتى للغة العربية فى تلك الرسالة]
بالروح التى عالجه بها أولئك النحويون العرب. وهذا صحيح فى الأقل فى
المسألة التى استرعت اهتمامهم، وهى مسألة تحديد الأصل أو التمثيل
العميق للغة. . . .

فهو يشير هنا إلى مسألتين مهمتين من أوجه التشابه بين النحو العربى

والنظرية التوليديّة: أنهما يفترضان أن الكلام الذي ننجزه مشتق من أصل ربما لا يكون متوافقاً مع الشكل المنجز له، وأن جمل اللغة المنجزة لها مستوى مجرد.

ومن الأبحاث التفصيلية الأولى التي تنحو هذا المنحى بحث كتبه بيفيد بترسون بعنوان 'بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب'، ألقاه في الندوة السنوية لجمعية اللسانيات في جامعة شيكاغو في سنة ١٩٧٢، ونشر في مجموعة الأبحاث التي صدرت عنها. ويناقش بيترسون في هذا البحث لجوء النحويين العرب إلى التأويل والتجريد في تفسير الظواهر اللغوية، ويختمه بقوله:

. . . يجب أن يكون واضحاً من النقاش الذي تقمّ أن النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظاهر بأي حال. بل هم بنيويون بالمعنى نفسه الذي يُصنّف به أكثر الدرس اللساني في القرن العشرين، ومن ضمنه النحو التوليدي التحويلي. لقد كان النحويون العرب يهتمون بالتحليل البنيوي الذي يصل الأشكال بعضها ببعض وهو ما يؤدي إلى تفسيرها. ومن اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مجردة ومصوغة بمصطلحات تشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم . . . إن دليل نجاحهم يتبين من أن عملهم لم يتجاوز إلا في حالات قليلة.

ومن أشهر الباحثين الغربيين البارزين الذين اهتموا بدراسة تاريخ النحو العربي وطبيعة الدراسة النحوية عند العرب ثلاثة، وهم مايكل كارتر وكيس فرستيغ وجوناثان أوين، إذ كتبوا في هذين الموضوعين عدداً كبيراً من المقالات والكتب.

فقد حرر كيس فرستيغ ومايكل كارتر كتاباً بالإنجليزية عنوانه: 'دراسات في تاريخ النحو العربي - ٢'، ونشر في ١٩٩٠. ويقولان في مقدمة هذا الكتاب:

يمكن أن يشار هنا إلى نقطتين مهمتين يُعنى بهما مؤرخ اللسانيات: فالأولى أن الاهتمام العميق الظاهر الآن باللسانيات العربية نتيجة من غير شك لتطور النظرية اللسانية العامة ونُضجها، إذ وضع هذا التطورُ العلماء الغربيين في مستوى يمكن لهم فيه أن يقدِّروا عمق التفكير اللساني العربي ودِقَّتَه؛ وبغض النظر عن النواحي التي يمكن أن تكون اللسانيات النظرية قد فشلت في إنجازها في الدوائر العلمية الغربية، إلا أنها أسهمت من غير شك إسهامًا موجبًا في فهمنا للسانيات غير الغربية. والنقطة الثانية أن من الواضح أنه على المستوى النظري الكلي أو على المستوى التطبيقي أو كليهما هناك بعض الدروس التي يمكن للسانيات الحديثة أن تتعلمها من النحويين العرب القدماء. إن مفهوم الكليات اللسانية في الأقل ربما لا يمكن نقاشه الآن دون النظر في التنظيرات المشابهة في اللغة العربية، حيث يجب ألا يؤكد تطبيق كثير من معطيات اللسانيات المعاصرة نون الإشارة إلى التقاليد اللسانية التي تُعد اللغة العربية أشهرها من حيث نُضجها الذي لا يقل عن نُضج التقاليد اللسانية المعروفة الأخرى كالهندية أو الصينية. وربما وجد المهتم باللسانيات العامة الذي يعرف العربية، أو الذي يكون على استعداد لأن يتعلم من العربية ما يُمكنه من فهم محتوى الأبحاث في هذه المجموعة، بعض المعلومات التي يمكن أن تقوده إلى تعديل بعض آرائه التي تأسست كلها على التقاليد الغربية.

أما جوناثان أوين فقد كتب عددًا كبيرًا من الأبحاث التي تناقش قضايا معينة في النظرية النحوية العربية. وسأقتصر هنا على عرض ما قاله عن هذا الموضوع في كتابه "مقدمة للنظرية النحوية العربية في القرون الوسطى"، ١٩٨٨م. فهو يشير في المنخل الذي صدر به الكتاب إلى أن الفكرة التي مؤداها أن الممارسة اللسانية العربية يمكن أن تُفهم حق الفهم من خلال المبادئ اللسانية العامة لم تبدأ إلا في أوائل السبعينيات من القرن العشرين. كما يشير في المقدمة إلى أن عبارة "القرون الوسطى" التي تظهر

في عنوان كتابه يجب ألا يفهم منها الفهم المؤلف في الدراسات الغربية التي يمكن فيها أن تشير هذه العبارة إلى غموض المنهج وتعقيده؛ ذلك أن النظرية النحوية العربية في تلك الفترة تتشابه مع النظرية اللسانية المعاصرة في عدد من الأمور الأساسية، وهو ما يجعل مناقشتها أسهل للقارئ الغربي المعاصر. ويشير كذلك إلى أنه يمكن البرهنة على أن أحد الأسباب التي أدت إلى عدم تقدير النظرية العربية حين اكتشافها الغربيون في القرن التاسع عشر، وهو الزمن الذي شهد تكوّن التقاليد الاستشراقية، أنه لم يكن في الدراسات الأوروبية في تلك الفترة مثيل لها. ولم توضع هذه النظرية في منظور أفضل إلا مع التقاليد البنيوية التي أسسها دي سيور وبلومفيلد وتشومسكي.

وعلى الرغم من هذا التشابه بين النحو العربي واللسانيات الحديثة، والنحو التوليدي خاصة، فإنه يبيّن أن هناك أربعة فروق بين النحو العربي والنحو التوليدي في مسألة الحذف. وهي المسألة التي جعلت كثيرًا من الباحثين ينتبهون إلى وجوه التشابه بينهما. وأول هذه الفروق أن الحذف في النحو التوليدي لا يقع إلا إذا كان للمحذوف مثيل في النص. أما في النحو العربي فللحذف سببان: الأول تركيبى، والثاني "تريعى" pragmatic، ذلك أن المحذوف يمكن أن يفهم من السياق. والفارق الثاني بين النحويين فرق في الاهتمام؛ ففي حين ينظر النحو العربي إلى الحذف على أنه محاولة للوصول إلى معرفة المحذوف، يبدأ النحو التوليدي من الجمل الكاملة ويطبق عليها قواعد الحذف ليصل إلى الشكل الظاهري لها. والفارق الثالث أن في النحو التوليدي قواعد محدّدة للحذف، أما في النحو العربي فلم تحدد تلك القواعد، بل أسندت تلك القواعد إلى المتكلم نفسه. والفارق الرابع أن النحو العربي كان ينظر إلى المعنى حين يقع الحذف، وهذا ما لا نجده في النحو التوليدي.

ويقارن أيضًا بين النحو العربي والنحو التحويلي من حيث أوجه التشابه والاختلاف في مسألة التحويل. ويرى عدم التشابه بين النحويين؛ لأن النحو التحويلي يسعى لتحويل جمل إلى جمل أخرى، وذلك ما لا يفعله النحو

العربي. وينتهي إلى أن من المضلل أن نساوي بين النحويين، على الرغم من وجود بعض التشابه.

ويدرس في الفصل التاسع وعنوانه "التركيب، والدلالة، والنزعية" ما عمله النحويون والبلاغيون العرب من ربط المعنى بالشكل والعلاقة بينهما. ومن الذين اهتموا بهذه المسألة، سيبويه وأبو علي الفارسي من النحويين، والجرجاني من البلاغيين. ويعود مرة أخرى في هذا الفصل للمقارنة بين النحو النحوي والنحو العربي في مسألة دراسة المعنى. ويرى أنه لا يوجد تشابه بين النحويين، وذلك لاختلاف الاهتمام واختلاف التحليل.

وهكذا نجد من هذه النماذج للأراء التي يظهر فيها التقدير الكبير لما عمله النحويون العرب القنماء أن هناك تشابها في كثير من المنطلقات والتقنيات بين النحو العربي والنحو التوليدي خاصة. لكن لم يقل أحد من هؤلاء المؤرخين الدارسين بأخذ تشومسكي عن النحو العربي. بل الواضح من دراسة جوناثان أوين أن هناك اختلافات عميقة بين النحو العربي والنحو التوليدي، تكاد تسد باب الافتراض بأخذ النحو التوليدي عن النحو العربي.

وما دام أن تشومسكي نفسه طرف في القضية، فيحسن أن نطلع على ما قاله عنها تحديدا. وكنت بعثت إليه برسالة أسأله فيها عما سمعته من الدكتور عبده الراجحي الذي أكد في محاضرة عامة في النادي الأدبي في الرياض أخذ تشومسكي عن النحو العربي، وذلك أنه، في رأي الدكتور الراجحي، درس كتاب سيبويه، واطلع على دراسات عالم اللغة الألماني فون همبولت الذي كان يعرف النحو العربي، يزداد على ذلك تأكيد الدكتور الراجحي أن هناك باحثا عربيا، هو الدكتور يوسف عون، يدرس تشومسكي كتاب سيبويه.

وقد أجاب تشومسكي عن تساؤلاتي في رسالة مؤرخة في ٢٨ مايو ١٩٨٩م. وكنت ترجمت هذه الرسالة ونشرتها جريدة الرياض في حينه، وأوردها هنا لملاءمتها للسياق.

يقول تشومسكى فى جزء الرسالة الذى يتعلق بهذا الموضوع:

وتسألنى عن تأثير النحو العربى التقليدى على منهجى فى دراسة اللغة. إن أكثر الأقوال التى سمعتها صحيحة جزئياً، إلا أنك التسى تتعلق بفون همبولت الذى لم أطلع على دراساته إلا فى الستينيات. فقد كان والدى من علماء النحو العبرى فى القرون الوسطى، وقد حقق الطبعة المعتمدة لكتاب النحو الذى ألفه [النحوى اليهودى الأندلسى] ديفيد قمحى. وكنت مطلعاً اطلاقاً جيداً فى أيام صباى المبكرة على أعمال أبى، كما أننى درست حينها شيئاً قليلاً من الدراسات التاريخية عن نحو اللغات السامية. وكان أثر النحو العربى [على النحو العبرى] عظيماً، وهذا أمر مشهور. وكان هذا السياق ذا أثر مباشر كبير على دراساتى المبكرة. بل إن رسالة التخرج من الجامعة [البكالوريوس] ورسالة الماجستير اللتين أنجزتهما فى جامعة بنسلفانيا عن الأنظمة الصوتية الصرفية للغة العبرية الحديثة كانتا متأثرتين بتلك الدراسات إلى درجة كبيرة، كما صممتا جزئياً من حيث النموذج على مفاهيم مأخوذة من اللسانيات السامية التاريخية والنحو التقليدى. وكانت هاتان الرسالتان أقدم النماذج للنحو التوليدي المعاصر، وإن لم تقشرا إلا بعد سنين من تاريخ إنجازهما.

ولما التحقت بجامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٥م بدأت مباشرة بدراسة اللغة العربية مع جورجيو ليفى ديلا فيدا الذى كان مستعرباً متميزاً جداً، ثم درست، بعد أن تقاعد ديلا فيدا، مع فرانز روزينثال. ومع روزينثال درست مادة اللغة العربية لفصل واحد، وكنت الطالب الوحيد فى تلك المادة، ودرست معه فيها كتاب سيبويه، وربما كان هذا هو أساس الشائعة التى سمعتها [أى أن تشومسكى درس كتاب سيبويه وتأثر به]. وكان زيلك هاريس، الذى درست [اللسانيات] معه، أنجز أعماله الأساسية فى اللسانيات التاريخية السامية، وكنت درست ما كتبه فى هذا الموضوع أيضاً. إن من الصعب دائماً

أن نتتبع بدقة مثل هذه الأمور، لكن هناك من غير شك احتمالات كبيرة لمثل هذا التأثير.

كما كتب لي رسالة مؤرخة في ١٧ ديسمبر ١٩٩٠، بعد أن بعثت إليه نسخة من ترجمتي لكتابه "اللغة ومشكلات المعرفة" ضمنها النص التالي:

على الرغم من أنني كنت في فترة مبكرة من حياتي أعرف ما يكفي من اللغة العربية أستطيع به فهم ما ينشر في جريدة أو رواية (أما دراستي الفعلية فقد كانت مقصورة على الشعر الجاهلي، والمؤلفات النحوية التي ألفت في القرن الثامن الميلادي ["القرن الثاني الهجري"]؛ ربما يشير هنا إلى كتاب سيبويه))، إلا أن ذلك كان قبل أربعين سنة خلت، أما الآن فأني لا أتق بمعرفتي [للعربية]. لكنني سوف أعير الكتاب [الترجمة] إلى أحد زملائي أو أصدقائي [لقراءته].

ويتبين بوضوح من كلام تشومسكي أن تأثره بالنحو العربي لا يتجاوز كونه احتمالاً. ولو كان يعرف العربية معرفة تمكنه من فهم دقائق كتاب سيبويه لما كان من الممكن لهذه المعرفة العميقة أن تضحل إلى الدرجة التي يذكرها. بل إن من يعرف تشومسكي وأمانته ودقته في ذكر مصادره سيستغرب من عدم إشارته إلى كتاب سيبويه تحديداً، لو كان نقل عن سيبويه شيئاً محدداً في بناء نظريته.

كما أن كلام الباحثين العرب والغربيين على السواء لم يستطع على تفصيله في بعض الأحيان تأكيد هذه الصلة المباشرة بين تشومسكي والنحو العربي.

ومع ذلك فالسؤال المشروع عن سر هذا الشبه الذي يبدو واضحاً بين النحو العربي والنظرية التوليدية ما يزال قائماً، وما يزال بحاجة إلى إجابة واضحة.

وربما رأى بعض الذين يربطون بين النحو العربي والنحو التوليدي

أننا لسنا بحاجة إلى البحث عن إجابة لهذا السؤال؛ إذ لا بد أن يكون تشومسكي قد تأثر بالنحو العربي بصورة دقيقة، لأن هذه التشابهات لا يمكن أن تأتي من فراغ، خاصة أن تشومسكي صرح بدراسته للعربية وباطلاعه على كتاب سيوييه. فلسنا بحاجة إذن إلى البحث عن إجابة غير هذه حتى إن لم يكن لدينا أي دليل.

لكن يجب علينا، لكي يسلم لنا بأخذ تشومسكي عن النحو العربي أو التأثير به تحديداً، أن نبرهن على أمرين: الأول: أن النحو العربي وحده هو الذي تبدو فيه هذه التشابهات مع النحو التوليدي، أي أن هذه التشابهات لا توجد في الأنحاء الأخرى في القديم والحديث.

وهذا الافتراض ليس صحيحاً، كما سنرى فيما يأتي، ذلك أن كثيراً من الأنحاء في الحضارات الأخرى قديمها وحديثها تتضمن كثيراً من الأفكار التي يتشابه فيها النحو التوليدي مع النحو العربي.

والأمر الثاني: أنه ما دام أن هذا التشابه موجود بين الأنحاء الأخرى، غير العربية والنحو التوليدي، فيجب علينا أن نبرهن على أن تشومسكي لم يطلع على تلك الأنحاء.

وسأحاول هنا أن أبين أن كثيراً من الأفكار التي يشترك فيها النحو العربي مع النحو التوليدي موجودة في أنحاء أخرى كذلك، وأن تلك الأنحاء كلها كانت متوفرة في المجال العلمي والثقافي الذي نشأ فيه تشومسكي، بل إن تشومسكي صرح باطلاعه على بعض تلك الأنحاء؛ وصرح بتأثره بها.

ويكفي أن نطلع على بعض الكتب التي تؤرخ لدراسة اللغة في الحضارات القديمة المختلفة لنجد أدلة كافية على الأمر الأول. وأقرب كتاب موجز لنتبع هذا التاريخ هو كتاب اللساني البريطاني المعاصر ر. هـ. روبنز 'موجز تاريخ علم اللغة' الذي صدرت طبعته الأخيرة في ١٩٩٠م، وترجمه إلى العربية الدكتور أحمد عوض، ونشر في سلسلة عالم المعرفة الكويتية في عددها ٢٢٧، رجب ١٤١٨هـ/نوفمبر ١٩٩٧م (وسأنقل هنا

عن هذه الترجمة، مع تحفظي عليها من حيث دقة الترجمة والأسلوب في كثير من المواضع).

والواضح من هذا الكتاب أن دراسة اللغة في أوروبا منذ عصر النهضة إلى القرن التاسع عشر، وهي القرون التي قامت عليها الأفكار الحديثة عن اللغة ودراستها في الغرب، قد تأثرت بالدراسات اللغوية التي أتجرت خارج أوروبا، ومنها النحو العربي أيضا، وإن لم يكن هذا الأثر بالمستوى الذي كان للنحو الهندي، كما يتضح من هذا الكتاب.

يقول روبنز:

والعناية باللغة وبالمشكلات اللغوية العملية قد أدت إلى نشأة العلم اللغوي، بشكل مستقل في أكثر من مركز من مراكز الحضارة، وكان لكل مركز منها مزاياه ومنجزاته. وبمرور التاريخ اتصل كل مركز منها بالتراث اللغوي الأوروبي وسأهم فيه. يصعب الاعتقاد في بعض الجوانب المهمة بأن علم اللغة الأوروبي كان سيصبح في الوضع الذي هو عليه الآن، دون الأفكار التي رفنته بها الأعمال اللغوية من خارج أوروبا، خاصة مؤلفات اللغويين الهنود القدماء عن قواعد اللغة السنسكريتية ونظامها الصوتي (ص ٢٣).

ويقول عن علم الصوتيات: "أما علم الصوتيات في القرن التاسع عشر الذي شهد تقدما سريعا في هذا الجانب من علم اللغة [في أوروبا]، فيدين باتباعه الرئيسي للتكنيك الوصفي للعلماء الهنود، ومنهجية الملاحظة في أثرات الإمبريقي للقرون الثلاثة الماضية" (ص ٥٦).

ويقول:

... ويبرز اسم بانيني بين القواعديين الهنود متفوقا عليهم جميعا، ورغم أن تاريخ بحثه غير مؤكد فإنه على نحو واضح تماما أول بحث

قواعدى موجود فى أية لغة هندو - أوروبية، وهو حسب كلمات [اللسانى الأمريكى المعاصر] بلومفيلد "معلم من أعظم معالم الذكاء الإنسانى". ومع ذلك فبينما وصل تقريبا إلى الكمال فى أهدافه التى أعلنها فى ميدان قواعد السنسكريتية التى يتعامل معها، فهو ليس ما يطلق عليه عادة قواعد كاملة للغة السنسكريتية، وربما يجب وصفه بشكل أفضل بلغة حديثة باعتبارها صرفا توليديا للغة السنسكريتية (ص ٢٣٨).

ويقول عن بعض التقنيات التحليلية فى النحو الهندى: "والأداة الوصفية المألوفة للغويين اليوم، وهى التمثيل الصغرى لعنصر أو فئة، ترجع لبسانينى بشكل مباشر، وللصيغ الشاذة ظاهريا ربما نجعلها تبدو أكثر اطرادا عند مستويات التمثيل والتحليل الأكثر تجريدا، عن طريق افتراض مرفيم يمثله تنوع مورفيمي morph صغرى، أى دون تمثيل صريح فى صورة ماديسة صوتية. . . ." (ص ٢٤٣).

كما اهتمت الدراسات اللغوية التى قامت فى الحضارة اليونانية القديمة بدراسة اللغة اليونانية ووصلت إلى أفكار وتحليلات تشبه ما نجده فى النحو التوليدى. يقول روبنز: إن " . . . المفكرين اليونان الذين فكروا فى اللغة وفى المشكلات التى تثيرها البحوث اللغوية، قد استهلوا فى أوروبا الدراسات التى يمكن أن نطلق عليها الآن العلم اللغوى بمعناه الواسع، ولأن هذا العلم كان مركز اهتمام مستمر منذ لليونان القدماء وحتى العصر الحاضر فى تتابع متصل للمعرفة، بحيث إن كل من عمل فى هذا المجال كان على دراية بأعمال سابقه، وكان متفاعلا معها بطريقة معينة" (ص ٣١).

ويقول: "وأفضل الأعمال التى قام بها اليونان (والرومان) كانت فى ميدان القواعد [التركيب syntax]. . . إضافة لهذا فإن للنظريات والمقولات والمصطلحات التى ابتدعها العلماء القدماء [اليونان والرومان] فيما يتعلق

بقواعد لغاتهم هم، قد أصبحت جزءاً من الأنواع القواعدية العامة للغويين الوصفين المعاصرين" (ص ٥٧).

ويقول: "وتظهر بعض النهم الموجهة لبرشيان ولعلماء القواعد اللاتين الآخرين، تشابهاً لافتاً للنظر مع تهم تجاهل الكفاية التعليلية للنظرية لمصلحة كفاية الملاحظة للمادة المسجلة، تلك التهم التي وجهها في الوقت الحاضر علماء القواعد [التركيب] التوليديون، ضد سابقهم الوصفيين بشكل خالص والمرتبطين ببلومفيلد، وبالاتجاهات السائدة في المؤلفات اللغوية في الربع الثاني من القرن العشرين" (ص ١٣٥).

أما في عصر النهضة، فقد بدأ التفكير العلمي في دراسة اللغة، ووصل إلى كثير من الأفكار التي نجدها في النحو التوليدي. وفي ذلك يقول روبنز: "ومن هذا الموقف ظهر بشكل ثابت مفهوم قواعد أساسية وعمومية [كلية]، وهو بحث متكرر منذ ذلك الوقت للغويين النظريين. . . . وقد صرح روجر بيكون الذي كتب هو نفسه قواعد لليونانية كانت من أولى القواعد التأملية. . . . بأن القواعد قواعد واحدة، وهي نفسها في كل اللغات من حيث جوهرها، وأن الخلافات السطحية فيما بينها هي مجرد خلافات عرضية" (ص ١٣٦-١٣٧).

كما أورد روبنز كثيراً من خصائص التنظير النحوي في عصر النهضة الأوروبية وما تلاه حتى القرن الثامن عشر. وقد برز في تلك الفترة علماء اقترحوا كثيراً من الاقتراحات التي تشبه اقتراحات تشومسكي. ومن أولئك نحويو بورت رويال والفيلسوفان ليبنز وبوازييه وغيرهم كثير.

وفي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر بدأ الاهتمام الكبير بالدراسات التي أنجزها النحويون الهنود القدماء. يقول روبنز عن ذلك: كان لدراسة الأوروبيين اللغوية للسكربتية أثر مزدوج، فقد شكلت مقارنة

السنسكريتية باللغات الأوروبية المرحلة الأولى في التطور المنهجي لعلم اللغة المقارن وعلم اللغة التاريخي، وإضافة لذلك أصبح الأوروبيون على اتصال في الكتابات السنسكريتية بتراث العلم اللغوي في الهند الذي تطور بشكل مستقل، والذي تم الاعتراف بمزاياه في الوقت نفسه، وكان تأثيره في كثير من فروع علم اللغة الأوروبي عميقاً وباقياً" (ص ٢٢٦-٢٢٧).

ثم يعرض لكثير من المدارس التي ازدهرت في القرن التاسع عشر فيقول: "والنظرية اللغوية التي أنجزها تروبتسكوي ورفاقه من مدرسة براغ واضعين في الذهن التحليل الفنلجي [الصواتي] أساساً قد قادت إلى عدد من التطورات عظيمة الأهمية، وتحليل الوحدات اللغوية في صورة مجموعة من الملامح المميزة الذي مده ياكوبسن بالفعل إلى الصرف، قد طبقه أيضاً في التحليل القواعدي عموماً، وهو الآن تحليل مركزي إلى حد بعيد في القواعد التوليدية - التحويلية" (ص ٣٢٧).

ويقول: "ومشاركة تشومسكي في دراسة تاريخ علم اللغة قد نشأ - من اقتناعه بأن كثيراً من مقارباته هو أساساً، عبارة عن تطور مصوغ بشكل أفضل للممارسة الأوروبية التقليدية (والمرء يمكنه أن يضيف: وللممارسة الهندية السنسكريتية)" (ص ٣٦٣).

ويتبين من هذه النصوص من كتاب روبرت أن كثيراً من الأبحاث القديمة تتمثل فيها الأفكار نفسها التي نجدتها في النحو العربي. كما أن هذه الأبحاث كانت متوفرة بوضوح وقوة في المجال الثقافي والعلمي الذي نشأ فيه تشومسكي. وأن تشومسكي على معرفة بها. كما يتبين من مسيرة حياة تشومسكي أنه درس اللسانيات على بعض الأساتذة الذين كانوا من أبرز المتخصصين في دراسة النحو الهندي.

ومن هؤلاء هنري هوينجزفالت Henry Hoeningwalt. وكان

تشومسكى الطالب الوحيد فى الفصل الذى كان يدرس فيه هوينجزفالت
اللسانيات التاريخية. ويقول عنه تشومسكى: كان "عالمًا متميزًا فى اللسانيات
التاريخية كما كان يعرف التقاليد [النحوية] الهندية. . . وكان على معرفة
بالتقاليد البنيوية الأوروبية" (زوبرت بارسكى، ص ٥٤-٥٥). ويقول
تشومسكى إن هوينجزفالت "قرأ لرسالة البكالوريوس التى كتبها تشومسكى
عن النظام الصرفى الصوتى للغة العبرية الحديثة، وهى التى تتضمن الأفكار
الأساسية للنحو التوليدى]، ولا بد أنه لاحظ التشابهات [بين هذه الرسالة
والأنحاء الأخرى] وصولاً إلى التقاليد الهندية [النحوية] الكلاسيكية" (ص ٥٥).

يضاف إلى ذلك أنه كان هناك كثير من اللسانيين الذين ينتمون إلى
المدرسة اللسانية التى ثار عليها تشومسكى، وكانوا لا يتركون سبيلاً ممكنًا
إلا سنكوه فى التشنيع على نموذج النحو التوليدى الذى اقترحه. وكان ممكنًا
لواحد منهم فى الأقل، فى بحثه عن أى شىء يمكن أن يتخذ وسيلة للنيل من
هذا النموذج ومن صاحبه، أن يشير إلى أن هذا النحو منسوخ من النحو
العربى. لكن أحدًا لم يتهمه بشىء من ذلك.

وبهذا فإن افتراض أخذ تشومسكى عن النحو العربى على وجه الحصر
أو تأثره به وحده لا يمكن أن يكون مقبولاً؛ إذ تشير الأدلة كلها إلى وجود
أنحاء أخرى اطلع عليها تشومسكى فى أثناء تكوينه العلمى، وهى تتسم
بالخصائص نفسها التى يتسم بها النحو العربى.

ويجب القول هنا أن عدم ثبوت أخذ تشومسكى عن النحو العربى
مباشرة ليس عيباً لهذا النحو؛ فالنحو العربى ينتمى إلى الأنحاء التقليدية التى
لاحظت كلها بعض الخصائص الجوهرية لبنية اللغة.

وكثيراً ما نجد تشومسكى يؤكد الصلة القوية بين النحو التوليدى
والأنحاء التقليدية، من غير أن يحدد نحواً بعينه، وإن أشار إلى بانينى

للنحوى الهندى القديم بكثير من التقدير، وإلى بعض النحويين التقليديين المعاصرين كالنحوى الدينماركى جيسبرسن، الذى يشير إليه فى كثير من أبحاثه. وكان تشومسكى يحاول دائماً أن يبين أوجه التشابه بين نظريته وهذه الأنحاء فى مواجهته المبكرة مع النظرية الوصفية للتوزيعية التى سادت فى أمريكا بخاصة من الثلاثينيات إلى الخمسينيات من القرن العشرين.

ومن الطرائف التى تتصل بهذا الأمر أنه عقد مؤتمر لللسانيات فى مدينة أوستن فى ولاية تكساس سنة ١٩٥٩م، وقد دعا منظمو هذا المؤتمر، وهم الذين كانوا القادة البارزين فى حقل اللسانيات فى تلك الفترة، تشومسكى لمناظرته فى آرائه اللسانية الجديدة. وكان الهدف من دعوته إلى ذلك المؤتمر، كما يقول، القضاء على النحو التوليدى فى مهده. وكان من بين المدعويين نحوى تقليدى وضعه منظمو المؤتمر فى صف تشومسكى لكى يجعلوا من هذا النحوى أضحوكة بعد أن يقضوا على تشومسكى. لكن تشومسكى بدأ فى الدفاع عن هذا النحوى لسببين كما يقول: "الأول أنه لم يرق لى ما كان يجرى لمن الاستهتار بهذا النحوى"، والثانى أن هناك فى الواقع أشياء كثيرة مشتركة بين النحو التوليدى والنحو التقليدى". وكانت النتيجة لانتصار تشومسكى فى أعقاب تلك المناظرة على اللسانيين الوصفيين انتصاراً ساحقاً جعل بعض البارزين منهم يحولون ولاءهم إلى النحو التوليدى مباشرة (بارسكى، ص ٩١-٩٣).

ومن النصوص المهمة التى كتبها تشومسكى عن العلاقة بين النحو التوليدى والأنحاء التقليدية ما جاء فى كتابه: "القضايا الراهنة فى النظرية اللسانية" ١٩٦٤:

ليس بعيداً عن الصواب أن ننظر إلى النموذج التحويلي على أنه صياغة شكلية منضبطة للخصائص الموجودة بشكل ضمنى فى الأنحاء التقليدية، وأن ننظر إلى تلك الأنحاء على أنها أنحاء توليدية تحويلية ضمنياً؛ ذلك أن هدف الأنحاء التقليدية أن توفر لمستعملها القدرة على فهم أى جملة

من جمل اللغة، وأن يصوغها ويستعملها بشكل ملائم في المقام الملائم. ولهذا فهدفها (في الأقل) يماثل في اتساعه وبعده أهداف النحو التوليدي، الذي وصفته آنفا. يضاف إلى ذلك أن الآليات الوصفية للنحو التقليدي تفوق بكثير الحدود التي تقيد النموذج النحوي التصنيفي [السابق لتشومسكي]، لكن هذه الآليات يمكن صياغتها بشكل كبير، أو ربما بشكل كامل في إطار النموذج التحويلي. ومع ذلك فمن المهم أن نعي أنه حتى أبق الأنحاء التقليدية وأكملها إنما تعتمد بشكل أساسي على حدس مستعملها ونكاته، وهو الذي يُنتظر منه أن يستنتج المقنضيات الصحيحة من الأمثلة والإحياءات الكثيرة (والقوائم الواضحة للشواذ) التي يقدمها النحو. فإذا صيغ النحو صياغة جيدة فيمكن لمستعمله عندئذ أن ينجح في استعماله، لكن الاطرادات العميقة للغة التي يمكن له اكتشافها تستعصي على الصياغة المنضبطة، كما أن طبيعة القدرات التي مكنته من استخدام النحو واكتشاف تلك الاطرادات ستظل أمرا محيرا. ويمكن أن تقدر مدى اتساع هذه الفجوات إذا ما حاولنا أن نصوغ قواعد واضحة لكامل الحقائق البنيوية المتاحة للمستعمل الناضج للغة (ص ١٦-١٧).

ويعد اتفاق النحو العربي مع الأنحاء التقليدية الأخرى التي رأى تشومسكي أنها تفوق الدراسات اللسانية الوصفية التوزيعية التصنيفية التي كانت سائدة في أمريكا بخاصة في النصف الأول من القرن العشرين أبلغ إشارة إلى أن النحو العربي، خاصة في صورته التي يمثلها كتاب سيوييه، قد بلغ حدًا بعيدًا من العمق في البحث عن الأسس العميقة للمعرفة اللغوية التي يختزنها المتكلم في عقله عن لغته. وما للقول بالعامل وتقدير الأصول لبعض الكلمات والبنى المجردة لبعض الجمل إلا إشارة إلى ذلك العمق.

ومحصلة القول أن تشومسكي لم يتأثر بالنحو العربي على وجه اليقين، وأن التشابه بين نظريته التوليديّة والنحو العربي إنما جاءت من اهتمام

الأنحاء التقليدية كلها، ومنها النحو العربي، ببعض القضايا الجوهرية في بنية اللغة، وهي التي جاء تشومسكي ليصوغها صياغة نظرية حديثة منضبطة.

وكما بينت فقد بنى تشومسكي نحوه التوليدي على أفكار استقاها من مصادر متعددة، كالأنحاء التي كانت تسمى بالأنحاء الفلسفية التي ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبعض الأنحاء التقليدية الأخرى، ومن أعمال بعض الفلاسفة واللغويين الأوروبيين وبالأخص نيكارت وهمبولت وهيوم.

كما بنى النظرية التي ارتبطت باسمه على منجزات العلوم التي جئت في أواسط القرن العشرين، وهي التي ساعدته في صياغة كثير من الأفكار التي استقاها من تلك المصادر القديمة صياغة نظرية متماسكة جديدة.

وسأعرض هنا ما يقوله تشومسكي نفسه عن مصادر المعرفة التي انطلق منها ومثلت الأسس التي قامت عليها نظرية النحو التوليدي التي ارتبطت باسمه.

فيبين في عدد من كتبه ومقالاته الأسس العلمية التي انطلق منها. ومن أقدم الأمثلة على هذا ما نجده في كتابه ("القضايا الراهنة في النظرية اللسانية" Current Issues in Linguistic Theory، ١٩٦٤م، ص ٧-٢٧). فهو يقول (وهي ترجمتي): "يعبر النموذج التحويلي على الوجه الذي وصفته أنفاً عن وجهة نظر في بنية اللغة ليست جديدة أبداً" (ص ١٥). ثم يبين تماثل هذا النموذج في بعض الخصائص المهمة مع النحو الذي يسمى "نحو بورت رويال" كما يظهر في كتاب "النحو العام والتعليل" Grammaire générale et raisonne، الذي نشر سنة ١٦٦٠م. ثم يورد بعض الأفكار الأساسية التي اقترحها اللغوي الألماني فون همبولت عن طبيعة اللغة وبنيتها واكتسابها، ويورد النصوص التي تمثل تلك الأفكار بلغتها الألمانية (ص ١٧-٢٢).

وعرض لتلك الأسس مرة أخرى بشكل موسع في كتابه "اللسانيات الديكارتية: فصل في تاريخ الفكر العقلاني"، ١٩٦٦م.

كما أشار إلى تأثير ديكرت وهامبولت وديفيد هيوم في مواضع متعددة من كتابه "اللغة والمسئولية"، ١٩٧٩م *language and Responsibility* ، وفي مقال له بعنوان "طبيعة اللغة واستخدامها واكتسابها" (نشر في كتاب "ثلاثون سنة من تطور اللسانيات"، Martin Putz (ed.): *Thirty Years of Linguistic Evolution*، ١٩٩٢، ص ٣-٢٩).

وكذلك في الكتاب الذي ألفه ديفد بارسكي عن سيرة تشومسكي. يقول بارسكي (ص ١١١): "يشير تشومسكي في نقاشه للبنى العميقة والبنى السطحية في كتابه "اللسانيات الديكارتية" إلى قيمة النظرية الكلية أو الفلسفية لدراسة النحو التوليدي التحويلي. وهو يقوم بذلك مشيراً إلى النحو والمنطق كليهما كما وصفا في نحو جماعة بورت رويال *Grammaire générale et raisonnée*, 1660، فهو يقول [أي تشومسكي]:

تهتم هذه النظرية على وجه التأكيد بالقواعد التي تحدد البنى العميقة وتصلها بالبنى السطحية؛ وكذلك بقواعد التمثيل الدلالي التي تعمل على البنية العميقة وقواعد التمثيل الصوتي التي تعمل على البنى السطحية. وبكلمات أخرى، فليست هذه النظرية إلا تطويراً وصياغة شكلية للأفكار الموجودة بشكل ضمني [في النحو الديكارتية]. . . . لذلك يبدو لي، من أوجه عديدة، أنه لا يبعد عن الصواب أن نعد نظرية النحو التحويلي التوليدي، بشكلها الذي تطورت به في الدراسة المعاصرة، وجهاً معاصراً وأكثر جلاءً للنظرية التي يتضمنها نحو بورت رويال.

وسألخص فيما يلي وجهة نظر تشومسكي عن هذا الموضوع كما وردت أخيراً في الكتاب الذي حررته آسا كاشير: *Asa Kasher (ed.): The Chomskyan Turn, 1991* ، "المنعطف التشومسكي". وهو كتاب يحوى

الأبحاث التي أقيمت في مؤتمر عقد في القدس سنة ١٩٨٨ لتكريمه. ويتضمن الكتاب بحثين ألقاهما تشومسكى في ذلك المؤتمر. ويهمننا هنا البحث الأول الذي جاء بعنوان *Linguistics and Adjacent Fields: A Personal View* "اللسانيات والعلوم المجاورة: وجهة نظر شخصية" (ص ٣-٢٥)، ويعرض فيه الأسس الفلسفية العميقة التي يقوم عليها النحو التحويلي والمنطلقات التاريخية التي سبقته إلى تلك الأسس التي يؤكد استقائته منها.

فيشير في نص سبق أن لوردته في هذه السلسلة إلى بعض العلماء السابقين ويخص النحوي الهندي القديم، بانيني واللغوي الألماني وليم فون همبولت. وهو ما يدل على المكانة التي يحطها فيهما.

ويؤكد (ص ٤) أن " . . . دراسة النحو التوليدي تطورت ضمن ما أسماه بعض الباحثين بـ "الثورة المعرفية" التي حدثت في الخمسينيات لمن القرن العشرين]، وكانت عاملاً مهماً في إحداث هذا التغيير في المنظور فيما يخص الطبيعة الإنسانية والسلوك الإنساني". أما هذه "الثورة المعرفية" فعلى الرغم من أنها كانت مجهولة في تلك الفترة [الخمسينيات] ولا تفهم في الوقت الحاضر إلا فهمًا محدودًا، فإنها لم تكن أكثر من عودة إلى الاهتمامات القديمة ومحاولة إحياء المفاهيم السابقة التي نسيت، ووضعها في منظور جديد أحياناً".

ومن المفاهيم المكونة للثورة المعرفية المعاصرة التي ساعدت على إحياء المفاهيم القديمة، يخص تشومسكى " . . . نظريات التمثيل والحوسبة للدماغ، واختبار تيرنج [نسبة إلى عالم الرياضيات البريطاني المعاصر ألين تيرنج] عن الذكاء الإنساني، وقضية الشروط للفطرية الخاصة بنمو للمعرفة والفهم، وبعض الفتوح الأساسية في علم النفس الجسثالي [الكلي]، وغير تلك كثير" (ص ٤). وكانت هذه الأفكار قد طورت وبحثت بطريقة مفصلة وعميقة ضمن ما يمكن أن نسميه بـ "الثورة المعرفية الأولى"، في القرنين السابع عشر والثامن عشر" (ص ٤).

ويقول:

فإذا كان التاريخ الفكري يتصف بالخطية والاستمرارية والتراكمية، بدلاً من سجله الحقيقي الذي يتسم بالقفزات المتهورة والبدايات الخاطئة والتقهقر المؤلف، فيمكننا أن نقول إن الثورة المعرفية التي حدثت في الخمسينيات، ومن ضمنها ظهور النحو التوليدي، إنما تمثل نوعاً من تلاقى أفكار الثورة المعرفية الأولى وفتوحها بالفهم التقني الجديد عن طبيعة الحوسبة والأنظمة الصورية التي طُورت على وجه العموم في هذا القرن، وهو ما مكن من صياغة بعض القضايا القديمة، التي كانت تتسم بقدر من الغموض، بطريقة أكثر جلاءً، وهو ما جعل من الممكن إخضاعها للبحث الغني المنتج في بعض المجالات في الأقل، وكانت اللغة واحدة منها (ص ٤-٥).

ثم يذكر بعض القضايا الأساسية في دراسة اللغة، ويلخصها في الأسئلة التالية:

- ١- مم تتكون معرفة اللغة؟
- ٢- ما الكيفية التي تكتسب بها هذه المعرفة؟
- ٣- كيف تستعمل هذه المعرفة؟

ويقول بعد ذلك:

كانت هذه القضايا، وإن بشكل أولي، منطلقاً لنقاش حي في بداية الخمسينيات، ولم يشارك في ذلك النقاش بشكل رئيسي إلا عدد قليل من طلاب الدراسات العليا. ويمكن لي أن أذكر من هؤلاء على وجه الخصوص، في مدينة كامبردج [في ولاية ماساتشوستس الأمريكية]، إيريك لينبرج ومورس هالي، وكذلك يهوشوا بارهليل، الذي لم يُعطَ ما يستحقه من تقدير كفاء مشاركته البناءة ونقده المتعاطف [لهذا المنحى الجديد من البحث اللساني]. وفيما كنا نقارب هذه القضايا من منطلقات وخلفيات مختلفة، فقد

كان يجمعنا شك مشترك في الجو العلمي المهيمن، كما كان يجمعنا منظور مشترك وحماس متنام بأن مناحي التفكير التي نحاولها، وهي المناحي التي ترتبط بطرق معقدة ببعض التطورات الأخرى في تلك الفترة، كانت تسير في مسار صحيح (ص ٦).

ويقول: "إن لكل واحد من هذه الأسئلة التي تُوَطَّر هذا المنحى من البحث طعماً كلاميًّا وسوابق قنينة، شأنها شأن "الثورة المعرفية" عموماً" (ص ٦). ثم يربط بين السؤال الأول وفون همبولت، ويسميه "مشكلة همبولت؛ وبين السؤال الثاني وديكارت وهيوم، ويسميه "مشكلة أفلاطون"؛ ويربط بين السؤال الثالث وديكارت، ويسميه "مشكلة ديكارت".

كما يربط بين النحو التوليدي والنحو التقليدي بالصورة التي رأيناها فيما سبق.

ويشير إلى الصلة بين "الصوارة التوليدية" واللسانيات التاريخية، وبالأخص اللسانيات التاريخية السامية، على الوجه التالي:

أما الفكرة المتمثلة في النظر إلى اللغة على أنها نظام من القواعد من هذا النوع [الذي اقترحه في التركيب]، فقد دُعيت بالممارسة التي تقوم عليها الصوارة التوليدية، وهي التي طُورت - أو بصورة أكثر تحديداً، أُحييت - قبل تلك بسنوات قليلة، تأسيساً على أنظمة من القواعد تكاد تكون من هذا النوع على وجه التحديد. ولم يكن الدافع لذلك في هذا المنحى إلا اللسانيات التاريخية - وبخاصة اللسانيات التاريخية السامية - التي تقدم فكرة "التفسير" لا توجد في التقاليد اللسانية البنيوية [التي سبقت تشومسكي، في أمريكا على الأخص]. وكانت أبحاثي في هذا الموضوع في أواخر الأربعينيات تقوم بشكل صريح على هذا النموذج، وذلك بنقل فكرة التفسير والقواعد المرتبة [التي كانت تقترح تفسيراً للتطور التعاقبي للغة] إلى الإطار

التزامنى؛ وقد اقترح يهوشوا يار هليل تحسيناً شاملاً على هذا العمل، كما اقترح - بصورة صحيحة كما تبين فيما بعد - أنه يمكن أن تحسن هذه النظرية بصورة عميقة إذا ما أخذنا الصيغ المرسّسة تاريخياً [الصيغ التى يقترح وجودها فى طور أقدم للغة] على أنها هى الصيغ التى يقوم عليها النحو التزامنى (ص ٢٠-٢١).

ويمكن أن نلاحظ هنا أن استفادته من الدراسات اللسانية التاريخية السامية لا تعنى استفادته من النحو العبرى أو العربى، وإنما تعنى استفادته من الدراسات السامية التاريخية التى نضجت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين بتأثير الدراسات التاريخية التى أشار إليها روبنز فى كتابه سابق الذكر.

ومما يلفت النظر أن تشومسكى لم يتكلم عن تأثره بالنحو العبرى، على وجه الخصوص، على الرغم من معرفته بهذا النحو نتيجة لمعرفته بأعمال أبيه فى هذا المجال، ولو ذكر تشومسكى أنه تأثر بالنحو العبرى لكان ذلك مدخلاً للقول بأنه تأثر بالنحو العربى بصورة غير مباشرة. نلصق أن النحو العبرى أسس، استشهداً بالحقائق التاريخية المعروفة وبكلام تشومسكى نفسه، على النحو العربى. لكن عدم إشارته إلى النحو العبرى يشير إلى أن هذا النحو، والنحو العربى تبعاً لذلك، لا يختصان بشيء لا يوجد فى الأنحاء التقليدية الأخرى، كما أن عدم إشارته إلى النحو العبرى يدل على صدق كلامه عن عدم تأثره بالنحو العربى تحديداً؛ إذ إنه لو لم يكن موضوعياً وصادقاً وأراد أن يعلى من شأن أى نحو، بسبب تشابهه مع النحو التولىدى، فالمتوقع منه أن يشير إلى النحو العبرى.

ومن الأمور الجديرة بالذكر هنا أن هناك من يزعم بأن تشومسكى تأثر بتطبيقات بعض اللسانيين الذين سبقوه فى القرن العشرين، ويشار هنا إلى عمين اثنين تحديداً يزعم أنهما يتشابهان مع نظرية النحو التولىدى، وهما

مقال اللساني الأمريكي المعاصر ليونارد بلومفيلد Menomini morphophonemics "النظام الصوتي الصرفي للغة المينومني" (إحدى اللغات التي تتكلمها بعض قبائل الأمريكية الأصلية) التي نشرت في سنة ١٩٣٩م، أي قبل عشر سنوات من إنجاز تشومسكي رسالته للبكالوريوس التي تضمنت البذور الأولى للنظرية التوليدية، ومقال رومان ياكوبسن Russian Conjugation "تصريف اللغة الروسية"، الذي نشر سنة ١٩٤٨م.

كما يشار كذلك إلى كتاب زيك هاريس، أستاذ تشومسكي، Methods in Structural Linguistics "مناهج اللسانيات البنوية"، الذي قرأه تشومسكي مخطوطاً سنة ١٩٤٧م، ونشر ١٩٥١م.

وقد تولى اللساني الأمريكي فريدريك نيوماير، الذي يمكن عدّه مؤرخ المدرسة التوليدية، إيضاح عدم صلة هذه الأعمال الثلاثة بعمل تشومسكي. وهو ما يعنى أن تشومسكي لم يتأثر بها في وضع نظريته. وعالج نيوماير هذا الأمر في كتابه Linguistic Theory In America "النظرية اللسانية في أمريكا"، ١٩٨٠م؛ وفي كتابه الآخر Generative Linguistics: A Historical Perspective "اللسانيات التوليدية: منظور تاريخي"، ١٩٩٦م.

ويلخص رأي نيوماير في هذه القضية قوله، بعد إيراد عدد من الأدلة (١٩٩٦: ص ١١): "... ليس هناك دليل ألبتة على أنه كان للمقال بلومفيلد وياكوبسون] أي دور في بلورة أفكار تشومسكي".

أما تأثير هاريس فتمثل، لا في بناء تشومسكي بصورة مباشرة على آراء أستاذه، بل في استفادته من بعض آراء أستاذه وتطويرها بشكل مختلف (نيوماير ١٩٩٦: ص ١٤-١٦).

كما أشار نيومير إلى أثر " . . . الأبحاث في أسس المنطق وفلسفة العلوم"، في الأربعينيات على فكر تشومسكي (نيومير ١٩٩٦: ص ١٥). فيقول (ص ١٥): "أعتقد أن تشومسكي [في رسالته للبكالوريوس] كان أول من أشار إلى أنه يمكن عقد الصلة بين الإجراءات التي كان يتبعها اللسانيون الوصفيون الأمريكيون وبين برنامج [الفيلسوف كارناب] في كتابه Der Logische Aufbau der Welt المنشور في سنة ١٩٢٨م، وهو البرنامج الذي يحاول أن يبني، بسلسلة من التعريفات، مفاهيم النوعية، والأحاسيس، وغير ذلك، بأخذها مباشرة من التجربة [الواقع الحسي]. وجاء التأثير الأخر من [الفيلسوف الأمريكي] نيلسون جولدمان [الذي كان أستاذاً لتشومسكي في جامعة بنسلفانيا] الذي تأثر تشومسكي تأثراً صريحاً بكتاباتهِ عن الأناقة بوصفها خصيصة من خصائص صياغة القوانين العلمية، بل وصل به الأمر إلى الاحتجاج بها [أناقة القوانين العلمية] في تسويغ القواعد المرئية في النحو (جولدمان ١٩٥١). كما أن صياغة تشومسكي لقواعد بنية المركبات في رسالته للبكالوريوس (والمصطلحات التي رافقت تلك الصياغة) لا يمكن الشك بأنها متأثرة بكتاب كارناب The Logical Syntax of Language "التركيب المنطقي للغة"، المنشور ١٩٣٧م (نيومير ١٩٩٦: ص ١٥).

ويمكن أن نخلص مما تقدم أن تشومسكي في صياغته لنظرية النحو التوليدي كان ينطلق من مصادر كثيرة، بعضها قديم وبعضها حديث؛ بعضها من النحو، وبعضها من العلوم المتعددة التي اطلع عليها. لهذا فالقول بأنه اعتمد على النحو العربي إنما يعني إلغاء تلك المصادر المتعددة كلها.

ويبقى أن نلاحظ أن الأمر لا يتوقف على المصادر التي استفاد منها تشومسكي؛ بل يتوقف على عبقريته التي مكنته من استغلال تلك المصادر على الوجه الأمثل لكي يأتي بشيء جديد يعرف به.

وهناك بعض الملحوظات التي لا بد لي من إيدائها هنا. ومنها أن كثيراً

من العرب المعاصرين يكانون يحفظون كتاب سيبويه، إن لم يكونوا يحفظونه فعلا، إلا أنهم لم يستطيعوا حتى اكتشاف الصلة بين النحو العربي والنحو التوليدي، بشكل واضح. وكان من المنتظر أن يهب هؤلاء ليبينوا بالتفصيل تلك الصلة بشكل لا لبس فيه.

والملاحظ الآخر أن كثيرا من العرب المعاصرين، على الرغم من الادعاء بأن تشومسكي كان متأثرا بسيبويه، فإنهم يهتمون من يتخصص في اللسانيات بأنه تابع للغرب، وعدو للنحو العربي. وكان المنتظر من هؤلاء ألا يقفوا هذا الموقف؛ إذ كان من الواجب عليهم أن يكونوا أول المبادرين إلى الاطلاع على النحو العربي بثوبه الجديد!

والملاحظ الأخير أن وصول تشومسكي لنظرية النحو التوليدي إنما هو ثمرة للتقدم العلمي الكبير في مجالات متعددة في هذا العصر. وقد بين تشومسكي نفسه أن لكثير من الأفكار التي تقوم عليها هذه النظرية ما يشبهها في فترات متقدمة؛ لكن الصياغة العلمية المنضبطة لهذه الأفكار لم تصبح ممكنة إلا في هذا العصر. ويصدق هذا على كثير من الأفكار التي نجدها في الآثار اللغوية العربية القديمة. لهذا فالمنتظر منا الآن ألا نكتفي بتريديد ما كان يقوله الأولون؛ بل علينا - مع الاعتراف بمكانة الأوائل وسابقتهم - أن ننظر في تلك الأفكار من جديد مستفيدين من الإنجازات العلمية في المجالات المختلفة التي تحققت في هذا العصر؛ لنصل إلى صياغات أكثر علمية وانضباطاً لتلك الأفكار.

ويلحظ القارئ الكريم أنني لم أتحدث عن تشومسكي كثيرا؛ إذ كان اهتمامي منصباً على مناقشة القضية التي تثار دائما من غير أن تتلقى فحصا جدياً، وهي القول بأخذ تشومسكي أفكاره مباشرة من النحو العربي.

وهناك قضايا في اللسانيات التوليدية، وفي فكر تشومسكي الاجتماعي والسياسي تستحق أن تناقش.

ولم يُترجم مما كتبه تشومسكى فى اللسانيات إلى اللغة العربية إلا القليل. ومن كتبه التى تُرجمت كتابه الأول "البنى التركيبية"، وترجمه الدكتور يونين يوسف عزيز، بعنوان "البنى النحوية"، الدار البيضاء: النجاح الجديدة، 1987م). وكتابه الشهير الآخر، The Aspects of the theory of Syntax, 1965، ترجمة الدكتور مرتضى جواد باقر، بعنوان "جوانب من نظرية النحو"، وزارة التعليم العالى والبحث العلمى، جامعة البصرة، 1985. و "اللغة ومشكلات المعرفة"، ونشرت الترجمة فى دار توبقال للنشر، سنة 1990م. وكتابه الذى يحيل إليه كثيراً فى هذا الكتاب: Knowledge of Language, 1986، الذى ترجمه الدكتور محمد فتوح - رحمه الله، بعنوان: المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها. القاهرة: دار الفكر العربى، 1993م. وترجمه مرة أخرى الدكتور محيى الدين حميدى بعنوان "معرفة اللغة"، الرياض: دار الزهراء للنشر والتوزيع، 1423هـ / 2002م، وهى ترجمة سيئة تبلغ حدًا بعيداً من العبث .

أما أعماله السياسية فتُرجم منها عدد لا بأس به؛ ومنها بعض مقالاته ومحاضراته التى ترجمتها ونشرت ضمن كتاب "العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم"، القاهرة: مكتبة مدبولى، 2003م. ويكفى أن تضع اسم تشومسكى على أى محرك للبحث فى الإنترنت لتجد عدداً كبيراً من الروابط التى يظهر فيها اهتمام الثقافة العربية بما يقوله عن السياسة الأمريكية والإسرائيلية خاصة.

أما ما يخص الكتاب الذى أترجمه هنا فأود أن أيدى بعض الملحوظات العجلى. وأشير بداية إلى استخدامى مصطلح "ذهن" بدلاً من "عقل" الذى يمكن أن يوحي به المصطلح الإنجليزى. وكنت قد استخدمت المصطلح الأخير فى البداية؛ لكن بعض الزملاء أشار بأنه ينبغى التمييز بوضوح بين

مصطلح "عقل" الذي يعنى فى اللغة العربية أمورًا تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، وبين ما يتحدث عنه تشومسكى فى هذا الكتاب من أنظمة معرفية مختلفة ناشئة عن الدماغ لكنها لا تتعلق بالحكمة والمعرفة الأخلاقية الناجزة، بل تتعلق بكيفية عمل الدماغ فى أثناء تعامله مع العالم الخارجى. يضاف إلى هذا أن الفلاسفة العرب والمسلمين القدماء أشاروا إلى الذهن واحتوائه على صور الموجودات فى الأعيان، أى فى العالم الخارجى.

ويتصل ثانى الملحوظات بمحتوى الكتاب. فيشهد النقاش فى الكتاب بعمق المسائل المناقشة وبغزارة التنظيرات الفلسفية الغربية المعاصرة عن كثير من القضايا التى تتعلق بالذهن والشعور واللغة، وغير ذلك. ومما يؤدى إلى شىء من الصعوبة فى فهم ما يتضمنه هذا الكتاب أن تشومسكى لا يورد بالتفصيل مواضع التنازع بين النظريات الفلسفية المختلفة؛ بل يشير إليها مفترضًا اطلاع القارئ بصورة ما على ذلك النقاش الغنى. لذلك لا بد من التروى فى قراءة الترجمة والاستئناس بما قد يوجد من كتب باللغة العربية عن هذه القضايا، أو محاولة الرجوع إلى المراجع التى يذكرها تشومسكى فى ثنايا النقاش، وأكثرها باللغة الإنجليزية. ومن الكتب التى يمكن الاستئناس بها كتاب الدكتور محمد غالىم: المعنى والتلقى: مبادئ لتأصيل البحث الدلالى العربى. (سلسلة أبحاث وأطروحات) الرباط: معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، ١٩٩٩م. وكتاب الدكتور حسن عجمى: مقام المعرفة: فلسفة للعقل والمعنى. بيروت: دار كتابات، ٢٠٠٤م. وقد حاولت أن أضيف بعض الهوامش التى تبين بعض تلك القضايا أو المصطلحات، لكن الوفاء بها جميعًا يكاد يكون متعذرًا؛ إذ سينشأ عن ذلك تطويل الكتاب وإغراقه بالتفاصيل.

وقد أوردت فى نهاية الترجمة مسردًا بالمصطلحات المهمة التى وردت فى الكتاب، راجيًا أن تكون عونًا على قراءته بصورة جيدة. ويحسن بالقارئ

من أجل الاطلاع على ما تنل عليه المصطلحات اللسانية في الكتاب الرجوع إلى كتب الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، خاصة كتابيه "اللسانيات واللغة العربية"، ١٩٨٦، و"البناء الموازي"، ١٩٩٠م، وكتاب تشومسكي "اللغة ومشكلات المعرفة"، ترجمة حمزة المزيني، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٠م، و"الغريزة اللغوية: كيف يبدع العقل اللغة". تأليف ستيفن بنكر، ترجمة حمزة المزيني، الرياض: دار المريخ ٢٠٠٠م، وكذلك معجم المصطلحات اللغوية، تأليف رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٠م.

وفي الختام أود أن أزجي جزيل الشكر للأستاذ الدكتور نعوم تشومسكي على تشجيعه لي على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية؛ فقد أبدى سروره وترحيبه بهذا المشروع وعبر عن تمنياته الطيبة لي بإكماله.

كما أود أن أتوجه بشكر خاص للزملاء الذين تفضلوا بقراءة ترجمتي وأمدوني بملاحظاتهم التي أسهمت في تجنب كثير من مواقع الزلل، وأشير هنا إلى الزملاء الأستاذ الدكتور محمود نحلة في جامعة الإسكندرية، والأستاذ الدكتور محمد غاليم في جامعة محمد الخامس، والأستاذ الدكتور أبي يعرب المرزوقي، من الجامعة الإسلامية في ماليزيا، والأستاذ الدكتور محيي الدين محسب، من جامعة الملك سعود، والأستاذ الدكتور عصام عبد الله أستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس، والزميل الدكتور نادر كاظم من جامعة البحرين، والأستاذ معيوف المعيوف طالب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية الذي قرأ مشكوراً معظم فصول الكتاب في إحدى صورها الأولى. ويجب أن أقول إن الصيغة النهائية التي تظهر بها الترجمة هنا من حيث اللغة والأسلوب والمضمون مسئوليتي وحدي.

وأود أن أعبر عن شكري الخاص للمجلس الأعلى للثقافة في مصر ممثلاً في أمينه العام الأستاذ الدكتور جابر عصفور الذي أبدى حماسه لهذا المشروع ووافق على نشر هذه الترجمة.

وبسرني هنا أن أعبر عن شكري الخاص لأسرتي الصغيرة التي كان
دعمها خير عون لي في مكابدة إنجاز هذا المشروع، وأنا سعيد بأن أهدى
لهذه الأسرة النموذجية هذا العمل.

الرياض

١٤٢٥/٩/١٠هـ

٢٠٠٤/١٠/٢٣م

تمهيد

نبيل سميث

يتبوأ تشومسكى مكانة فريدة فى المشهد الفكرى العالمى. فقد كان القائد الأبرز لـ "الثورة المعرفية"^(١) فى الخمسينيات والستينيات [من القرن العشرين]، وقد هيمن على حقل اللسانيات^(٢) منذ تلك الحين. وظلت نظريته عن النحو التوليدى، فى عدد من الأشكال التى اتخذتها، الهادى والملهم لكثير من اللسانيين فى العالم أجمع ومعياراً للمقارنة عندهم جميعاً تقريباً. وربما لا تتفق مع مشروع تشومسكى، لكن تجاهله سيكون قصوراً فى النظر وموقفاً غير علمى فى أن.

وقد تخرج تشومسكى فى جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٤٩م، حيث كتب أطروحته للتخرج عن اللغة العبرية الحديثة، ثم عدلها ووسّعها بعد ذلك لتكون رسالته للماجستير. ومع أنها لم تتضمن إلا بذوراً متواضعة [لنظريته اللسانية التى طورها فيما بعد] فإنها كانت نقطة البداية للنحو التوليدى المعاصر. وقد تتامت القضايا التى تناولها حينذاك لتحدد ميداناً لبحث ما يزال يسهم فيه بعد خمسين سنة، وهو فى جزء كبير منه نتاج لعبقريته. ومع هذا لم تستغرق هذه الملحمة الفكرية إلا شطراً وقتها. أما الشطر الآخر فقد مخصه للنشاط السياسى، حيث يشتغل بفضح أكتاييب الحكومة [الأمريكية] والخطط الخفية للمؤسسات المالية والعسكرية الكبرى. وأدى به هذا إلى الاشتغال بإلقاء ما يبدو كأنه سلسلة لا نهاية لها من المحاضرات حول العالم، نتج عنها أكثر من خمسين كتاباً، ومئات المقالات وآلاف الرسائل. وربما لا يوجد رابط قوى بين هذين النوعين من نشاطه، لكن شهرته وجزءاً من تأثيره كانا الحاصلين المشترك لهما. (والإنتاج [العلمى والفكرى] لتشومسكى غزير جداً؛ للاطلاع على نظرة عامة حديثة ومناقشة لكم ممثل من عمله، انظر Smith 1999)^(٣).

وكان لعمله التأسيسى عن اللغة نتائج بعيدة المدى، لا على اللسانيات

وحدها بل على عدد من التخصصات الأخرى كذلك، ومن أبرزها الفلسفة وعلم النفس، ويولى هذا الكتاب الذي يضم عددًا من مقالاته عناية خاصة بهذا المنحى الثالث من فكره، ويتناول بشكل خاص بعض القضايا الميتافيزيقية "الغيبية" التي لثارتها أبحاثه، ويسعى إلى إيضاح بعض أنواع اللغط والتحيزات التي ابتليت بها دراسة فلسفة اللغة. ويقدم بعمله هذا حلولاً جديدة لبعض المشكلات التقليدية المحيرة ومنظورات جديدة لبعض القضايا التي تدخل في الاهتمام العام، بدءاً بمشكلة الذهن - الجسد وانتهاء بقضية توحيد العلم^(٤).

وجوهراً هذه المقالات أنها تأملٌ موسّع في تأويل تشومسكي "الداخلي" لملكة اللغة البشرية. فقد صرفت أكثر التقاليد الفلسفية اهتمامها إلى اللغة بوصفها كياناً عاماً لا يملك الأفراد إلا معرفة جزئية به. وتتشغل وجهة النظر هذه بالعلاقة بين اللغة والواقع الخارجي: أي بالعلاقة بين الكلمة والعالم التي تعدّ أساساً للنظريات النموذجية لعلم الدلالة الإحالي. ويدافع تشومسكي بتوسّع، في معارضته لهذه التقاليد، وبسلسلة من التحليلات اللغوية التي تبلغ مستوىً عالياً من التخيل، عن وجهة النظر التي تقول إن معرفة اللغة فردية وداخلية في الذهن/الدماغ البشري. ويترتب على هذا أنه يجب أن توجه الدراسة الحقيقية للغة اهتمامها إلى هذه البنية الذهنية، وهي وحدة نظرية يسميها بالمصطلح الجديد "اللغة - د^(٥)"، أي أنها خصيصة داخلية للفرد. ومن لوازم وجهة النظر هذه أن التصور العام (والفلسفي) "للغة"، الذي تكون به اللغة الصينية (بوصفها اللغة التي يتكلمها الناس في هونغ كونج وبكين) أو الإنجليزية (كما استعملها شكسبير ونستعملها نحن)، ليس مجالاً صالحاً لأن نصوغ عنه نظريات علمية متماسكة.

ويُدخل تركيز تشومسكي على وجهة النظر الداخلية للغة أبحاثه في مجال علم النفس، وعلم الأحياء في نهاية الأمر، ويعنى هذا أن اللغة البشرية "موضوع أحيائي". وينبغي، تأسيساً على هذا، تحليل اللغة بالمنهجية المتبعة

في العلوم الطبيعية، وليس هناك مكان لقيود على البحث اللساني وراء تلك القيود المألوفة في الأبحاث العلمية كلها، ومع أن هذه المناهج طوّرت بأوفى أشكالها في الفيزياء وهي تميزها، فإن هذا لا يعني إمكان اختزال اللسانيات إلى الفيزياء أو إلى أي علم آخر من العلوم "الصحيحة"؛ فللسانيات قوانينها الخاصة بها وتعميماتها التي لا يمكن وصفها بلغة "الكواركات وأشباهها". ومفهوم "المقاربة الطبيعية" بهذا المعنى مركزي لأبحاث تشومسكي كلها، وهي تنفي بصورة صريحة المتطلبات التي توجهها وجهة النظر الثنائية التي توجب أن يتوافق تحليل اللغة مع بعض المعايير التي تختلف عن المعايير الخاصة بالكيمياء أو علم الميكروبات أو تزداد عليها. لذلك ينبغي أن يتمثل مقياس نجاح اللسانيات، كما هو الأمر في أي علم اختباري آخر^(٦)، في عمقها التفسيري وقوة نظرياتها، لا في موافقتها للقيود التي تفرضها الفلسفة.

ويترتب على دعواه العلمية الطبيعية عددٌ من المقتضيات، ومنها: أنه لا مسوّغ للمسلّمة العامة التي مفادها أنه ينبغي أن تعامل اللغات الطبيعية بالطريقة التي تعامل بها اللغات الصورية المصطنعة للمنطق أو الرياضيات؛ ولا مسوّغ للمتطلب الذي يقضى بأنه ينبغي أن يكون النفاذ الشعوري^(٧) إلى قواعد اللغة التي نعزوها للأفراد ممكناً؛ ولا مسوّغ للاشتراط بأنه ينبغي أن يُختزل^(٨) الذهني إلى الفيزيائي.

ويتجلى رفضه لهذه الثنائية الفلسفية بأوضح صورة في تعامله مع مشكلة الذهن - الجسد، وكانت إحدى المشكلات المزمّنة في الفلسفة أن نفسّر كيف يمكن للذهني أن يؤثر في الفيزيائي، أي كيف يمكن لشيء يقضي تعريفه أنه لا يتحقق مادياً أن يسبب إحداث بعض التغيرات في وحدات تحدّد مواضعها في حيز مكاني؛ وبكلمات أخرى، كيف يمكن للذهن أن يحرك الجسد. وقد قطع تشومسكي عقدة جوردي^(٩) بتأكيده واحدة من أكثر الصعوبات مركزية: وهي أن مشكلة الذهن - الجسد لا يمكن حتى صياغتها؛ لا لأننا لا نفهم الذهن إلا فهماً محدوداً جداً، كما يفترض عموماً، بل لأننا لا نملك

معايير لتحديد ما يكون جسداً. ويشير تشومسكي، فسي إحدى محاولاته التوضيحية الجذرية التي تميز بها، إلى أنه مثلما أدت آراء إسحاق نيوتن العميقة إلى اندثار مفهوم آليات التماس فقد زُعزت فكرة الجسد عند ديكارت ولم يقترح بديل لها منذ ذلك الحين. وفي غياب أية فكرة متماسكة للجسد لا تعود هناك مكانة تصوورية خاصة لمشكلة الذهن – الجسد الثقلينية، لذلك ليس هناك مشكلات سببية خاصة. ويعنى هذا، على درجة أعم، أنه ليس هناك مشكلة ميتافيزيقية "غيبية" خاصة تتصل بمحاولات التعامل بطرق علمية طبيعية مع الظواهر "الذهنية" (كمعرفة اللغة)، أكثر مما يكون هناك مشكلات غيبية عند الكيميائيين حين يعرفون ما يكون "كيميائياً".

والمقتضى الآخر لهذه الحجة أن الأفكار العامة عن الاختزال في العلوم غير ملائمة. فمن الواضح أننا نرغب في دمج نظريتنا عن الذهن – ويشمل ذلك على وجه الخصوص اللسانيات – بنظريتنا عن الدماغ وأي مجال آخر ذي صلة. ومع هذا، وعلى الرغم من أن اختزال علم الأحياء إلى الكيمياء كان نتيجة للثورة في علم الأحياء الجزيئي، فلا يلزم أن يأخذ التوحيد شكل الاختزال. وأهم من ذلك أن الزعم بوجود نوع من الأولوية للفيزيائي أو للعضوي خاطئ؛ ذلك أن للنظريات اللسانية على درجة من الغنى تجعلها قادرة على تقديم بعض التنبؤات المحددة عبر مجال واسع مثلما تفعل النظريات الكيميائية والنظريات الأحيائية. لذلك ربما لا تكون محاولة اختزال اللسانيات إلى علم الأعصاب في الطور الراهن من فهمنا مثمرة. انظر إلى المثال المحدد الخاص بفهم ما يترتب على النشاط الكهربائي في الدماغ، كما يقاس بـ "إمكانات الأمغة التي تتصل بالحدث" (ERP) event-related brains potentials. فيفهم اللسانيون إلى حدٍّ معقول بعض الأنواع المختلفة من البنى اللغوية "الشاذة"، حيث يعرف الشذوذ في ضوء معايير المخالفة لمبادئ النحو، كما يظهر الآن أن مثل هذه المخالفات ترتبط ببعض أنماط النشاط الكهربائي في الدماغ. وقد نظر إلى مثل هذه

الارتباطات على أنها توحى بأن من الممكن تفسير الوقائع اللغوية عن طريق علم الأعصاب. لكن اللسانيات، هنا وفي عدد من الحالات الأخرى، هي التي تُعِيننا كي نضفي معنى على هذه النتائج، إذ ليس هناك نظرية كهربائية عضوية لافتة للنظر. وتُمائل استحالة التعبير عن التعميمات المهمة عن اللغة في ضوء المفاهيم التقنية للخلايا والعصبونات استحالة عدم إمكان التعبير عن تعميمات علم طبقات الأرض أو علم الأجنة في ضوء المفاهيم التقنية لعلم الفيزياء الجسيمية. فمتطلبات الاختزال في كلتا الحالتين تذهب بعيدًا جدًا.

وربما يكون التوحيد العلمي، بله الاختزال، مستحيلًا في بعض النواحي من حيث المبدأ. ولا يعنى هذا ببساطة الزعم البيهيمي الذي مفاده أننا لا نستطيع فهم بعض المجالات، فالأمر الأعمق أنه لا يمكن لتكائنا النفاذ إلى بعض مظاهر الهيئة التي صمّمنا بها إطلاقًا. وليس من شك أن الفئران لا تستطيع التعامل فكريًا مع بعض الأفكار كالأعداد الأولية، لذلك ينبغي ألا نشك في أن تصميمنا المحدّد أحيانًا أنتج كائنًا عضويًا لا يستطيع ببساطة فهم بعض المجالات. وكما يقول تشومسكى: فالعالم مصنّف إلى "مشكلات" و"أحاج". وربما تخضع "المشكلات" لتتظيراتنا؛ أما "الأحاجي" فلن تخضع لها إطلاقًا. فربما تستطيع ملكة صياغة العلم^(١٠) لدينا أن تُعِيننا في تحقيق فنر من الفهم النظرى عن علم الإبصار واللغة وعلم الوراثة، إلخ. لكن هذا لا يعنى أنه يمكن للمجالات كلها أن تخضع لذلك بالكيفية نفسها، بل إن بعض القضايا — كـ "حرية الإرادة" أو التحديد الصحيح للشعور — ربما تقع بعيدًا عن متناول قدراتنا الفكرية وتظل أحاجي، مثل احتمال كون الأعداد الأولية أحاجي عند الفئران. ولا يعنى هذا الزعم بأنه لا يمكن أن نحصل فنرًا من الفهم عن هذه المجالات، بل يعنى أنه (ربما) لا نحصل فهمًا علميًا، وهو ما يجعلنا بحاجة إلى الاعتماد على عبقورية الروائيين والشعراء للحصول على فهم أوسع.

وإحدى المجالات التي يغلب على تشومسكى اليأس من الوصول فيها

إلى فهم علمي للوصف الصحيح لاستخدامنا المألوف للغة في مقابل معرفتنا بها. وقد شرعت أبحاثه طوال نصف القرن الماضي دراسة "معرفتنا اللغوية" (إن استخدمنا المصطلح الذي استبدل به الآن مصطلح "اللغة - د")، لكنّ الكيفية التي تحوّل بها تلك المعرفة إلى استخدام في أثناء أدلتنا ظلت إلى حد بعيد كتابًا مغلقًا، وربما لغزًا. ولا يعني هذا إنكارًا أننا حققنا تقدمًا في فهم الكيفية التي يحلّل بها الناس الجمل التي يسمعون. ذلك أن النتائج التالية كلها زودتنا ببعض الفهم، أي: الدراسات الاختيارية ونظرية إدراك اللغة وإنتاجها؛ وما نفهمه الآن عن اكتسابها وتغيرها؛ وتحليل وظيفة الدماغ عند المرضى والأصحاء. بل لقد تحقق قدرًا من الفهم الأوّلي عن كيفية تأويلنا بعض المنطوقات^(١١) في السياق، لكننا ما نزال لنماثل في بعدنا عن الفهم الكامل] بعد رينيه ديكارت عن معرفة السبب الذي يجعل شخصًا ما يختار أن يصوغ رد فعله على صورة بأن يقول: "how beautiful" "ما أجملها"، أو "it reminds me of Bosch" "إنها تذكرني ببوش"، بدلًا من أن يتمثل رد فعله بالصمت.

وسُميت هذه المجموعة من المقالات بـ"آفاق جديدة"، إلا أن كثيرًا من القضايا التي نوقشت أعلاه هي ما كان محورًا للاهتمام لسنين عديدة. فقد أيان تشومسكي، منذ مغامرته في تاريخ الأفكار في كتابه "اللسانيات الديكارتية" (١٩٦٦)، عن قدرة فائقة على وضع أفكاره في سياق منظور تاريخي وعلمي عام أوسع. ومكّنه اهتمامه العلمي بالتاريخ لا على تسهيل تتبّع السوابق الفكرية [لمشروع] وحسب، بل على تحديد التطورات في اللسانيات بمقارنتها بالتطورات في العلوم التقليدية كذلك، خاصة تاريخ الكيمياء. وهو يقيم الصلة، في الوقت نفسه، بين هذه التطورات والأبحاث الحالية في علم النفس والفلسفة والرياضيات وعلوم الإدراك على وجه أعم.

وهناك مظهران لما هو جديد [هنا]. أولهما أن فيها أنواعًا جديدة من الأدلة على المواقف القديمة؛ وثانيهما، أن من الممكن الآن إثارة أسئلة كان

من المستحيل في الماضي حتى صياغتها. ولا نملك الآن إجابات عن هذه الأسئلة، لكن قدرتنا على إثارتها دليلٌ مثير بنفسه.

ويمكن أن يوضح أولُ هذين المظهرين بالإشارة إلى زعم اشتهر به تشومسكى منذ أمد طويل (أو اشتهر بالغلو في الإصرار عليه)، وهو: أن جزءًا كبيرًا من معرفتنا باللغة محدّدٌ وراثيًا، أو هو فطري. والبرهان على أن هناك شيئًا لغويًا فطريًا واضحًا بنفسه بيّنه أن الأطفال يكتسبون اللغة — أما اللقطط والعقارب والأحجار فلا. وتتوجّه أغلبُ أبحاث تشومسكى في الأربعين سنة الماضية إلى تبين التفاصيل التقنية لما نعزوه بدقة إلى "الحالة الأولى" للملكة اللغوية البشرية من أجل تفسير تلك الحقيقة الأولية. وقد نتج عن التقدم في اللسانيات والتخصصات القريبة منها وضعُ أتاح الآن "إمكانًا بعيدًا" للمجيء بأدلة من علوم الدماغ وعلوم الوراثة لتبيين الكيفية التي تحدث بها هذه الحتمية ومن ثم إمكان توحيد هذا الجزء من اللسانيات مع العلوم الأخرى. وليس هذا التوحيد مركزيًا لأبحاث تشومسكى نفسه، لكن درجة النضج والتعقيد التي تتصف بها اللسانيات التي اقترحها تجعل هذا مشروعًا ممكنًا.

والمظهر الثاني إمكانُ وصل معرفتنا باللغة بتفسيرٍ معيّن للأجزاء الأخرى من إدراكنا. ويتطلب تفسيرُ الكيفية التي يمكن لهذا أن يحدث بها مراجعة عامة للتاريخ القريب جدًا. فيهيمن على اللسانيات التوليديّة الآن موقفان: الأول هو نظرية "المبادئ والوسائط" — كما أوضحها تشومسكى في كتابه Knowledge of Language (1986) "المعرفة اللغوية"، والثاني نظرية الحد الأدنى "Minimalism" — كما تبدو في أجلي مظاهرها في كتابه برنامج الحد الأدنى "The minimalist Program (1995c)". وقد بنى تشومسكى وأتباعه جهدًا ضخمًا لصياغة آليات صوريّة وافية لوصف التعقيد الواسع جدًا للغات الطبيعية، وهو تعقيد تتزايد روعته كلما رتدنا النظر في اللغات المعينة. وكانت بعض هذه الوسائل الصورية، ومنها التحويلات وفكرتنا البنية

العميقة والبنية السطحية خصوصًا، ناجحةً إلى حدٍ أخاذ، وحققت حدًا عاليًا من القبول العام خارج اللسانيات، عند الفلاسفة وعلماء النفس، بل عند عموم الناس كذلك. وكانت المعضلة تتمثل في هذا الطور من النظرية في أن التعقيد الذي اكتشف يجعل اللغات تبدو كأنها مما لا يمكن تعلمه؛ إذ كيف يمكن لطفل أن يتغلب على هذا التعقيد الباهر في السنوات القليلة التي يحدث خلالها اكتساب اللغة الأولى؟

وكانت إجابة تشومسكى أن أكثر معرفتنا باللغة فطريةً إلى حدٍ يفوق ما كان متوقعًا من قبل؛ فالواضح أنه لا يمكن أن تكون اللغات المعينة كالإنجليزية أو اليابانية فطريةً — كما تشهد بذلك الاختلافات بينها تبعًا لاختلاف البيئة — لكن اكتساب اللغة المألوف يجعل من الواضح بشكل مماثل لأن كماً ضخماً منها لا بد أن يكون فطريًا. ولا يقتصر الأمر على أن هناك بعض القيود على نوع الفرضية التي يمكن أن يصل إليها الطفل الذي يتعلم لغته الأولى، بل إن خصائص اللغة الجوهرية كلها موجودة [في الدماغ] منذ البداية. ويعنى هذا أن الطفل ليس بحاجة إلى أن يتعلم من العدم خصائص اللغة التي يتعرض لها؛ فهو، بدلاً من ذلك، ينتقى وحسب بعض الخيارات المحددة من مجموعة محددة بشكل مسبق. ولتتمثيل على ذلك فاللغة إما تكون من نمط "الرأس — أولًا" (حيث يسبق الفعل المفعول، كما في الإنجليزية) أو من نمط "الرأس — آخرًا" (حيث يسبق المفعول للفعل، كما في اليابانية). ويولد الطفل وهو يعرف أن هذين البديلين موجودان، وأن ما يجب عليه لا يختلف كثيرًا عن وضع المفاتيح في لوحة مفاتيح كي "يثبت وسائل" اللغة التي يتعلمها. ومن اللافت للنظر أن هذا الحل للتجانب بين الوصف والتفسير يعكس التطورات في العلوم الأخرى. فقد استُبدل بالنظرية "الموجهة" instructive لتفسير وجود الأجسام المضادة في علم المناعة نظرية "انتقائية" تستدعي فيها المحفزات antigens، حتى الاصطناعية منها، الأجسام

المضادة الموجودة مسبقاً في الكائن العضوي قبل تعرّضه للتأثير الخارجى. وهذا التّوازي مع اكتساب اللغة لافت للنظر.

وربما تكون نظرية المبادئ والوسائط التى طوّرت فى العقدين الماضيين أول مقارنة حقيقية مُبدعة للغة طوال الألفين وخمسمائة سنة الماضية. وهى تختلف تصوّرياً اختلافاً شاسعاً عن التفسيرات السابقة للغة، سواء التقليدية منها أو التوليدية، وهو ما يجعل تشومسكى يرى أنها المرة الأولى التى ربما أمكن أن يُسوَّغ فيها وصف النظرية اللسانية بأنها "ثورية"، وهو الوصف الذى توصف به أبحاثه فى الخمسينيات دائماً. ودخل الشكل الحالى من نظرية المبادئ والوسائط - التى تختلف اختلافاً كبيراً عن شكل النظرية فى الثمانينيات - فى "برنامج الحد الأدنى" الذى اقترحه فى التسعينيات. وهذا الشكل محاولة جزئية لإعادة التفكير فى أسس مشروع [البحث اللسانى، كما يراه تشومسكى]، وهو يتخلى عن الصيغ غير الضرورية تصوّرياً كلها أو التى لا تفرضها الضرورة الاختبارية، وتلك هى الشروط المألوفة فى العلوم. وعنت إعادة التفكير هذه التخلي عن كثير من الوسائل الوصفية فى الأشكال المبكرة من النحو التوليدى - بل حتى تلك الاختراعات الناجحة كمستوى البنية العميقة ومستوى البنية السطحية - وهو ما ألجأ إلى البحث عن تفسيرات جديدة.

ويتوخى تشومسكى الدقة فى تأكيده أن "برنامج الحد الأدنى" لم يبلغ بعد أن يكون نظرية؛ فهو لا يعدو أن يكون برنامجاً لتحديد نسوع معين من المقاربة البحثية. ويجب على أية نظرية للغة ضرورة أن تقترح صلة بسين الصوت والمعنى، أى بين تمثيلات النطق وتمثيلات الخصائص المنطقية للكلمات والجمل. وتبعاً لهذا يجب على النحو - أى "اللغة - د" أن يحدّد مستويين من التمثيل، يطلق عليهما "الصورة الصوتية" و"الصورة المنطقية"، وأن يحدّد الصلة بينهما. وينبغى - فى الحالة المثالية - ألا يكون هناك

مستويات أخرى وأن تكون تعقيدات هذه الصلة على حد أننى. ويوحى هذا بسؤالين إما أنه لم يكن من الممكن تناولهما فى السابق بصورة جادة أو ربما حتى صياغتهما. فالأول: ما مدى صلاح اللغة البشرية لأن تكون حلاً لهذه المشكلة التصورية الخاصة بتحديد الصلة بين الصوت والمعنى؟ فهل يمكن اقتراح أن أنحاء اللغات الطبيعية "مثلى" optimal بمعنى ما^(١٢)؟ والثانى، ما العلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للذهن/الدماغ؟ وعلى وجه أخص، هل يمكن لأى شذوذ محتمل عن "المثلية" optimality فى السؤال الأول أن يُعزى إلى الشروط التى يفرضها السؤال الثانى؟

ويتناول تشومسكى هذه القضايا فى ضوء السؤال التالى: "إلى أى مدى تكون اللغة "مُحكمة"؟"^(١٣)، ويجيب عنه بإجابة تُعدُّ مفاجئة عن نظام أحيائى، وهى أن اللغة قريبة جداً من الإحكام. ويعنى هذا أن أى شذوذ عن الضرورة التصورية التى توجبها الملكة اللغوية (أى: "اللغة - د") مدفوعٌ بشروط مفروضة من الخارج. ويسمى تشومسكى هذه الشروط بـ "شروط المقرئية": أى الشروط التى يفرضها حاجة أنظمة الذهن/الدماغ الأخرى، من أجل استخدام التمثيلات التى توفرها الملكة اللغوية. ويشير هذا على وجه الخصوص إلى حاجة النظامين النطقى والإدراكى لاستثمار تمثيلات "الصورة الصوتية"، وإلى حاجة النظام التصورى لاستثمار تمثيلات "الصورة المنطقية". وانطلاقاً من هذه الخلفية لا تبدو عمليات النقل أو "الإزاحة" displacement من النوع الذى نراه فى الموضعين المختلفين اللذين يحتلها الاسم "كلينتون" فى الجملتين التاليتين:

They elected Clinton.

"انتخبوا كلينتون".

و:

Clinton was elected.

"أُنتخب كلينتون".

ضروريةً تصوريًا. فما الذي يجعل اللغات الطبيعية تستثمر مثل هذه الوسائل التي لا توجد في لغات المنطق والرياضيات الاصطناعية؟ وإحدى الإجابات المؤقتة أن النقل ربما يكون مدفوعًا بالحاجة إلى تنظيم المعلومات من أجل التواصل الأمثل. وإذا كان هذا هو التفسير الصحيح، حقًا، فيبدو كأن إحدى خصائص الملكة اللغوية مفروضةً من خارج النظام، أي من جزء آخر من أجزاء الذهن/الدماغ.

ولا يقف تشومسكى عند تلك الحد، بل يحاول وصل عدم إحكام اللغة الظاهر هذا بمظهر آخر من عدم الإحكام؛ فاللغات الطبيعية ملأى بالظواهر التي تنشأ عنها بعض المشكلات لمتعلمي اللغة الثانية، وبعض أنواع الإزعاج للفلاسفة؛ فهناك تعقيدات صرفية كقوائم الإعراب والأفعال غير القياسية، التي لا يبدو أن لها معنى خاصًا بها حقيقيةً أو غير مفيدة دلاليًا. فهي من المظاهر الأخرى لعدم الإحكام، وتوجب افتراض بعض السمات التي لا يمكن تأويلها؛ أي سمات ليس لها تأويل دلالي. ومع هذا تستغل النظرية التركيبية الحالية مثل هذه السمات التي لا تأويل لها استغلالاً مطردًا: فوظيفتها أن توجه عمليات النقل التي رأينا أنها مدفوعةً بعوامل من خارج الملكة اللغوية. وإذا كانت مثل هذه الافتراضات على جادة الصواب فإنها تسمح بالإمكان اللافت للنظر الذي يقضى باختزال نوعين من "عدم الإحكام" الظاهري إلى نوع واحد. بل إن النوعين "الظاهريين" من عدم الإحكام ليسا إلا نوعًا واحدًا حقيقةً، إن كانت هذه الحجة صحيحة، حقًا. بل ربما لا يكون هناك بديل آخر، في ضوء القيود التي تفرضها الأنظمة الأخرى من أنظمة الذهن/الدماغ، على الحلول التي تسعى إلى ربط الصوت بالمعنى، لهذا تفسر الضرورة التصورية الشكل العام للنحو.

وأخيرًا، سأوجه النظر الآن إلى المقالات واحدًا واحدًا. فالفصل الأول "أفاق جديدة في دراسة اللغة" مقدمة مختصرة غير تقنية عمومًا لتفكير تشومسكى في الوقت الراهن عن طبيعة الملكة اللغوية، وتسعى لإيضاح مكان

أفكاره في إطارها التاريخي والفكري، أي: للتقاليد الجاليلية والديكارنية [نسبة إلى جاليليو وديكارت]. ويبيّن هذا الفصل نزعة التي صارت مألوفة الآن حيث يأخذ أمثلة بسيطة ليرتب عليها بعض المقتضيات العميقة. فإذا احتوت مكتبة نسختين من رواية "الحرب والسلام" لتولستوى، واستعار كل واحدة منهما شخصاً مختلف، فهل أخذ للشخصان الكتاب نفسه أم أخذوا كتابين مختلفين؟ وكلا الإجابتين ملائمة تبعاً لما إن كنا ننظر إلى الكتاب بوصفه وحدة مادية أم بوصفه وحدة مجردة. وربما يبدو هذا واضحاً لكن هناك مقتضيات جادة لهذه المسألة على فلسفة اللغة، كما يستمر تشومسكي في إيضاح الأمر. والملاحظة المهمة الأخرى أنه يبدو أن معرفتنا بإمكان النظر إلى بعض الأشياء كالكتب بهذه الطرق المختلفة تأتينا عموماً باستقلال عن التجربة. ويمثل هذا حجة من فكر المنبه على أن مثل هذه المعرفة محدثة فطرياً. وينبغي أن يكون أكثر ما يحويه هذا المقال سهل الفهم على غير المتخصصين، لكنه يمكن أن يقدم شيئاً كثيراً للمتخصص كذلك.

والفصل الثاني "تفسير استخدام اللغة" نقد لوجهات نظر الفلاسفة الذين يرون أن اللغة شأن خارجي، خاصة [الفيلسوف الأمريكي المعاصر] هيلاري بتام، وهو دفاع عن المقاربة الطبيعية لدراسة اللغة كذلك. ويقدم تشومسكي سلسلة طويلة من الأمثلة الجديدة للبرهنة على وجهة النظر التي مفادها أن أكثر معالجات اللغة نجاحاً هي تلك التي تصاغ في ضوء الحوسبات التي تجري على التمثيلات الذهنية الداخلية. وهذا بالطبع المجال الذي نجد فيه إسهاماته التقنية العظمى، ومع ذلك لا يتطلب هذا للنقاش معرفة مسبقة بالنظرية التركيبية. ويتضمن جزء من تحليله تعميماً لفكرة "اللغة - د"، التي يقول بها الذين يرون اللغة موضوعاً داخلياً، إلى المجال المعرفي، مستعينا بفكرة "الاعتقاد - د". ويبيّن هذه الدعوى، مرة أخرى، ببعض الأمثلة البسيطة لكنها لافتة النظر وتشهد بعمق معرفتنا وتفصيلها عن بعض الوحدات المعجمية مثل "بيت" house و "قريب" near. فنحن نعرف في جملة مثل:

John is painting the house brown.

يُصبغ جون البيت بُنيًا.

— ومن غير توجيه فيما يبدو — أن السطح الخارجي للبيت هو الذي يُصبغ، لا سطحه الداخلي. لكن لا يمكن أن يكون معنى "بيت" مقصورًا على سطحه الخارجي. وإذا كان هناك شخصان على بُعد متساوٍ من السطح، أحدهما في الداخل والآخر في الخارج، فالشخص الذي في الخارج وحده هو الذي يمكن وصفه بأنه "قريب" من البيت. ويبدو، مرة أخرى، وكما أوضحت ذلك الممارسات الاختبارية، أنه حتى الأطفال الصغار جدًا يعرفون مثل هذه الحقائق، وهذا ما يوحي بأن المعرفة بمعنى من المعاني متوفرة بشكل مسبق لهذا الكائن العضوي [أي الإنسان].

ويأخذ الفصل الثالث "اللغة والتأويل" هذه الأفكار خطوة أبعد، ويُفصل تفصيلًا أوسع، بشكل خاص، حججه ضد الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين [ويلارد كوين ومايكل نوميت وآخرين عن قضايا مثل عدم وثوقية الترجمة، واللغة الخاصة في مقابل اللغة العامة، وطبيعة المعرفة الذاتية، ومكانة "القواعد" اللغوية. ويأخذ تشومسكي بعض الأمثلة التركيبية البسيطة التي تورد بكثرة في الأبحاث التقنية ويستخدمها للاحتجاج لعدد متنوع من المواقف الفلسفية. انظر إلى تأويل جملة مثل:

Mary expects to feed herself.

"توقعت ماري أن تطعم نفسها".

(حيث تفهم "ماري" Mary و"نفسها" herself على أنهما تحيلان إلى الشخص نفسه)، في مقابل الجملة المماثلة جزئيًا:

I wonder who Mary expects to feed herself.

"ليت شعري من تتوقع ماري أن تطعم نفسها".

حيث يكون هذا الفهم للإحالة المشتركة مستحيلًا؛ ويبين تشومسكي عددًا من المقتضيات لمثل هذه الأمثلة وتحليلاتها. فهي تتفق زعم كوين بأنه

ليس هناك حقيقة للأمر؛ ويمكن استخدامها لتأييد التمييز بين التحليل والتأليف^(١٤)؛ وتثير بعض المشكلات لأية فكرة عن شبكية للمعنى meaning holism^(١٥)؛ كما تشير إلى استقلال ملكتنا اللغوية عن المظاهر الأخرى لنظامنا الاعتقادي.

ويعود الفصل الرابع "المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية في دراسة اللغة والذهن" إلى الهجوم على الفلاسفة؛ لتبنيهم الضمني "للدعوى التفريعية": وهي أنه ينبغي أن تخضع اللغة لنماذج وشروط إضافية على تلك التي تراعى في العلوم الطبيعية عموماً. ويبدأ تشومسكي بملاحظة أن مصطلح "ذهني" يُحدد ببساطة بعض مظاهر العالم المعينة التي نود أن نخضعها للبحث العلمي الطبيعي، ثم يتوجه إلى عرض تاريخ دقيق للأفكار - من حيث صلتها بدراسة اللغة خاصة - بدءاً من نيكارت إلى الوقت الحاضر، مستخلصاً الأشباه من علم الكيمياء ودراسة "الإبصار تحديداً، وتقتضى هذه الممارسة أنه لا يمكن صياغة مشكلة الذهن - للجسد، وأن الدور المزعوم للشعور في تحديد ما يكون المعرفة اللغوية لا يبرهان عليه؛ وأن الفهم الدلخلى للمعرفة اللغوية وحده هو القادر على إمدادنا بأي تفسير لقرائنا.

ويعود الفصل الخامس "اللغة موضوعاً طبيعياً" إلى عدد من القضايا نفسها، لكن مع التركيز مباشرة بصورة أكثر على اللغة ومعرفة اللغة. فيرى تشومسكي أن اللسانيات تنتمي إلى العلوم الطبيعية، ثم ينتبع السوابق الفكرية له في تلخيص أخاذ وملم بتاريخ العلم. وعلى الرغم من تكراره لهذا الزعم المسوَّغ عن مكانة اللسانيات "العلمية" فإنه كان صارماً في نقاشه للمحاولات الاختزالية التي تسعى إلى اختزال اللغة إلى العضوى والفيزيائي. أما ما نحتاجه هنا فهو التوحيد، ثم إن الاختزال ليس إلا حالة نادرة من هذا الإلحاق [بالفيزيائي والعضوى]. ويتضمن مدى اللسانيات الحالية مشكلات الكيفية التي يتعلم بها الأطفال لغاتهم الأولى، وكيف يستخدم البالغون هذه اللغة. ويقدم تشومسكي هنا ملاحظتين مفاجئتين. فالأولى أنه إن كانت اللغات مما يمكن

تعلمه حقًا فسيكون هذا اكتشافًا اختباريًا مفاجئًا؛ والثانية أنه يبدو أن اللغات لا يمكن استخدامها جزئيًا، كما يشهد بذلك إخفاق أنظمة الأداء غالبًا. ويختتم المقال بمناقشة رصينة لحدود الحدس. ويُعدُّ الحدسُ أو الأحكام اللغوية مركزياً للحجاج في اللسانيات، لكن تشومسكي يشير إلى أنه ربما لا يمكن أن نمثلك حدوسًا مماثلة حين يتعلق الأمر بالمفردات التقنية في الرياضيات أو الفلسفة، وأن اعتماد الفيلسوف على الاحتجاج بالحدس عن توأم الأرض^(١٦)، مثلاً، ضارٌّ دائماً.

ويتناول الفصل السادس "اللغة من وجهة نظر داخلية" بعض القضايا نفسها لكن باستخدام أمثلة أخرى وبمناقشة مطولة للاختلافات بين البحث العلمي الطبيعي وما يسمى غالباً بـ "العلم الشعبي"^(١٧). وليست العلاقة بين الاثنين واضحة بنفسها. فنحن لا نتوقع في الفيزياء أن تُفيد وجهات النظر الشعبية صياغة النظرية عند الخبير، ومع أن "العلم الإنثي"^(١٨) بنفسه مجال بحثي لاقت للنظر إلا أنه ليس هناك سبب للافتراض بشكل مسبوق أنه ينبغي للتصورات والتصيح في الحوار ما قبل العلمي أن تنتقل من غير تغيير إلى النظريات الصورية عن "اللغة - د". وليس هناك سبب، على وجه أخص، لفرض شروط النفاذ إلى الشعور على القواعد التي تُحدّد لغتنا. فإذا قال طفل:

I rided my bike.

"ركبتُ عجلتي"

يصياغة ماضى الفعل الإنجليزي ride "يركب" بشكل يختلف عن

صياغته المعهودة]

فلن نكون محقّين في إنكار أن هذا الطفل يتبع القاعدة القياسية لصياغة الفعل الماضى [في الإنجليزية]، وأقل من ذلك أن نفترض أنه يعي هذه الحقيقة. وكما هي الحال دائماً، تترتب النتائج العميقة والمعقدة - عن عقم التصورات الخارجية عن اللغة وضرورة التصورات الداخلية - على أمثلة بسيطة.

ويتابع الفصل السابع الأخير "المقاربة الداخلية" تبيين المنظور الداخلي عند تشومسكي، ويأتي بأمثلة وحجج جديدة، موسعاً نقده إلى مدى أوسع من الأهداف، وإلى مظاهر توأم الأرض خاصة. يضاف إلى ذلك أن هذا الفصل يُحكّم الربط بين هذا النقاش وأبحاث تشومسكي الأخيرة في برنامج الحد الأدنى، وينتهي بمناقشة موسعة لمدى الأفكار الفطرية وأهميتها.

وإلى جانب أبحاث تشومسكي السياسية (التي لا يتضمن هذا الكتاب شيئاً منها) فقد اشتهر بتنظيراته التركيبية. وتشتمل كثير من المقالات هنا على أمثلة واضحة ومحيّرة من الأنواع التي اشتهر بصياغتها؛ ومن ذلك التقابل بين:

John was too clever to catch.

"كان جون ذكياً جداً مما يجعل القبض عليه صعباً".

والمثال للمماثل:

John was too clever to be caught.

"كان جون ذكياً جداً أن يقبض عليه".

والجملة المستحيلة:

John was clever to catch.

"كان جون ذكياً ليُقبض عليه".

ومن اللافت للنظر أنه بالإضافة إلى هذه الأمثلة التركيبية، فأكثر التمثيل في هذه المقالات معجمي، مع حجج عميقة تقوم على عدد من الوحدات التي تُخدع ببساطتها. ويُقدّم تشومسكي هذه الحجج بالمنطق القوي نفسه كما في السابق، ثم تقود النتائج إلى وجهة نظر عن العالم ظل يدافع عنها طوال أربعين سنة؛ لكن هذه الحجج جديدة.

لما ما يشدُّ الانتباه فيما يكتبه تشومسكي فليس عمقه الأخاذ ومداه الرائع وحسب بل يتجاوز ذلك إلى حقيقة أنه ما يزال بعد نصف قرن يمتلك القدرة

على المفاجأة: فمن ملاحظته أن بنى البشر ليسوا نوعًا طبيعيًا إلى تبيينه أهمية اللغة اليابانية لتحليل اللغة الإنجليزية؛ ومن رفضه لأختراعه المشهور "البنية العميقة" إلى افتراضه أن اللغة، على الرغم من طبيعتها الأحيائية، ربما تكون أقرب إلى الأحكام؛ ومن التجانب بين البديهية والعلم إلى مقتضيات ما نعرفه عن بيت بنى أو كأس ماء؛ فكل شيء يتعاقد ليقم وجهة نظر اللغة والذهن فريدة ومقنعة.

هوامش التمهيد

- (١) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)
- (٢) هناك مصطلحات عدة تطلق في اللغة العربية الآن على هذا العلم؛ منها "علم اللغة العام" و"الألسنية" و"اللغويات". لكن هناك ما يكاد يكون توجهًا عامًا لاستخدام هذا المصطلح. (المترجم)
- (٣) انظر مقدمة المترجم. (المترجم)
- (٤) انظر تفسير هذين المصطلحين فيما يأتي في هذا التمهيد. (المترجم)
- (٥) يفسر تشومسكي هذا المصطلح في الفصل الأول من الكتاب. وهو يشير إلى ما تتصف به نظريته اللسانية بأنها داخلية فردية مفهومية. والملاحظ أن الكلمات الثلاث في الإنجليزية، أي: internal, individual, intensional، تبدأ كلها بحرف *i*، لذلك استعمل هذا الحرف في الدلالة عليها جميعًا. أما في العربية فالكلمات النظيرة تبدأ بحروف مختلفة، لذلك اكتفيت هنا باستعمال الحرف *د* (الذي تبدأ به كلمة "داخلية")، وينبغي أن نتذكر، كلما ورد هذا المصطلح، أن المقصود به الكلمات الثلاث. (المترجم)
- (٦) اخترت أن أترجم كلمة empirical بـ "اختباري"، وكذلك مشتقاتها؛ ذلك تجنبًا للبس الذي يمكن أن ينشأ من ترجمة هذه الكلمة بـ "تجريبي" التي يمكن أن تدل على للتوجه الفلسفي المعروف. (المترجم)
- (٧) النفاذ إلى الشعور هو قدرة الشخص على الكلام بصورة عينية عن حالاته الشعورية. (المترجم)
- (٨) الاختزال هو أن يُعالج علم ما في ضوء مقولات ومصطلحات علم آخر يُعد أرقى منه، كأن تفسر الكيمياء بمصطلحات ومفاهيم الفيزياء، أو تفسر علم الأحياء بمصطلحات ومفاهيم للكيمياء، وهكذا. (المترجم)

(٩) نسبة إلى القصة اليونانية القديمة عن شخص اسمه "ميداس" عقد عقدة عجز عن حلها كل الذين حاولوا ذلك. لكن الإسكندر الأكبر، القائد اليوناني الشهير، حلها بطريقته الخاصة، حيث قطعها بالسيف.
(المترجم)

(١٠) Science Forming Faculty وهي إحدى الملكات التي توجد في الذهن وتعين البشر على تكوين النظريات العلمية. (المترجم)

(١١) Utterances مصطلح عام يطلق على أي مجموع من الكلام سواء كان كلمة أو جملة أو جزءاً من جملة. (المترجم)

(١٢) يعنى مصطلح "الحد الأدنى" التلخص من كثير من التقنيات الوصفية والتفسيرية التي كانت تستعمل في الأطوار المسابقة من النظرية التوليدية وتقليص هذه الوسائل إلى عدد قليل من المبادئ العامة والوسائط. ويعنى الوصف optimal التوافق مع بعض الشروط الاقتصادية الطبيعية المحددة نحو: محلية النقل، وعدم وجود خطوات غير ضرورية للاشتقاق، إلخ. (المترجم)

(١٣) يصف تشومسكى اللغة بأنها "مُحَكِّمة" perfect، لأن الملكة اللغوية محدّدة ببعض الشروط العامة التي تحدّد مكانتها داخل مجموعة الأنظمة المعرفية للذهن/الدماغ، وتحددها كذلك بعض الاعتبارات العامة للطبيعية التصورية التي تتصف ببعض معايير المعقولية المستقلة كالبساطة والاقتصاد والاتساق وعدم الزيادة unredundancy إلخ. وربما يكون هناك كلمة عربية أوفى لترجمة هذه الكلمة.
(المترجم)

(١٤) يميز بين الفلسفة التحليلية والفلسفة التأليفية تبعاً لصياغة كانط بأن تصوّر المحمول في القضية التحليلية proposition متضمن في تصوّر الفاعل، ويمكننا من ثم الحكم على صدق القضية أو زيفها

بالتحليل. أما في القضية التأليفية فيضيف تصورُ المحمول شيئاً جديداً لتصورِ الفاعل، أما صدق القضية أو زيفها فلا يمكن تحديدهما من خلال التحليل. (المترجم)

(١٥) تعنى الشبكية الذهنية (أو الدلالية) أن ماهية مضمون اعتقاد ما (أو معنى جملة ما) يُحدّد بالمكان الذي يشغله في شبكة من الاعتقادات التي تكون مجمل نظرية ما أو مجموعة من النظريات. (المترجم)

(١٦) إشارة إلى التجربة الذهنية التي اقترحها الفيلسوف الأمريكي المعاصر هيلاري بتام في مقاله (١٩٧٥). ويدعونا فيها إلى تصور وجود أرض أخرى تشبه أرضنا بدقة، من حيث المظاهر الفيزيائية والخصائص الأخرى جميعها. لكن سكان هذه الأرض التوأم يختلفون عنا في أفكارهم ومعتقداتهم، وغير ذلك. وسوف يعرض تشومسكي لمناقشة هذه الفكرة في بعض فصول الكتاب هنا، ويبين مأخذه عليها. (المترجم)

(١٧) العلم الشعبي هو أحد فروع البحث العلمي الطبيعي - الفهم البديهي - التي تهتم بالكيفية التي يؤوّل بها الناس ثبات الموضوع، وطبيعة الحركة ومسبباتها، والفكر والفعل، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس. (المترجم)

(١٨) العلم الاتني هو دراسة لـ "التفسير النفسي البديهي للسلوك الإنساني"، كما يقول تشومسكي في الفصل السادس، نقلاً عن بيلجرامى. (المترجم)

مقدمة

شهد النصف الثاني من [القرن العشرين] نشاطًا بحثيًا مكثفًا، كان أغلبه مثمرًا جدًا في دراسة الملكات المعرفية البشرية، من حيث طبيعتها والطرق التي تدخل بها في الفعل والتأويل. ويتبنى هذا البحث عمومًا دعوى مفادها "أن الموضوعات الذهنية، بل الأذهان حقيقة، خصائص ناشئة للأدمغة"، مع إدراكه أن "هذه الخصائص الناشئة... . . . حصيلتها لعمل بعض المبادئ التي تحكم التفاعلات بين الأحداث في المستويات الدنيا - وهي مبادئ لم نفهمها بعد" (Mountcastle 1998:1). وتعتبر كلمة "بعد" عن التفاؤل الذي ظل، خطأ أم صوابًا، ملازمًا للبحث طوال هذه الفترة.

وتبعت هذه الدعوى الحياة في اقتراحات القرن الثامن عشر التي قُدمت آنذاك لأسباب قوية جدًا؛ ومن أهمها النتيجة التي يبدو أن نيوتن قررها، على الرغم من انزعاجه القوي منها، وهي "استحالة" أن يكون "علم الفيزياء ماديًا أو آليًا محضًا" (koyré: 1957: 210)؛ وكذلك المقترضات التي تترتب على "اقتراح لوك" بأن الله ربما شاء أن "يضيف إلى المادة قدرة تفكير" مثلما "ألحق الآثار بالحركة التي لا يمكننا بحال أن نتصور الحركة قادرة على إحداثها" (Locke 1975: 541, Book IV, Chapter 3, Section 6). وتستحق هذه السوابق التي اقترحت في فجر العصر الحديث، والفكر الذي كان وراءها، اهتمامًا أعمق من الاهتمام الذي أوليته من قبل، كما أظن. ومما يجدر ذكره كذلك أن قصور الفهم لـ "تفاعل الذهن/الدماغ" لم يكن الوجه الوحيد الذي كان التقدم فيه محدودًا منذ بدايات الثورات العلمية الحديثة. ذلك أنه على الرغم من تحقيق البحث في الملكات الذهنية العليا تقدمًا كبيرًا في بعض المجالات، فإن نتائجه لم تلامس القضايا التي كانت تؤخذ - بحق، في رأيي - على أنها تمثل جوهر المشكلة. وسوف أتناول بعضًا من هذه القضايا في الفصول التالية من هذا الكتاب.

وكانت دراسة اللغة إحدى المجالات التي تحقق فيها تقدم كبير، في العشرين سنة الماضية خاصة. لكن الأسئلة التقليدية ظلت، هنا كذلك، على الأفق، هذا إن كانت هناك ابتداء. ويأخذ هذا البحث، كما أفهمه، أحد صيغ الدعوى عن الذهن /الدماغ التي أورنتها آنفاً أمراً مسلماً (بصورة ضمنية في الغالب)، وهو الوجه الذي يمكن تأويله بصورة معقولة على أنه جزء من علم النفس أو جزء من علم الأحياء البشري، بصورة أعم. وقد أطلق بعض الباحثين على هذا المنحى من البحث، بشكل مسوِّغ، مصطلح "اللسانيات الأحيائية" (Jenkins 1999). وهي تأخذ موضوعاً لها بعض الحالات المحددة للناس، وهو ما يعنى غالباً حالات أدمغتهم: ونسُمها بـ"الحالات اللغوية". وتسعى إلى الكشف عن طبيعة هذه الحالات وخصائصها، وتطوراتها وأنواعها، والأمس التي تقوم عليها في الإعداد الأحيائي الفطري. ويبدو أن هذا الإعداد يُحدّد "ملكة لغوية" تتصف بأنها مكونٌ فريدٌ من مكونات الملكات الذهنية العليا (وربما يكون لعناصرها، بوصفها نظاماً، أنواعٌ كثيرة من الوظائف)، أي أنها "خصيصة مقصورة على النوع" ومشاركة بين بنى البشر إلى حد بعيد، مع بعض التنوعات العامة لها. والملكة اللغوية تطوّر أحيائي حديث جداً، وهي، على حد ما نعلم، قدرة معزولة أحياناً من حيث بعض المعايير المهمة. ويسعى البحث في اللسانيات الأحيائية إلى توحيدها مع المقاربات البحثية الأخرى لخصائص الدماغ، مع الأمل في أن تكتسب الشُرطة [1]، في عبارة "الذهن/الدماغ"، مضموناً أكثر جوهرية في المستقبل. ولا يقتصر اهتمامها على طبيعة الحالات اللغوية وتطورها، بل تهتم كذلك بالطرق التي تدخل بها [هذه الحالات] في استخدام اللغة. ويشمل هذا الاهتمام من حيث المبدأ، وأحياناً من حيث الواقع، علاقات هذه الحالات بوسيط خارجي ما (كإنتاج الكلام وإبرائه)، والدور الذي تؤديه في التفكير والكلام عن العالم والأفعال الأخرى التي يقوم بها الإنسان والتفاعلات بينها. وتوحى هذه المقاربة، كما يبدو لي، بأننا ربما نحتاج إلى قدر كبير من إعادة

التفكير، في بعض المجالات، ومنها على الأخص تلك التي تتصل بالإحالة والمعنى في اللغة الطبيعية، وذلك لأسباب ناقشتها في الفصول التالية.

ويجب بالطبع أن نبرهن على أن هذه المقاربة "العلمية الطبيعية" naturalistic طريق ملائم للبحث في ظواهر اللغة، واستخدامها. والدعوى الأكثر طموحاً أن هذه المقاربة قضية مسلمة (بصورة ضمنية في الأقل، وأحياناً يرغم الإنكار الصريح لوجودها) في البحث البناء غالباً في هذه المجالات؛ وأن شيئاً شبيهاً بها صحيح في دراسة الملكات المعرفية الأخرى. كما يجب البرهنة كذلك على أن أنواع النقد الموجهة لهذه المقاربة مضللة، ويشمل ذلك أنواع النقد الشائعة جداً والمؤثرة. وهذا كله معقول جداً، كما أظن. وتحاول الفصول التالية، التي كان أصلها محاضرات ألقيتها خلال السنوات القليلة الماضية، أن تقدم بعض الأسباب التي تقود إلى هذه النتائج، وأن ترسم بشكل أولي بعض الاتجاهات التي تبدو لي ملائمة وتستحق الاستقصاء.

الفصل الأول آفاق جديدة في دراسة اللغة

تعدُّ دراسةُ اللغةِ واحدةً من أقدم فروع الدراسة المنهجية، فقد بدأت عند الهنود واليونانيين القدماء، وشهد تاريخها كثيرًا من الإنجازات الغنية والمثمرة. لكنها من زاوية مختلفة، ما تزال حديثة جدًا؛ ذلك أن المشاريع البحثية الرئيسية السائدة اليوم لم تأخذ الشكل الذي هي عليه إلا منذ أربعين سنة تقريبًا، حين بُعثت بعض الأفكار التقليدية الرئيسة ورُسِّت، وهو ما فتح الطريق أمام ما برهن على أنه دراسة مثمرة جدًا.

أما حظوة اللغة بمثل هذا الاهتمام عبر السنين فليست أمرًا مفاجئًا. إذ يبدو أن الملكة اللغوية البشرية "خصيصة مقصورة على النوع" حقيقةً، ولا يختلف البشر فيها إلا اختلافًا ضئيلاً، وليس لها نظير مهمٌ عند سواهم. وربما كان أقرب النظائر لها ما نجده لدى الحشرات التي يفصلها عن البشر تاريخ تطوري يمتد لبليون سنة. وليس من سبب جوهري اليوم للاعتراض على وجهة النظر الديكارتية التي ترى أن القدرة على استخدام الإشارات اللغوية للتعبير عن الأفكار التي تُكوِّن بصورة حرة هي ما يرسم "الفارق الحقيقي بين البشر والحيوان"، أو الآلة، سواء عنيًا بـ "الآلة" تلك "الأتمة" التي ألهبت خيال الناس في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، أم الآلات التي تحفز الفكر والخيال في الوقت الحاضر.

وتدخل الملكة اللغوية، زيادة على ذلك، بشكل جوهري في مظاهر الحياة كلها، وفي الفكر والتفاعل البشريين. وهي مسئولة بشكل كبير عن أن للبشر وحدهم في العالم الأحيائي تاريخًا وتطورًا ثقافيًا وتنوعًا لا حدود لتعقيده وغناه، بل هي مسئولة كذلك عن النجاح الأحيائي الذي حققه بالمعنى التقني الذي يعني أن عددهم كبير جدًا. وربما لا يمكن لعالم من المريخ يلاحظ الأحداث الغريبة التي تحدث على الأرض ألا يدهشه نشوء هذا الشكل

من التنظيم الفكري الفريد للواضح وأهميته. بل إن الأمر الأكثر طبيعية أن يكون هذا الموضوع، بالغازه الكثيرة، مصدرًا لإثارة حب الاستطلاع عند أولئك الذين يسعون لفهم طبيعتهم هم ومكانهم في العالم الأوسع [أي عند البشر].

وتقوم اللغة البشرية على خصيصة أولية، يبدو أنها نفسها معزولة أحيانًا، وهي "اللانهائية المتميزة"، التي تتجلى في أنقى أشكالها في الأعداد الطبيعية، أي: ١، ٢، ٣، . . . فالأطفال لا يتعلمون هذه الخصيصة؛ أما إن لم تكن المبادئ الأساسية [لهذه الخصيصة] موجودة بشكل مسبق في الدماغ فلا يمكن لأي قنر من الأتلة أن يقرأها. ولا يلزم أي طفل، كذلك، أن يتعلم أن هناك جملاً تتألف من ثلاث كلمات وجملاً من أربع، لكن ليس هناك جملة من ثلاث كلمات ونصف، وأن عدد الكلمات في الجملة يمكن أن يتزايد بصورة غير نهائية؛ فمن الممكن دائماً تكوين جملة أكثر تعقيداً، لها شكل ومعنى محدّدان. ويجب أن تكون مثل هذه المعرفة قد جاءت إلينا من "اليد الأصلية للطبيعة"، كما تقول عبارة ديفيد هيوم (108: 1748/1975 القسم ٨٥)، بصفتها جزءاً من إعدادنا الأحيائي.

وقد أدهشت هذه الخصيصة جاليليو الذي رأى أن اكتشاف طريقة نستطيع بها إيصال "أكثر أفكارنا سرية إلى أي شخص آخر باستخدام أربعة وعشرين شكلاً صغيراً" (Galileo 1623/1661, end of the first day) أعظم الاكتشافات البشرية. وينجح هذا الاختراع؛ لأنه يُصوّر خصيصة اللانهائية المتميزة للغة التي تستخدم هذه الأشكال في تمثيلها. وبعد ذلك بفترة وجيزة ذهب مؤلفو كتاب Port Royal Grammar بذلك "الاختراع للرائع" لوسيلة يمكن بها أن نكون من عند قليل من الأصوات تعبيرات غير نهائية تمكنا من أن نطلع الآخرين على ما نفكر فيه وما نتخيله وما نشعر به – وليست هذه "اختراعاً" من وجهة نظر معاصرة، لكنها لا تقل "روعة" بوصفها ثمرة لعملية التطور الأحيائي، التي لا نكاد نعرف عن الدور الذي قامت به شيئاً، في هذه الحالة.

ويمكن أن ننظر إلى الملكة اللغوية بشكل معقول على أنها "عضو" للغة" بالمعنى نفسه الذى يتحدث به العلماء عن نظام الإبصار، أو نظام المناعة، أو نظام الدورة الدموية بوصفها أنظمة للجسد. وإذا فهمنا العضو على هذا النحو فهو ليس شيئاً يمكن نزعها من الجسد، فى حين يُترك سائرُه كما هو. فهو نظام فرعى لبنية أكثر تعقيداً. ونأمل أن نفهم التعقيد الكامل [لهذه البنية] بتقصي أجزائها التى لها خصائص فارقة، وبتقصي تفاعلاتها. وتسير دراسة الملكة اللغوية بهذه الطريقة نفسها.

ونفترض كذلك أن عضو اللغة شأنه شأن الأعضاء الأخرى من حيث كون طبيعتها الأساسية تعبيراً عن "المورثات". أما الكيفية التى يحدث بها هذا فستظل هدفاً بعيداً للبحث العلمى، لكننا نستطيع أن ندرس "الحالة الأولى" للملكة اللغوية المحددة وراثياً بطرق أخرى. فمن الواضح أن أى لغة محصلة للتفاعل بين عاملين هما: الحالة الأولى، ومسار التجربة. فيمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى على أنها "جهاز" لاكتساب اللغة" يأخذ التجربة "نخلاً" ويُعطى اللغة "خروجاً" - أى "خروجاً" يمثل داخلياً فى الذهن/الدماغ. والدخل والخروج كلاهما موضوعان للبحث؛ فيمكن أن ندرس مسار التجربة وخصائص اللغات التى اكتسبت، ويمكن لما نتعلمه بهذه الطريقة أن يكشف لنا الكثير عن الحالة الأولى التى تتوسط بين الاثنين.

وهناك سبب قوى - زيادة على ذلك - للاعتقاد بأن الحالة الأولى مشتركة بين أفراد النوع [البشرى]؛ فلو نشأ أطفالى فى طوكيو لاكتسبوا اللغة اليابانية، شأنهم شأن الأطفال هناك. ويعنى هذا أن للأدلة عن اليابانية صلة مباشرة بالمسلمات عن الحالة الأولى للإنجليزية. ويمكن بهذه الطرق أن نضع شروطاً علمية اختبارية قوية يجب على نظرية الحالة الأولى أن تخضع لها، وأن تخلق مسائل عديدة لعلم الأحياء الخاص باللغة، مثل: كيف تحدث المورثات الحالة الأولى، وما آليات الدماغ التى تدخل فى الحالة الأولى والحالات التالية التى تتخذها؟ وهذه مشكلات صعبة جداً، حتى فى الأنظمة

الأكثر بساطة حيث يكون التجريب المباشر ممكناً، لكن بعض هذه المشكلات ربما تقع على أفاق البحث.

وتهتم المقاربة التي بيّنت خطوطها العامة هنا بالملكة اللغوية، أي: بحالتها الأولى، والحالات التالية التي تتخذها. افترض أن عضواً للغة عند بيتر كان في الحالة "ل" [من لغة]. ويمكن عندئذ أن نأخذ "ل" على أنها "اللغة التي استبطنها" بيتر. وهذا ما أعنيه حين أتحدث عن اللغة هنا. وإذا فهمنا اللغة بهذه الكيفية فهي أشبه ما تكون بـ: "الطريقة التي نتكلم بها ونفهم"، وهي إحدى التصورات التقليدية لها.

وتسمى النظرية الخاصة بلغة "بيتر"، إذا استخدمنا مصطلحاً تقليدياً في إطار جديد، "تحو" لغته. وتحدّد لغة بيتر عدداً غير نهائي من التعبيرات، لكل منها صوته ومعناه. وتولد لغة بيتر، إذا استخدمنا للمصطلحات التقنية، تعبيرات لغته. لذلك تسمى النظرية الخاصة بلغته "تحو" توليدياً. وكل تعبير منها مجموع معقد من الخصائص يوفر "تعليمات" لأنظمة الأداء عنده، أي: لأعضاء نطقه، والطرق التي ينظم بها أفكاره، وهكذا. وإذا ما اتخذت لغة بيتر وأنظمة الأداء التي تتصل بها الأوضاع التي تكون عليها، فيعني هذا أنه يمتلك معرفة واسعة جداً بصوت تلك التعبيرات ومعناها، وقدرة مماثلة لتأويل ما يسمعه، والتعبير عن آرائه، واستخدام لغته بطرق متنوعة كثيرة أخرى.

وقد نشأ النحو التوليدي في سياق ما يُسمى في أكثر الأحيان بـ "الثورة المعرفية" في خمسينيات [القرن العشرين]، وهو الذي كان عاملاً مهماً في تطورها. ويغض النظر عن إن كان مصطلح "الثورة" ملائماً أم لا [عند إطلاقه على النحو التوليدي]، فقد كان هناك تغير مهم في المنظور: إذ تحول الاهتمام من ملاحظة السلوك والنتائج المحصّلة منه (كالنصوص)، إلى الآليات الداخلية التي تدخل في التفكير والفعل. فلا يأخذ المنظور المعرفي السلوك وما ينتج عنه موضوعاً للدرس، بل مادة أولية يمكن أن تقدم لنا أدلة على آليات الذهن الداخلية والطرق التي تتخذ بها هذه الآليات الأفعال وتؤول

بها التجربة. وما يزال هناك مكان للخصائص والأنماط التي كانت محل اهتمام اللسانيات البنيوية، لكن بوصفها ظواهر ينبغي تفسيرها مع ظواهر أخرى كثيرة، في ضوء الآليات الداخلية التي تولد التعبيرات. وهذه المقاربة "ذهنية"، لكن بمعنى ينبغي ألا يكون موضعاً لخلاف. فهي تهتم بـ "بالمظاهر الذهنية للعالم"، التي توجد جنباً إلى جنب مع مظاهره الآلية والكيميائية والمناظيرية optical، إلخ. وتسمى لأن تدرس موضوعاً واقعياً في العالم الطبيعي — كالدماع وحالاته ووظائفه — وبهذا تدفع بدراسة الذهن نحو التوحيد مع العلوم الأحيائية في نهاية الأمر.

وقد جذبت "الثورة المعرفية" كثيراً من الفهوم العميقة والإنجازات والمآزق فيما يمكن أن يسمى بـ "الثورة المعرفية الأولى" في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأعادت صياغتها، وهي التي كانت جزءاً من الثورة العلمية التي غيرت فهمنا للكون بصورة جذرية. فقد أدرك الباحثون في تلك الفترة أن اللغة تتميز بـ "استخدام غير محدود لوسائل محدودة"، كما يقول وليم فون هامبولت؛ لكن لم يكن لهذا الفهم العميق أن يتطور إلا بطرق محدودة، ذلك أن الأفكار الأساسية ظلت مشوشة وغامضة. أما في أواسط القرن العشرين فقد وفر التقدم في العلوم الصورية تصورات ملائمة بشكل محدد وواضح جداً، كما يمكن، بشكل جزئي في الأقل، من إعطاء تفسير دقيق للمبادئ الحوسبية التي تولد التعبيرات اللغوية، ومن ثم فهم فكرة "الاستخدام غير المحدود لوسائل محدودة". كما فتحت بعض أوجه التقدم الأخرى الطريق إلى دراسة القضايا التقليدية، مع قدر كبير من الأمل في النجاح. وحققت دراسة التغير اللغوي إنجازات كبيرة. وقدمت الأناسة اللغوية فهماً أغنى لطبيعة اللغات وتنوعاتها، وهو ما زلزل كثيراً من المقولات المقبولة. وكانت بعض الموضوعات، ومن أبرزها دراسة الأنظمة الصوتية، قد حققت تقدماً كبيراً في إطار اللسانيات البنيوية في القرن العشرين.

وسرعان ما كشفت المحاولات المبكرة لتنفيذ برنامج النحو التوليدي أن كثيراً من الخصائص [اللغوية] الأساسية لم تلاحظ، حتى في اللغات التي

درست بكثافة، وأن أكثر الأنحاء التقليدية تفصيلاً وشمولاً والمعاجم التقليدية لم تتجاوز ظاهر اللغة. وظلت خصائص اللغة الأساسية مفترضة طوال تلك الفترة، لكنها لم تترك ولم يعبر عنها. وهذا ملائم جداً إن كان الهدف من الدراسة مساعدة الناس على تعلم لغة ثانية، أو اكتشاف المعنى المتواضع عليه للكلمات أو الطريقة التي تنطق بها أو تحصيل فكرة عامة عن الكيفية التي تختلف بها اللغات بعضها عن بعض. أما إن كان الهدف فهم الملكة اللغوية والحالات التي يمكن لها أن تتخذها فلا يمكن أن نفترض ضمناً "نكاه القارى". بل إن هذا هو موضوع الدراسة، بدلاً من ذلك.

وتعود دراسة اكتساب اللغة إلى النتيجة نفسها؛ إذ سرعان ما تكشف النظرة المتأنية لتأويل التعبيرات اللغوية أن الأطفال، منذ الأطوار المبكرة، يعرفون أكثر بكثير مما توفره التجربة. ويصح هذا حتى في الكلمات البسيطة. فيكتسب الطفل الكلمات، في فترات نروية نمو اللغة، بمعدل كلمة في الساعة، برغم التعرض المحدود جداً للغة وحدثه في ظروف غامضة جداً. وتفهم الكلمات بطرق دقيقة ومتداخلة بعيدة جداً عن تناول أي معجم، وهي طرق لم يبدأ في دراستها إلا قريباً جداً. وحين نتخطى مستوى الكلمة الواحدة تصبح النتيجة أكثر إثارة. فيبدو اكتساب اللغة قريب الشبه بنمو الأعضاء عموماً؛ فهو شيء يحدث للطفل، لا شيء يُنجزه، ومع أنه لا جدال في أن البيئة مهمة إلا أن المسار العام للتطور والسمات الرئيسة لما يحدث محدّدان بالحالة الأولى بشكل مسبق. لكن الحالة الأولى مشتركة بين الناس. لذلك يجب أن تكون اللغات، في خصائصها الأساسية بل في تفصيلاتها الدقيقة، مفصلة من قماش واحد. ويمكن للعالم المريخي أن يستنتج بصورة معقولة أن هناك لغة بشرية واحدة وحسب، مع بعض الاختلافات الهامشية.

ومع تطور الدرس المتأني للغات انطلاقاً من وجهة نظر النحو التوليدي، صار واضحاً أن تنوعها كان ضحية لبخس متطرف يماثل التطرف في بخس تعقيدها وبخس مدى تحديد الحالة الأولى للملكة اللغوية. إلا أننا

نعرف، في الحين نفسه، أن هذا التنوع والتعقيد ليسا إلا مظهرًا سطحيًا. وكانت هذه النتائج مفاجئة، ومتعارضة لكن لا يمكن نكرانها. وقد أثارت بشكل صارخ ما صار قضية مركزية في الدراسة الحديثة للغة، أي: كيف يمكن أن نبيّن أن اللغات جميعها لا تعدو أن تكون تنوعات لشيء واحد، في الحين الذي نرصد فيه خصائصها الصوتية والدلالية المتشابهة بصورة دقيقة، وهي التي تبدو مختلفة بشكل لا لبس فيه؟ ويوجب هذا أن نحقق النظرية الدقيقة عن اللغة البشرية شرطين اثنين، هما: "الكفاية الوصفية" و"الكفاية التفسيرية". فيجب أن يحقّق نحو لغة ما شرط الكفاية الوصفية ليقدّم رصدًا دقيقًا كاملًا للخصائص التي يعرفها متكلّم تلك اللغة. أما تحقيق شرط الكفاية التفسيرية فيوجب أن تبين أية نظرية للغة كيف يمكن أن تُشتق أية لغة من الحالة الأولى المتمثلة [عند البشر] تحت شروط الحدود التي تقرضها التجربة، وتوفّر - بهذه الطريقة - تفسيرًا لخصائص اللغات في مستوى أكثر عمقا.

وهناك تجاذبٌ خطير بين هذين الهدفين للبحث. إذ يبدو أن البحث عن الكفاية الوصفية يقود إلى مزيد من التعقيد والتنوّع في أنظمة القواعد، في حين يتطلب البحث عن الكفاية التفسيرية وجوب أن تكون بنية اللغة متجانسة، إلا في الهوامش. وهذا التجاذب هو ما يرسم الخطوط الموجهة للبحث غالبًا. وتتمثل الطريقة الطبيعية لحل هذا التجاذب في مساعلة الفرضية التقليدية، التي نقلت إلى النحو التوليدي المبكر، وتقضى بأن اللغة نظامٌ معقد من القواعد، وأن كل واحد منها خاصٌ ببعض اللغات والتراكيب النحوية المعينة، كقواعد تكوين جمل الصلّة في اللغة الهندية، والعبارات الفعلية في السواحلية، والمبنى للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما اعتبارات الكفاية التفسيرية فتبيّن أن هذا المسار ليس صحيحًا.

وكانت المسألة المركزية أن نجد الخصائص العامة لأنظمة القواعد التي يمكن عزوها إلى الملكة اللغوية نفسها، مع الأمل في أن يبرهن ما فضل

عن ذلك أنه أكثر بساطة وتجانسا. وقد تمثلت هذه الجهود، قبل خمس عشرة سنة تقريبا، في مقارنة اللغة كانت مفارقتها للتقاليد البحثية القديمة تفوق في جذريتها مفارقة النحو التوليدي المبكر لتلك التقاليد؛ فقد رفضت هذه المقاربة التي سميت بـ "المبادئ والوسائط" تصور القاعدة والتركيب النحوي رفضاً تاماً؛ فليس هناك قواعد لتكوين جمل الصلة في اللغة الهندية، ولا عبارات فعلية في السواحلية، ولا مبنى للمجهول في اليابانية، وهكذا. أما التراكيب النحوية المألوفة فنظر إليها على أنها مظاهر تصنيفية، ربما تكون مفيدة في الوصف العام لكن ليس لها أهمية نظرية. ذلك أن وضعها لا يبعد عن وضع أفكار مثل "الحيوانات الثديية الأرضية" أو "الحيوان المنزلي الأليفة". ثم حُلَّت القواعد لتكون على صورة مبادئ عامة للملكة اللغوية، وهي المبادئ التي تتفاعل لتنتج خصائص للتعبيرات اللغوية.

ويمكن أن ننظر إلى الحالة الأولى للملكة اللغوية على أنها شبكة قارة موصولة بلوح مفاتيح؛ وتتكون هذه الشبكة من مبادئ اللغة، أما المفاتيح فتُمثل الخيارات المعينة التي تحددها التجربة. ونحصل حين نوضع المفاتيح في وضع معين على اللغة السواحلية؛ ونحصل على اليابانية حين نوضع بشكل آخر. وينظر إلى أية لغة بشرية على أنها وضع معين للمفاتيح - أي وضع للوسائط، بالمصطلحات التقنية. وينبغي أن يكون باستطاعتنا على وجه الدقة، إن كان برنامج البحث ناجحاً، أن نحصل على السواحلية من اختيار معين للمفاتيح، واليابانية من وضع آخر لها، وهكذا عبر اللغات التي يمكن للبشر اكتسابها. وتوجب الشروط الاختيارية على اكتساب اللغة أن يكون من الممكن وضع المفاتيح بناءً على ما يتوفر للطفل من معلومات محدودة جداً. لاحظ أنه يمكن لبعض التغييرات البسيطة في وضع المفاتيح أن تقود إلى تنوعات هائلة ظاهرياً، تبعاً لتكاثر آثار هذا الوضع في تضاعيف النظام. هذه هي الخصائص العامة للغة التي يجب على أية نظرية حقيقية أن تبينها بطريقة ما.

ولا يدعو هذا بالطبع أن يكون برنامجًا للبحث، فهو أبعد ما يكون عن كونه نتيجة ناجزة. وربما لا يمكن للنتائج التي تُقترح مرحليًا أن تبقى على شكلها الحاضر؛ بل ربما لا يمكن الاطمئنان إلى أن هذه المقاربة بأجمعها تسير في الطريق الصحيح. ومع هذا فقد حَقَّقت، بوصفها برنامج بحث، قدرًا عاليًا من النجاح، وقادت إلى توسع حقيقي في البحث الاختباري في لغات تنتمي إلى أسر لغوية متنوعة جدًا، وأثارت أسئلة جديدة لم يكن بالإمكان حتى صياغتها من قبل، وإلى إجابات عميقة مدهشة كثيرة. واتخذت بعض القضايا، كاكْتساب اللغة وتحليل الجمل وعلاج العيوب اللغوية وقضايا أخرى، أشكالًا جديدة، وبرهنت على أنها أبحاث خصبة جدًا. ويوحى هذا البرنامج، زيادة على ذلك، بغض النظر عما سيؤول إليه، بالكيفية التي يمكن بها أن تتوافق النظرية اللغوية مع الشرطين المتعارضين للكفاية الوصفية والكفاية التفسيرية. فهي ترسم في الأقل خطوطًا عريضة لأية نظرية حقيقية للغة، وهذا ما يحدث لأول مرة، حقيقة.

والمهمة الرئيسة، ضمن هذا البرنامج للبحث، أن نكتشف المبادئ والوسائط والطريقة التي تتفاعل بها ونوضحها، وأن نوسع الإطار ليشمل بعض المظاهر الأخرى للغة واستخدامها. ومع أن قدرًا عظيمًا من المسائل ما يزال غامضًا، إلا أنه قد تحقق ما يكفي من التقدم الذي جعلنا في الأقل قادرين على النظر في بعض القضايا الجديدة ذات المقننات البعيدة جدًا مما يتعلق بتصميم اللغة، وربما بدراساتها. ويمكن أن نسأل، على الأخص: ما مدى جودة هذا التصميم؟ وما مدى قرب اللغة مما يمكن لمهندس ماهر جدًا أن يصممه، حين نأخذ في الحسبان الظروف التي يجب على الملكة اللغوية أن تتوافق معها؟

ويجب أن تصاغ هذه الأسئلة بصورة أكثر تحديدًا ووضوحًا، وهناك عدد من الطرق للسير في هذا السبيل. فالملكة اللغوية مدمجة في البنية الأوسع للذهن/الدماغ، وتتفاعل مع الأنظمة الأخرى التي تفرض شروطًا

يجب على اللغة التوافق معها إن كان لها أن تكون صالحة للاستخدام ابتداءً. ويمكن أن ننظر إلى هذه الشروط على أنها شروط للمقرونية legibility conditions ، بمعنى أنه يجب أن يكون باستطاعة الأنظمة الأخرى أن "تقرأ" تعبيرات اللغة وأن تستخدمها بوصفها "تعليمات" للفكر والفعل. فيجب مثلاً أن يكون باستطاعة الأنظمة العصبية الحركية قراءة التعليمات ذات الصلة بالصوت، أي "التمثيلات الصوتية" التي ولدتها اللغة. ولأعضاء النطق والإدراك تصميم محدد يجعلها قادرة على تأويل بعض الخصائص الصوتية المحددة، لا خصائص أخرى. وبهذا تفرض هذه الأنظمة شروطاً للمقرونية على العمليات التوليدية للملكة اللغوية، وهي التي يجب أن توفر للتعبيرات الصورة الصوتية الملائمة. ويصح الأمر نفسه في الأنظمة التصويرية والأنظمة الأخرى التي تعتمد على موارد الملكة اللغوية، فلهذه الأنظمة خصائص ذاتية توجب أن يكون للتعبيرات التي ولدتها اللغة أنواع محددة من "التمثيلات الدلالية"، لا تمثيلات أخرى. لهذا ربما نسأل عن الحد الذي تكون اللغة عنده "حلاً جيداً" لشروط المقرونية التي تفرضها الأنظمة الخارجية التي تتفاعل معها. ولم يكن من الممكن لهذا السؤال، إلى وقت قريب جداً، أن يطرح بشكل جاد، أو أن يصاغ بطريقة معقولة كذلك. لكن يبدو الآن أن هذا ممكن، بل هناك ما يدل على أن الملكة اللغوية ربما تكون قريبة جداً من أن تكون نظاماً "مُحكماً" بهذا المعنى؛ وإذا كان هذا صحيحاً فهو نتيجة مفاجئة.

وما اصطلح على تسميته بـ "برنامج الحد الأدنى" جهتاً موجة نحو تقصى هذه المسائل. ومن المبكر جداً تقديم حكم نهائي على هذا المشروع. أما حكمي الخاص فهو أن من الممكن وضع هذه المسائل بشكل مثير على جدول العمل، وأن نتائجها المبكرة واعدة. ولود هنا أن أتحدث باختصار عن هذه الأفكار والتطلعات، ثم أعود بعد ذلك إلى بعض القضايا التي ما تزال على الأفق.

فيوجب برنامج الحد الأدنى إخضاع الافتراضات التقليدية للتقصي المتأنى. وأكثر هذه القضايا تَبْجِيلاً أن اللغة صوتاً ودلالة، وتُترجم هذه

القضية، في المصطلحات الجديدة بشكل طبيعي، إلى الدعوى التي تقضى بأن الملكة اللغوية تتقن بالأنظمة الأخرى للذهن/الدماغ عند "مستويين وجيهين" interface levels⁽¹⁾ يتصل أحدهما بالصوت والآخر بالدلالة. فيحوى أى تعبير معين وأدته اللغة تمثيلاً صوتياً يمكن أن تقرأه الأنظمة العصبية الحركية، وتمثيلاً دلاليًا يمكن أن يقرأه النظام التصوري والأنظمة الأخرى للفكر والفعل.

وأحد الأسئلة السؤال عن إن كان هناك مستويات أخرى غير المستويين الوجيهين هذين: أى هل هناك مستويات "داخلية" للغة، وعلى الخصوص، مستوي البنية السطحية والبنية العميقة للذات افتراضاً في البحث المعاصر؟ (انظر، مثلاً: تشومسكي ١٩٦٥؛ ١٩٨١؛ ١٩٨٦). ويسعى برنامج الحد الأدنى لتبيين أن كل ما حُلت بموجب نيتك المستويين كان ضحية لخطأ في الوصف، ويمكن فهمه بشكل مماثل أو أفضل في ضوء شروط المقروئية في المستويين الوجيهين؛ ويعنى هذا، عند المطلعين على الأبحاث المتخصصة، مبدأ الإسقاط، ونظرية الربط، ونظرية الحالة الإعرابية، وشرط السلسلة، وغيرها.

ونحاول كذلك أن نبين أن العمليات الحوسبية الوحيدة هي تلك التي لا يمكن تجنبها في ضوء أضعف الافتراضات عن خصائص المستويين الوجيهين. ومن هذه الافتراضات أن هناك وحدات شبيهة بالكلمة: أى أنه يجب على الأنظمة الخارجية أن تكون قادرة على تأويل وحدات مثل "بيتر" و"طويل". والافتراض الآخر أن هذه الوحدات منظمة في تعبيرات أكبر، كـ Peter is tall "بيتر طويل". والافتراض الثالث أن لهذه الوحدات خصائص صوتية ودلالية؛ فتبدأ الكلمة "بيتر" Peter بإغلاق الشفتين وتستخدم في الإحالة إلى أشخاص. لذلك تتضمن اللغة ثلاثة أنواع من العناصر:

- * خصائص الصوت والمعنى، وتسمى بـ "السمات"؛
- * وتبني الوحدات بجمع هذه الخصائص، وتسمى "الوحدات المعجمية"؛
- * وتركب التعبيرات المعقدة بجمع هذه الوحدات "الذرية" بعضها إلى بعض.

ويترتب على هذا أن النظام الحوسبي الذي يولد التعبيرات يقوم بعمليتين: فتجمع الأولى السمات في وحدات معجمية، وتكون الثانية وحدات تركيبية أكبر بجمع تلك الوحدات التي سبق تركيبها، بدءًا بالوحدات المعجمية.

ويمكن أن ننظر إلى العملية الأولى على أنها قائمة بالوحدات المعجمية أساسًا. وتحتوي هذه القائمة، أي المعجم، بالمصطلحات التقليدية، "الاستثناءات"، أي الارتباطات الاعتبارية بين الصوت والمعنى، والاختيارات المعينة للخصائص التصريفية التي توفرها الملكة اللغوية التي تحدد للكيفية التي يمكن بها أن نعبر عن كون الأسماء والأفعال مفردة أو جمعا، وأن الأسماء يمكن أن تكون مرفوعة أو منصوبة، إلخ. ومن الواضح أن هذه السمات التصريفية تؤدي دورًا رئيسيًا في الحوسبة.

ولن يدخل التصميم الأمثل optimal أية سمات جديدة في أثناء الحوسبة. لذلك ينبغي ألا تكون هناك إشارات [تعيّن العلاقة بين الأسماء] indices ولا وحدات مركبية ولا مستويات بشرطة bar levels (ومن هنا ليس هناك قواعد للبنية المركبية أو نظرية س - بشرطة؛ لنظر Chomsky 1995c)⁽⁷⁾. كما نحاول أن نبين أنه لا تفرض أية علاقات بنيوية عدا تلك التي تفرضها شروط المقرونية أو تستدعيها بعض الطرق الطبيعية للحوسبة نفسها. ومن الصنف الأول خصائص مثل شرط التجاور adjacency في المستوى الصوتي، وعلاقات البنية الموضوعاتية argument - structure وعلاقات السور بالمتغير quantifier-variable في المستوى الدلالي. أما في الصنف الثاني فهناك بعض العلاقات المحلية المحض بين السمات، وبعض العلاقات الأولية بين موضوعين تركيبيين يوصل أحدهما بالآخر في أثناء الحوسبة؛ فالعلاقة التي تقوم بين أحد هذين الموضوعين وبعض أجزاء الموضوع الآخر هي علاقة التحكم المكسوثي c-command؛ وكما أشار

صامويل إيبستين (١٩٩٩) فهذه فكرة تؤدي دوراً رئيساً عبر تصميم اللغة ككله، وكان يُنظر إليها على أنها غير طبيعية إلى حد بعيد، إلا أنها تجد مكانها بطريقة طبيعية من هذا المنظور. لكننا سنتخلص من "العصل" government وعلاقات الربط الداخلية في اشتقاق التعبيرات، إضافة إلى أنواع أخرى من العلاقات والتفاعلات.

وكما نعرف أي مطلع على الأبحاث التي أنجزت في الماضي القريب، هناك أدلة اختبارية وافرة تدعم النتيجة المضادة لهذا كله، وأسوأ من هذا أن إحدى المسلمات المركزية في البحث الذي أنجز في إطار نظرية المبادئ والوسائط، والإنجازات الباهرة إلى حد بعيد التي حققتها، تقضي بأن كل ما اقترحتُه أنفاً زائف – وهو ما يعني أن اللغة "غير محكمة" إلى حد بعيد بهذه المعايير، كما يمكن أن يتوقع؛ فليست مهمة سهلة – إذن – أن نبيّن أنه يمكن التخلص من هذه الوسائل التقنية بوصفها تقنيات وصفية غير مرغوبة؛ وربما أفضل من ذلك، أن القوة الوصفية والتفسيرية ستتعاظم إن تخلصنا من هذا "الحمل الزائد". لكنني أظن، مع ذلك، أن الجهود البحثية التي أنجزت في السنوات القليلة الماضية توحى بأن هذه النتائج، التي كانت تبدو مستحيلة قبل ذلك، ممكنة في الأقل، بل ربما صحيحة.

ومن الجلي أن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى، ونحن نرغب أن نعرف كيف تختلف، وأحد المعايير التي تختلف فيها اللغات بعضها عن بعض اختياراتها من الأصوات، وهي التي تتنوع تنوعاً محدوداً. والمعيير الثاني أنها تختلف من حيث الارتباط بين الصوت والمعنى، وهو ارتباط اعتباطي أساساً. وهذان المعياران واضحان، وينبغي ألا نتوقف عندهما كثيراً. وأكثر من ذلك لفتاً للنظر اختلاف اللغات في الأنظمة الصرفية: كاختلافها في أنظمة الإعراب، مثلاً. فهذه الأنظمة غنية جداً في اللاتينية، وأغنى من ذلك في السنسكريتية أو الفينلندية، لكنها محدودة في الإنجليزية وخفية في الصينية. أو هكذا تبدو؛ وتوحى اعتبارات الكفاية التفسيرية أن

المظهر ربما يكون مفضلًا هنا كذلك، بل تشير الأبحاث التي أُجريت في الماضي القريب (تشومسكي ١٩٩٥ ج؛ ١٩٩٨) إلى أن هذه الأنظمة تتنوع بقدر أقل مما يوحي به الوضع الذي يبدو من الصيغ المسطحة. فمن المحتمل مثلًا أن يكون نظام الحالة الإعرابية في الصينية والإنجليزية هو نفسه الذي في اللاتينية، لكن تحققه الصوتي مختلف. كما يبدو، زيادة على ذلك، أن من الممكن اختزال أكثر مظاهر التنوع إلى خصائص الأنظمة التصريفية. وإذا كان هذا الأمر صحيحًا فتتوغل اللغات موجود، إذن، في جزء ضيق من المعجم.

وتفرض شروطًا المعرفية تفرغًا ثلاثيًا للسماوات التي تُجمع في
الوحدات المعجمية:

- * سمات دلالية، وتؤوّل عند المستوى الوجيهي الدلالي؛
- * سمات صوتية، وتؤوّل عند المستوى الوجيهي الصوتي؛
- * سمات لا تؤوّل عند أي من المستويين الوجيهيين.

وكلُّ سمة، في اللغة المصممة تصميمًا محكمًا، إما دلالية أو صوتية، لا مجرد وسيلة لخلق موضع أو تسهيل حوسبة. وإذا كان الأمر كذلك، فلا وجود لأية سمات صوتية غير مؤولة. وهذا متطلب قوي جدًا، كما يبدو. لذلك ليس هناك تأويل لبعض السمات الصوتية النمطية كالحالة الإعرابية البنيوية — كالرفع والنصب في اللاتينية، مثلًا — في المستوى الوجيهي الدلالي، ولا حاجة للتعبير عنها في المستوى الصوتي كذلك، وهناك أمثلة أخرى في الأنظمة التصريفية.

ويبدو، في الحوسبة التركيبية، أن هناك مظهرًا ثانيًا من عدم الإحكام في تصميم اللغة أكثر إثارة، وهو مظهرٌ سطحي في الأقل، تلك هو: "خصيصة الإزاحة" وهي من أكثر مظاهر اللغة شيوعًا؛ فتؤوّل بعض العبارات كما لو أنها تحتل موضعًا مختلفًا [عن الموضع الذي توجد فيه] في الجملة، حيث يمكن أن تظهر أحيانًا بعض العبارات المماثلة ثم تؤوّل في

ضوء العلاقات المحلية الطبيعية. انظر إلى الجملة التالية:

Clinton seems to have been elected.

"يبدو كلينتون كأنه انتُخب".

ونحن نفهم العلاقة بين elect "يُنتخب" و Clinton بالطريقة التي نفهم بها هذه العلاقة حين ترتبط الكلمتان ارتباطاً محلياً في الجملة التالية:

It seems that they elected Clinton.

"يبدو أنهم انتخبوا كلينتون".

فالتعبارة Clinton مفعول مباشر، بالمصطلحات التقليدية، للفعل elect "يُنتخب"، إلا أنها "نُقلت" إلى موضع فاعل الفعل seems "يبدو"؛ ويتطابق الفاعل والفعل في السمات التصريفية في هذه الحالة، لكن ليس هناك علاقة دلالية بينهما؛ ذلك أن علاقة الفاعل الدلالية مع الفعل البعيد elect "يُنتخب".

فلدينا الآن حالتان من "عدم الإحكام": السمات التي لا يمكن تأويلها، وخصيصة الإزاحة. ونتوقع، بحسب مسلمة التصميم الأمثل، أن يكون بينهما صلة، وهذه هي الحال كما يبدو، فالسمات التي لا يمكن تأويلها هي الآلية التي تُنفذ خصيصة الإزاحة.

ولم يسبق أن جعلت خصيصة الإزاحة جزءاً لازماً في الأنظمة الرمزية التي تصمّم من أجل بعض الأغراض الخاصة، وتسمى "لغات"، أو "لغات صورية" بمعنى مجازي، كـ "لغات الرياضيات"، و"لغات الحاسوب"، و"لغات العلم". وليس لهذه الأنظمة أنظمة تصريفية كذلك؛ لهذا ليس فيها سمات لا يمكن تأويلها. والإزاحة والتصريف خصيستان مقصورتان على اللغة البشرية، من بين خصائص كثيرة لا يُلقت إليها حين تصمّم الأنظمة الرمزية لأغراض أخرى، وهي التي يمكن أن تتغاضى عن شروط المقرئية التي تفرضها بنية الذهن/الدماغ على اللغة البشرية.

وتُنفذ خصيصة الإزاحة في اللغة البشرية بمقتضى التحويلات النحوية أو بوسائل أخرى، لكن لا بد أن تُنفذ بطريقة ما دائماً. أما السبب الذي يوجب

وجود هذه الخصيصة في اللغة فأمر لاقب للنظر، وكان محلاً للنقاش منذ الستينيات ولم يتحقق أى اتفاق نهائى بشأنه. ويعود جزءاً من السبب، كما أظن، إلى الظواهر التى كانت توصف فى ضوء تأويل البنية السطحية؛ وكثير منها مألوف فى النحو التقليدى، كالمبتدأ والخبر Topic-Comment، التخصيص specificity، والمعلومات الجديدة والقديمة، والقسوة المنقذة agentive force التى نجدها حتى فى الموضع المنقول إليه، إلخ. وإذا كان ذلك صحيحاً، فخصيصة الإزاحة تفرضها شروطاً المقروئية: فالدافع لها هو المتطلبات التأويلية المفروضة من الخارج على أنظمة تفكيرنا، وهى التى تتصف بهذه الخصائص الخاصة (كما تبين ذلك دراسة استخدام اللغة). وتناقش هذه المسائل الآن بطرق لاقبة للنظر حقاً، وهو ما لا يمكننى الحديث عنه بالتفصيل هنا.

وقد افترض، منذ البدايات الأولى للنحو التوليدى، أن العمليات الحوسبية نوعان:

- * قواعد للبنية المركبة تؤلف من الوحدات المعجمية قطعاً تركيبية أوسع.
- * قواعد تحويلية تنفذ خصيصة الإزاحة.

والعمليتين كليهما جذور تقليدية، لكن سرعان ما اكتشف أنهما تختلفان اختلافاً كبيراً عما كان يفترض من قبل، مع قدر واضح من التنوع والتعقيد. وقد سعى برنامج البحث ليبيّن أن التعقيد والتنوع عارضان وحسب، وأنه يمكن أن يختزل نوعاً القواعد إلى شكل واحد بسيط. فربما يكمن الحل "المحكم" لمشكلة تنوع قواعد البنية المركبة فى التخلي عنها تماماً فى صالح العملية التى لا يمكن اختزالها وتتمثل فى أخذ موضوعين سبق التأليف بينهما وربط أحدهما بالآخر، مما ينتج موضوعاً أكبر يتصف بالخصائص المقصورة على هدف ذلك الربط وحسب، ويمكن أن نسمى هذه العملية بـ "أنمج" Merge. ويشير البحث الذى أنجز فى السنوات القليلة الماضية أن هذا هدف يمكن تحقيقه.

ويتكون الإجراء الحوسبي الأمثل، إذن، من عملية "دمج" والعمليات التي تصوغ خصيصة الإزاحة، أي: العمليات التحويلية أو عمليات أخرى تماثلها. وقد سعى المنحى الثانى من المشروعين المتوازيين لاختزال المكوّن التحويلي إلى أبسط شكل؛ ولا يبدو أن من الممكن التخلي عنه، بعكس قواعد البنية المركبية. وكانت النتيجة النهائية دعوى مفادها أنه فيما يخص مجموعة مركزية من الظواهر، هناك عملية واحدة فقط هي "انقل" Move – وتعنى أساساً، انقل أية وحدة إلى أى مكان، وهي لا تتصف بأية خصيصة مقصورة على لغات أو تراكيب معينة. أما كيفية انطباقها فتحددها مبادئ عامة تتفاعل مع بعض الاختيارات المحددة للوسائط – أي: وضع المفاتيح – الذى يحدّد لغة معينة. فتأخذ عملية "دمج" موضوعين متميزين "س" و"ص" وتدمج "س" بـ "ص". وتأخذ العملية "انقل" موضوعاً مفرداً "س" وموضوعاً آخر "ص" هو جزء من "س"، وتربط "س" إلى "ص".

والمشكلة التالية أن نبيّن أن السمات التي لا يمكن تأويلها هي، حقاً، الآلية التي تنفّذ خصيصة الإزاحة، وهو ما يعنى اختزال النوعين الأساسيين من "عدم الإحكام" فى النظام الحوسبي إلى نوع واحد. وإذا تبين أن الدافع وراء خصيصة الإزاحة هو شروط المقرئية التي تفرضها الأنظمة الخارجية للتفكير، كما اقترحت أنفاً، فيعنى هذا أننا تخلصنا من أنواع "عدم الإحكام" كلها وأن تصميم اللغة أمثل، فى نهاية الأمر، ذلك أن الغرض من اشتراط وجود السمات غير المؤولة أن تكون آلية لإرضاء شروط المقرئية التي يفرضها المعمار العام للذهن/الدماغ.

والطريقة التي يسير بها هذا التوحيد بسيطة جداً، لكن تفسيرها بشكل متماسك سيأخذنا بعيداً عن مدى هذه الملحوظات. والفكرة الحدسية الأساسية أنه يجب أن تحذف السمات التي لا يمكن تأويلها لإرضاء شرط المستوى الوجيهى، ويتطلب هذا الحذف علاقة محلية بين السمة المخالفة offending وسمة أخرى مشابهة لها يمكن أن تحذفها. وهاتان السمتان فى العادة

متباعداً لأسباب تتعلق بالطريقة التي يعمل بها التأويل الدلالي. كما في
الجملة:

Clinton seems to have been elected.

إذ يتطلب التمثيل الدلالي أن يكون الفعل elect "يُنْتَخَب" والاسم Clinton مرتبطين محلّيًا في العبارة: elect Clinton كي يؤوّل التركيب تأويلاً ملائماً، كما لو أن الجملة في الواقع:

seems to have been elect Clinton.

ويظهر الفعل الرئيس في الجملة seems "يبدو" بسمات تصريفية لا يمكن تأويلها؛ فهو متصرف للمفرد الغائب، وهي خصائص لا تضيف شيئاً مستقلاً إلى معنى الجملة، ذلك أنها موجودة في العبارة الاسمية [كلينتون] التي تتطابق معها، ولا يمكن حذفها هناك. ويوجب هذا أن تُحذف هذه السمات المخالفة في الفعل seems حين يكون في علاقة محلية، وهذا شكل صريح لمقولة "التطابق" الوصفية التقليدية. ولإنجاز ذلك تجذب السمات المخالفة في الفعل الرئيس seems السمات المماثلة لها في العبارة المطابقة Clinton، ثم تُحذف بعد ذلك في ضوء التماثل المحلي. لكن العبارة Clinton نُقلت الآن.

لاحظ أن سمات "كلينتون" وحدها هي التي جذبت؛ أما العبارة بكاملها فتنتقل لأسباب تتعلق بالتنظيم العصبى الحركى، الذى لا يمكنه أن "ينطق" أو "يسمع" السمات المفردة معزولة عن العبارة التى تنتمى إليها. أما إذا لم ينشط النظام العصبى الحركى - لأسباب معينة - فالسمات وحدها تُرفع، ونحصل من ثم، بالإضافة إلى جمل مثل:

an unpopular candidate seems to have been elected

"يبدو أن مرشحاً غير محبوب انتخب".

التي تعرضت لـ "نقل" ظاهر، على جمل مثل الجملة التالية:

seems to have been elected an unpopular candidate.

"يبدو لانتخب مرشح غير محبوب" [يبدو أنه انتخب مرشح غير محبوب].

وتتطابق العبارة البعيدة *an unpopular candidate* ، في هذه الجملة ، مع الفعل *seems* ، وهو ما يعنى أن سمات هذه العبارة جُذبت إلى علاقة محنية مع الفعل *seem* أما سائر العبارة فترك في مكانه. ويسمى عدم تنشيط النظام الحسى الحركى بـ "الإزاحة الخفية" *covert movement* ، وهى ظاهرة تنسب بخصائص لافتة للنظر. وتوجد مثل هذه الجمل في بعض اللغات - ومنها الإسبانية مثلاً. وفي الإنجليزية كذلك، وإن كانت بعض الأسباب الأخرى توجب إدخال عنصر فارغ دلاليًا هو *there* "هناك" لنحصل على الجملة:

there seems to have been elected an unpopular candidate.

كما توجب أسباب أخرى لافتة للنظر أن يُعكس الترتيب بين مكونات الجملة لنظهر على الشكل التالي:

there seems to have been an unpopular candidate elected.

وتترتب هذه الخصائص على بعض الاختيارات المحسنة للوسائط، وهى التى تحدث بعض الآثار فى اللغات عمومًا وتتفاعل لتعطى طيفًا معقدًا من الظواهر التى لا يتميز بعضها عن بعض إلا ظاهريًا. ويمكن فى الحالة التى نناقشها هنا اختزال الأمور كلها إلى حقيقة بسيطة تتمثل فى أنه يجب حذف السمات الصورية التى لا يمكن تأويلها حين تكون فى علاقة محلية مع علاقة مماثلة، مما ينشأ عنه خصيصة الإزاحة الضرورية للتمثيل الدالى فى المستوى الوجيهى.

وهناك قدر من الإجمال فى هذا الوصف المختصر. أما التفصيل الكامل فيكشف لنا عن صورة أكثر لفتًا للنظر، وتتركب عليها مقتضيات كثيرة فى لغات مختلفة من حيث التصنيف النسبى. لكن الاستمرار فى هذا سيأخذنا بعيدًا عما تتسع له هذه الملحوظات.

وأود أن أختتم بإشارة مختصرة فى الأقل إلى بعض القضايا الأخرى،

وهي قضايا تتعلق بالطرق التي تتصل بها الدراسة "الداخلية" internalist للغة بالعالم الخارجي. وللتبسيط دعنا لا نتجاوز الكلمات البسيطة. افترض أن الكلمة book "كتاب" تنتمي إلى معجم "بيتر". وتتألف هذه الكلمة من مجموع معقد من الخصائص، الصوتية والدلالية. فتستعمل الأنظمة الحسية الحركية الخصائص الصوتية من أجل النطق والإدراك، وتصلهما بالأحداث الخارجية، كحركات الجزيئات، مثلاً. وتستعمل الأنظمة الأخرى للذهن الخصائص الدلالية للكلمة حين يتكلم بيتر عن العالم، وحين يؤوِّج ما يقوله الآخرون عنه.

وليس هناك خلاف بعيد الأثر عن كيف نقارب الأمر على الجانب للصوتي، أما على جانب المعنى فهناك خلافات عميقة جداً. فيبدو لي أن الدراسات الاختبارية تقارب قضايا المعنى بطريقة لا تبعد كثيراً عن الطريقة التي تدرس بها الصوت، كما في الصوِّات وعلم الأصوات. فتبحث هذه الدراسات عن الخصائص الدلالية لكلمة book: أي كونها اسمية لا فعلية، وتستخدم في الإحالة إلى شيء مادي مصنوع لا إلى جوهر طبيعي كالماء أو إلى شيء مجرد كالصحة، إلخ. وربما صح لسائل أن يسأل إن كانت هذه للخصائص جزءاً من معنى الكلمة book أم أنها جزء من التصور الذي يرتبط بها؛ وليس هناك - في الفهم السائد الآن - طريقة معقولة للتمييز بين هذين الاقتراحين، لكن ربما أمكن في المستقبل اكتشاف أن هناك قضية اختبارية. وبغض النظر عن أي الاقتراحين تبنيناه فبعض السمات الداخلية للوحدة المعجمية book تحدد طريقة التأويل من النوع الذي أشرنا إليه هنا.

ونجد، حين نستقصى استخدام اللغة، أن للكلمات تؤول في ضوء عوامل كالنكوبن المادي، والصياغة، والاستخدام المقصود أو المؤلف عادة، والوظيفة المؤسسة، إلخ. فتصنف الأشياء وتغزى إلى المقولات في ضوء هذه الخصائص - التي أعدها سمات دلالية - بشكل معادل للسمات الصوتية التي تحدد صوتها. ويمكن لاستخدام اللغة أن يتعامل مع هذه السمات الدلالية

بطرق شتى. افترض أن مكتبة تحوى نسختين من رواية تولستوى "الحرب والسلام"، ثم أخذ بيتر واحدة وجون الأخرى. فهل أخذ بيتر وجون الكتاب نفسه، أم أخذوا كتابين مختلفين؟ فإذا وجهنا اهتمامنا إلى العامل المادى لهذه الوحدة المعجمية فقد أخذنا كتابين مختلفين؛ أما إذا وجهنا الاهتمام إلى العامل المجرد فقد أخذنا الكتاب نفسه. ويمكن أن توجه الاهتمام إلى العاملين المادى والمجرد فى وقت واحد، حين نقول، مثلاً:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever writes it.

"الكتاب الذى يخطط لتأليفه سوف يزن خمسة أرطال فى الأقل إن

ألفه".

أو:

His book is in every store in the country.

"يوجد كتابه فى كل ثور بيع الكتب فى البلاد".

ويمكن، بالمثل، أن نصبغ الباب بلون أبيض ثم نمشى عبره، مستخدمين الضمير it "هو" فى الإشارة بشكل غامض إلى الباب نفسه أو إلى المدخل. ونستطيع أن نروى الخبر التالى:

The bank was blown up after it raised the interest rate.

تُسف المصرف بعد أن رفع نسبة الفائدة".

أو:

It raised the rate to keep from being blown up.

"رفع الفائدة خوفاً من أن يُنسف".

ويمكن أن يؤوّل الضمير it هنا و"المقولة الفارغة" التى هى فاعل

العبارة being blown up بالعاملين المادى والمؤسسى، بشكل متزامن.

والحقائق عن مثل هذه الأمور واضحة في الغالب، لكنها ليست تافهة. لهذا تحترم العناصر التي تعتمد بعضها على بعض إحصائياً، حتى أكثرها تعقيداً، بعض التمييزات وتتجاهل بعضها الآخر، بطرق تتنوع بحسب تنوع أنماط مختلفة من الكلمات بطرق لافتة للنظر. ويمكن أن ندرس هذه الخصائص بطرق كثيرة، كأن ندرسها من حيث الاكتساب اللغوي، والشبوع بين اللغات، والكلمات المصطنعة، إلخ. وما نكتشفه معقد بصورة مفاجئة؛ ويُعرف، بصورة غير مفاجئة، بشكل سابق على أي دليل، ومن هنا فهو مشترك بين اللغات. وليس هناك ما يلزمنا بأن نتوقع وجود مثل هذه الخصائص في اللغة البشرية؛ وربما تكون لغة سكان كوكب المريخ مختلفة. أما الأنظمة الرمزية للعلم والرياضيات فمختلفة بكل تأكيد. ولا يعلم أحد إلى أي مدى تكون الخصائص المحددة للغة البشرية نتيجة لسبب بعض القوانين الكيميائية الأحيائية العامة التي تنطبق على أشياء لها السمات العامة للدماغ، وهذه قضية مهمة أخرى ما تزال على أفق أبعد.

وقد طوّرت إحدى مقاربات التأويل الدلالي بأشكال مماثلة لهذه في فلسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر بطرق لافتة للنظر، مستخدمة في الغالب مبدأ هيوم الذي مفاده أن "الهوية التي نعزوها" إلى الأشياء "لا تعدو أن تكون خرافة" (Hume 1740: section 27)، ابتدعها الفهم البشري. وهذه النتيجة التي وصل إليها هيوم معقولة جداً. فلا يتضمن الكتاب الذي أمامي على المكتب هذه الخصائص الغربية في ضوء تكوينه الداخلي؛ بل في ضوء الطرق التي يفكر بها الناس، ومعاني الكلمات التي يصوغون بها هذه الأفكار. فتستعمل الخصائص الدلالية للكلمات للتفكير في العالم والكلام عنه في ضوء المنظورات التي توفرها مولدُ الذهن، بشكل لا يبعد كثيراً عن الطرق التي يستخدمها التأويل الصوتي فيما يبدو.

أما الفلسفة المعاصرة للغة فتتجه مساراً مختلفاً، فهي تسأل عن ما الذي تحيل إليه الكلمة، وتقدم أجوبة متنوعة، لكن ليس هناك معنى واضح

لهذا السؤال. ومثال "الكتاب" نموذجي. فلا يعنى شيئاً مهماً أن تسأل عن ما
الشيء الذي يُحيل إليه التعبير:

Tolstoy's War and Peace.

«كتاب تولستوى "الحرب والسلام».

حين يأخذ جون وبيتر نسختين متماثلتين من المكتبة. فتعتمد الإجابة
على كيفية استخدام السمات الدلالية حين نفكر ونتكلم، بأى واحد من
الطريقتين. وعلى العموم، فلا تُعَيَّن كلمة ما، حتى أبسط أنواع الكلمات، شيئاً
معيناً في العالم، أو في "حيزنا الاعتقادي". وتبدو الافتراضات المتواضع
عليها عن هذه الأمور مشكوكاً فيها إلى حد بعيد.

وقد ذكرتُ أن النحو التوليدي المعاصر سعى لتناول الاهتمامات التي
شغلت أنظار التوجهات التقليدية، ومنها على وجه الخصوص الفكرة
الديكارتيّة التي مفادها أن "الفارق الحقيقي" (Descartes 1649/1927: 360)
بين البشر والمخلوقات الأخرى أو الآلات هو قدرة البشر على التصرف
بالطريقة التي يرون أوضح تمثيل لها في الاستخدام العادي للغة، الذي
يتصف بأنه: لا تحدّه حدود نهائية، وتؤثر فيه الحالة الداخلية، لكنها لا تحدّه،
ويتوافق مع المقامات من غير أن يكون نتيجة لها، ومتجانسٌ ويثير الأفكار
التي ربما أمكن للسامع التعبير عنها، إلخ. ويتمثل هدف البحث الذي أناقشه
هنا في أن نكتشف بعض العوامل التي تدخل في مثل هذه الممارسة المألوفة.
ومع ذلك فهي "بعض" العوامل وحسب.

ويسعى النحو التوليدي إلى اكتشاف الآليات التي تُستخدم في هذه
الممارسة، لذلك يسعى إلى الإسهام في دراسة "كيف" تُستخدم هذه الآليات
بالطريقة الخلاقة للحياة العادية. أما كيف تُستخدم فقضية شغلت أنظار
الديكارتيين، وهي التي ما تزال تمثل لغزاً لنا كما كانت لغزاً عندهم، ذلك مع
أننا نفهم اليوم عن تلك الآليات التي تدخل في هذه الممارسة أكثر مما كانوا
يفهمونه عنها.

وتشبه دراسة اللغة من هذا الوجه، مرة أخرى، دراسة الأعضاء الأخرى؛ فقد كشفت دراسة الأنظمة الإبصارية والحركية الآليات التي يؤوّل بها الدماغ المثيرات المشتتة على أنها مكعب والفراغ التي تمتد لتمسك بكتاب على المكتب. لكن فروع العلوم هذه لا تتير أسئلة عن كيف يقرّر الناس النظر إلى كتاب على طاولة أو الإمساك به، وليس من فائدة، كذلك، للتخرصات عن استعمال الأنظمة الإبصارية والحركية، أو الأنظمة الأخرى. إن هذه القدرات، التي تتمثل بأجلى مظاهرها في استخدام اللغة، هي لبّ الاهتمامات التقليدية: فهي عند ديكارت في الفترة المبكرة من القرن السابع عشر "أكثر الأشياء التي يمكن أن نمتلكها نبلاً" وهي ما "تمتلكه حقاً". كما لاحظ الفيلسوف الطبيب الإسباني خوان هوارتي، قبل نصف قرن من ديكارت، أن هذه "الملكة التوليدية" للفهم والفعل البشريين العاديين غريبة عند "الوحوش والنباتات" (Huarte/ 1575 3 1698؛ انظر كذلك Chomsky 78: 1966 الهامش) مع أنها شكل متواضع من الفهم يقصر عن الممارسة الحقيقية للخيال الخلاق. بل إن هذا الشكل المتواضع نفسه يقع خارج قدرتنا النظرية، إذا استثنينا دراسة الآليات التي تدخل فيها.

وقد تعلمنا في السنوات القليلة الماضية، في عدد من المجالات، ومن بينها اللغة، الكثير عن هذه الآليات. والمشكلات التي يمكننا الآن أن نواجهها صعبة ومتحدية، لكن كثيراً من الألغاز ما تزال بعيدة عن متناول شكل النقصى البشري الذي نسميه "علماً"، وهذه نتيجة ينبغي ألا تفجؤنا إن نظرنا إلى البشر على أنهم جزء من العالم العضوي، وربما ينبغي ألا نجدنا مُحبطة كذلك.

هوامش الفصل الأول

- (١) والمصطلح interface مأخوذ من لغة الحاسوب، ويعني الحد المشترك بين نظامين مختلفين. ويعرف محمد غاليم هذه القوالب "الوجيهية" بأنها "... هي التي تضمن التواصل بين مستويات الترميز عن طريق ترجمة جزئية للمعلومات من صورتها في مستوى معين إلى صورة موافقة في مستوى آخر، أو أن القالب الوجيهي يقيم تشاكلاً جزئياً بين مستويين للمعلومات. فتصبح ملكة مثل ملكة اللغة قائمة على تفاعل عدد من القوالب التمثيلية والقوالب الوجيهية" (محمد غاليم. المعنى والتوافق: مبادئ لتأصيل البحث الدلالي العربي. ص ٤٢٩). (المترجم)
- (٢) انظر مقدمة المترجم عن هذه المصطلحات والمصطلحات الأخرى التي ترد في الكتاب. (المترجم)

الفصل الثاني تفسير استخدام اللغة

يُجادل هيلاري بِنْتَام، في [سلسلة المحاضرات التي ألقاها بعنوان] "محاضرات جون لوك"، "أنَّ بعض القدرات البشرية - والمثال النموذجي لها "تكلُّم اللغة" - ربما يتعدَّد تفسيرها نظرياً حين تؤخذ منفردة"، إلا إن أخذت ضمن نموذج كامل للتنظيم الوظيفي البشري" الذي ربما يُستعصى على الفهم البشري حين يُبيَّن بأي قدر من التفصيل"، وتكمن المشكلة في أننا لن نستطيع، واقعياً، الظفر بنموذج تفسيري مفصل للنوع الطبيعي natural kind "بشر"، لا بسبب "التعقيد وحسب"، بل "لأننا محجوبون جزئياً عن أنفسنا، أي أنه يتعدَّد أن يفهم أحدنا الآخر بالطريقة التي نفهم بها ذرات الهيدروجين". وهذه "حقيقة تكوينية" عن "البشر في الفترة الحاضرة"، مع احتمال ألا تكون كذلك بعد مئات قليلة من السنين (Putnam 1978).

فيطلب "النوعان الطبيعيان": "بشر" و"ذرة الهيدروجين"، إذن، نوعين مختلفين من البحث، يقود أحدهما إلى "تماذج تفسيرية مفصلة"، أما الآخر فلا، في الوقت الحاضر في الأقل، والصنف الأول "بحث علمي"، نسعى عن طريقه إلى الوصول إلى نظريات تفسيرية يمكن فهمها ونتطلع إلى نمجه في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية الصرفة؛ ولنسمِّ هذا المنحى من البحث بـ "البحث العلمي الطبيعي"، مركزين على ما لهذا النشاط من خصائص وأهداف معقولة، بمعزل عن الإنجازات الفعلية التي حققها. ويقع وراء ما يمكن أن يسمه "التنظيم الوظيفي البشري" الكامل قضايا تتعلق بالمدى الذي يصل إليه، وليس هذا المدى موضوعاً جاداً للبحث العلمي الطبيعي (في الوقت الراهن) فهو أكثر شبيهاً بـ "دراسة كل شيء"؛ إذ يُثبته محاولات الإجابة عن أسئلة زائفة مثل: "كيف تعمل الأشياء؟" أو "لماذا تحدث؟" ويمكن الادعاء بأن أسئلة كثيرة - ومنها بعض الأسئلة المهمة جداً للبشر - لا تدخل في إطار البحث

العلمى الطبيعى؛ وهو ما يجعلنا نقاربها بطرق أخرى. وليست هذه الفوارق صارمة، كما يؤكد بتنام، لكنها مفيدة، مع ذلك.

ويضيف بتنام، فى نقاش نقدى للفرقة للذهنية المُحنكة من النوع الذى يُنتج فى جامعة إم. آى. تى" (ويستلها كتاب جيرى فودر: 'لغة التفكير'؛ Fodor 1975، تحديداً) بعض الملحوظات المتممة عن البحث النظرى الذى ربما لن" يساعدنا فى تفسير تكلم اللغة. ومنها احتمال اكتشاف العلوم المتخصصة فى دراسة الدماغ أنه حين تفكر بالكلمة 'قطعة' (أو حين يفكر متكلم اللغة التايلندية بما يقابلها) تتكون الصورة C [الصوت الذى تبدأ به كلمة Cat] فى الدماغ. ويخلص إلى القول بـ "أن هذا شيء مثير إن كان صحيحاً"، بل ربما يكون إضافة مهمة لعلم النفس وعلوم الدماغ، لكن ما الصلة بين هذا و'معنى قطعة'" (أو ما يناظرها فى اللغة التايلندية، أو الصوت C)؟ - ومقتضى قوله أن ليس هناك صلة (Putnam 1988a).

فلدينا الآن دعويان مترابطتان. الأولى: أن تكلم اللغة والقدرات البشرية الأخرى لا تدخل فى الوقت الراهن فى البحث العلمى الطبيعى. والثانية: أنه ليس هناك ما يمكن أن نتعلمه عن المعنى (وهو ما يعنى أنه لا يمكن أن نتعلم شيئاً عن أحد المظاهر الأساسية لتكلم اللغة) من دراسة التكوينات فى الدماغ والعمليات التى ينفذها (من النوع الذى تكلم عنه، فى الأقل). ويبدو لى أن تعبيره عن النتيجة الأولى ليس كافياً ولم يصغها بشكل ملائم؛ أما الثانية فتقوية جداً. فدعنا نتفحصهما بالترتيب.

والتصور 'بشر' جزء من فهمنا البيهوى، وله خصائص مثل: الفردية، والنبات النفسى، إلخ، مما يُصور بعض اهتمامات البشر للمعينة، وتوجهاتهم، ومنظوراتهم. وللشئ نفسه صحيح عن تصور 'تكلم اللغة'. ولن تدخل مثل هذه التصورات، إذا غضضنا النظر عن الصدف غير المتوقعة، ضمن النظريات التفسيرية التى تنتمى إلى البحث العلمى الطبيعى؛ ليس الآن وحسب، بل إلى الأبد. ولا يعود ذلك لبعض الموانع الثقافية أو حتى لأنواع

القصور البشرى الذاتية (مع أن مثل هذه موجودة فعلا)، بل لطبيعتها. وربما يمكن أن نقول أشياء كثيرة عن الناس، حين نتصورهم بهذا الشكل؛ بل أن نأتى كذلك ببعض التعليقات التى تقم بعض التفسيرات الضعيفة. لكن لا يمكن لمثل هذه التعليقات أن تدمج فى العلوم الطبيعية إلى جانب النماذج التفسيرية لذرات الهيدروجين، والخلايا، أو الوحدات الأخرى التى نفترضها فى سعينا نحو صياغة نموذج تفسيري متماسك معقول ينتمى إلى التفسيرات العلمية الطبيعية. ومن هنا ليس هناك سبب لافتراض وجود "النوع الطبيعي" بشر؛ إن كانت الأنواع الطبيعية أنواعا موجودة فى الطبيعة، فى الأقل، أى تلك الأصناف التى نكتشفها عن طريق البحث العلمى الطبيعى.

وليس السؤال عن إن كان من الممكن أن تُدرس تصورات الفهم البديهي نفسها فى فرع من فروع البحث العلمى الطبيعى؛ فربما يكون ذلك ممكنا. بل السؤال عن إن كنا ننظر إلى العالم الطبيعى حين ندرسه (وفى دراستنا لهذه التصورات بوصفها جزءا من العالم الطبيعى كذلك) من الزاوية التى توفرها لنا مثل هذه التصورات، والأمر ليس كذلك بالتأكيد. فربما يكون هناك دراسات علمية لبعض مظاهر ماهية الناس وما يفعلونه، لكنها لن تستخدم الفكرتين البديهيتين "بشر" أو "كلم اللغة" فى صياغتها لمبادئها التفسيرية — بما لهما من دور خاص فى حياة البشر وفكرهم.

والشئ نفسه صحيح عن التصورات البديهية عموما. فلا ثلاثم بعض الأفكار كـ"مكتب" أو "كتاب" أو "بيت"، ناهيك عن بعض الأفكار الأكثر "تجريدا"، البحث العلمى الطبيعى؛ ذلك أن وصف شئ ما وصفا ملائما بأنه "مكتب"، بدلا من كونه "طاولة" أو "سريرا صلبا"، يعتمد على قصد مصممه وعلى الطرق التى "نقصد"، نحن والأخرون، أن نستعمله بها، من بين عوامل أخرى. فالكتب أشياء مادية. ويمكن أن نحيل إليها على أنها كذلك بجمل مثل:

The book weighs five bounds.

"يزن الكتاب خمسة أرتال".

أو نتكلم عنه من منظور تجريدي:

Who wrote the book?

"من ألف الكتاب؟"

و:

He wrote the book in his head, but then forgot about it.

"ألف الكتاب في ذهنه، لكنه نَخى عنه".

أو من المنظورين كليهما في وقت واحد:

The book he wrote weighed five bounds.

"يَزن الكتابُ الذي ألفه خمسة أرطال".

و:

the book he is writing will weigh at least five pounds if it is ever published.

"سوف يَزن الكتاب الذي يولفه الآن خمسة أرطال في الأقل إن نُشر".

وإذا قلت:

That deck of cards, which is missing a Queen, is too worn to use.

"تلك المجموعة من ورق اللعب، التي فُقدت منها "الملكة"، بالية جداً حتى إنها لا تصلح للاستعمال".

فستؤخذ هذه المجموعة في آن واحد على أنها مجموعة معيبة وأنها "شيء مادي" غريب مشئت، ومن المؤكد أنها ليست مجموع أعدادها. وتُستعمل الكلمة house "بيت" في الإحالة إلى أشياء محسوسة، انطلاقاً من منظور الاهتمامات البشرية والأهداف الخاصة مع بعض الخصائص اللافئة للنظر. فيمكن أن يُدمر "بيت" ويبنى، شأنه شأن مدينة؛ فيمكن أن تُدمر مدينة لندن تدميراً كاملاً ثم يُعاد بناؤها على ضفة نهر التيمز بعد ألف سنة لكنها

ستظل هي لندن، تحت ظروف معينة. ومن الصعب أن نتخيل كيف يمكن لهذه الأمثلة أن تكون تصورات ملائمة للدراسة النظرية للأشياء والأحداث والعمليات في العالم الطبيعي. ولا خلاف على أن الأمر نفسه صحيح عن أفكار مثل "مادة" و"حركة" و"طاقة" و"عمل" و"سائل"، وغيرها من الأفكار البدئية التي يتخلى عنها حين يقام بالبحث العلمي الطبيعي؛ فحين يسأل عالم فيزياء إن كان "كوكب" من الرمل جمادًا، أو سائلًا، أو غازًا — أو نوعًا آخر من المادة — فهو لا يضيع وقته في السؤال عن كيفية استخدام هذه الكلمات في الخطاب العادي، ولن يتوقع أن تكون للإجابة عن السؤال الأخير علاقة بالأنواع الطبيعية، إن كانت هذه أنواعًا في الطبيعة (Jaeger and Nagel 1992).

ولا يعنو المعقول أن نتوقع أن هذا الأمر سيكون صحيحًا عن أفكار مثل "اعتقاد" و"رغبة" و"معنى" و"صوت" الكلمات، و"قصد"، إلخ، بقدر ما تكون مظاهر الفكر والفعل البشريين صالحة لتكون موضوعًا للبحث العلمي الطبيعي. ويبدو أن كون المرء يقول بواقعية القصد Intentional Realist يكاد يساوي في معقوليته كونه يقول بواقعية المكتوب، أو يقول بواقعية صوت اللغة، أو يقول بواقعية القطة، أو يقول بواقعية المادة؛ ليس لأنه لا توجد أشياء مثل "مكتوب"، إلخ، بل لأن الأشياء، في المجال الذي تثار فيه أسئلة "الواقعية" بشكل جذي، أي في سياق البحث عن قوانين الطبيعة، لا تتصور اعتمادًا على المنظورات الغربية التي توفرها تصورات البدئية. ومن الآراء الشائعة جدًا أنه "يجب أن يتخلى الكلام ذو النزعة الذهنية والوحدات الذهنية عن مكانها في نهاية الأمر في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره" (Burge 1992). وهذا صحيح إلى حد بعيد، لكنه يصعب أن نرى كيف يكون هذا الموقف مهمًا، إذ لا خلاف على أن الشيء نفسه صحيح عن "النقاش الفيزيائي والوحدات الفيزيائية" (بقدر ما يكون التمييز بين "ذهني" و"فيزيائي" مفهومًا).

بل إن بعض الأفكار المعقدة كـ "الفاعلية البشرية" human agency لتدخل بشكل جوهري حتى في أكثر الأفكار أولية كـ "الشيء القابل للتسمية".

ذلك أن ما ننظر إليه على أنه "أشياء"، والكيفية التي نحيل بها إليها وكيفية وصفنا لها، وأنواع الخصائص التي نسيغها عليها، تعتمد كلها على الموقع الذي تحتله في مصفوفة الفعل البشري والاهتمامات والمقاصد البشرية في ضوء معايير تقع بعيداً وراء المدى المحتمل للبحث العلمي الطبيعي. كما يمكن لكلمات اللغة أن تُعَيَّن مواضع معينة في أنظمة الاعتقاد، وهو ما يُضفي مزيداً من الغنى على المنظورات التي توفرها هذه الكلمات من أجل النظر إلى العالم، وإن بطرق لا تلائم أهداف البحث العلمي الطبيعي. وربما لا يمكن لبعض الكلمات — خاصة ما يفترق منها إلى "البنية العلائقية الداخلية" internal relational structure (ومن أبرزها ما يُطلق عليه: "مصطلحات الأنواع الطبيعية") — أن تفعل أكثر من ذلك، بقدر ما يتعلق الأمر بمعجم اللغة الطبيعية. (انظر، من بين آخرين، Chomsky؛ Moravcsik 1975؛ 1975b؛ 1990؛ Bromberger 1992a). وأعني بـ "البنية العلائقية الداخلية" الخصائص الانتقائية selectional properties لكلمات مثل "أعطى" (التي تأخذ قاعلاً منفذاً، ومفعولاً محورياً theme ومفعولاً غير مباشر هدفاً)، وهي خصائص لا تتوفر في كلمات مثل "قطة" و"سائل"، وغيرهما؛ فلا تبلغ تصورات اللغة الطبيعية — والتصورات البديهية عموماً — حتى أن تكون موضوعاً مرشحاً للنظريات العلمية الطبيعية.

ويوسّع بنجام نتائج لتشمل دعوى برينتانو Brentano التي مفادها أن "القصدية لن يمكن اختزالها ولن تختفي"⁽¹⁾، فيقول: إنه ليس هناك خصيصة يمكن وصفها علمياً تشترك فيها الحالات كلها لأية ظاهرة قصدية معينة (كالتفكير في القطط، مثلاً) (Putnam 1988a). ذلك أن الظواهر القصدية، على وجه أعم، تتعلق بالناس وبما يفعلونه حين يُنظر إليها من زاوية الاهتمامات البشرية والتفكير العفوي، لهذا لن تقع (إذا نظر إليها هكذا) ضمن النظرية العلمية الطبيعية التي تسعى إلى تنحية مثل هذه العوامل جانباً، ويمكن أن ترتبط إحدى الظواهر القصدية المحددة بمنطقة المطابقة في

فضاء معقد جدًا ومتحوّل للثنون والاهتمامات البشرية، شأنها شأن الأجساد التي تهوى إلى أسفل أو السماء أو السوائل. لكنها ليست تصورات ملائمة للبحث العلمى الطبيعى.

ويمكن أن نفترض أن إحدى مكونات الذهن (سمّها "ملكة صياغة العلم"، إن شرفنا الجهل بلقب) تدخل فى البحث العلمى الطبيعى، بالطريقة نفسها تقريبا التي تدخل بها الملكة اللغوية (التي نعرف عنها قدرًا لا بأس به) فى اكتساب اللغة واستخدامها. وما تنتجُه ملكة صياغة العلم شذرات من الفهم النظرى، أى نظريات علمية طبيعية على درجات متفاوتة من القوة والمعقولة تتضمن بعض التصورات التي تصاغ ويُستغ عليها معنى بطريقة منضبطة ومحددة، قدر الإمكان، مع النية فى صبغها أو، إن تعذر ذلك، تعديلها كلما حققنا مزيدًا من الفهم. وتنتج ملكات الذهن الأخرى تصورات الفهم البديهى، وهى التي تدخل فى دلالة اللغة الطبيعية وأنظمة الاعتقاد. وتتمو [هذه الملكات] فى الذهن بشكل لا يبعد كثيرًا عن الطريقة التي ينمو بها الجنين كى يصير شخصًا، أما السؤال عن درجة الدقة التي تكون عليها هذه الفوارق [بين الملكات] فربما كان سؤالًا مفتوحًا، لكنها تبدو واقعية، مع ذلك.

وهناك تشابه أحيانًا بين التصورات التي تنشأ بهذه الطرق المختلفة؛ إذ ربما أمكن للبحث العلمى الطبيعى أن يصوغ نظيرًا للفكرة البديهية "بشر"، مثلما يشبه الرمز الكيمائى H_2O تقريبًا "ماء" (وإن كانت "أرض" و"هواء" و"نار"، التي كانت تصنف مع الماء عند القدماء، ليس لها مثل هذه النظائر). ومن المعلوم أنه لا يترتب على أى تشابه مع الأفكار البديهية أية مقتضيات للعلم. فليس مطلوبًا من الكيمياء الأحيائية، مثلًا، أن تحدد النقطة التي نجد عندها "جوهر الحياة" essence of life، فى سلم الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتيريا؛ أما إن فرض مثل هذا التصنيف عليها فلن يكون التشابه بينها وبين فكرة بديهية ما أكثر من التشابه فى حالة أشياء كـ "جوار" (المكانى)، أو "طاقة"، أو "سلك".

ولا يُعنى البحثُ في نفسية الأحياء العضوية وبنيتها الأحيائية، كذلك، بتناول بعض الأفكار التقنية في الخطاب الفلسفي، كمفهوم "المضمون الإدراكي"، بخصائصه المفترضة (ويعزى أحياناً بشكل مشكوك فيه إلى "علم النفس الشعبي"، وهو مصطلح يبدو أنه مشتق جزئياً من الأعراف الثقافية الضيقة وتقاليد الخطاب الأكاديمي). ولا يلزم هذين النوعين من البحث، كذلك، أن يُحدداً وضعاً خاصاً للإدراك الحقيقي "veridical perception" تحت الشروط "العادية". لهذا فليس من المهم، في دراسة تحديد البنية من خلال الحركة، إن كان الحدث الخارجي الذي أنتج التجربة البصرية لمكعب يتأرجح في الفضاء حزمة من الأشعة الواضحة المتتالية تسقط على شاشة عرض tachistoscope، أو مكعباً فعلياً يتأرجح، أو حفزاً للشبكة البصرية، أو للعصب البصري، أو للقشرة المخية البصرية. فتعنى الدراسة الحوسبية، في أية حال، بطبيعة التمثيلات الداخلية التي يستخدمها نظام الإبصار والعمليات التي تشتق بها" (Ullman 1979: 3)، كما تفعل تلك دراسة الخوارزميات والآليات في هذا البحث وغيره بالطرق التي رادها ديفيد مار (David Marr, 1982). وليس مهماً كذلك إن كان الناس يقبلون حالات الرؤية غير الحقيقية على أنها "رؤية مكعب" (إذا أخذنا كلمة "رؤية" لتعني المرور بتجربة، سواء أكانت "وهمية" أم حقيقية)؛ أو إن عُنى البحث باهتمامات النظرية الفلسفية الخاصة بالعزو القصدى أم لا. ولن يكون "علم النفس" الذي يتشغل بالاهتمامات الأخيرة معنياً بدراسة الحالات الفردية، كما يجادل مارتن ديفز (Martin Davies 1991)، لكنه ربما يفارق البحث العلمي الطبيعي فيما يخص طبيعة الكائنات العضوية كذلك، وربما يفارق علم النفس الشعبي بشكله المعروف^(٢). وإذا أخذنا مثلاً نموذجياً آخر، انطلاقاً من التسليم (غير المعقول إلى حد بعيد) بأن المقاربة العلمية الطبيعية للغير، مثلاً، ممكنة، سنجد أنه ربما لا يكون محتملاً أن تميز هذه المقاربة بين الحالات التي تدخل فيها أشياء حقيقية أو متخيلة. وإذا نظرنا إلى "علم المعرفة" على أنه علم يعنى بالعزو القصدى فربما يكون اهتماماً لاقناً للنظر (كما هي حال الأدب)، لكنه ربما لن يوفر لنا نظرية تفسيرية يمكن نمجها بالعلوم الطبيعية.

وينحو مسارُ البحثِ العلمي الطبيعي، مع التّقدّم في الفهم وتحديدِ التصورات تحديداً صارماً، نحو اقتراح نظريات تَخْلُص فيها الكلمات من البقايا المضمّلة للفهم البديهي، ثم تقام الصّلة بينها وبين بعض الوحدات المفترضة ويعيّن لها مكانٌ في مصفوفة من المبادئ، كالأعداد الحقيقية، والإلكترون، إلخ. ومفارقتها للغة الطبيعية من جهتين: فتجرّد هذه الكلمات المصطنعة من الخصائص المتشابهة للتعبيرات اللغوية الطبيعية؛ وتعطى خصائص دلالية ربما لا تصح في اللغة الطبيعية، كـ"الإحالة" (وينبغي أن نحذّر مما سماه سترابوسون مرةً بـ "خرافة اسم العلم المنطقي"، في اللغة الطبيعية، والخرافات ذات الصّلة به التي تعني بإشارات التوافق والضمائر؛ (P. Strawson 1952: 216). وتتزايد المفارقة، مع التّقدّم في هذه المقاربة؛ وتتزايد معها المفارقة بين الطرق التي نفهم بها ذرة الهيدروجين، من جهة، و"بشر" (و"مكتب" و"سائل"، و"السموات"، و"يقع"، و"بُرد"، و"لندن"، و"هذا"، إلخ)، من جهة أخرى.

لكننا لا نستطيع، وإن بوجه مقوّى من دعوى بتنام الأولى، أن ننقل إلى دعواه الثانية، وبشكل أعم، أن نستنتج أنه لا صلة للنظريات العلمية الطبيعية عن الدماغ بفهم ما يفعله الناس. فالناس يرون، تحت شروط معينة، العروض على شاشة لوحة tachistoscopic إما مكعباً يتأرجح أو شعاعاً من الضوء يتحرك في خط مستقيم. وربما أمكن لدراسة القشرة البصرية للدماغ أن نعيّننا على فهم سبب حدوث هذا، أو لماذا يسير الإدراك بالكيفية التي نعمل بها في الظروف العادية. كما يمكن للأبحاث المماثلة أن تقول أشياء كثيرة عن "تكمّل اللغة" والنشاطات البشرية الأخرى.

انظر الآن إلى المثال الذي أورده بتنام: أي اكتشاف أن التفكير في cats "قطط" يُثير الصوت C. فمن المؤكد أنه ربما يكون هذا الاكتشاف ذا صلة بالبحث فيما يعنيه بيتر (أو يحيل إليه، أو يفكر به) حين يستعمل كلمة cat، ومن هنا، ببعض "النقاش عن معنى كلمة cat". فقد كان هناك نقاش، مثلاً —

كان يتنام طرفاً فيه - عن الخصائص الإحالية لـ cat إن اكتُشف أن cats "القطط" أجهزة آلية يتحكم بها من المريخ. افترض أنه بعد أن صار بيتر يعتقد هذا، أخذ دماغه يكون، أو لا يكون، الصوت C حين يُحيل إلى cats (أو يفكر بها، إلخ). وربما يكون لهذا صلة بالحوار. أو، إذا أخذنا مثلاً واقعياً: أن الأبحاث التي أُتجزت مؤخراً عن النشاط الكهربائي للدماغ ("الإمكانات الكهربائية ذات الصلة بالحدث" event-related potentials) تكشف عن استجابات متميزة للتعبيرات اللغوية الصحيحة والمخالفة، ومن الأخيرة، مخالقات:

- ١- التوقعات عن معنى الكلمة؛
- ٢- قواعد البنية المركبية؛
- ٣- قيود بقاء تحديد الإحالة بعد "استخراج الروابط" operators' extraction؛
- ٤- قيود المحلية على النقل (Neville et al. 1991).

ومن المؤكد أنه ربما يكون لهذه النتائج صلة بدراسة استخدام اللغة، وبدراسة المعنى خاصة.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا، فترتبط أنماط النشاط الكهربائي للدماغ بأصناف البنية الخمسة التي أشرنا إليها، أي: البنية القياسية، وأنواع المخالفة الأربعة. لكن دراسة هذه الأصناف دراسة للدماغ كذلك، فهي دراسة لحالاته وخصائصه، مثلما أن دراسة الخوارزميات التي تدخل في رؤية خط مستقيم أو القيام بعملية طرح حسابية طويلة دراسة للدماغ. ويمكن أن يُدرس الدماغ، شأنه شأن الأنظمة المعقدة الأخرى، في مستويات متعددة، كالذرات، والخلايا، ومجموعات الخلايا، والشبكات العصبية، والأنظمة التمثيلية الحوسبية، إلخ. وتصل دراسة "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" بين مستويين من هذه المستويات: أي بين النشاط الكهربائي للدماغ والأنظمة التمثيلية الحوسبية. ودراسة أي من المستويين دراسة علمية طبيعية من حيث طبيعة البحث ومن حيث أن توحيدها مع العلوم الطبيعية الصّرف مَطْمَحٌ

يمكن السعى إليه بشكل معقول. وتتماثل الاكتشافات عن الدماغ في مثل هذه المستويات، في سياق مناقشة بنّام، مع التكوّن (المتخيل) للصوت C، حين يفكر بينز في cats.

وتتمتع نظريات التمثيلات الحوسبية، في حال اللغة، بقدر أعلى من التأييد الاختباري يفوق أي شيء متوفر في المستويات الأخرى، وهي أكثر تفوقاً من حيث القوة التفسيرية؛ وتقع ضمن العلوم الطبيعية إلى حد لا يتلغّه دراسة "تكلّم اللغة" في المستويات الأخرى. بل إن الأهمية الراهنة لدراسات "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" تقع في المقام الأول في التلازم بينها وبين نظريات التمثيلات الحوسبية التي تقوم على أسس أكثر غنى وصلابة. وتتّبوا الأصناف الخمسة مكاناً في إطار نظريات التمثيلات الحوسبية، وتتمتع تبعاً لذلك بمدى واسع من التأييد الاختباري غير المباشر؛ أما حين تكون ملحوظات "إمكانات الدماغ الكهربائية ذات الصلة بالحدث" معزولة عن نظريات التمثيلات الحوسبية فلا تزيد عن كونها مجموعة من الغرائب وحسب، وتفترق إلى مصفوفة نظرية. وبالمثل، سيكون اكتشاف أن الصوت C يرتبط باستخدام cat، حين يكون حقيقة معزولة، مجرد اكتشاف عن C بدلاً من كونه اكتشافاً عن معنى cat — ولهذا السبب وحده لن يُلقب [هذا الاكتشاف] إلا ضوءاً باهتاً على الخلاف بشأن الأجهزة الآلية المتحكم بها من المريخ. وإذا أخذنا حالة أخرى، فلا يعدو اكتشاف الإزاحة الإدراكية لـ "الطقطقات" clicks إلى حدود المركبات، في الوقت الحاضر، أن يكون اكتشافاً عن صحة التجربة أكثر من كونه اكتشافاً عن حدود المركبات. والسبب أن أنواعاً أخرى من الأدلة عن حدود العبارات — التي تسمى أحياناً أدلة "لغوية" لا "نفسية" (وهو مصطلح مضلل جداً) — أكثر إقناعاً بكثير ومدمجة في بنية تفسيرية أكثر غنى. وإذا وُجد أنه من الممكن الاعتماد بشكل مرّض على تجارب الطقطقات في تعيين الوحدات التي تُفترض في نظريات التمثيلات الحوسبية، وإذا ما عمّقت أطرها النظرية، فربما يمكن الاعتماد

عليها في حالات لا تكون فيها "الأدلة اللغوية" حاسمة؛ بل ربما يكون ذلك بشكل أكبر، مع التقدّم في البحث. (انظر، بشأن بعض حالات سوء الفهم لهذه القضايا، الفصل الثالث في هذا الكتاب، و Chomsky 1991a; 1991b).

ونظريات التمثيلات الحوسبية أفضل النظريات العلمية الطبيعية للغة واستخدامها تأسيساً، في الوقت الراهن. ونحن نفترض، بناءً على الاعتقاد أساساً، أن هناك نوعاً من الوصف في ضوء الذرات والجزيئات، وإن كنا لا نتوقع أن يكون من اليسير تبين مبادئ اللغة العاملة وبنى اللغة والتفكير في هذه المستويات. كما نميل، بقفزة أعلى من اليقين، إلى افتراض أن هناك تفسيراً في ضوء المصطلحات العصبية (بدلاً منه في ضوء الخلايا أو الأوعية الدموية glial and vascular، مثلاً، مع أن فحص الدماغ يكشف عن أن هناك خلايا وأوعية دموية glial cells إلى جانب العصبونات)^(٣). وربما يوحى هذا بأن العناصر والمبادئ ذات الصلة في بنية الدماغ لم تكتشف بعد. وربما ستوفر نظريات التمثيلات الحوسبية بعض الإرشادات للبحث في مثل هذه الآليات بشكل لا يبعد عما وفرته الكيمياء في القرن التاسع عشر من شروط اختبارية حاسمة للمراجعة الجذرية للفيزياء الأساسية. ويضع الشعار المؤلف: "إن الذهنى هو العصبى العضوى فى مستوى أعلى" - حيث تدمج نظريات التمثيلات الحوسبية فى "الذهنى" - الأمور بشكل معكوس؛ إذ يجب أن تعاد صياغة هذا الشعار، ليصير افتراضاً يقضى باحتمال أن يُكتشف أن العصبى العضوى "ذهنى فى مستوى أدنى" - أى الافتراض بأنه ربما نجد، فى المستقبل، أن لعلم وظائف الأعصاب بعضاً من الاهتمام بـ "الظواهر الذهنية" التى تدرسها نظريات التمثيلات الحوسبية. أما فيما يخص المزاعم الأخرى لـ "الإقصائية المادية"^(٤)، فسيظل هذا الموقف لغزاً حتى يُقدّم تعليل لطبيعة "المادى"؛ وإذا ما قدّم ذلك التعليل فيجب أن تقدّم بعض الأسباب التى توجب الاحتفاء أو الاهتمام بما تقوله إن كانت النظريات الناجحة تقع وراء حدودها المفترضة.

وتُقدّم مقاربات التمثيلات الحوسبية، في الوقت الراهن، أفضل التفسيرات العلمية الطبيعية وأكثرها غنى للمظاهر الأساسية لاستخدام اللغة. فهناك تصور أساس، في هذه النظريات، شبيه بالفكرة البديهية "لغة"، وهو: "الإجراء التوليدي" الذي يكوّن "الأوصاف البنيوية" (SDs) Structural Descriptions، حيث يكون كل منها مجموعاً معقداً من الخصائص الصوتية والدلالية والبنيوية. دعنا نسمّ هذا الإجراء بـ "اللغة - د" I-language، وهو مصطلح اخترناه لتبيين أن هذا الإجراء "داخلي"، و"فردى"، و"مفهومي"⁽²⁾ (ليكون من المحتمل أن تولّد "اللغات - د" I-languages المتميزة، من حيث المبدأ، المجموعة نفسها من الأوصاف البنيوية، مع أن من المحتمل أن تترك خصائص الملكة اللغوية الفطرية المقيدة تقييداً صارماً هذه الخصيصة من غير تحقق). ويمكن أن ننظر إلى التعبيرات اللغوية في "لغة - د" ما على أنها الأوصاف البنيوية التي ولدتها [هذه اللغة - د]. فالتعبير اللغوي، إذن، مجموع معقد من الخصائص الصوتية والدلالية، وخصائص أخرى. ويشبه امتلاك "لغة - د" امتلاك طريقة للتكلم والفهم"، وهذه إحدى الصور التقليدية للغة. وهناك ما يدعو للاعتقاد بأن "اللغات - د" (أي "المعرفة النحوية") متميزة عن التنظيم التصوري و"المعرفة الذريعية"، وأنه يمكن أن تتعطل أية واحدة من الثلاث بشكل منفرد وأن تنفصل في أثناء فترة النمو (انظر: Yamada 1990, John Marshall 1990).

وتُعيّن "اللغة - د" أشكال بعض العناصر المعجمية مثل: "مكتسب"، و"عمل"، و"يقع"، ومعانيها، بقدر ما تكون هذه العناصر محدّدة بالملكة اللغوية نفسها. ويجب، بالمثل، أن تُفسّر [اللغة - د] خصائص تعبيرات أكثر تعقيداً، نحو: أن الجملة:

John rudely departed.

"غادر جون بصلف".

تعني إما أنه غادر بطريقة صائفة أو أنه كان صائفاً منه أن يغادر، وأنه، في الحالتين كليهما، غادر (لذلك ربما يحسن اقتراح دلالة للحدث" event semantics لتكون إحدى مستويات التمثيل لكي يمكن التعامل مع حقائق كهذه، انظر Higginbotham 1985; 1989). كما ينبغي أن تُفسر [اللغة - د] أن الفاعل المفهوم [المستتر] للفعل expect "يتوقع" في (1) يعتمد على هل X "س" صيفراً أم أنه Bill، مع ما يصحب ذلك من أنواع أخرى من المقترضات الدلالية:

1- John is too clever to expect anyone to talk to X

"جون أنكى من أن يتوقع أن أحداً يتكلم مع 'س'".

وأن كلمة ladder 'سلم'، في لهجتي، تسجع مع matter 'أمر' أما madder "أكثر جنوناً" فلا. وهناك بعض التفسيرات غير الناقهة الممكنة لكثير من هذه الحالات. وتلقى أنظمة التمثيلات الحوسبية قدرًا غير قليل من الضوء على الكيفية التي يعبر بها الناس عن أفكارهم ويؤوكون بها ما يسمعون، مع أنها لا تقل - ولا تزيد، بالطبع، في كونها دراسة لهذه الأحداث عن كون دراسة العمليات العصبوية والنفسية للإبصار دراسات للبشر وهم يرون الأشياء.

وسيسعى البحث الأكثر عمقاً للغات - د إلى تفسير حقيقة أن بيتر يمتلك "اللغة - د": "ب" [لغة بيتر] أما خوان فيمتلك "اللغة - د": "لخ" [لغة خوان] - وهذان حكمان تجريديان إلى حد بعيد جدًا، ذلك أن أهمية ما في رأسى بيتر وخوان للبحث العلمى الطبيعى لا تزيد، حقيقة، عن أهمية مسار ريشة في يوم عاصف. ومن هنا يجب أن يتمثل التفسير الأساس للمثل هذه الحقائق في خصائص الملكة اللغوية للدماغ. فتتأمل الحالة الأولى للغة المحنّدة أحيانًا عند بيتر وخوان وغيرهما من البشر، إلى حد بعيد. ولا تسمح إلا لنوع محنّد من اللغات - د أن يتطور تحت تأثير التجربة القاسح المشكّل. ويمكن أن نفترض بقدر من المعقولية، في ضوء فهمنا الراهن، أن

الحالة الأولى تحدد النظام الحوسبي للغة بشكل فريد، بالإضافة إلى تحديدها مدى للاحتمالات المعجمية محدداً تحديداً بنيوياً دقيقاً وبعض الخيارات من "العناصر النحوية" الوظيفية التي لا معنى لها في ذاتها. أما وراء هذه الاحتمالات، فربما أمكن اختزال تنوع "اللغات - د" إلى خصيصة الاعتباطية التي اقترحها دي سومور (أي الارتباط بين التصورات والتمثيلات المجردة للصوت) وإلى بعض أجزاء النظام الصوتي التي يمكن النفاذ إليها، وهو ما يعنى "إمكان تعلمها" (إن استعملنا مصطلحاً ذا إحصاءات دلالية مضللة). ويمكن للاختلافات الضئيلة في نظام معقد، بالطبع، أن تؤدي إلى اختلافات ظواهرية ضخمة، لكن ربما لا يجد عالم مريخي واع يدرس البشر الاختلاف بين الإنجليزية ولغة النفاهو [إحدى لغات الأمريكيين الأصليين] لافتاً للنظر.

و"اللغة - د" خصيصة للدماغ (حين توصف وصفاً دقيقاً محدداً)، وهي عنصر قارٍ نسبياً للحالات المتحوكة للملكة اللغوية. ويتضمن أي تعبير لغوي (أي كل "وصف بنيوي") مما تولده "اللغة - د" تعليمات لأنظمة الأداء التي تمكن "اللغة - د" فيها. ولا تتأهل حالة الدماغ هذه لتكون لغة إلا بسبب اندماجها في أنظمة الأداء هذه. فربما تملك بعض الكائنات العضوية، من حيث المبدأ، "اللغة - د" نفسها (أي حالة للدماغ) التي لدى بيتر، لكنها مُمَجَّبة في أنظمة أداء تستعملها [أي للغة - د] من أجل الحركة. فما ندرسه، إذن، موضوع حقيقي، أي الملكة اللغوية للدماغ، يتخذ صورة لغة - د كاملة ومُتَمَجَّبة في أنظمة أداء تؤدي دوراً في النطق والتأويل والتعبير عن الاعتقادات والرغبات والإحالة وسرد الحكايات، إلخ. فموضوع البحث، لهذه الأسباب، هو دراسة للغة البشرية.

ويبدو أن أنظمة الأداء تتبع نمطين عامين: الأول "نطقى - إدراكى"؛ والثاني "تصوري - قصدي"⁽¹⁾. وإذا كان الأمر كذلك فمن المعقول افتراض أن للتعبير المولد يشتمل على "مستويين وجيهين"، يوفر أحدهما معلومات وتعليمات للأنظمة النطقية - الإدراكية، ويوفر الآخر معلومات وتعليمات

للأنظمة التصورية - القصديّة. ويُفترض عموماً أن أحد المستويين الوجيهين هو التمثيل للصوتى: أى: "الصورة الصوتية" (ص ص). أما طبيعة المستوى الثانى فموضوعٌ لخلاف أكبر؛ ونسمه بـ"الصورة المنطقية" (ص م).

وخصائصُ هذه الأنظمة، أو وجودها، من أمور الحقائق الاختبارية. ويَجِبُ ألا يُضلل أحدٌ بالإحياءات غير المقصودة لمصطلحي "صورة منطقية" و"تمثيل" اللذين اجْتلبا من الاستخدام الاصطلاحي فى أنواع أخرى مختلفة من البحث. وبالمثل، فمع أن هناك ما يوحى بفكرتى "النحو العميق" و"النحو السطحي" فى التحليل الفلسفى، إلا أن هذه التصورات لا تتماثل تماماً. فما يُعدّ "سطحياً" من وجهة نظر "اللغة - د"، إن كان هناك شيء من ذلك، ليس إلا "الصورة الصوتية"، على أبعد تقدير، أى المستوى الوجيهى مع الأنظمة المنطقية والإدراكية. وكل شيء غير ذلك "عميق". ولا يتمتع النحو السطحي فى التحليل الفلسفى بوضع خاص فى الدراسة الاختبارية للغة؛ فهو أشبه ما يكون بالأحكام الظواهرية، ويكتسب عن طريق التعليم وتفرضه السلطات التقليدية والمواضعات، والوسائل الثقافية، إلخ. وتبرز أسئلة مماثلة عما يسمى، بصورة عامة جداً، بـ"علم النفس الشعبى"، كما أشرنا من قبل. لهذا يجب أن يُنظر إلى مثل هذه الأفكار بحذر؛ ذلك أنه من الممكن أن تتخفى أشياء كثيرة وراء الوضوح الظواهرى الخادع.

ويدخل المجموع المعقد المؤلف من "اللغة - د" وأنظمة الأداء فى الفعل البشرى. وهو موضوعٌ صالح للنظريات العلمية الطبيعية التى يمكن أن تأخذنا إلى موقع متقدم جداً نحو فهم الكيفية التى يفعل الناسُ بها ما يفعلونه ولماذا، مع أنها تُقصر دائماً عن أن تكون تفسيراً كاملاً، وهو ما يُشبه تماماً احتمال إخفاق النظريات العلمية الطبيعية التى تُدرس الجسد فى أن تفسر تفسيراً كاملاً الأحداث أو الإنجازات البشرية مثل رؤية شجرة أو المشى.

لذلك ربما يكون مضللاً، أو أسوأ من ذلك، أن نقول إن جزءاً معيناً من

الدماغ أو نموذجًا مجردًا له (نحو: شبكة عصبية أو حاسوب ميرمج) يرى شجرة أو يستنتج الجذور التربيعية. ذلك أن الناس ينطقون الكلمات تحت عدد من الظروف النموذجية غير الواضحة أو يحيلون إلى القطط أو يعبرون عن أفكارهم أو يفهمون ما يقوله الآخرون أو يلعبون الشطرنج، إلخ؛ أما أدمغتهم فلا تقوم بشيء من ذلك ولا تفعل ذلك البرامج الحاسوبية - مع أنه يمكن لدراسة الأدمغة، التي ربما تستعين بنمذجة مجردة لبعض خصائصها، أن توفر لنا فهمًا أكثر عمقًا لما يفعله الناس في مثل هذه الحالات. فيمكن أن يُقنم خوارزم يصاغ في ضوء نظرية للتمثيلات الحوسبية تفسيرًا صحيحًا لما يحدث في دماغ بيتر وهو يرى خطأ مستقيمًا أو حين ينفذ عملية طرح حسابية طويلة أو يفهم اللغة الصينية^(٧)، ويمكن [لهذا الخوارزم] أن يُدمج دمجًا خالصًا في نظرية تقوم على أسس قوية في مستوى آخر من التفسير (كمستوى "الخلية"، مثلًا). أما الخوارزم، أو الآلة التي تنفذه، فربما لا يُنفذان هذه الأحداث، مع أنه يمكن لنا أن نقرر تعديل الاستخدامات اللغوية، كما في قولنا إن الطائرات تطير والغواصات تنبح (لكنها لا تسبح). وليس لشيء من هذا أهمية. ومثل ذلك أنه مع أن الناس ربما ينفذون الحدث لأن أدمغتهم تنفذ الخوارزم، فإن هؤلاء أنفسهم ربما لا ينفذون الحدث إن كانوا ينفذون التعليمات بصورة آلية، بطريقة تشبه عمل الآلة (أو عمل أدمغتهم). فربما أرى خطأ مستقيمًا (أو أقوم بعملية طرح حسابية طويلة، أو أفهم اللغة الإنجليزية، إلخ) لأن دماغي ينفذ خوارزمًا معينًا؛ لكن إن كنت، أنا الشخص، أنفذ التعليمات بصورة آلية، محوّلًا تمثيلًا رمزيًا معينًا للثخل إلى تمثيل معين للخروج، فإني لا أرى، ولا يرى المجموع المكوّن مني والخوارزم والذاكرة الخارجية خطأ مستقيمًا (إلخ)، وذلك مرة أخرى، لأسباب غير مهمة^(٨).

وسيكون من الخطأ كذلك، حين ننظر في طبيعة أنظمة الأداء، أن ننقل سريعًا إلى "دراسة كل شيء" الفارغة. وكمثال على ذلك، انظر إلى مناقشة دونالد ليفيدسون لـ"بيتر" بوصفه "مؤولًا" يحاول أن يخمن ما في ذهن "توم"

حين يتكلم. فيلاحظ ديفيدسون أن بيتر ربما يستخدم أية معلومات أو مسلمات سابقة أو تخمين، أو غير ذلك، ليصوغ "نظرية عابرة" تلائم المقام؛ لهذا نقلنا للنظر في فكرة "المؤول" إلى نماذج كاملة للتنظيم الوظيفي للبشرى الكامل. ويستنتج ديفيدسون أنه لا حاجة "لتصور اللغة" الذى يعمل كـ "آلة تأويلية" جاهزة تعمل على تحليل أى تعبير لاعتصار معناه؛ ويقودنا هذا "لا إلى التخلي . . . عن المفهوم المؤلف للغة وحسب، بل إلى إلغاء الحد بين معرفة لغة ما ومعرفة الطرق التى نتعامل بها مع الأشياء فى العالم عموماً". ولعلم "وجود قواعد للوصول إلى نظريات عابرة"، يجب علينا "أن نتخلى عن فكرة وجود بنية مشتركة محددة تحديداً واضحاً يكتسبها مستعملو اللغة ثم يطبقونها على الحالات" (Davidson 1986b: 446). وتبدأ إحدى الدراسات التى أنجزت حديثاً عن فلسفة ديفيدسون بالقول إنه ليس هناك شىء يمكن أن يُسمى لغة، وهو قول حظى بموافقة (Davidson: 1986b; Ramberg 1989).

والملاحظة الأولى عن "النظريات العابرة" صحيحة، لكن للنتائج التى انتهى إليها [ديفيدسون] لا تترتب على تلك الملاحظة. فأحد الأجوبة المعقولة عنها — إن كان هنأ فهم البشر وما يفعلونه — أن نحاول عزل الأنظمة المتماسكة التى تقبل الخضوع للبحث العلمى الطبيعى، وتلك التى تتفاعل لتنتج مظاهر التعقيد كلها. وسيؤدى ذلك، إن اتبعنا هذا المسار، إلى أن نفترض وجود إجراء توليدى يعمل على "تحليل" التعبيرات اللغوية بما تتصف به من خصائص المستويات الوجيهية، وتبين أنظمة الأداء التى تنفذ إلى هذه التعليمات وتستخدم فى تأويل أفكار المتكلم والتعبير عنها.

والآن ماذا عن فكرة البنية المشتركة المحددة تحديداً واضحاً ويكتسبها مستخدمو اللغة ويطبقونها من ثم على الحالات؟ أوجب هذا أن نفترض كذلك وجود "بنى مشتركة"، إضافة إلى "اللغة — د" وأنظمة الأداء؟ وكثيراً ما يُجادل بأن بعض المفاهيم للشائعة كـ "اللغة المشتركة" أو "المعانى المشتركة" ضرورية لتفسير إمكان التواصل أو إمكان وجود كنز الأفكار المشترك،

بمعناه عند غوثليب فريجه (Frege 1892/1965: 71). لهذا، فإذا لم يمتلك بيتر ومارى لغة مشتركة، بـ"معان مشتركة" وإحالة مشتركة، فكيف يمكن لبيتر أن يفهم ما تقوله ماري؟ (ومن اللافت للنظر أنه لم يستخلص أحد النتيجة المماثلة عن "طريقة النطق المشتركة"). وتُسرَى إحدى الدراسات الحديثة أنه لا يمكن للسانيين أن يقولوا بـ "اللغة - د" إلا بـ "إنكار أن الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية أنها وسيلة للاتصال بين المتكلمين"، ويشمل ذلك مسألة "التواصل بين الفترات الزمنية في اكتساب لهجة فردية" (وهو ما يسمى بـ "التعلم التدرُّجى"؛ (Fodor and Lepore 1992)^(١).

ولا تقوم وجهات النظر هذه على أسس قوية. فلا يلزم عن التواصل الناجح بين بيتر ومارى وجود معان مشتركة أو طرائق نطق مشتركة فى لغة مشتركة معينة (أو كنز أفكار مشترك أو كصفات مشتركة للتعبير عنها) إلا بقدر ما أنه يلزم عن التشابه فى الشكل بين بيتر ومارى وجود شكل عام يشتركان فيه. أما فكرة أن "وظيفة اللغات الطبيعية الأساسية أن تكون وسيلة للتواصل"، فليس من الواضح ما المعنى الذى يمكن أن يُسبغ على فكرة خالصة للوظيفة الأساسية فى أى نظام أحيائى؛ وإذا أمكن التغلب على هذه المشكلة فربما نَسأل عن سبب كون "التواصل" هو "الوظيفة الأساس" [للغة]؟. كما يبدو أن مشكلة الانتقال لمن مرحلة إلى مرحلة أخرى فى أثناء اكتساب الطفل للغة ليست أكثر غموضاً من مشكلة كيف يمكن لبيتر أن يكون هو الشخص نفسه، إذا نظرنا إلى الأطوار التى مر بها؛ لذلك فليس الأمر أن منظور "اللغة - د" وحده المنظور الملائم للتعامل مع المشكلة التى بين أيدينا، بل أنه يصعب أن نتخيل بديلاً متماسكاً له.

وربما يكون الأمر أن بيتر حين يستمع إلى ماري وهى تتكلم يتعامل مع هذا الحدث مفترضاً أنها تمانئه، مع بعض الاختلافات التقريبية، وهو ما يوجب أن يُجرى بعض التعديلات. وهذه مهمة سهلة أحياناً، وصعبة فى بعض الأحيان، ومستحيلة أحياناً أخرى. ويستعمل بيتر، لكى يتعامل مع هذه

الاختلافات، أية وسيلة تتوفر له، وإن كان معظم هذا العمل يحدث، من غير شك، بشكل ألي و عفو الخاطر^(١٠). وسيستخدم - حين يكشف هذه الاختلافات - وبشكل مماثل - أية وسيلة ليصوغ "نظرية عابرة" - بل حتى إن لم يكن هناك اختلافات. وبقدر نجاحه في هذه المهمات فإنه يفهم ما تقوله ماري على أنه هو ما يعنيه بتعبيره المشابه. فـ "البنية المشتركة" (الفعلية) الوحيدة بين البشر عموماً هي الحالة الأولى للملكة اللغوية. أما وراء ذلك فلا نتوقع أن نجد أكثر من مقاربات، وهو ما يماثل ما نجده في حالة الأشياء الطبيعية الأخرى التي تنمو وتتطور.

ويقيم النقاش عن اللغة واستخدامها دائماً أنواعاً أخرى من البنية المشتركة، كالجماعات بلغاتها، واللغات المشتركة عبر ثقافة أوسع، إلخ. وهذه الممارسات نموذجية في النقاش اليومي العام كذلك. لهذا نقول إن بيتر وتوم يتكلمان اللغة نفسها، لكن خوان يتكلم لغة أخرى مختلفة. ونقول، بالمثل، إن بوسطن قريبة من نيويورك، لكنها ليست قريبة من لندن، أو إن بيتر وتوم يتشابهان، لكن أيًا منهما لا يُشبه جون. أو ربما نرفض هذه المزاعم كلها. وليس هناك اختيار بين الصواب والخطأ حين نجرد من الاهتمامات التي ربما تتنوع بطرق لا حصر لها. ولا توجد كذلك أصناف طبيعية ولا تجريدات مثالية. ويتشابه تكلم اللغة نفسها، بهذه الاعتبارات، مع القرب المكاني أو التشابه في المظهر. والملاحظة النموذجية في الدرس الأول لمادة اللسانيات في المستوى الأول من الدراسة الجامعية هي قول [اللساني الأمريكي المعاصر] ماكس فينرايخ الساخر إن اللغة لهجة بجيش وسلاح بحرية [لهجة تتبناها دولة وتجعلها لغة رسمية لها]، و"اللهجات" مفاهيم غير لغوية كذلك، ويمكن أن تحدّد بأية طريقة، بناء على بعض الاهتمامات والأهداف المعينة. ويمكن لبعض العوامل كالحدود الطبيعية (مثل المحيطات والجبال) والتلفاز الوطني، وغير ذلك، أن يؤسّس بعض الصور الخادعة في هذا الشأن، لكن أحداً لم يصغ إلى الآن مفهوماً للغة المشتركة بأية طريقة

مفيدة أو متماسكة، ولا يدعو المستقبل إلى التفاؤل كذلك، كما يبدو. ومن هنا
فأية مقارنة لدراسة اللغة أو المعنى تعتمد على مثل هذه المفاهيم مشكوك فيها
إلى أبعد الحدود.

افرض مثلاً أن مفهوم "اتباع القاعدة" حُلَّ في ضوء الجماعات، أي:
أن جونز يتبع قاعدة ما إن كانت ممارسته تتطابق مع ممارسة الجماعة التي
ينتمي إليها أو مع معاييرها. وإذا كانت "الجماعة" متجانسة فالإحالة إليها لا
تفيد شيئاً (وتنثير مفاهيم: "المعيار"، و"الممارسة" و"العُرف"، وغيرها أسئلة
أخرى). أما إن كانت "الجماعة" غير متجانسة – بغض النظر عن القدر
الكبير من عدم الوضوح في مفهوم "المعايير" (والممارسة، وغيرها) في هذه
الحالة – فيبرز عددٌ من المشكلات. وإحداها أن التحليل المقترح غير صحيح
وصفياً. ذلك أن نسيب في العادة اتباع القاعدة على الحالة البينة لعدم "التطابق"
مع الممارسة الاتباعية أو المعايير المزعومة. لهذا ربما نقول إن جونز، ذو
الثلاث سنوات، يتبع القاعدة الخاصة به حين يقول *brang* بدلاً من *brought*
[الصيغة المألوفة لماضي الفعل *bring* "يُحضِرُ"]; أو أن والده بيتر يتبع
"القاعدة الخطأ" (يُخالف القواعد) حين يستعمل *disinterested* ليعني
unintersted "غير مهتم" (كما يفعل أكثر الناس). لكن اللساني وحده هو
الذي يمكن أن يقول إن جونز وبيتر يحترمان الشرط "ب" في نظرية الربط
العاملِي (Chomsky 1981a: 188)، وهو ما تفعله "الجماعة" عموماً (بل
جماعة متكلمى اللغات كلها، على أكثر الاحتمالات). والاعتراض الأكثر
خطراً أنه ليس لمفهوم "الجماعة" أو "اللغة المشتركة" من المعنى أكثر مما
لمفهوم "المدينة القريبة" أو "التشابه في المظهر"، في غياب مزيد من التحديد
للاهتمامات، وهو ما يجعل التحليل فارغاً^(١١).

ولا يوحى شيء في هذا الاقتراح، لأسباب مألوفة، بأي مشكل في
الاستخدام العام، أكثر مما يوحى به الاستخدام العادي لتعبيرات مثل: *Boston*
is near New York "بوسطن قريبة من نيويورك" أو *John is almost home*

يكاد جون يصل إلى منزله. فغاية الأمر أننا لا نتوقع أن تدخل هذه الأفكار في الخطاب النظري التفسيري. إذ ربما تكون ملائمة في مناقشة عامة لما يفعله الناس، بناءً على بعض الافتراضات الضمنية التي يقوم عليها النقاش العادي في ظروف معينة؛ أو حتى في النقاش التقني، حيث تكون التحديدات ذات الصلة مفهومة ضمناً. فليس لهذه الأفكار منزلة أبعد من هذه في البحث العلمي الطبيعي، أو في أية محاولة للوصول إلى فهم أدق.

وللعوامل الاجتماعية المزعومة في استخدام اللغة تأويل فردي طبيعي غالباً — أي، تأويل داخلي. فإذا كان بيتر يحاول إجادة اللغة الإيطالية التي يتعلمها، أو كان "جيانى" يتعلم لغته [الإيطالية] فيمكن أن نقول إنهما في طريقهما إلى التشابه (بطريقتين مختلفتين إلى حد بعيد) مع طيف واسع من الناس؛ مع تنوع طريقتيهما للاقتراب من النموذج واختياريهما للقنوة بشكل يتماشى مع اهتماماتنا، ولن يزداد فهمنا عمقاً بما يفعله إن افترضنا أن هناك وحدة قارة يحاولان الوصول إليها، حتى إن استطعنا أن نضفي على هذه الفكرة الغامضة شيئاً من المعنى، فإذا اشتكى "بيتر" من التهاب المفاصل في كعبه وفخذه، وأخبره طبيبه بأنه مخطئ في شكايته من كليهما، فيمكنه (أو لا يمكنه)، وبطرق مختلفة، أن يختار تغيير استخدام اللغوي ليتوافق مع استخدام الطبيب. وبغض النظر عن التفاصيل الأكثر توسعاً، وهي التي ربما تتفاوت تفلوتاً واسعاً تبعاً لتغير الاحتمالات والاهتمامات، لا يبدو أننا فقدنا شيئاً نتيجة لهذا التفسير. ولا يتطلب الكلام العادي، كذلك، التساؤل عن إن كان شخصاً قد اكتسب تصوراً معيناً لفكرة اللغة المشتركة. فلا يعدو القول بأن بيتر لم يكتسب تصوراً "التهاب المفاصل" أو "الزكام" قولنا إن استخدامه [اللغوي] لا يتماثل تماماً مع استخدام الذين نلجأ إليهم ليعالجونا — وهذا وضع مألوف. فإذا حكى لي جاري "بيتر" عن التهاب المفاصل الذي يشتكى منه، فسيكون افتراضى الأول أنه يمانئني في هذا الاستخدام. وسأحاول إدخال بعض التعديلات من أجل تأويل استخدامه في ضوء ما تتطلبه الظروف؛ لكن

الإحالة إلى لغة مشتركة مفترضة ذات مضمون حقيقي "لـ" النهاب
المفاصل" لن تلقى مزيداً من الضوء على ما يحدث بيننا، حتى إن أمكن
إسباغ معنى واضح على الأفكار الضمنية المفترضة. وإذا كنت لا أعرف
شيئاً عن أشجار الدردار والزان يتجاوز كونهما نوعين من الأشجار
الضخمة، فربما لا يمكن لشيء وراء هذه المعلومات أن يمثل في معجمي
الذهني (وربما لا يكون حتى هذا، كما أشرنا من قبل)؛ إذ ربما يكون
الاختلاف المفهوم في الخصائص الإحالية ناتجاً عن وضع يصح عن المعجم
بصورة عامة: فربما يؤخذ غياب الدليل على وجود علاقة دلالية دليلاً على
عدم وجودها^(١٢).

وتبقى بعض الأسئلة - وهي أسئلة عن الحقائق، في رأيي - عن
أنواع المعلومات التي توجد في المعجم على وجه الدقة، بوصفها متميزة عن
الأنظمة الاعتقادية. وربما تكون التغييرات في الاستخدام، كما في الحالات
التي أوردناها، تغييرات هامشية في اللغة - د، حقيقة، أو تغييرات في
أنظمة الاعتقاد، التي نفهمها هنا على أنها (إن وُصفت وصفاً دقيقاً) أنظمة
للتمثيلات الحوسبية للدماغ، وهي التي تغني المنظورات وزوايا النظر للفكر
والتأويل واستخدام اللغة والأحداث الأخرى (ولنسمها "أنظمة الاعتقاد - د"،
وهي نظائر للاعتقادات يمكن اكتشافها بالبحث العلمي الطبيعي). ويقدم البحث
في علم الدلالة المعجمي، إن اقتصرنا على الإطار الفردي الداخلي، أساساً
لحل اختباري في بعض الحالات (خاصة في نظام الأفعال، التي تتصف ببنية
علائقية أكثر غنى).

ولا يفهم الباحثون إلا قليلاً عن المعمار العام للذهن/الدماغ، وراء عدد
قليل جداً من المناطق المتفرقة [فيه]، ولا تشمل هذه المناطق التي ظلت
مركز الانتباه لأكثر الاهتمام العامة لما يسمى بـ"علم المعرفة". فقد كان
هناك، مثلاً، قدر كبير من النقاش المهم عن نظرية للاعتقاد وعن موضعها
المحتمل في الجهود التي تتغيا تفسير الفكر والفعل، إلا أنه لا يوجد إلا قدر

محدود من البحث الاختباري المنمر الذي ربما يساعد في فحص هذه الأفكار، وصقلها، واختبارها. فيبدو من المعقول في الأقل، أن نفترض أن "الاعتقادات - د" لا تكون مجموعة متجانسة؛ ذلك أن للنظام مزيداً من البنية يمكن أن يوفر بعض المواد الضرورية لاتخاذ القرار عما يكون اعتقادات زائفة وخطأ في التعيين. افترض أن بعض "الاعتقادات - د" اعتقادات "تعيين" وبعضها غير ذلك، أو أنها تتوزع على طول مثل هذا الطيف، حيث يمكن أن تكون الأخيرة (أو الأقل) أكثر عرضة للتراك من غير أن تؤثر على شروط الإحالة. افترض، مثلاً، أن معلومات بيتر عن "مارتن فان بيرن" يستغرقها الاعتقاد بأنه كان (١) رئيساً للولايات المتحدة و(٢) أنه كان الرئيس السادس عشر، حيث يكون الاعتقاد (١) أكثر اتصافاً بأنه اعتقاد تعيين من (٢). فإذا تعلم بيتر أن لينكولن كان الرئيس السادس عشر فقد يتخلى عن "الاعتقاد - د" غير المُعَيَّن في حين يستمر في استخدام العبارة في الإحالة. أما إذا أكد له أن كتب التاريخ كلها خاطئة وأن "فان بيرن" لم يكن رئيساً قط، فسيجتاز كيف يتصرف. وتبدو هذه خطوة معقولة أولى نحو ما يصلح أن يكون تحليلاً يمكن أن يوفره منظور داخلي، وأن يكون واضحاً من حيث الواقع. ويمكن إطلاق مزيد من الأحكام أحياناً في بعض الظروف المعينة، وبطرق متنوعة ومتعارضة^(١٣).

وربما كان سبب ذلك وجود خصيصة عامة (أو مشتركة بين الناس) للفكر والمعنى تنتج عن التماثل في الإعداد [الأحيائي] الأولى، وهي التي لا تسمح إلا بـ "اللغات - د" التي تتشابه من حيث بعض المعايير المهمة، ومن هنا توفر بعض الأسباب الاختبارية لتبني إحدى صيغ مبدأ فريجه الذي يقول: "إنه لا يمكن إنكار أن البشر يمتلكون كنزاً مشتركاً من الفكر يُنقل من جيل إلى جيل" (Frege 1892/1965: 71). وربما تقرب الصياغات المعينة لملكة صياغة العلم أيضاً من كونها خصيصة عامة (وهذا أكثر أهمية، لاهتمامات فريجه المحددة). لكن طبيعة الفكر والمعنى، فيما يخص الأنظمة التي تنمو

بصورة طبيعية في الدماغ، بعد تشخيص الإعداد الأولى على صورة لغة -
د" (وربما "اعتقاد - د" والأنظمة ذات الصلة، كذلك)، تتنوع تبعاً لتنوع
الاهتمامات والظروف، مع عدم وجود طريق واضح لوضع تصنيفات
أخرى، حتى على المستوى المثالي. لذلك يبدو اللجوء إلى التفسير بالأصل
المشترك للغة أو بالتخرصات عن مبدأ الانتقاء الطبيعي، وهو ما يشيع في
الأبحاث المتخصصة، غير مفيد.

انظر إلى الحالة الأولى المشتركة لملاكة اللغة في الدماغ، وإلى المدى
المحدود لـ "اللغات - د" التي يمكن تحصيلها في أثناء تطورها في السنوات
الأولى من حياة الطفل. فنجد، حين نبحث الخصائص المعجمية، نسيجاً غنياً
من الدلالة الداخلية الصرفة مع خصائص عامة لافتة للنظر، وبعض الأدلة
على وجود علاقات دلالية صورية (ويشمل تلك العلاقات التحليلية، انظر
المراجع في ص). كما يبدو، زيادة على هذا، أن جزءاً كبيراً من هذه البنية
الدلالية مشتق من طبيعتنا الداخلية، وتحدده الحالة الأولى لملاكتنا اللغوية،
ومن هنا فهو غير متعلم وكلي في "اللغات - د"، ويصح الشيء نفسه تقريباً
عن الخصائص الصوتية والخصائص الأخرى، ويبدو، باختصار، أن اللغة
- د" (ويشمل ذلك الدلالة الداخلية) تشبه الأجزاء الأخرى من العالم
الحياتي.

ويمكن أن نأخذ هذا كله على أنه شكل من التركيب، أي أنه دراسة
للأنظمة الرمزية لنظريات التمثيل الحوسبي ("التمثيل الذهني"). وتبقى
المصطلحات نفسها ملائمة إن طورنا هذه الوسائل النظرية لتشمل النماذج
الذهنية، وتمثيلات الخطاب، والقيم الدلالية، والعوامل الممكنة على الوجه الذي
تفهم به عادة، وتركيبات نظرية أخرى يجب النظر إليها على أنها ترتبط
بشكل ما بالأشياء في العالم؛ أو بالوحدات التي تفترضها ملاكة صياغة العلم
لدينا، أو تصوغها منكات أخرى من ملكات الدماغ.

ويمكن أن نصل خصائص التعبيرات اللغوية المحددة داخلياً إلى أمداء بعيدة جداً، حتى في أبسط الحالات البسيطة. انظر مرة أخرى إلى الكلمة house "بيت" في التعبير التالي، مثلاً:

John is painting the house brown.

"يصبغ جون البيت بنيًا".

وهو تعبير يتصف بأنه مجموع معين من الخصائص البنيوية والصوتية والدلالية، ولا يمكن أن نقول إن هذا التعبير هو نفسه عند بيتر وتوم إلا بالمعنى الذي يمكن أن نعنيه حين نقول إن نظام دورتهما اللغوية أو نظام الإبصار عندهما متماثلان، أي أنهما متماثلان إلى درجة كافية للأغراض التي نعنيها. وإحدى الخصائص البنيوية لهذا التعبير أنه يتكون من ست كلمات [في الإنجليزية]. وتميز خصائص بنيوية أخرى هذا التعبير عن التعبير التالي:

John is painting the brown house.

"يصبغ جون البيت البني".

وهو يتصف بشروط مختلفة للاستخدام. وإحدى الخصائص الصوتية أن الكلمتين الأخيرتين فيه house "بيت" و brown "بني" تشتركان في الحركة نفسها؛ فهما في علاقة صوتية للتجانس الصوتي، أما كلمتا: house و mouse فهما في علاقة صوتية للسجع، وهاتان علاقتان بين التعبيرات اللغوية يمكن تعيينهما في ضوء سماتهما الصوتية⁽¹⁾. وإحدى الخصائص الدلالية أن إحدى الكلمتين الأخيرتين يمكن استخدامها في الإحالة إلى أنواع محددة من الأشياء، وتعبّر الأخرى عن خصيصة أخرى لـ [هذه الأشياء]. ونجد هنا، مرة أخرى، علاقات صوتية يمكن التعبير عنها في ضوء بعض سمات الكلمات، مثل ما بين house و building "مبنى"، مثلاً. أو، إن أخذنا خصيصة أكثر لفتاً للنظر، إن كان جون يصبغ البيت بنيًا، فهو يصبغ السطح الخارجي للبيت، لا السطح الداخلي؛ وهي علاقة "اقتضاء" تلزم بين التعبيرات اللغوية.

وحيث ننظر في علاقات الاقتضاء صورياً نجد أن لها المنزلة نفسها تقريباً التي للسجع؛ فهي علاقات صورية بين التعبيرات، ويمكن وصفها في ضوء سماتها اللغوية. وبعض العلاقات مهمة، بوصفها متميزة عن علاقات أخرى كثيرة ليست كذلك، وذلك للطرق التي تُدمج بها "اللغات - د" في أنظمة الأداء التي تستخدم هذه التعليمات من أجل أنشطة بشرية مختلفة.

وبعض خصائص هذا التعبير كلية، وبعضها خاص بلغة معينة. فمن الخصائص الصوتية الكلية أن الحركة في house أقصر من الحركة في brown؛ ومن الخصائص الخاصة أن هذه الحركة في لغتي - د" أمامية لا متوسطة، كما في بعض "اللغات - د" الشبيهة بلغتي. ويبدو أن كون البيت البني يتصف بأن سطحه الخارجي بني، لا داخله، حقيقة لغوية كلية، تصدق على الكلمات التي تدل على "الاحتواء"، ويشمل ذلك الكلمات التي يمكن أن نخترعها، مثل: box "صندوق"، و airplane "طائرة"، و igloo نوع من الأكواخ عند الإسكيمو، و lean-to "ملحق بالبيت له سطح منحدر"، إلخ. فإن تصبغ مكعباً كروياً بلون بني يعني أن تجعل له سطحاً خارجياً بنياً. وتمييز house "بيت" في الإنجليزية عن home "منزل" سمة خاصة في اللغة - د". فأنا أعود، في اللغة الإنجليزية، إلى "منزلي" home بعد العمل؛ أما في العبرية فأنا أعود إلى "بيتي" house^(١٤).

وإذا تجاوزنا البنية المعجمية، نتلقى النتائج عن غنى الحالسة الأولى للملكة اللغوية، وبنيتها المقصورة عليها فيما يبدو، دعماً أقوى. انظر إلى تعبيرات كالتى في المثال رقم (٢):

أ - He thinks the young man is a genius.

"يظن أن الفتى عبقري".

ب - The young man thinks he is a genius.

"يظن الفتى أنه عبقري".

ج - His mother thinks the young man is a genius.

"تظن أمه أن الفتى عبقري".

فيمكن أن يعتمد الضمير في (أب) أو (أج) إحيائياً على the young man ؛ أما في (أد) فذلك غير ممكن (مع إمكان استخدامه في الإحالة إلى الفتى المتحدث عنه هنا، وهو أمر لا صلة له هنا). فيبدو أن المبادئ التي تقوم عليها هذه الحقائق كلية، إلى حد بعيد في الأقل^(١٦)؛ كما ينتج عنها شروط غنية على التأويل الدلالي، والارتباطات الذاتية للمعنى بين التعبيرات، ومن ذلك الارتباطات التحليلية. يضاف إلى ذلك أن لدينا في هذا المجال نتائج نظرية على درجة بعيدة من العمق، ولها مقتضيات مفاجئة. فيبدو - لذلك - أن هذه المبادئ نفسها تنتج الخصائص الدلالية للتعبيرات التي تماثل من حيث الشكل المثال رقم (١)، في ص.

ويقرض التمثيل في المستوى الوجيهي 'ص ص'، في ضوء أنظمة الأداء، شروطاً تقييدية على الاستخدام (أي على النطق والإدراك، في هذه الحالة). ويصح الشيء نفسه عن التمثيل 'ص م'، كما يوضح المثالان (١) و(٢)، أو كما يتمثل، في المستوى المعجمي، في الوضع الخاص للسطح الخارجي في الكلمات التي تدل على "الاحتواء". ويبين الفحص المنقّق مزيداً من التعقيد. فيميّز السطح الخارجي بطرق أخرى ضمن دلالة "اللغة - د". فإذا كنت أرى البيت فإني أرى سطحه الخارجي؛ أما رؤية سطحه الداخلي فلا تكفي. وإذا كنت داخل طائرة فلا أرى سطحها الخارجي إلا إذا نظرت عبر النافذة لأرى سطح الجناح، أو إذا كانت هناك مرآة في الخارج تعكس سطح الطائرة الخارجي. لكن البيت ليس سطحه الخارجي وحسب، فهو وحدة هندسية. فإذا كان بيتي وماري على مسافة متساوية من السطح - حيث يكون بيتي داخل البيت وماري خارجه - فلا يكون بيتي قريباً من البيت، أما ماري فربما تكون، تبعاً للظروف الحالية للقرب، ويمكن أن يحوى البيت كراسي في داخله أو في خارجه، وهو ما يتماشى مع اعتباره سطحاً. ومع أنه يمكن أن تكون الكراسي التي في خارج البيت قريبة منه، إلا أن التي في داخله ليست كذلك بالضرورة. لذلك يدخل في البيت سطحه الخارجي وسطحه الداخلي. لكن داخله يُدرك بشكل تجريدي؛ فسينظر للبيت نفسه إن ملأته بالخبز أو

أزلت جدرانه - مع أنى إن نظفت البيتَ فربما أتعامل مع الأشياء التي في
 حيزه الداخلي فقط، وأنا أحيل إلى هذه الأشياء وحدها حين أقول إن البيت
 غير مرتب أو أنه بحاجة إلى زخرفته من جديد. فيدرك البيت على أنه سطح
 خارجي وحيز داخلي (بخصائص معقدة). صحيح أن البيت نفسه شيء مادي
 محسوس؛ إذ يمكن أن يبني بالطوب أو الخشب، كما أن البيت الخشبي ليس
 مكوناً من سطح خارجي خشبي فقط. والبيت الخشبي البني له سطح خارجي
 بني (بالم منظور المجرد) وهو مبني من الخشب (بالم منظور الحسي). وإذا كان
 بيتي my house في فيلادلفيا لكنه الآن في بوسطن، فهذا يعني أن شيئاً مادياً
 انتقل. وبالمقابل، فإذا كان منزلي my home في فيلادلفيا لكنه الآن في
 بوسطن فلا يعني هذا بالضرورة أن شيئاً مادياً انتقل، مع أن منزلي my home
 شيء مادي كذلك - وإن كان بطرق أخرى مجردة كذلك، سواء أفهم أنه
 البيت الذي أعيش فيه أم المدينة أم البلاد أم الكون؛ فالبيت مادي حسي بمعنى
 مختلف جداً. وللتمييز بين house-home "بيت - منزل" مقتضيات كثيرة:
 فأنا:

I can go home.

"أستطيع العودة إلى منزلي".

لكن:

I can not go house.

"لا أستطيع العودة إلى بيتي".

I can live in a brown house.

و:

"يمكن أن أعيش في بيت بني".

I can not live in a brown home.

لكن:

"لا يمكن أن أعيش في منزل بني".

وتأتي الكلمة للمماثلة لـ home "ظرفاً" في كثير من اللغات، كما هي

الحال في الإنجليزية جزئياً.

فنحن نرى [من هذا] أن الشروط الداخلية على المعنى، حتى في هذا المثال البسيط، غنية ومعقدة ولا تلتفت للنظر؛ بل لا تكاد تُعرف. ولا تحلسم أكثر المعاجم تفصيلاً أن تبيّن مثل هذه التفاصيل الدقيقة؛ فهي لا توفر إلا بعض الإحاعات التي ربما تساعد الذين يعرفون التصور المقصود (من حيث بعض الاعتبارات الأساسية، في الأقل) على اكتشافه. لذلك يعمل "النوع - د" عند فريجه بطرق متداخلة غريبة.

ويبدو للنظر الأول أن هناك شيئاً متناقضاً في هذه التوصيفات، ذلك أن houses "البيوت"، و homes "المنازل" أشياء مادية، لكنه يُنظر إليها من زاوية أخرى، على أنها مجردة إلى حد بعيد، وإن كانت مجردة بطرق مختلفة جداً؛ كذلك الكتب ومجموعة أوراق اللعب والمكن، إلخ. ولا يعنى تلك أن لدينا أفكاراً مشوشة - أو اعتقادات غير مطردة - عن البيوت أو المنازل أو الصناديق أو الطائرات أو الكهوف أو المكعبات المكورة، إلخ. بل يعنى أن الوحدة المعجمية تمتدنا بعدد من الزوايا للنظر إلى ما نعده أشياء في هذا العالم، أو ما ندركه بطرق أخرى؛ ونسببه هذه الوحدات المنصافي أو العدسات، فهي توفر لنا طرقاً للنظر إلى الأشياء وطرقاً للتفكير فيما تنتجه عقولنا. والكلمات نفسها لا تحيل، إن استخمننا الكلمة "تحيل" بمعناها في اللغة الطبيعية، في الأقل، لكن الناس يمكن أن يستعملوها في الإحالة إلى الأشياء حين ينظرون إليها من زوايا معينة - وهي زوايا بعيدة جداً عن طرق العلوم الطبيعية، كما أشرنا.

ويصح الشيء نفسه في أي جانب ندرسه من "اللغمة - د". فليست "لندن" خرافة، لكن حين ننظر إليها على أنها "لندن" - أي من خلال منظور اسم مدينة، وهو نوع خاص من التعبير اللغوي - فإننا نسبغ عليها بعض الخصائص الغريبة: فنسمح، كما لاحظنا سابقاً، بأنه يمكن في بعض الظروف أن تدمر تدميراً تاماً ثم يعاد بناؤها في مكان آخر، بعد سنين بل بعد آلاف السنين، لكنها تظل هي "لندن"، أي المدينة نفسها. وقد وصف تشارلز ديكنز

مدينة واشنطن بأنها "مدينة ذات مقاصد عظيمة"، فهي تتميز بـ "طرق واسعة، تبدأ من لا شيء، وتؤدي إلى لا مكان؛ وبشوارع طول الواحد منها ميل، لكنها لا تحتاج إلا إلى بيوت وجواري وسكان ومبان حكومية، لا تحتاج إلا إلى أناس لتكون كاملة ليتعب ديكنز بكلمة public في عبارة public buildings "مكاتب حكومية"، و public "الناس"؛ وأبهة في الشوارع، لكنها لا تحتاج إلا لشوارع عظيمة ذات أبهة" - ومع ذلك تظل هي واشنطن. ويمكن أن ننظر إلى لندن باعتبار سكانها أو من غير اعتبار لهم؛ فهي، من جهة، المدينة نفسها حتى إن هجرها سكانها؛ ونستطيع أن نقول، من جهة أخرى، إن لندن صارت ذات شعور فظ إبان رئاسة مارجريت ثاتشر للحكومة، وهو تعليق يتصل بالكيفية التي يتصرف فيها الناس ويعيشون. وربما كنا نتحدث، في إحالتنا إلى لندن، عن موقع أو منطقة أو أناس يعيشون هناك أحياناً، أو عن الهواء في سمانها (لكن يجب أن يكون الهواء القريب من سطح أرضها فقط)، أو عن مبان أو مؤسسات، إلخ، وبطرق كثيرة للجمع بين هذه الأشياء (كما في: "لندن تعيسة جداً، وقبيحة وملوثة إلى درجة توجب تدميرها وإعادة بنائها على بعد مائة ميل من موقعها الحالي"، لكنها تظل هي المدينة نفسها). فتمتعمل كلمات مثل "لندن" للحديث عن العالم الواقعي، لكن ليس هناك أشياء في العالم "تتصف بالخصائص المعقدة لطرق الإحالة التي يلخصها اسم مدينة ولا يعتقد أحد أن هناك شيئاً مثل ذلك. ويمكن أن يدخل منظوران من مثل هذه المنظورات بشككين مختلفين في نظام الاعتقاد عند بيتر، كما في الاختبار المحير عند سول كريبك Kripke's puzzle. (للاطلاع على نقاش مستفيض من وجهة نظر مماثلة تقريباً، انظر Bilgrami 1992).

ونحن نصوغ، من أجل أهداف البحث العلمي الطبيعي، صورة للعالم منفصلة عن هذه المنظورات "البديهية" (ولن يكون هذا الانفصال تاماً بالطبع؛ إذ لا يمكن أن تكون إلا الكائنات التي هي نحن)^(١٧). أما إذا مررنا بين هذين الطريقتين المختلفتين للتفكير عن العالم فربما نكتشف أننا نعزو إلى الناس

اعتقادات غريبة بل متعارضة أحياناً عن أشياء ينبغي أن يُنظر إليها بمعزل عن الوسائل التي توفرها "اللغة - د" وأنظمة "الاعتقاد - د" التي تُضيف مزيداً من التعقيد للتأويل. وسيبدو الوضع أكثر غموضاً إن تبيننا الفكرة الغامضة التي مفادها أن لبعض الكلمات علاقة بالأشياء (أي: "إحالة") محدثة في لغة عامة مشتركة ما، وهي التي ربما توجد "باستقلال عن أي متكلمين معينين" يمتلكون "فهماً جزئياً باللغة، وربما يكون وعياً جزئياً خاطئاً" (Dummett 1986)؛ وأن هذه "الكلمات في لغة عامة" تحيل في اللغة المشتركة (بمعنى ما يزال بحاجة إلى تفسير) إلى أشياء مثل "لندن" منظوراً إليها على أنها شيء منفصل عن الخصائص التي يوفرها اسم المدينة (أو بعض الطرق الأخرى للتعيين) في لغة - د ما، ومنفصل عن العوامل الأخرى التي تدخل في الطريقة التي يحيل بها بيتر إلى "لندن". وسيبدو كأن المشكلات تتعمق بشكل أكبر حين نجرّد من خلفيات الاعتقادات الفردية أو المشتركة التي تقبع وراء الاستخدام المألوف للغة. وتذهب هذه المحاولات جميعها وراء حدود أية مقارنة علمية طبيعية، بل ربما يكون بعضها وراء أي نقاش معقول.

كما تذهب هذه المحاولات وراء حدود المقاربة الداخلية، وهو أمر مختلف. فلا تفرض المقاربة العلمية الطبيعية حدوداً داخلية فردية. ومن هنا، فإذا درسنا (بعض الأشياء المناظرة) للأشخاص بصفاتها أطواراً في تاريخ بعض الخلايا الجرثومية التي لا تغنى في الحالات المثالية، أو بصفاتها مراحل في تحويل الأكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، فإننا بذلك نتخطى هذه الحدود. أما إن كنا نهتم بتفسير ما يفعله الناس، وبمعرفة السبب الذي يجعلهم يفعلون ما يفعلون، بقدر ما يكون ذلك ممكناً عن طريق البحث العلمي الطبيعي، فستبدو الحجة التي يُحتج بها لعدم تجاوز هذه الحدود مقنعة⁽¹⁸⁾.

وكنا بدأنا بالنظر في الاكتشاف (الافتراضي) أن دماغ بيتر يُنتج الصورة C حين يفكر بالقطط. ثم انتقلنا إلى المثال الأكثر واقعية وهو

"الإمكانات الكهربائية ذات الصلة بالحدث" ERP ، وانقلنا بعد ذلك إلى مثال يفوق ما سبقه واقعية (من وجهة نظر علمية) وهو "أنظمة التمثيلات الحوسبية"؛ ويمكن النظر إلى عناصرها على أنها تشبه C، لكنها الآن عناصر واقعية، لا افتراضية، كما توحى بذلك الأدلة المتوفرة. وربما يكون الأمر نفسه صحيحًا عن مقارنة طبيعية علمية تتجاوز هذه الحدود الداخلية، ناظرة إلى دماغ بيتز بوصفه جزءًا من نظام أوسع للتفاعلات. لذلك ربما لا يكون التشابه الآن مع الصورة C التي تتكوّن في دماغ بيتز حين يفكر بالقطط، بل مع صورة مانية ما C' تتضمن C إلى جانب أشياء أخرى، وربما يكون هذا الشيء عن القطط. ونحن الآن في مجال الافتراض - ولا أعرف بديلًا جادًا آخر. لكن افترض أنه صار من الممكن صياغة مثل هذا البديل، وبرهن على أنه يؤدي إلى فهم أعمق للأسئلة المتعلقة باستخدام اللغة. وإذا كان الأمر كذلك فربما يعدك هذا الطرق التي ندرس بها اللغة وعلم النفس، لكنه لن يقودنا إلى تفسير للناس وما يفعلونه.

ويلزم أن نميز بين مقارنة علمية طبيعية خارجية افتراضية من النوع الذي بيّناه باختصار آنفاً ومقارنة خارجية غير طبيعية تحاول أن تعامل الفعل البشري (كالإحالة إلى اللقط أو التفكير عنها، إلخ) في سياق الجماعات، سواء أكانت أشياء حقيقية في العالم أم متخيلة، إلخ. ويجب الحكم على هذه الأنواع من المقاربات انطلاقاً من طبيعتها، بوصفها جهوداً لإضفاء معنى على الأسئلة التي تقع خارج البحث العلمي الطبيعي - كالأسئلة عن الطاقة والأحجار الساقطة والسماء، إلخ - بالمعنى المألوف لهذه الكلمات. وقد تكرت بعض الأسباب التي تشكك في اللجوء إلى الجماعات وممارساتها، أو اللغات العامة بما لها من معان عامة. لكن دعنا نوجه أنظارنا إلى وجه آخر من المقاربة الخارجية، وهو العلاقة المزعومة بين الكلمات والأشياء.

فهناك نظريات تفسيرية مهمة جداً ضمن علم الدلالة الداخلي طوّرت بحسب علاقة "ح" R (من refer) [بحيل] يفترض أنها موجودة بين التعبيرات

اللغوية وأشياء أخرى، أي وحدات تُستخلص من مجال "م" D [Domain] مفترض ما (وربما يكون "القيم الدلالية")^(١٩).

فتلزم العلاقة "ح" R ، مثلاً، بين تعبيرات مثل "لندن" ("بيت"، إلخ) ووحدات المجال "م" D التي يفترض أن لها علاقة بما يحيل الناس إليه حين يستخدمون كلمة "لندن" ("بيت"، إلخ)، مع أن تلك العلاقة المدعاة ما تزال غامضة. وكما لاحظنا من قبل، ينبغي، كما أظن، أن يُنظر إلى هذه النظريات على أنها نوع من التركيب. ذلك أن العناصر التي تفترضها شبيهة، من حيث الاعتبارات ذات الصلة هنا، بالتمثيلات الصوتية أو تمثيلات البنية المركبية، أو الصورة المفترضة C في الدماغ؛ وربما صح لنا نصح "ح" و"م" (D و R) في الوصف البنيوي SD (أي التعبير اللغوي)، بوصفهما جزأين من مستوى وجيهي ما.

ويصاغ تفسير الظواهر التي في المثال (٢) (ص ١٣٢-١٣٣) عادة في ضوء العلاقة "ح". فيمكن أن نطبق عليها نظريات الربط وعود الضمائر نفسها من غير تغيير جذري إن استبدلنا بـ young في المثال (٢) صفات كـ average "متوسط"، أو typical "تمطى"، أو استبدلنا John Doe بـ the young man ، إذا أخذناه على أنه الرجل المتوسط من أجل أغراض خطاب معين^(٢٠). ويمكن أن نتطرق للنظريات نفسها على خصائص عود الضمائر في الأمثلة (٣) و(٤):

أ٣ — It brings good health's rewards.

"إنها تأتي بفوائد الصحة الجيدة".

ب٣ — Good health brings its rewards.

"الصحة الجيدة تأتي بفوائدها".

ج٣ — Its rewards are what make good health worth striving for.

"إن فوائدها هي ما يجعل الصحة الجيدة تستأهل السعي لها".

٤أ — [There is a flew in the argument], but it was quickly found.

"[هناك عيب في الحجة]، لكنه اكتُشف بسرعة".

٤ب — [The argument is flawed], but it was quickly found.

"[الحجة معيبة] لكنه سرعان ما اكتُشف".

فنحن نستطيع في ضوء العلاقة "ح" التي تفترض بين the average و man و John Doe, good health, flaw ، والوحدات المستخلصة من "م"، أن نعلل السلوك المختلف للضمير بالطريقة نفسها التي يمكن أن تفسر بها حالة the young man, Peter, fly (كما فسي الجملة there is a fly in the coffee "هناك ذبابة في القهوة"). فتختلف علاقات الضميرين العائدين في (٤أ، و ٤ب)، مع أنه ليس هناك اختلاف في المعنى بين العبارتين المحصورتين بين الأقواس المعقوفة. وربما نكتشف أن هذه التعبيرات، إلى جانب تعبيرات أخرى مثل the argument has a flaw "في الحجة عيب" (مع اختيارات عود الضمائر في (٤أ))، ما تزال تشترك في بعض الخصائص البنيوية الأكثر عمقا، بل ربما تشترك حتى في التمثيل البنيوي نفسه في المستوى ذي الصلة بالدلالة الداخلية للعبارات، وهو احتمال كان مجالاً للبحث منذ سنوات عدة (انظر Tremblay 1991)^(٢١) ويصح الشيء نفسه في حالات أكثر غرابة. فربما يبدو نوعاً من الخُمق أن نبحث عن علاقة بين بعض الوحدات في "م" والأشياء الموجودة في العالم — سواء أكانت تلك الأشياء حقيقية أم متخيلة، أم غير ذلك — أي علاقة تتصف بأي قدر من العمومية، في الأقل. وربما يتخيل أحد أن علاقة العناصر في "م" بالأشياء في العالم أكثر "شفافية" مما هي في حالة التمثيلات التركيبية الأخرى، مثلما أن علاقة الموجات الصوتية أكثر "شفافية" بالأصوات منها بالتمثيلات الصوتية؛ لكن حتى إن كان الأمر كذلك، فلا تتجاوز هذه الدراسات حدود تركيب التمثيلات الذهنية. أما العلاقة "ح" والمركب "م" فيجب تفسيرهما بالأسباب نفسها التي تسوّغ الأفكار التركيبية التقنية الأخرى، أي الأفكار الصوتية، أو أصناف المقولات الفارغة فسي

التركيب. ومن هنا فليس للتشابه العارض بين العلاقة "ح" R والمصطلح refer "يحيل" في اللغة العادية من الأهمية ما يزيد عن الأهمية التي ربما تكون له في حال المصطلحين [الفيزيائيين التقنيين] momentum "الزخم"، و undecidability "اللايقين".

فنحن لا نملك، على وجه التحديد، أي حدس عن "ح" إلا بقدر ما نملكه من حدس عن كلمات مثل momentum أو undecidability بمعنييهما التقنيين، أو عن c-command "التحكم المكوئي" أو autosegmental "المستوى القطعي المستقل" في (الأجزاء الأخرى) من النظريات الحوسبية للتركيب^(٢٧)؛ إذ تأخذ هذه المصطلحات المعاني التي نسبغها عليها. ونحن نملك أحكامًا حدسية عن الفكرة المستخدمة في تعبيرات مثل:

Mary often refers to the young man as a friend.

(to the average man as John Doe, to good health as life's highest goal)

"تحيل ماري غالبًا إلى الفتى بوصفه صديقًا (وللرجل المتوسط بوصفه جون دو، وللصحة الجيدة بوصفها أسمى هدف للحياة)"

لكننا لا نملك مثل هذه الأحكام عن العلاقة "ح" الموجودة بين Mary (أو: the average man, John Doe, good health, flaw) والعناصر المفترضة في "م". ذلك أن "ح" و "م" هما ما نحدّد أنه هما، ضمن إطار معين للتفسير النظري، ويمكن أن نقارن "ح" و "م" بـ P "ص" و PF "ص ص"، حيث تكون "ص" P علاقة بين تعبير ما والتمثيل الصوتي "ص ص" PF له (وربما بين الكلمة took وكيفية نطقها، أي: [thuk])، مع أن التصورات في الحالة الأخيرة تدخل ضمن نظرية أقوى تأسيسًا وأكثر غنى للعلاقات الوجيهة.

هب أننا استطعنا تسوية افتراض وجود "ح" و "م" بنجاحه التفسيري ضمن نظرية التمثيلات الحوسبية للغة - د، إلى جانب "ص" و "ص ص" و "التحكم المكوئي" c-command و "المستوى القطعي المستقل"

autosegmental. لكن هذه النتيجة لن تعزز الاعتقاد بأن هناك علاقة شبيهة بالعلاقة "ح"، ولنسمها العلاقة R "ح"، تقوم بين الكلمات والأشياء، أو بينها وبين الأشياء كما نتخيل أن تكون، أو كما تتصور بدلاً من ذلك. فيجب أن يسوغ افتراض مثل هذه العلاقة على أساس ما، كما هي الحال في أية فكرة تقنية مخترعة أخرى. ثم إننا إن صغنا علاقة R "ح" نلزم بين التعبيرات اللغوية و"الأشياء" التي تفهم بشكل ما، قلن نمتلك حدساً عنها؛ إذ لا تزيد الأمور إلا غموضاً إن توسلنا ببعض الأفكار التي لم تُفسر "للجماعة" أو "اللغة العامة"، حين نأخذهما بمعنى خالص ما. ومع ذلك فنحن نمتلك بالفعل أحكاماً حدسية عن التعبيرات اللغوية والمنظورات وزوايا النظر المعينة التي توفرها للتأويل والتفكير. ويمكن كذلك أن ندرس كيف تدخل هذه التعبيرات والمنظورات في النشاطات الإنسانية المختلفة، كالإحالة. أما وراء ذلك، فندخل في مجال النقاش التقني، محرومين من الأحكام الحدسية.

انظر مثلاً إلى التجربة الذهنية المشهورة "توعم الأرض" عند بتنام (Putnam 1975). فهي تبين أنه لا يمكن الحدس بما إن كان لـ water "ماء" "المرجع" نفسه عند أوسكار وتوعم أوسكار: إذ الحكم في هذا من أمور القرار بشأن المصطلح التقني الجديد "إحالة" (وهو اختيار معين لـ "ح" R). لكننا يمكن أن نصدر بعض الأحكام عن الشيء الذي ربما كان أوسكار وتوعم أوسكار يحيلان إليه، وهي أحكام يبدو أنها تتنوع بشكل كبير، تبعاً لتنوع الظروف. وتبدو اقتراحات بتنام عن "السمائل نفسه"، وهي فكرة (ربما لا تكون معروفة) في العلوم الطبيعية معقولة جداً، في بعض الظروف المعينة؛ كما يبدو أن فكرتي "السمائل" و"التشابه" المأخوذتين من الفهم البديهي أكثر ملاءمة، في بعض الظروف الأخرى، ويمكن أن يفودا إلى أحكام مختلفة. ولا يبدو لي واضحاً أنه يمكن أن نقول شيئاً عاماً عن هذه الأمور، أو أنه يمكن أن نسبغ معنى عاماً أو مفيداً على أفكار تقنية كـ "المضمون الواسع" (أو أية فكرة أخرى لتحديد "الإحالة") في أي تأويل خارجي.

وإذا كان الأمر كذلك فهذا يثير عددًا من الأسئلة عن وضع ما يسميه
بنتام، في محاضرات لسوك (Putnam 1988a: Chapter 2)، بـ "التعاون
الاجتماعي مضافاً إليه إسهام النظرية البيئية في تحديد الإحالة"، وهو وجهة
أكثر كمالاً للنظرية السببية للإحالة التي طوّرت في بحثه: "معنى 'المعنى'"
(Putnam 1975) وفي بحث سول كريبيك: "التسمية والضرورة" (Kripke
1972)، وهما البحثان اللذان صاروا الآن من المعالم البارزة في هذا المجال.

ويتعلق "التعاون الاجتماعي" بـ "تقسيم العمل اللغوي": أي بدور
الخبراء [اللغويين] في تحديد ما تحيل إليه الكلمتان: Elm "شجر الدرّار"
و beech "شجر الزان"، في لهجتى، مثلاً. ويقدم بنتام تفسيراً مقنعاً لبعض
الظروف المحددة. فيمكن لى في بعض الظروف أن أوافق، حقيقةً، على أن
ما أُحيل إليه حين أستخدم كلمة Elm هو المعنى الذى يعنيه أحد الخبراء،
وربما كان هذا الخبر بستانياً إيطالياً لا أشترك معه إلا فى المصطلحات
اللاتينية (مع أنه ليس هناك معنى حقيقى تكون أنا وهو فى صوته منتمين
إلى "الجماعة اللغوية" نفسها أو نتكلم لغة مشتركة)؛ أما فى ظروف أخرى،
فربما لا أتفق معه، لكن هذا متوقع فى بحث يتوسّع ليشمل "التنظيم الوظيفى
البشرى" الكامل، وهو ما يكاد يكون دراسة لكل شىء. وكما ذكرنا من قبل،
فليس واضحاً إن كان هذا السؤال يتعلق بـ "اللغة - د" أم بـ "الاعتقاد -
د"، إن افترضنا صحة للصياغة النظرية.

أما نظرية البيئة فربما لا تستطيع الإسهام فى تعيين الإحالة إلا بوجود
فكرة متماسكة للإحالة ("ح" R) تلزم بين التعبيرات اللغوية والأشياء،
وهو أمر غير واضح تماماً، وإن كان الناس يستخدمون، حقيقةً، هذه
التعبيرات (بطرق مختلفة) فى الإحالة إلى الأشياء، متبنين وجهات النظر التى
توفرها هذه التعبيرات. فهناك ظروف يمكن فيها أن تكون بعض النتائج
المعيّنة التى نستخلص عادةً ملائمة، وهى التى تساعد فيها أفكار مثل "النوع
نفسه" و"السائل نفسه"، إلخ، فى تحديد الأشياء التى أُحيل إليها؛ كما أن هناك

بعض الظروف الأخرى التي لا يتحقق فيها ذلك^(٢٣).

ولا يبدو واضحاً كذلك إن كانت بعض القضايا الغيبية metaphysical تبرز في هذا السياق. ولا شك أن هناك اختلافاً حدسيًا، حين ننظر في بعض الأمثلة التي جاء بها كرييك، بين الحكم باحتمال أن يكون نيكسون "الشخص نفسه" إن لم يكن قد انتُخب رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٩٦٨، في حين أنه ربما لن يكون الشخص نفسه إن لم يكن شخصاً أصلاً (كأن يكون تمثالاً له مصنوعاً من مادة السليكون، مثلاً). لكن هذا يترتب على كون "نيكسون" اسم علم، وهو ما يوفر طريقة للإحالة إلى نيكسون بوصفه شخصاً؛ وليس لهذا أهمية غيبية. أما حين نجرّد من المنظور الذي توفره اللغة الطبيعية التي لا يبدو أنها تحوي أسماء خالصة بالمعنى الذي عند المناطق (ويصح الشيء نفسه عن "المتغيرات"، إن عُثت الضمانات متغيرات، في الأقل، وعن الإشارات indexicals، إن نظرنا إلى الشروط الفعلية لاستخدامها في الإحالة)، فإن هذه الحدوس تنهاوى حينئذ: ربما يكون نيكسون، كما افترض، وحدةً مختلفة، إن رُجّل شعره بطريقة مختلفة. وليس الشيء الذي أمامي مكتباً أو طاولة أساساً؛ إذ ربما يكون ذلك الشيء على وجه الدقة عدداً من الأشياء المختلفة، تبعاً لتنوع الاهتمامات والوظائف ومقاصد مخترعه، إلخ. ومما يمكن الاستشهاد به البحث الذي أنجزه جوزيف ألموج مؤخراً ويتضمن أنه يمكن فهم الحكم بأن جبل Nanga Parbat جبل "أساساً" في ظروف معينة؛ إلا أنه يبدو لي أن "اختبار التجريد المتماسك" الذي اقترحه، وخلافاً لما يفترضه، يسمح لنا، في ظروف أخرى، أن نحرم Nanga Parbat من هذه الخصيصة، ومع هذا يظل الشيء نفسه؛ كأن يرتفع البحر إلى مستوى كفاف لتصير قمته جزيرة، وهي الحالة التي لن يكون عندها جبلاً أكثر من كون بريطانيا جبلاً؛ أو إن تجمّع التراب حوله حتى لم يبق بارزاً من قمته إلا مليمتر واحد، وهي حالة لن يكون عندها جبلاً، بل جزءاً من هضبة يحيط بها منخفض، ومع هذا يظل هو الشيء نفسه تماماً (Almog 1991).

ولتلخيص ما قلناه، فمن المشكوك فيه أن تستطيع النتائج النموذجية الصمود في وجه تحليل مدقق للفكرتين التقنيتين لـ "إحالة" (بأحد المعاني الشبيهة بـ "ح" R) أو تحديد الإحالة. وربما يكون هناك مسوغ للفكرة "ح" R في نظريات التمثيل الحوسبية (وهي فكرة تركيبية أساساً، بالرغم من المظاهر التي تظهر بها). لكن لا يبدو أن هناك سبباً قوياً للافتراض بأنه يمكن أن نصاغ فكرة شبيهة بـ "ح" R بصورة متماسكة ومفيدة بوصفها علاقة تلزم بين التعبيرات وبعض أنواع الأشياء، بمعزل عن بعض الشروط والظروف الخاصة بالإحالة. وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون هناك أيضاً بحثٌ معقول في فكرة لـ "معنى" أو لـ "مضمون" تعمل على تثبيت الإحالة ("ح" R)، في اللغة الطبيعية في الأقل، مع أن هناك بحثاً (تركيبياً) واعداً عن الشروط التي تحكم استخدام اللغة (ويشمل تلك الإحالة).

وكما ناقشنا من قبل، فربما يؤدي البحث العلمي الطبيعي إلى إيجاد أمثاله للغة تزداد على "اللغة - د"؛ وربما تكون هذه الفكرة الشبيهة بـ R ملائمة لهذه؛ ذلك أن الكلمات تجرد الآن من خصائص "اللغة - د" التي توفر منظورات تأويلية وعلاقات دلالية، ويفك ارتباطها بـ "الاعتقاد - د"، ويسبغ عليها خصائص لا توجد في اللغة الطبيعية. وربما تستخدم هذه الأنظمة الاصطناعية موارد "اللغة - د" (كطريقة النطق والصرف وبنية الجملة، إلخ)، أو تتجاوزها (باستخدام بعض الصياغات الرياضية الصورية، مثلاً). و"اللغة - د" نتاجٌ للملكة اللغوية، وهي مجردة عن المكونات الأخرى للذهن؛ وهذه أمثلة بالطبع، لذلك يجب تسويتها أو رفضها اعتماداً على الدور الذي تقوم به في إطار تفسيري. ويمكن توسيع هذه الصورة، بشكل معقول كما يبدو، بالتمييز بين نظام الاعتقاد البيهيمي وما تنتجه ملكة صياغة العلم. ولا ينتمي ما تنتجه ملكة صياغة العلم إلى أنظمة اللغات - د ولا لأنظمة الاعتقاد - د، لهذا ربما يكون من الملائم افتراض علاقة "ح" R لها.

وتأتي بعض الدوافع للمقاربات الخارجية من الانشغال بإضفاء معنى

على تاريخ العلم. لهذا، يرى بتنام أنه ينبغي أن نأخذ نتائج أبحاث نيلز بور Neils Bohr الميكرة على أنها تحيل إلى الألكترونات بمعناها فى النظرية الكمية، وإلا ربما يلزمنا "أن ننظر إلى اعتقاداته كلها التى كان يعتقدتها فى سنة ١٩٠٠م على أنها خاطئة تماما" (Putnam 1988a)، وهى التى ربما كانت شبيهة بالاعتقاد بالملانكة [أى بأشياء غيبية]، وهذه نتيجة زائفة بكل وضوح. ويصح الأمر نفسه عن حديث علماء الكيمياء قبل دالتون Dalton عن الذرات. فربما نقول أيضا، نأسينا على الأسباب نفسها، إن علماء الكيمياء قبل أفوجادرو Avogadro كانوا يحيلون إلى ما نسميه ذرات أو جزيئات، مع أنهم كانوا يستخدمون هذه المصطلحات بعضها مكان بعض، كما يبدو.

وتفترض هذه المناقشة أن مصطلحات كـ"الألكترون" تنتمى إلى النظام نفسه الذى تنتمى إليه كلمات مثل "بيت" و"ماء" والضمانر العائدة، لذلك يمكن انطباق النتائج عن "الألكترون" بحذافيرها على الأفكار من الصنف الثانى. وتبدو تلك الفرضية ضمنية فى اقتراح بتنام الذى مفاده أنه "لكى نكتشف التعقيد الذاتى لمهمة ما ينبغي أن نسأل: How hard is it in the hardest case? ما مبلغ صعوبة هذه المهمة فى أصعب حالة؟"، حيث تمثل بعض التصورات مثل momentum "الزخم"، أو electron "ألكترون" فى الفيزياء "أصعب حالة" لـ "المرجع نفسه" أو "المعنى نفسه". لكن هذه الفرضية مشكوك فيها. إذ يجب أن تسعى دراسة اللغة إلى الوصول إلى صورة أكثر تبييها للفوارق، ثم إن ما يصح فى الصياغات التقنيّة التى تنتجها ملكة صياغة العلم ربما لا يصح عن معجم اللغة الطبيعية، لكن افترض أننا سلمنا بهذه النقطة مع ذلك. ثم وافقنا كذلك على أن الاهتمام بالمعقولة intelligibility فى الخطاب العلمى عبر الزمن اهتمام مقبول، فإن هذا ما يزال غير صالح ليكون أساسا لنظرية عامة عن المعنى؛ فهو اهتمام واحد من بين اهتمامات كثر، كما أنه لا يمثل اهتماما مركزيا فى دراسة النفس البشرية. زد على ذلك أن هناك طرقا تفسيرية داخلية بديلة. لهذا ربما نقول إن بور غير، فى

استخدامه المبكر، عن اعتقادات كانت زائفة تماماً، إذ لم يكن هناك شيء من النوع الذي كان في ذهنه حين كان يحيل إلى الألكترون؛ لكن صورة العالم في ذهنه والتعبير عنه كانتا تشبهان بنويًا إلى حد بعيد التصورات اللاحقة، وهو ما يجعلنا نستطيع التمييز بين اعتقاداته عن الألكترون واعتقاداته عن الملائكة. وأكثر من ذلك أن هذا يبدو طريقًا معقولاً في البحث.

وإذا أخذنا مثالاً أبسط من ذلك بكثير من دراسة اللغة، انظر إلى النقاش الذي كان يجري قبل ثلاثين عامًا عن طبيعة الوحدات الصوتية. فقد افترض الصوتيون البنيويون وحدات صوتية (أي: الصوتيات phonemes) وسمات صوتية تتصف بمجموعة معينة من الخصائص. وقد جادل الصوتيون التوليديون أن مثل هذه الوحدات غير موجودة، وأن للعناصر الموجودة فعلاً خصائص مختلفة نوعًا ما. افترض الآن أن إحدى هاتين المقاربتين تبدو صحيحة (ونقل الأخيرة). فهل يعنى هذا أن الصوتيتين البنيويين كانوا يحلون طوال الوقت إلى الوحدات الصوتية والسمات بمعانيها في الصوتية التوليدية؟ ومن المؤكد أن الأمر ليس كذلك؛ فقد كان الصوتيون البنيويون ينكرون ذلك بصورة حاسمة، وكانوا محقّين في هذا الإنكار. أيعنى هذا أنهم كانوا يتكلمون كلامًا فارغًا؟ ومرة أخرى نقول إن الأمر لم يكن كذلك بكل تأكيد. ذلك أن الصوتية البنيوية معقولة؛ بل إن من الممكن، إن نحن افترضنا وجود الوحدات التي افترضتها، إعادة تأويل أكثر تلك النظرية ضمن الصوتية التوليدية، مع التطابق في النتائج إلى حد بعيد. ولا يوجد طريق مقنن لتحديد الكيفية التي يُنجز بها هذا، أو لتحديد "التشابه في الاعتقاد" بين المدرستين الفكريتين أو لتحديد ما الأفكار والاعتقادات التي تشتركان فيها. ومن المفيد أحيانًا الإشارة إلى أوجه التشابه وإعادة صياغة الأفكار، وأحيانًا لا. ويصح الشيء نفسه عن الأفكار المبكرة والتالية عند بور. ولا يتطلب الأمر تحديدًا أكثر من هذا كي نحافظ على كرامة البحث العلمي، أو المحافظة على الفكرة المحترمة للتقدم باتجاه كشف ما هو صحيح عن العالم، بقدر ما يقع [البحث العلمي] في حدود القدرة المعرفية البشرية.

ومن الجدير بالملاحظة أن تحليلاً في ضوء هذه الطرق، إن غضضنا النظر عن المسلمات الخارجية الخاصة بتحديد المرجع، يتوافق مع حدوس العلماء البارزين. ويلتفت النقاش عن معنى الألكترون والماء وغيرهما إلى الماضي، لكننا يمكن أن نوجه أنظارنا نحو المستقبل كذلك. انظر إلى السؤال عن إن كانت الآلات تفكر (أو تفهم أو تخطط أو تحل مشكلات، إلخ). فتقضى الحجج الخارجية النموذجية بأن جواب هذا السؤال ينبغي أن يقرر بموجب الحقيقة عن التفكير، أي: ما معنى أن يفكر بيتر بأطفاله، أو يحل معادلة من الدرجة الثانية، أو يلعب الشطرنج، أو يؤول جملة، أو يقرر أن يرتدى معطفاً أو لا؟ لكن المسألة لا تبدو بهذه الشكل عند فتجينشتاين وآلان تيرنج، إن أخذنا مثالين مشهورين. أما عند فتجينشتاين فلا يمكن أن يكون السؤال عن إن كانت الآلات تفكر سؤالاً جاداً؛ ذلك "أنه لا يمكن أن تعزو التفكير إلا لمن ينتمي إلى بنى البشر أو من يشبهه" (Wittgenstein 1958: 113)، ويمكن أن يدخل في ذلك الدمى والأرواح [الجن والملائكة]؛ فتلك هي الطريقة التي تستعمل بها الآلة. أما تيرنج فقد كتب في بحثه الكلاسيكي الذي نشره سنة 1950م أن السؤال عن إن كان يمكن للآلة أن تفكر:

"ربما يكون سؤالاً لا معنى له حتى إنه لا يستحق النقاش، ومع هذا فأعتقد أن استخدام الكلمات والرأي العام المنقف سيكونان قد تغيرا عند نهاية القرن [العشرين] إلى حد سيجعل من الممكن لفرد أن يتكلم عن أن الآلات تفكر من غير أن يتوقع أن يعترض عليه أحد" (Turing 1950: 442).

فلا يتبنى فتجينشتاين وتيرنج التفسير الخارجي النموذجي. أما عند فتجينشتاين فهذه الأسئلة سانحة وحسب؛ ذلك أن الآلات تستعمل في ضوء طبيعتها التي تكون عليها؛ أما إذا تغير الاستخدام فيعني هذا أن اللغة تغيرت؛ إذ لا تزيد اللغة عن كونها الطريقة التي نستعمل بها الآلات. كما يتحدث تيرنج عن التغير الذي يعرض للغة "الرأي العام المنقف" تبعاً لتغير الاهتمامات والأنشغالات. فسوف يحدث، بحسب مصطلحاتنا، تحول من

"اللغات - د" التي يصفها فتجينشتاين إلى لغات - د" جديدة ستختفي منها الكلمة القديمة "يفكر" لتحل مكانها كلمة جديدة يمكن استخدامها عن الآلات بالصورة التي تستخدم بها عن الناس. فيتناول السؤال في سنة ١٩٥٠ عن إن كانت الآلات تفكر في احتمال أن يكون له معنى أن تسأل عن إن كانت الطائرات تطير فعلاً وكذلك الناس (كهواة القفز العالي، مثلاً)؛ فالطائرات في اللغة الإنجليزية تطير أما هواة القفز العالي فلا (إلا بمعنى مجازي)، أما في اللغة العبرية فالإثنان لا يطيران، ويطير كلاهما في اللغة اليابانية. ولا تفيدنا هذه الحقائق شيئاً عن السؤال (غير المفيد) الذي أثير، إذ لا تفيدنا إلا عن بعض التنوعات الهامشية والعشوائية إلى حد كبير لغة - د. ويبدو أنه يمكن أن يقارن السؤال عما كان يعنيه مصطلح "نرة" قبل دالتون، أو مصطلح "الكثرون" عند بور سنة ١٩٠٠م، في بعض الاعتبارات، بالسؤال عما كانت تعنيه كلمة "يفكر" عند فتجينشتاين وتيرنج؛ لكنها مقارنة غير تامة؛ ذلك أنه ربما ينبغي ألا يُنظر لكلمات "يفكر" و"نرة" و"الكثرون" على أنها تنتمي إلى لغة - د" متجانسة. ويبدو أن المنظور الداخلي، في هذه الحالات كلها، كاف، لا لحدوس فتجينشتاين وتيرنج وحسب، بل لتفسير ما هو واضح؛ أو ما يمكن أن يحدث تبعاً لتنوع الظروف والاهتمامات.

وربما صح لأحد أن يحتج بأن النظريات الدلالية التي اقترحت في الفترة الأخيرة تتجاوز حدوس فتجينشتاين وتيرنج بسبب النجاح التفسيري الذي حققته. لكن هذا لا يبدو فكرة واعدة؛ إذ ربما لا يمكن للنجاح التفسيري أن يدعى ذلك. ويبدو أن لدينا الآن، على العموم، من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن لدينا الآن قدرًا يفوق الأشياء المعينة التي كان ينظر إليها فتجينشتاين وتيرنج وراء حدود البحث العلمي الداخلي الذي يتصف بأنه أكثر غنى وأكثر دلالة مما يفترضه فتجينشتاين وجون أوستن (١٩٦٢) وآخرون.

وسوف يقصُر البحث العلمي الطبيعي دائماً عن [تناول] القصدية؛ ذلك أن القصدية لن يمكن اختزالها ولن تختفي، كما يقول بتنام، بحسب هذه الشروط في

الأقل، وسيظل "تكلّم اللغة" "عصياً على التنظير" (Putnam 1988a:1). وتبدو دراسة أنظمة التمثيل الحوسبي الآن، ويشمل ذلك "الدلالة الداخلية"، أكثر أشكال البحث العلمي الطبيعي وغداً، بما ببرنامج البحث الناجح لها إلى حد معقول؛ أما فهم أنظمة الأداء فما يزال في بداياته، لكنه يدخل في حدود هذا البحث، من زوايا معينة في الأقل. وتثير هذه المقاربات مشكلات من النوع المؤلف في أنواع البحث العلمي الطبيعي كلها، لكن لا يبدو شيء منها مختلفاً من حيث النوع. ونحن نأمل، في تفصيلنا لها، أن نتعلم شيئاً كثيراً عن الوسائل التي تستخدم في التعبير عن الأفكار، والتأويل، إلخ. ولا تلامس هذه المقاربات عدداً كبيراً من الأسئلة، لكن يبقى أن نبيّن أن هذه الأسئلة حقيقية، لا زائفة، وتُشير إلى بعض مواضيع البحث التي يود المرء أن يبحثها، ولا شيء غير ذلك.

هوامش الفصل الثاني

(١) تعنى "القصدية" عند برينتانو أن الظواهر الذهنية ". . . تتجه إلى موضوع معين، فإذا رأينا، رأينا موضوعا، وإذا سمعنا وشممنا ونقنا، فإننا نسمع ونشم ونذوق موضوعا، وإذا افترضنا وعرفنا أو اعتقدنا، فإننا نفترض ونعرف ونعتقد موضوعا. ويصف برينتانو هذه الخاصية التي تميز، في نظره، الظواهر النفسية من كل الظواهر الأخرى، باعتبارها "علاقة بمحتوى" أو "اتجاهها إلى موضوع" ليس واقعا بالضرورة، أو باعتبارها أيضا "موضوعية ملازمة" (محمد غاليم، هامش (٤١)، ص ٣٩٤. (المترجم)

(٢) ويقبل ديفز موقف بيرج الذي يرى أن البحث الذي ينتسب إلى مدرسة مار إنما يهتم بالتمثيلات "المعلوماتية" ذات المحتوى القصدى (ومن هنا فهو يهتم بالسوابق السببية الفعلية)، لكن لا يبدو ممكنا أن يتماشى ذلك الموقف مع الممارسة الاختبارية الفعلية أو النتائج النظرية (كـ "مبدأ الصلابة" عند أولمان، مثلا)؛ بل من الصعب أن نرى كيف يمكن أن يكون هذا الموقف صحيحا، وإن لم يكن لذلك من سبب — كما يؤكد ديفز — إلا أن أبحاث مار لا تقارب أن تكون من نموذج التمثيل ثلاثى الأبعاد 3D أبدا. ويقدر ما تبلغ دراسة الإدراك البصرى هذا الحد (كما فى أبحاث أليزابيث سبيك عن تماسك الشيء فى مرحلة الطفولة المبكرة، مثلا؛ Spelke 1990)، فإنها تقف عند حدود التجربة البصرية، لا المحتوى الإدراكى بالمعنى التقنى فى الخطاب الفلسفى (Ullman 1979; Davis 1991).

(٣) يلاحظ ريتشارد ليونتن أن مما يشهد بمثل هذا الغنى فى نظام الأوعية الدموية أنه يمكن أن نضيف إلى تلك القصص المبهرجة التي تُلَقَى عن تطور المعرفة التخريصات التي تقول إن الدماغ تطور بوصفه منظما

حرارياً، يعمل على تبريد الدم كما كان أرسطو يظن وهو يُنتج النظماسم
المعرفى للبشرى بوصفه ناتجاً ثانوياً (Lewontin 1990).

(٤) الإقصائية المادية eliminative materialism هي وجهة النظر التى
ترى أن تصوراتنا الذهنية، كالأعتقد والرغبة، ليست ملائمة للتعليل
العلمى الجاد للبشر، لذلك ينبغي إهمالها. (المترجم)

(٥) فهي "داخلية" internal لأنها تدرس الحالة اللغوية الداخلية عند فرد
معين باستقلال عن العوامل الأخرى الموجودة فى الكون، وهي "فردية"
individual لأنها تعنى بدراسة فرد معين، ولا تعنى بدراسة "الجماعة"
اللغوية" التى ينتمى إليها الفرد إلا بصورة ثانوية، وهي "مفهومية"
intensional بمعنى أنها تتشغل باللغة "انشغالا ذهنياً مفهوماً بالأساس،
وليس انشغالا بالتمظهرات السلوكية أو المنتوج، أو بمجموع العبارات
التي تنتجها جماعة لغوية معينة، أى ما يمكن أن نتعته بأنه انشغال
خارجى ماصنقى" (عبد القادر القاسى الفهرى، البناء الموازى، ص ١٨)
كما تتشغل بتخصيص الإمكانيات الذهنية التى تجعل المعرفة اللغوية
أمراً ممكناً" (محمد غالىم، ص ٧٠). (المترجم)

(٦) ومرة أخرى، فهذا لا يعنى أن أنظمة الأداء الفعلية ستتمثل إلى حد بعيد
مع المصطلحات التى يستخدمها غير المتخصصين، أو فى الخطاب
الفلسفى أو فى الأنواع الأخرى من الخطاب التقنى.

(٧) بل أقل من ذلك بكثير، حتى إن أمكن إعطاء العبارة معنى إلى حد من
الوضوح يجعل من الممكن إثارة السؤال بشكل أكثر معقولية.

(٨) وقد ظل هذا الموضوع مجالاً للنقاش منذ مقال جون سيرل: Minds,
Brains, and Programs "الأذهان، والأدمغة، والبرامج" (Searle 1980).
وليس من الواضح إن كان هذا النقاش قد أدى إلى صياغة أية
قضية جوهرية حتى الآن.

(٩) ويُعتقد أن مشكلة الانتقال بين أطوار [الاكتساب] لا تبرز إلا عند
افتراض "الشبكية الدلالية" semantic holism .

- (١٠) ويجب عدم الخلط بين هذه الإجراءات ومبادئ التصنُّق charity وأشباهها، إن كان التمييز بين "اللغة والاعتقاد" صحيحاً؛ انظر أدناه في هذا الفصل. ولكي نحقق أقل قدر ممكن من الواقعية يجب علينا أن نميز بين حالات كثيرة. لذا، فما يفعله بيتر حين نتكلم ماري لغة قريبة جداً [من لغته] ربما لا يكون له إلا علاقة واهية بالإجراء الذي يقوم به حين نتكلم لغة لا يعرفها؛ لذلك فجمع هذه الأحداث جميعاً تحت مسمى "التأويل" أو "الترجمة" لا يعد خطة جيدة للبحث.
- (١١) انظر، عن تطوير سول كريك لهذا التناول، والنتائج التي وصل إليها عن صلة [هذا التناول] باللسانيات: Chomsky 1986a: chapter 4.1 .
- (١٢) يجادل بتنام في كتابه Representation and Reality "التمثيل والواقعية" (Putnam 1988a) ضد افتراض أن المدخل المعجمي يتضمن إحالة محددة لأحكام الخبير. وتقوم هذه الحجة على بعض الافتراضات الضمنية عن اللغة العامة المشتركة والترجمة يصعب الدفاع عنها، أو حتى صياغتها، كما يبدو. ومع ذلك ربما نقبل هذه النتيجة أخذين الاعتماد على حكم الخبير (من بين خيارات أخرى) خصيصاً عامة لعدد كبير من المداخل المعجمية، وهو ما يتصل بالطرق التي تدخل بها [هذه المداخل] في أنظمة الاعتقاد.
- (١٣) انظر Stich 1983. وتوضح المشكلة الأساسية — التي تتمثل في أن أي إجراء نقترحه يمكن أن يكون مباشرة قوياً جداً وضعيفاً جداً — فيما كتبه شيفلر Scheffler 1955 .
- (١٤) وينبغي أن نتكلم هنا، تقنياً، عن "السجع — د"، إلخ.
- (١٥) لا يبدو أن في اللغة العربية تمييزاً يماثل التمييز الذي في الإنجليزية بين الكلمتين. فهناك كلمات كثيرة يمكن أن تطلق على أي من المعنيين، نحو: "بيت"، و"دار"، و"منزل". وسوف أستخدم "منزل"

ترجمة لـ home ، و"بيت" لـ house من أجل تبيين المعنيين في الإنجليزية فقط. (المترجم)

(١٦) انظر Lasnik 1989 : خاصة الفصل التاسع. وتبرز أسئلة مهمة في حالة (٢ج) (أى في حالة "عود الضمير على متأخر") عن أمور كالاستخدام الإحالي للأوصاف المحددة [المعرفة] والمعلومات القديمة والجديدة.

(١٧) يؤكد بتنام دائما أن المعايير التي تُستخدم في الاستدلال على الاعتقاد وتسويغه ترتبط بالاهتمام ارتباطاً لازماً. زيادة على ذلك، تفرض الطبيعة الخاصة للفهم البشري (وحدودها، من ثم) بعض الاختيارات التأطيرية التي ربما لا تكون ملائمة على النظرية، وبذلك تترك المناطق المشككة التي تتصف بأنها الغياز حقيقية للبشر (وهذه خصيصة عامة للعضويات). انظر Chomsky 1975; McGinn (1991).

(١٨) واعتماد ما يفعله الناس على بعض الأحداث التي توجد في مكان وزمان مختلفين ليس موضع شك، بالطبع؛ أما السؤال فهو: هل سيكون البحث العلمي الطبيعي "ماركوفياً" أم لا (انظر Miller and Chomsky 1963: 422ff)، حيث تؤخذ الحالة الناتجة للعضويات فقط لتدخل في عملية الأداء المحلية الحالية. لهذا فقد تضمنت الذاكرة أو تعدل، لكننا نسأل، من أجل أن نفهم ما يفعله شخص هنا والآن، عما يمثل داخلياً، لا ما يمكن أن يكون قد حدث في الماضي. وبالمثل، يعتمد نمو خلية ما لتصبح إصبغاً أو عظماً في الذراع على ما انقضى من وقت، أما دراسة هذه العملية فتتوقف عند بعض المؤشرات كالمكونات الحالية للتركز الكيميائي التي تزود الخلية بهذه الحقائق. وهذا إجراء نمونجي، ويبدو معقولاً جداً.

(١٩) أما السؤال عن وجوب تطوير النظريات بحسب هذه الكيفيات فأمر مختلف. أما ما يعنيني توضيحه هنا فهو ببساطة أنه إن كانت هذه النظريات تعتمد على أفكار الإحالة المقصودة، أو الاعتماد الإحالي، إلخ، بصفاتها تمثل شيئاً أكثر من مظاهر للكلام façon de parler فذلك يعنى أن شيئاً آخر من النوع الذى بينته هنا يبدو مفترضاً — لا أنه إحالة إلى أشياء فى الكون (أو ما يعتقد أنها فيه).

(٢٠) وهناك بعض الاختلافات فى عود الضعير على متأخر، انظر الهامش ١٦.

(٢١) والنقطة الأساسية عن "التعبيرات المضللة باطراد" بالمعنى عند رايل Ryle يمكن إرجاعها فى الأقل إلى النقد الذى وجه فى القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار عند دو مارسى وبعد ذلك عند توماس ريد؛ انظر (Chomsky 1965: 199-200).

(٢٢) أو عن "المضمون الإدراكي" بالمعنى التقنى الخاص فى الخطاب الفلسفى؛ انظر الهامش (١) والتمن. والفارق الذى يرسمه ديفز بين "التأويل" "المحافظ" والتأويل "المراجع" لهذه الفكرة التقنية ليس واضحاً، وأكثر من الفارق الذى يمكن أن نرسمه بين التأويل للمحافظ والتأويل المراجع لمصطلح electromagnetic force "القوة الكهريائية المغناطيسية".

(٢٣) انظر ملحوظات ستك (١٩٨٣) عن عدم قدرة "أكثر الأسماع التى لم تتلوث بالنظرية الفلسفية" عن الوصول إلى أى حكم فى كثير من هذه الحالات. وليست هذه الملحوظة مقنعة بالضرورة؛ فربما لا يمكن الوصول إلى حقائق علم النفس الشعبى إلا عن طريق الحدس المدرب أو الموجه. وربما كانت هذه الملحوظة نتيجة معقولة فى سياق نظرى أغنى، لكن لا يوجد سياق نظرى، بشكل يكاد يكون نهائياً، ومن هنا ربما لا يكون هناك سبب يجعلنا ننظر إلى الأحكام المعزولة كأنها تعنى شيئاً كبيراً.

الفصل الثالث
اللغة والتأويل:
التأملات الفلسفية والبحث الاختباري

ظهر في الكتابات الفلسفية خلال الأربعين سنة الماضية عددٌ من التيارات المؤثرة التي تبدو لي مثيرة للإشكال من بعض الزوايا المهمة بل الأساسية. وأقصد هنا، في المقام الأول، المقاربات التي تتطرق من بعض التصورات للكيفية التي يدرس بها العالمُ الاختباري - أو "اللساني الميداني"، بمصطلحات برنامج البحث المألوف عند ويلارد كوين، للغة، أو ينبغي له أن يدرسها بها. ويمكن أن نذكر هنا كوين ودونالد ديفيدسون وآخرين ممن اتجهوا نحو شكل من الذرية و"الإبستمولوجية العلمية الطبيعية"، يتضمن بعض القضايا التي يُظن أن لها أهمية فلسفية ضمن تصورهم للعلم الاختباري، ويمكن أن نضيف إليهم آخرين ينطلقون من منطلق مختلف: مثل: مايكل دوميت، وكثير من الذين تأثروا بفتجينشاين وفلسفة اللغة العادية، مثلاً.

وللتمثيل على مذاق هذه الأفكار، انظر إلى بعض تطبيقات رورتي في كتاب ليبور (1986) عن ديفيدسون. فهو يقول إن "ديفيدسون مُحق بالتأكيد في قوله إن كوين "أنقد فلسفة اللغة بوصفها موضوعاً جاداً" بتخليصها من التمييز بين التحليل والتأليف. وكانت أفضل حجج كوين في عمله ذلك أن هذا التمييز غير مفيد لللساني الميداني" (Rorty 1986: 339).

أما "اللساني الميداني" فكل ما يجب أن ينشغل به أن يلاحظ الطريقة التي يتألف بها السلوك اللغوي مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية في أثناء تفاعل متكلم اللغة الأصلي مع بيئته، وهو التفاعل الذي ينظر إليه [اللساني] على أنه موجه بقواعد الحدس. . .، وعلي وجه أخص بـ"المبدأ التنظيمي" الذي ينص على "أن أكثر القواعد التي يتبعها متكلم اللغة مماثلةً

للقواعد التي نتبعها نحن، وهو ما يعني أن أكثرها صحيح" (ص ٣٤٠؛ وربما يشير مصطلح "قواعد" هنا إلى الاعتقادات). وينبغي ألا نشتغل بـ "خطّة تصوّرية، أو بطريقة للنظر إلى الأشياء، لو بمنظور (لو... بلغة، أو بتقليد ثقافي)، [لأن] اللساني الميداني لا يحتاج إلى شيء من ذلك، [ومن هنا] فالفلسفة ليست بحاجة لها أيضا" (ص ٣٤٤). ويوافق كوين وديفيدسون على أن "نظرية المعنى للغة ما هي ما يتحصّل من البحث الاختباري في السلوك اللغوي"، حين يقام به بطريقة ملائمة، وبما يتوافق مع مبدأى "شبكة المعنى holism والسلوكية" (ص ٣٥٢).

ويعمى رورتى قائلاً إن هذا الخط من التفكير يقود إلى شكل من الذريعية التي يعتقها هو وينسبها إلى [الفيلسوفين الأمريكيين المعاصرين] جيمس وديوي، وتتضمن بصورة جزئية نفي أية علاقة من نوع "أن يجعل صادقاً" [يرهن على صدقه] being made true التي تكّرم بين الاعتقادات والعالم. وبدلاً من ذلك "فإننا نفهم كل ما يلزم فهمه عن علاقة الاعتقادات بالعالم حين نفهم علاقاتها السببية بالعالم" (ص ٣٣٥).

وإذا نحينا النتائج التي انتهى إليها رورتى جانباً^(١)، دعنا ننظر في مسلماته. فإذا كانت أفضل حجة للتخلي عن التمييز بين التحليل والتأليف أن هذا التمييز لا يفيد لللساني الميداني فيجب، إذن، أن يكون كل من يشتغل بعلم الدلالة الوصفي تقريباً، أو حدث أن اشتغل به، مخطئاً خطأ كبيراً؛ لأن مثل هذا البحث محمّل بالمسلمات عن ارتباطات المعنى، وهي التي ستستدعي (على التحديد) أمثلة من التمييز بين التحليل والتأليف. فمن الصعوبة بمكان أن نجد أية دراسة للغة لا تعين بنى وتصف معنى للفعل kill والأداة so ، إلخ، بطرق توضح أن هناك تمييزاً نوعياً — تحدده اللغة نفسها — بين الجملتين:

John killed Bill, so Bill is dead.

قتل جون بيل، لذلك فيل ميت.

John killed Bill, so John is dead.

قتل جون بيل، لذلك فجون ميت.

أو ربما يصعب، إن أخذنا حالة أخرى، أن نجد دراسة للاعتماد الإحالي في اللغة الطبيعية لا تستنتج أن اللغة نفسها تحدد وجود علاقة لازمة بين Mary و herself في (١)، لكنها لا توجد حين يكون التعبير نفسه مدمجًا في سياق جملة رئيسة من نوع "ليت شعري مَنْ. . . I wonder who-- وهو ما يُنتج الجملة في (٢):

Mary expects to feed herself. -١

تتوقع ماري أن تطعم نفسها.

I wonder who Mary expects to feed herself. -٢

ليت شعري مَنْ تتوقع ماري أن تطعم نفسها.

فستفرض مثل هذه الخصائص التركيبية — الدلالية حالات من التمييز بين التحليل والتأليف؛ لهذا سينتج عنها تمييز بين:

Mary expects to feed herself, so Mary expects to feed Mary.

"تتوقع ماري أن تطعم نفسها، لذلك تتوقع ماري أن تطعم ماري".

(وهي تحليلية، حيث تؤخذ الحالات الثلاث التي ظهرت بها ماري على أنها "شريكة إحاليًا")،

و:

I wonder who Mary expects to feed herself, so I wonder who Mary expects to feed Mary

"ليت شعري مَنْ تتوقع ماري أن تطعم نفسها، لذلك ليت شعري مَنْ تتوقع ماري أن تطعم ماري".

(وهي غير تحليلية، في ضوء التأويل نفسه). لكن ما يُزعم أن كسوين برهن عليه يتجاوز مسألة التحليل، إذ يصل إلى نتيجة مفادها أنه ليس هناك ارتباطات دلالية يمكن أن تُعزى إلى الملكة اللغوية تحديدا بوصفها متمايزة عن الأنظمة العامة للاعتقاد لدينا، ويأخذ رورتي، في بحث آخر، هذه النتيجة على أنها أحد اكتشافين جوهريين يهددان صورة العالم التقليديّة.

وقدّم كوين وآخرون، كما هو مشهور، تقسيماتهم الخاصة لهذه التمييزات. وسأعود إلى هذه الاقتراحات، وإلى الكيفية التي يمكن أن تقوم بها في ضوء معايير البحث في العلوم الطبيعية، لكنني سأكتفي هنا بملاحظة أن من المؤكد أنه لا يمكن أن تفهم الإحالة إلى "اللساني الميداني" على أنها إحالة إلى أولئك الذين يقومون بالبحث اللساني فعلا. فهي تتصف، بدلا من ذلك، بطعم معياري، إذ تشير إلى الطريقة التي ينبغي لمثل هذا البحث أن يتجزأ بها، مع المحافظة على شروط "الشبكية الدلالية والسلوكية" التي يفرضها الفيلسوف، ويخالفها العلماء الخاطئون حين يبحثون. ومع أن البحث ربما يكشف لنا احتمال أن يكون هذا الموقف مسوئا، إلا أنه ربما ينبغي التسامح مع أولئك الذين يقدرون تاريخ [دراسة اللغة] إن عبروا عن بعض التشكك الأولى.

ومن الأمثلة الأخرى التي تبين طعم هذه النقاشات، انظر إلى حجة دوميت في الكتاب نفسه (Dummet 1986) وهي أن "المعنى الأساس" الذي يجب علينا أن نفهم به تصور اللغة هو ذلك الذي تكون به اللغة الهولندية واللغة الألمانية لغتين مختلفتين (وهو يعطى مثلا مختلفا، لكن المسألة هي نفسها)، وكل واحدة منهما ممارسة اجتماعية خاصة تُنخرط فيها الناس، وهي ممارسة تُتعلّم من الآخرين وتقوم على قواعد تتصف بأنها جزء من الممارسة الاجتماعية التي يلزم اتباعها" (ص ٤٧٣). فتوجد اللغتان الهولندية والألمانية بهذا "المعنى الأساس"، باستقلال عن أي متكلم لهما؛ و"يمتلك" كل متكلم مثل هذه اللغة، لكنه لا يمتلك عادة إلا معرفة جزئية بها، وهي معرفة خاطئة جزئيا". وتذهب الأهمية المقصودة لاقتراح دوميت إلى مدى أبعد. فهو

يُبيِّن لنا مفهوم "اللغة" الذي يُعدُّ أساسيًا للأغراض الفلسفية، ولنظرية المعنى خاصة؛ ويبيِّن لنا بجلاء أيضًا، أن هذا التصور للغة ضروري في رأيه لتفسير استخدام اللغة، وعلى وجه الحصر، لفهم "ما النظرية البعيدة المدى التي يأتي بها شخص ما في أول لقاء لغوي له مع شخص آخر". فلهذا الاقتراح - إذن - صلة وثقى بالدراسة الاختبارية للغة، وبالناس، وبما يعرفونه ويفعلونه. وربما يقصد أنه يمكن السماح للسانيين بأن ينتهجوا مسارًا مختلفًا من أجل اهتماماتهم الخاصة، لكن الواضح أن لهذه الاقتراحات علاقة وثقى بالممارسة الملائمة في الدراسة الاختبارية للغة واستخدامها.

وينتمي الطعمُ التناقضي هنا إلى رتبة مختلفة شيئًا ما. فهو يتمثل في التضارب بين اقتراح دوميت والمسلمة المألوفة في الممارسة الاختبارية التي نقضى بانتفاء وجود معنى عام مفيد يمكن من خلال وصف "اللغة" بطريقة تكون بها اللغة الهولندية واللغة الألمانية "لغتين" مختلفتين لا يعرفهما الناس إلا "جزئيًا" وبصورة "خاطئة". وهذه هي الحال سواء كنا ندرس بنية اللغة، أم اللسانيات النفسية، أم التغيير اللغوي، أم التصنيف اللغوي، أم مشكلات التواصل، إلخ. فيمكن للمتكلمين الذين يعيشون قريبًا من الحدود الهولندية أن يتواصلوا بشكل جيد مع الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لكنهم يتكلمون لغتين مختلفتين بالمصطلح الذي يدعى دوميت أنه "أساسي"؛ كما أن الذين يعيشون على الجانب الألماني من الحدود، لا يستطيعون، بـ "معرفة الجزئية" "لغة الألمانية"، فهم شيء مما يقوله الذين يعيشون في أقاليم أخرى [من ألمانيا] وهم الذين "يمتلكون" "معرفة جزئية" أخرى بـ "اللغة الألمانية"، بالمعنى الذي يقصده دوميت. ولأسباب كهذه تحديدًا لا يوجد تصور مثل هذا يمكن أن يؤدي دورًا في البحث الاختباري للغة أو علم النفس. وتستخدم مصطلحات مثل مصطلح "اللغة الإنجليزية" أو "اللغة اليابانية" في الدراسات العامة للغة، لكن هذا مصحوبٌ بفهم مؤداه أن هذا الاستخدام البديهي لها، وهو الذي يعتقه دوميت من غير مساعدة، ينبغي أن يُستغنى عنه حين نتوجه إلى الدراسة الفعلية للغة، والسلوك والتواصل (٢).

وإذا كان تصورُ دوميت أساسياً للبحث الاختباري ولأغراض الفلسفية حقاً،
فالفلسفةُ أو البحث العلمي للغة والسلوك، أو لكليهما، يواجهان مشكلات جمة،
لأسباب ينبغي أن تكون واضحة. ذلك أن تصور اللغة الذي يراه دوميت
أساسياً يتضمن عناصر اجتماعية - سياسية، وتاريخية، وثقافية، ومعيارية -
غائية معقدة وغامضة. وربما تكون هذه العناصر مهمة لعلم اجتماع
الانتماء identification داخل مختلف الجماعات الاجتماعية والسياسية
ولدراسة بنية السلطة، لكن الواضح أنها تقع بعيداً خارج متناول أي بحث
مفيد عن طبيعة اللغة أو علم نفس مستعمليها.

ولكى نأخذ مثلاً آخر، انظر إلى دراسة لكتساب اللغة. فنحن نقول، في
الاستخدام العادي، إن الطفل ذا السنوات الخمس والبالغ الأجنبي يسيران نحو
اكتساب اللغة الإنجليزية، لكننا لا نملك وسيلة لوصف ذلك الشيء الذي
"يمتلكه". ذلك أن الطفل سوف ينتهي إلى "امتلاك" الإنجليزية، في المسار
المألوف للأحداث (جزئياً في الأقل وبشكل خاطئ)، أما البالغ الأجنبي فربما
لن يحقق ذلك. ولو حدث أن مات البالغون كلهم فجأة وتمكن الأطفال من
البقاء أحياء بطريقة ما، فسيكون أي شيء يتكلمه الأطفال - إن - لغة
إنسانية، مع أنها لغة لا توجد الآن. ولا يوفر الاستخدام العادي طريقة مفيدة
لوصف شيء من هذا، فهو يتضمن قدرًا كبيراً جداً من الاهتمامات
والانشغالات المتضاربة الغامضة، وهذا أحد الأسباب التي تجعل تصور اللغة
الذي يراه دوميت غير مفيد لأغراض البحث العلمي الفعلي. ولهذا الأمر
أهمية خاصة حين ننظر في الاعتماد على أفكار "الخطأ في استخدام اللغة"،
و"معايير الجماعة"، و"الممارسة الاجتماعية"، و"اتباع القاعدة" التي تستعمل
كأنها واضحة إلى حد كاف؛ مع أنها ليست كذلك⁽³⁾.

وربما يكون مفيداً، في هذا المجال، أن نتذكر بعض الحقائق البديهية
الأخرى؛ ومنها أنه لا يوجد، في البحث المنضبط، والعلوم الطبيعية أو
غيرها، موضوعات مثل "دراسة كل شيء". فليس جزءاً من الفيزياء أن تحدد

بدقة كيف يتحرك جسم ما تحت تأثير أى جسيم أو قوة فى الكون، مع تدخل بشرى محتمل، إلخ. فليس هذا موضوعاً [صالحاً للبحث]. فما نقوم به عادة، بدلاً من ذلك، أننا فى البحث المنهجي نؤمّل من أجل أن نتلقى بعض المجالات المحددة بطريقة تمكّنا (كما نأمل) من اكتشاف السمات المهمة للعالم. فتتصف المواد الأولية والملحوظات، فى العلوم، بأنها أنوات ذات خصائص أدائية. فهى غير مهمة بنفسها، لكنها مهمة بقدر ما تكون دليلاً يسمح بتحديد السمات الأساسية للعالم الواقعي، فى مسار للبحث يُنجز دائماً تحت أمثلة صارمة، ضمنية غالباً وتمثّل فهماً مشتركاً، لكنها حاضرة دائماً. أما دراسة "اللغة" بالمعنى الذى يراه دوميت فلا تبعد أن تكون "دراسة لكل شيء"، ومن هنا ليست موضوعاً مفيداً للبحث، وإن كنا نأمل، ربما، أنها ستتطور لتصبح دراسة لبعض المظاهر لقضايا مثل هذه فى ضوء ما سيتيسر فهمه عن بعض المكونات المحددة لهذا المجموع المستحيل.

ويثير تصوّر اللغة بوصفها "ممارسة اجتماعية" الذى يقترحه دوميت وآخرون مزيداً من الأسئلة، كما سيتضح حين يطبق على بعض الأمثلة الواقعية. انظر مرة أخرى إلى المثالين (١) و(٢) أعلاه (ص ١٥٩). فتؤخذ عبارة feed herself فى المثال (١) على أنها ترتبط بمارى، أما فى المثال (٢) فتربط بشخص (أنثى) مختلفة عن مارى؛ لهذا يترتب على المثال (٢) أننى أتساءل عن من الأنثى التى تتوقع مارى أن تطعم [هى] تلك الأنثى تحديداً، لا من الأنثى مارى التى تتوقع مارى أن تطعم مارى نفسها. ويثير المثال عدداً من الأسئلة ذات الصلة، ومنها: كيف نعرف هذه الحقائق، والإجابة، كما يبدو، أن الحالة الأولى للملكة اللغوية المشتركة تتضمن بعض المبادئ عن الاعتماد الإحالي (أى نظرية للربط العاملى)، وحين تُثبّت بعض الخيارات المعينة عن طريق التجربة الأولية وهى التى تركت من غير تحديد فى الحالة الأولى، لا يبقى لنا خيار بشأن الكيفية التى ينبغى أن نُؤول بها المثالين (١) و(٢) أكثر من الخيار المتوفر لنا عن إدراك شيء ما على أنه

إما مثلت أحمر أو شخص. ولا يبدو أن للممارسة الاجتماعية أثرًا في مثل هذه الحالات، مع أن التجربة المبكرة تساعد، فيها جميعًا، على تحديد بعض التفاصيل المعينة لآليات الذهن/الدماغ غير المتنوعة المحددة أحيانًا. ويبدو أن الأمر نفسه صحيح بشكل عام. أما إذا أخذنا اقتراحات دوميت وآخرين عن "الممارسة الاجتماعية"، حرفيًا في الأقل، فإنها تبدو زائفة، كأمر من أمور الحقائق الاختبارية. إذ يجب، في الأقل، تقديم بعض الحجج لتبيين السبب الذي يوجب أن نأخذ هذه الاقتراحات بجد.

ومن المفري - حين تفهم اللغة على أنها ممارسة اجتماعية بالطريقة التي تصوّرنا هذه المناقشات - أن ننظر إلى معرفة اللغة على أنها القدرة المتعلمة من أجل القيام بمثل هذه الممارسات، كما يقترح دوميت أو - على وجه أعم - كأنها قدرة يمكن ممارستها بالتكلم والفهم والقراءة والحديث إلى النفس، إلخ: أي أن "معرفة لغة ما لا تعدو امتلاك القدرة على القيام بهذه الأمور وأمر أخرى مماثلة" (Kenny: 1984: 138)⁽⁴⁾. ويقوى هذا الإجراء بالفهم الشائع للمعرفة بشكل عام على أنها قدرة. وتتقابل وجهة النظر هذه مع تصور اللغة بوصفها إجراءً توليديًا يعين الأوصاف البنيوية للتعبيرات اللغوية، حيث تكون معرفة اللغة التمثيل الداخلي لمثل هذا الإجراء في الدماغ (في الذهن، كما يحتمل أن نقول حين نتكلم عن الدماغ في مستوى معين من التجريد). فتتميز قدرة شخص ما على استخدام لغته (أي استخدامه لمعرفة) بشكل حاسم، من وجهة النظر هذه، عن امتلاكه مثل هذه المعرفة. وللتصور الأخير ميزتان أساسيتان:

١- فيبدو أن هذا للتصور هو الطريق الصحيح لدراسة لمعرفة البشرية - ومعرفة اللغة بشكل خاص - ضمن الإطار العام للعلوم الطبيعية، كما برهن على أنه تناول مثير إلى أبعد الحدود.

٢- وهو يتوافق إلى درجة بعيدة مع الاستخدام [اللغوي] المؤلف السابق على التحليل، وهذا أمر ثانوي لكنه ليس خلواً من الأهمية تمامًا.

وفي مقابل هذا، فقد برهنت المقاربة في ضوء القدرة العملية أنها غير مثمرة أبدًا وأنه لا يمكن التمسك بها إلا حين نفهم "القدرة" بطريقة مفارقة للاستخدام اللغوي اليومي بشكل حاسم.

ولكى يتضح السبب الذي يجعل الأمر على هذا الوجه، افترض أن جونز، وهو متكلم لنوع مما نسميه "اللغة الإنجليزية" في الاستخدام اللغوي اليومي، حسن من قدرته على تكلم لغته بالتحاقه بدرس للخطابة، أو أنه فقد هذه القدرة بسبب جرح أو مرض (ثم استردَّ هذه القدرة نتيجة لأخذه علاجًا، مثلًا). لاحظ أن متكلم اللغة "اليابانية"، في الظروف نفسها، سوف يستعيد "اليابانية"، لا الإنجليزية، حين يستعمل العلاج نفسه، ثم إن الاستعادة في مثل هذه الحالات تختلف اختلافًا جذريًا عن الاكتساب؛ ذلك أن الطفل لا يمكن أن يكتسب الإنجليزية أو اليابانية في غياب أي دليل. وفي هذه الحالات جميعها، فإن شيئًا ما ظل ثابتًا، ولنقل "الخصيصة م"، مثلًا، في الوقت الذي تتنوع فيه القدرة على الكلام والفهم، إلخ. فنحن نقول، في الاستخدام اليومي، إن الخصيصة "م" هي المعرفة اللغوية؛ لهذا بقيت معرفة جونز ثابتة في الوقت الذي تحسنت فيه قدرته على استخدام معرفته، أو تضاعفت، أو استعيدت، إلخ. ويتوافق التفسير في ضوء التمثيل الداخلي للإجراء التوليدي مع الاستخدام [اللغوي] اليومي في هذه الحال. ثم لاحظ أنه ربما تقوينا الأدلة الأخرى (من التشريح، مثلًا، لو كنا نعرف ما يكفي عن العلوم المتخصصة بالدماغ) إلى استخلاص أن سميث، الذي لم يستعد لغته الإنجليزية، لعدم تناوله العلاج، احتفظ مع ذلك بمعرفته باللغة الإنجليزية كاملة بعد أن فقد قدرته على تكلمها وفهمها فقدًا كليًا، (ولمزيد من النقاش المفصل لهذه الأمور والتفسيرات البديلة الممكنة، انظر Chomsky 1980; 1986).

فيجب إذن، إن كانت المعرفة هي القدرة، أن تكون الخصيصة "م" نوعًا من القدرة، وإن لم تكن، بجلاء، قدرة بالمعنى المفيد جدًا للكلمة، ذلك أن القدرة تنوعت أما الخصيصة "م" فظلت ثابتة. لهذا يجب علينا أن نخلق معنى

تقنيًا جديدًا للكلمة "قدرة"، ولتسميها بـ "القدرة - م". ويعني هذا أن "القدرة - م" ظلت ثابتة في الوقت الذي تتوعد فيه القدرة^(٤). ومن الواضح أن "القدرة - م" معزولة تمامًا عن القدرة، وتتصف بخصائص التصور القديم للمعرفة؛ بل ربما أمكن تسميتها بـ "المعرفة"، حين نتخلى عن المواقف المذهبية.

ومن المفارقة، كما يبدو، أن يجرؤ أحدٌ على تقديم هذه المحاولات كأنها تنطلق من روح آراء فتجينشتاين الأخيرة، وهو الذي كان يجادل باطراد ضد الممارسة التي تسعى لصياغة تصورات اصطناعية، معزولة عن الاستخدام اليومي، من أجل الدفاع عن بعض الاعتقادات الفلسفية للمعينة. بل يبدو أن فهم موقف فتجينشتاين عن المعرفة كأنها نوع من القدرة مثال نموذجي للممارسة التي كان فتجينشتاين ينظر إليها على أنها مصدر رئيس للأخطاء الفلسفية.

لاحظ أن بعض الاعتبارات المماثلة تُبين أن "الدربة" — أي معرفة كيف تتركب الدراجة، مثلاً — لا يمكن أن تحل في ضوء القدرات، أو الاستعدادات، إلخ؛ إذ يبدو جليًا أنه يدخل فيها عنصر إدراكي لا يمكن اختزاله. لاحظ أخيرًا أن من الواضح أن أي تفسير للمعرفة بأنها قسرة، إن أخذت بأي معنى مماثل لمعناها المألوف، غير مثير إطلاقًا. وربما كان من الممكن أن نحاول تفسير المثالين البسيطين في (١) و (٢) أعلاه في ضوء قدرات جوتز، مثلاً. لكن لم يسبق لأحد أن حاول سلوك مثل هذا المنحى، ثم إن نظرة فاحصة لهذه القضايا ستسهم إسهامًا بيّنًا في إيضاح السبب الذي يجعل النجاح في هذا المنحى مستحيلًا.

ويصبح التناقض بين الأفكار في المدى الذي لوردت أمثلة منه هنا أكثر وضوحًا حين نتفحص بعض الشروط المحددة، لنظر مرة أخرى إلى ملاحظة رورتي، التي تؤخذ على أنها أمر واضح لا يحتاج إلى نقاش، وهي أن كل ما يجب أن ينشغل به [اللسانی المیدانی] أن يلاحظ الطريقة التي

يتألف بها السلوك اللغوي مع أنواع السلوك الأخرى غير اللغوية في إنشاء تفاعل متكلم للغة الأصلية مع بيئته" (Rorty 1986: 339)، بغض النظر عن "المبدأ التنظيمي" الذي يقضى بأن الراوية [اللغوي] صادق في روايته عموماً. ويلاحظ أن هذا التصور مبني على آراء كوين وديفيدسون. لهذا يجب على "اللسانيين الميدانيين" الذين يدرسون جونز، في ضوء نموذج كوين للمألوف لترجمة الجذرية" (Quine 1960; 1987)، أن يؤيدوا فرضياتهم بشكل "مطلق" عن طريق ملاحظتهم لسلوك جونز (أو في ضوء سلوك أعضاء "جماعة الغابة"، التي تُصنف بأنها متجانسة؛ وإذا كانت غير متجانسة، فلن يصلح شيء من هذه الحجج، أما إن كانت متجانسة فربما تلغى الجماعة في مقابل الاعتداد بجونز من غير أن نفقد شيئاً ذا بال لهذه الأهداف، كما سأفعل أنا). وينبغي أن ألاحظ هنا أن بعض القضايا للنصية تبرز، حين الإحالة إلى كوين، ذلك أنه يعطى — في إجابته عن بعض التساؤلات والنقد الذي يوجه إليه — عدداً كبيراً من الوجوه المختلفة لنموذجيه، وهذه الوجوه غير مطردة (انظر Chomsky 1975: 187f, 198ff). ومع ذلك فالحجة التي أوردتها آنفاً، وهي التي يتبناها ديفيدسون ورورتي، ضرورية إن كان لنا أن نستخلص من النموذج الكويني أيّاً من النتائج التي تعدُّ مهمة.

وقبل أن نبدأ النقاش دعنا نلاحظ مرة أخرى أن هذه للوصفات المعيارية تختلف اختلافاً جذرياً عن الممارسة الفعلية لللساني الميداني. وهي غريبة تماماً عن المناهج النموذجية في العلوم الطبيعية كذلك. أما في الكتابات الفلسفية فتناقش هذه القضايا عموماً من حيث صلتها بنظرية المعنى، خصوصاً من حيث صلتها ببعض مظاهر نظرية المعنى التي لا نعرف عنها إلا القليل (لا من حيث صلتها، مثلاً، بما يتعلق بأمور كالاعتماد الإحالي، الذي نعرف شيئاً كثيراً عنه). وهذه ممارسة مشكوك فيها، لأنها تعنى أن ضبط التخرصات عن طريق المعرفة الاختبارية والفهم النظري محدود جداً. أما إن كان لهذا المذهب نصيب من الصحة، فيجب أن يلزم في كل ما يتصل

بما نعزوه للمعرفة اللغوية، كما كان كوين، في الأقل، واضحاً في أن هذا صحيح. لذلك يجادل بشكل صريح أن الاعتبارات نفسها تلزم حين يزعم لسانيه الميداني " أن الجملة:

John contemplated the problem.

تمعن جون في المشكلة".

تتضمن مركبين:

John المركب الاسمي:

contemplated the problem والمركب الفعلي:

John contemplated لا المركبين:

the problem و:

John contemp أو:

lated the problem و:

مثلاً. ويجب، تبعاً لكوين، حين يكون وفقاً للمسلمات التي تتطلبها نتائج المشهورة لتكون صحيحة، في الأقل، أن يؤسس هذا العزو لبعض الخصائص (سمها معرفة أو ما شئت) إلى الراوية جونز على الألية عن "سلوك جونز" بصورة خالصة؛ وهي أدلة تستعمل في ضوء المعايير الصارمة التي بينها. وربما يكون الأمر نفسه صحيحاً في دراسة البنية الصوتية، والعلاقات بين الضمان العائدة ومفرداتها، أو أي شيء آخر⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة إلى أنه لن يقبل أي لسانی، أو أي عالم اختباري عموماً أن يحدث بهذه القيود. وربما تكون المسلمة في علم الأحياء التي يمكن مقارنتها بهذه المسلمة أنه لا يمكن، في اختصارنا للفرضيات عن التطور الجنيني البشري، أن نستأنس بأي دليل يأتي من دراسة "الخمج" E. coli أو ذباب

الفاكهة أو القروود أو الفيزياء. وإحدى الحالات الجوهرية، في الممارسة الفعلية، أن أي لسانى يتناول دراسة لغة معينة إنما ينطلق من مسلمات استخلصت من دراسة لغات أخرى. لهذا لن يتردد أي لسانى، يعمل في ضوء المعايير التى تخضع لها العلوم، فى استعمال الأدلة التى وُصل إليها من دراسة اللغة اليابانية لكى تساعده فى إرساء فرضياته عن معرفة جونز للغة الإنجليزية. وهذا المنطق واضح، وهو صحيح إلى حد بعيد. فهناك أدلة اختبارية مقنعة جداً على أن الناس ليسوا "مهيئين" وراثياً لاكتساب لغة ما بدلاً من لغة أخرى؛ بل يمكن الافتراض بدلاً من ذلك أن "الحالة الأولى" لملكاتهم اللغوية متماثلة إلى حد بعيد. فإذا قُدم للطفل كم من الأدلة فإنه يكتسب لغة معينة، مستفيداً من موارد الحالة الأولى التى تحدّد قدرًا عاليًا من المعرفة (القدرة) التى اكتسبها؛ ويمكن عدّ الحالة الأولى دالةً function ثابتةً محدّدةً أحياناً تحوّل الأدلة المتوفرة إلى معرفة مكتسبة، وبشكل متماثل فى اللغات جميعها^(٧). وربما توفر دراسة اليابانية لنا دليلاً، وقد يكون دليلاً قوياً، عن الحالة الأولى، أى عن طريق مقارنة ما سيُعرف بما يُقَم، حيث تتوسط موارد الحالة الأولى بين الطرفين، فإذا استُخدم متكلمو اليابانية إحدى الخصائص الصورية لبنية اللغة (كخصيصة: "التحكّم المكوّن" c-command، مثلاً) فى تأويلهم الاعتماد الإحالى، ولم يُلزم "الدليل المتوفر" للطفل اليابانى بشكل ما بهذه النتيجة المتماثلة أو لا يصلح حتى أن يكون سبباً فيها فسنكون محقّين فى أن نعزو للحالة الأولى وجهاً من أوجه نظرية للربط العاملى، التى تشمل على هذه الخصيصة والمبادئ ذات الصلة التى تدخل فيها، وهو ما يقود إلى تفسير الحقائق الملاحظة. لكن متكلم الإنجليزية جونز يشترك إمع متكلم اليابانية] فى الحالة الأولى، وسيترتب على فرضياته عن الحالة الأولى بالطبع بعض المقتضيات عن الوصف للملائم للحالة المعرفية التى حصلت لها. وربما تكون النتائج المحصّلة من اليابانية عن معرفة جونز للإنجليزية بعيدة المدى. لهذا ربما يُبرهن الدليل عن الاعتماد الإحالى فى اليابانية أنه ذو صلة

بتحديد موضع حدود المركبات في الإنجليزية^(٨).

وهذا كله نموذجي في الممارسة العلمية، ولم يكن يوماً موضعاً للتشكك في العلوم الطبيعية — أو النقاش، ذلك أنه واضح إلى حد لا يجعله موضعاً للخلاف. ومع ذلك نجد كوين والمتأثرين بنموذجه يلزمون اللسانيين الميدانيين بالمخالفة الجذرية للإجراءات المتبعة في العلوم، وقصر عملهم على جزء ضئيل من الدليل ذي الصلة، يُنتقى في ضوء معايير المذهبية السلوكية؛ وأن يرفضوا الإجراءات النموذجية التي تُستخدم في بناء النظرية في العلوم كذلك. وليست هذه مسألة نظرية؛ ذلك أن ممارسة اللسانيين الوصفيين المألوفة تعتمد على هذه المسلمات اعتماداً حاسماً، مع أنها ينبغي أن تكون أوضح الحقائق البيهية.

ويمكن أن نصوغ هذه المسألة بشكل مختلف. فيواجه اللساني والطفل مهمتين مختلفتان اختلافاً جذرياً. فيكتسب الطفل، المزود ببعض القدرات الفطرية المعينة، معرفته اللغوية بلغة ما — بصورة آتية، ولا يتوفر له إلا خيارات محدودة جداً من هذا الأمر، إن كان هناك خيار أصلاً. أما اللساني فيحاول أن يكتشف ما المعرفة التي اكتسبها الطفل، وما خصائص للذهن/الدماغ الفطرية المسئولة عن هذه العملية لنمو المعرفة (فهو يحاول أن يكتشف ما يعرفه الطفل قبل التجربة، إن استعملنا للتعبير الذي يبدو ملائماً جداً). وسيستعمل اللساني بصورة ملائمة إلى حد بعيد النتائج ذات الصلة بالخصائص الفطرية، بغض النظر عن المصدر الذي جاءت منه، لوصف المعرفة المحصلة، في دراسة المعنى خاصة، حيث يكون لهذا المجال المنزلة التي لغيره.

بل إن إلزاعات كوين، إن طبقت تطبيقاً مطرداً، ستكون أكثر تطرفاً مما يوحي به هذا المثال. لذلك سوف ينظر أي عالم إلى الأدلة التي تأتي من الأمراض اللغوية أو للتنوعات اللغوية بين الأسر اللغوية أو البنية العصبية أو الكيمياء الأحيائية، بل من أي دليل مهما كان مصدره، على أنها ذات صلة

محتملة من حيث المبدأ بتحديد طبيعة الحالة الأولى أو حالة المعرفة
المُحصلة، لأن هذه الحالات ببساطة عناصرٌ للعالم الأحيائي الطبيعي. ويُؤكد
كوين نفسه هذه النقطة فيما يخص دراسة العالم الطبيعي، باستثناء دراسة
البشر في "ما فوق الرقبة" حين يقوم بها "اللسانيون"، بمعنى هذا المصطلح
عنده. فإذا أمكن بيان أن بعض الحقائق عن البنية العصبية للدماغ توفر تحقّقاً
طبيعياً لأنظمة القواعد من نوع معين (ونقل عن تقسيم الجملة:

John contemplated the problem.

إلى مركّبين هما: John و contemplated the problem) بدلاً من
تقسيمات أخرى، فستكون هذه الطريقة في النقاش مقبولة - إنن - في العلوم
للوصول إلى قرار بشأن الوصف الصحيح لمعرفة جونز - أي للحالة
المعرفية التي حصلها جونز (وتعني هنا قضية اختيار بنية المركبات).
ويصح الأمر نفسه عن نظرية المعنى، أو عن أي بحث اختياري آخر. لكن
هذه الطرق كلها، المألوفة في العلوم الطبيعية، مرفوضة رفضاً قاطعاً في
ضوء القيود التي يضعها كوين على عمل "اللساني" تبعاً للنموذج المستخدم
استخداماً واسعاً في النقاش الفلسفي.

ويقيّد كوين هذه المذاهب بطرق تلفت النظر. وتكشف النظرة الفاحصة
لهذه القيود بجلاء الطبيعة الاعتباطية للافتراضات التي يصدر عنها، وعدم
فهمه المستمر للقضايا الاختبارية. وكمثال على اعتباطية هذه الافتراضات،
انظر إلى نقاشه للدليل الذي ربما يقودنا إلى تعيين بنية مركّبة أو أخرى
لجمل جونز الإنجليزية (Quine 1986). فإذا جاء هذا الدليل من التجارب
اللسانية النفسية عن إدراك إزاحة الطقطقات⁽¹⁾، فهو مقبول، أما إن جاء من
القيود على الاعتماد الإحالي في اليابانية أو على صياغة للتركيبات السببية
في عدد لا يحصى من اللغات فغير مقبول - إنن - مع أنه دليل يمكن أن
يؤوّل بالكيفية المألوفة في العلوم الطبيعية، في ضوء الطرق التي ناقشناها
قبل قليل. وربما تؤوّل آراء كوين على أنه يرى أن الدليل من النوع الأول

(الذي يسمى "الدليل للنفسى") أقوى وربما أكثر إقناعاً مما يسمى بـ "الدليل اللغوى"؛ وإذا كان الأمر كذلك، فسيكون هذا ببساطة خطأ آخر، ذلك أن الأمر بخلاف ذلك، فى الوقت الحاضر فى الأهل. بل يبدو كأن كوين يرى أن الدليل يختلف من حيث طبيعته الإستمولوجية، وهذه فكرة مستحيلة. ذلك أن الأدلة لا تأتي متهورة بأنها "صالحة لإثبات النظريات" ("كالدليل النفسى") أو "صالحة من أجل البساطة وقبولها للترجمة" ("الدليل اللغوى")، فهى أدلة وحسب، وربما تكون جيدة أو رديئة، مقنعة أو غير مقنعة، فى ضوء الأطر النظرية التى يمكن أن تؤول فى ضوءها لتحديد الفرضيات تحديداً صارماً أو تأكديها.

ومن أمثلة عدم فهم كوين للقضايا الاختبارية، مناقشته لما يسمى بـ "القييد على بنية العطف"، وهو تعميمٌ وصفى يشمل، مثلاً، الفارق الجذرى من حيث المكانة بين التعبيرين الاستفهاميين اللذين يُشتقان عن طريق السؤال عن مارى فى الجملتين التاليتين:

John saw Bill and Mary.

"رأى جون بيل ومارى".

و:

John saw Bill with Mary .

"رأى جون بيل مع مارى".

أى الاختلاف بين:

Who did John see Bill and?

Who did John see Bill with?

أحيث لا يمكن السؤال عن أحد المتعاطفين وترك الآخر (فى المثال الأول)، وإمكان السؤال عن أحد الاسمين للمتعاطفين فى غير هذه البنية (المثال الثانى).

ويستنتج كوين أن "التمائل اللافت للنظر" [بين اللغات] الذي يبينه هذا القيد "لا يوحي بأنه سمة موجودة في اللغات كلها"، بل "هو إشارة إلى صلة نسبية بين اللغات من الواضح أنها تحولت إلى خصيصة نحوية بهذه الأشكال"^(١٠). لكن هذه النتيجة تقوم على سوء فهم خطير للقضايا الاختبارية ذات الصلة هنا. إذ تكمن المشكلة في أن نفس كيف يعرف الأطفال جميعاً الفارق ذا الصلة بين:

Who did John see Bill and?

[وهي خاطئة]

و:

Who did John see Bill with?

[وهي صحيحة]

ولا يمكن القول هنا إن الطفل يعتمد على دليل يستقيه من تاريخ اللغة، وهو لا يمتلك في العادة تجربة ذات صلة لكي يُحدِّد (بـ "الاستقراء"، أو غيره) أن القاعدة البسيطة "هذه عبارة — wh" مُنعت من العمل بصورة ما في الجملة:

John saw Bill and who.

"رأى جون بيل ومن".

لكنها لم تُمنع في الجملة:

John saw Bill with who.

"رأى جون بيل مع من".

(في العامية الإنجليزية). فلا يُنتج الأطفال، مثلاً، جملاً مثل:

Who did John see Bill and?

ثم يُرشدون أهلهم إلى أن هذه ليست الطريقة التي تُنتج بها هذه الجملة؛ كذلك فاللغات لم "تنتج" نحو هذا "التبسيط" في قاعدة الاستفهام عبر آلاف السنين"^(١١). فتكمن المشكلة، باختصار، في "فقر المنبّه"، كما أنه ليس

للتخصصات عن الصلة النسبية بين اللغات صلةً بها إطلاقاً، في هذه الحالة وفي حالات أخرى مماثلة لا حصر لها^(١٢).

وتُبين حالات أخرى عن نوع مماثل من رفض السماح لدراسة اللغة بأن تسير بالكيفية التي تسير بها العلوم الطبيعية. انظر مقال ديفيدسون بعنوان: A Nice Derangement of Epitaphs "تحريف بسيط في شاهد قبر" في الكتاب الذي أشرنا إليه من قبل (Leopore 1986). فينظر ديفيدسون في الدعوى التي مفادها أن هدف الدراسة الوصفية للمعنى أن نصوغ "نظرية صريحة" تكون "تمونجاً لمعرفة المؤول اللغوية"، أي "نظرية تكرارية من نوع ما"، وأنها لا نستطيع "وصف ما يقوم به المؤول" إلا باللجوء إلى مثل هذه النظرية. ثم يمضي قائلاً إنه: "لا يُضيف شيئاً إلى هذه الدعوى أن نقول إنه إذا وصفت النظرية المعرفة اللغوية عند مؤول ما وصفاً صحيحاً، فيكزم أن يكون عند المؤول بعض الآليات التي تتماثل مع النظرية" (Davidson 1986b: 438). وقد اقترح نوميت وآخرون مثل هذه النقاط كذلك^(١٣).

وسيجد من يقارب هذه المعائل من منظور العلوم الطبيعية أن التعليق الأخير الذي أوردناه خاطئ تماماً؛ إذ لو كان صحيحاً لكان التعليق المماثل صالحاً في دراسة الإدراك أو الكيمياء. وكما هو الأمر في العلوم كلها، فقد يضيف إلى الدعوى إضافات مهمة أن يقال إن "بعض الآليات عند المؤول". يوجد ما يماثلها في النظرية. أي إن علماء العلوم الطبيعية الذين يصوغون نظرية "تصف ما يمكن أن يفعله مؤول" سيستمرون ليعزوا إلى الشخص الذي يدرسه بعض الآليات الثابتة الصريحة التي ستتصف بالخصائص التي تفترض في هذا التفسير الوصفي، لا في غيره. وربما يكون هذا العزو في مستوى مجرد، في ضوء أنظمة قواعد ممثلة في الذهن، أو في ضوء وحدات مجردة أخرى كالشبكات العصبية، أو في ضوء بنية الخلايا، إلخ؛ وهذا كله نمونجي في العلوم الطبيعية. وبعد أن يعزو المشتغل بالعلوم الطبيعية بنية معينة وبعض الآليات المحددة لذهن/دماغ شخص ما — وغالباً ما يكون ذلك

في مستوى مفارقٍ جداً للآليات الفيزيائية "الأكثر أولية" غير المعروفة -
فسيكون عندئذٍ قادراً على اختبار النظرية في ضوء مجموعة من الأدلة
الكثيرة، ومنها مثلاً، للدليل الذي يؤخذ من لغات أخرى بالطريقة التي بيّناها
أنفأ، والدليل من الأمراض التي تصيب الدماغ أو من العلوم المتخصصة في
الدماغ أو الكيمياء الأحيائية. لكن اشتراط ديفيدسون يمنع هذه الجهود التي
تستخدم مناهج البحث المنضبط في العلوم لتحديد إن كان التعليل المفترض
للمؤول صحيحاً حقاً، وأن نعدّه إن لم يكن كذلك (كما هو المحتمل).

وتبرز المشكلة نفسها حين يعترض كوين وديفيد لويس (1983)
ودوميت، وكثير غيرهم بأن هناك مشكلة تبرز حين يعزو اللسانيون إلى
متكلم - سامع معين نظام قواعد داخلياً محدداً، ثم يسعى هؤلاء إلى استقصاء
صديق هذه النظرية عن الشخص مستخدمين المناهج النموذجية التي تستخدم
في العلوم. بل يجادل كوين (Quine 1972: 447)، أن هذا المنحى ربما لا
يزيد عن "حماقة" خالصة، وينبغي التغلب عليها بالتأمل الملائم عن المنهجية.
وتكمن المشكلة الملاحظة في أن من الممكن أن نصوص لأي مجموع من
السلوك الملاحظ، أو أي مجموع غير نهائي من الأقوال نختاره اعتماداً على
بعض الأسس الغامضة ويأخذها الفيلسوف على أنه "اللغة"، عددًا كبيراً غير
نهائي من النظريات التي تتوافق مع هذا الدليل (وتسمى أحياناً: "أحساء")؛
لذلك ينظر إلى الافتراض بأن واحدة من هذه النظريات "صحيحة" والأخرى
"زائفة" على أنه توجه غير مسوّغ - إلا، كما يرى كوين أحياناً، إن كان
هناك "دليل نفسي" - بخصائصه الغامضة التي يفتقر إليها "الدليل اللغوي" -
يؤيد فرضية معينة أو أخرى. وتدعم هذه الحجة في الغالب بالقياس على
دراسة اللغات الصورية، التي ليس لها صلة البتة ومضلة إلى حد بعيد. ولو
كانت هذه الحجة صحيحة لكان المتوقع أن تصح في العلوم كلها؛ لكنها ليست
إلا شكلاً من التشكك الذي لا يحمله أحدٌ على محمل الجد في دراسة العالم
الطبيعي لأسباب اتضححت في القرن السابع عشر، كما يلاحظ

بوبيكين (Popkin 1979)^(١٤). وسيعزو المشتغل بالعلوم الطبيعية إلى الشخص الذي يدرسه نظامًا محددًا، بدلاً من نظام آخر (أي: "تحوًا"، إن استعملنا المصطلح المضلل)، ثم ينتقل بعد ذلك إلى التأكد من صحة هذه الفرضية عن طريق البحث عن أدلة متعددة بقدر الإمكان، ويشمل ذلك بصورة خاصة الأدلة من لغات أخرى، بالمعايير التي ناقشناها آنفاً. ومن الطبيعي أنه سيظل هناك دائماً شيء من عدم التحديد الاختباري، لأن هذا علم اختباري، لا رياضيات، لكن هذا هو كل ما يمكن قوله عن هذا الأمر. وهناك أبحاث كثيرة جداً تجادل بأن العكس هو الصحيح، إلا أنها تقوم على احتجاجات واهمة جداً^(١٥). ومن هذه الأوهام الفرضيات الخاطئة التي ناقشناها آنفاً: أي أنه لا يمكن أن يأتي الدليل عن معرفة جوتز اللغوية إلا من سلوك جوتز (حين يؤوّل في ضوء المبدأ التنظيمي عن الصدق)، وأنه لا يضيف إلى وصف سلوك جوتز شيئاً أن تعزو إليه آلية داخلية محددة، وربما كانت هذه نظاماً معيناً من القواعد أو شكلاً ما من التنظيم العصبي الذي تتحقق به.

ويمكن إيضاح هذه النقطة، مرة أخرى، بالنظر في مسألة حدود البنية المركبية. افرض أن لدينا نوعين من الأدلة لوضع الحد الأكبر [للمركبات] بعد الفاعل في:

John -- contemplated the problem

ويأتي النوع الأول من الاعتماد الإحالي في اليابانية ("الدليل اللغوي") والثاني من الإزاحة الإدراكية للطبقات ("الدليل النفسي"). ويخضع الدليل الأول للنوع المألوف من عدم القدرة على التحديد. وكذلك الثاني. افرض أن الطبقات، في ضوء الشروط الاختبارية التي وضعت للحصول على النتائج الصحيحة (بعد عدد كبير من المحاولات التي تنتهي بالخطأ، كما هو المعهود)، ستزاح إدراكياً إلى الحد بين الفاعل والمفعول، لا إلى الحد بين الفعل والمفعول. ويمكن تأويل هذه النتائج على أنها تؤيد النتيجة التي مفادها أن بنية هذا المثال هي:

NP -V NP

[مركب اسمي - فعل مركب اسمي]
لا:

[NP V -NP]

[مركب اسمي فعل - مركب اسمي]
أو:

[NP - V . NP]

[مركب اسمي - فعل - مركب اسمي]

لكن من السهل أن نستخدم حجة كوين لتبيين أنه ليس هناك أمر من أمور الحقيقة في هذه الحالة (Quine 1960: 303؛ وانظر Chomsky 1980: 15). فمن الواضح أن هناك تأويلات أخرى كثيرة لهذه النتائج الاختبارية. فيمكن تأويلها بأن الطقطقات أزيحت إبراكياً إلى وسط "مكون ماء"، لا إلى حده؛ أو ربما كان المجرب عليه يجيب بتعيين حدود المكون الذي يلي المكون الأكبر مباشرة. ويمكن أن تؤوّل التجارب الأخرى ذات الصلة كلها بطرق مماثلة، كما يمكن القيام بذلك من حيث المبدأ بكل تأكيد - وإن لم يكن بسيطاً من حيث الممارسة، سواء في حالة الدليل "النفسي" أو الدليل "اللغوي". فالقضايا هي نفسها في الحالتين كليهما؛ بل لا توجد قضايا خاصة هنا، ذلك أنها تصح في البحث الاختباري بصورة عامة.

ويتردد كوين في قبول النتائج حين تُستخلص عن حدود المركبات أو عن المظاهر الأخرى للغة اعتماداً على "الدليل اللغوي"، إن لم يصحب ذلك مزيداً من الوضوح عن الآلة المفترضة^(١٦)، لكنه لا يثير هذه الاعتراضات حين تُستنتج هذه النتائج نفسها اعتماداً على "الدليل النفسي". وليس لهذه الثنائية الإبيستيمولوجية من معنى البتة؛ وهي خطوة واسعة إلى الخلف من الثنائية الميتافيزيقية التقليدية، التي كانت ردّاً فعل معقولاً على مشكلات اختبارية ملحوظة، تنطلق من مسلمات نعرف الآن أنها كانت خاطئة^(١٧).

وهذه الاعتراضات، على الوجه الذي هي عليه، متماثلة من حيث المبدأ، مهما كان الدليل الذي تقوم النتائج عليه، وهي لا تزيد عن كونها سمات للبحث الاختباري. أما فيما يخص "الألة المفترضة" فلا تثير مشكلةً مبدئيةً تختلف عن تلك المشكلات المعهودة في الأنواع كلها لصياغة النظرية في العلوم الاختبارية.

ومع ذلك فهناك نوع آخر من التناقض يبرز في هذا الإطار، فيجادل كوين بأنه من غير المسموح للسانيين أن يعزوا نظامًا لغويًا محددًا، بدلاً من أنظمة أخرى، للفرد أو الجماعة المؤمثلة التي يدرسونها^(١٨)؛ ولا يُسمح لهم أن يتفحصوا ما يكون صحيحًا عن الدماغ، حين يوصف في المستوى الذي نصوص فيه أنظمة القواعد وما يشبهها. لكن هناك شيئًا صحيحًا عن الدماغ؛ فهناك شيء معين عن دماغى يكون فيه مماثلًا تقريبًا لدماغك ومختلفًا اختلافًا مهمًا عن دماغ متكلم اللغة السواحلية. لهذا يجب أن يُسمح لأحد ما أن يدرس مظاهر العالم الواقعي هذه، لكن ليس اللسانيين، الذين يقصرون على بحث سلوك جونز، وربما لا يمكنهم أن يعزوا بعض الآليات المحددة إلى ذهن/دماغ جونز أو أن يستخدموا أدلة من اللغات الأخرى (أو من أى مجال آخر، من حيث المبدأ) لكي يختبروا دقة نتائجهم عن هذه الآليات، وستكون الخطوة المنطقية - إن قبلنا بهذه القيود المصطلحية على ما يجب أن يفعله اللسانى - أن نهجر اللسانيات (ويشمل ذلك دراسة المعنى في ضوء الشروط المفروضة في نموذج البحث عند كوين). أما حين نتخلى عن هذه الممارسات غير المفيدة، فيمكن لنا الآن أن نلتفت إلى هذا الموضوع الآخر حيث يُسمح لنا بأن نعزو بعض الآليات المحددة إلى ذهن/دماغ جونز وأن نتفحص هذه الفرضيات مستخدمين المناهج التي تتبعها العلوم، مستعينين بأى دليل ممكن؛ والحق أن هذه الممارسة هي ما يقوم به اللسانيون، وهي التي أُبينت في هذا التقليد الغريب، وإن كان تقليدًا مؤثرًا جدًا في الفلسفة الحديثة، وهو الذي يتباهى، وهذه مفارقة، بانتمائه إلى "الترعة الطبيعية" وبالتزامه بالمنهج العلمية.

ويقدم كوين، في أحدث جهوده لتسوية القيود التي يفرضها (Quine 1987) الحجة التالية. فهو يجادل بأن "المنهج السلوكي لازم لللساني؛ ذلك أننا في اكتسابنا للغة نَعتمد حصراً على السلوك الظاهر في السياقات الملاحظة. . . لذلك لا يتضمن المعنى اللغوي شيئاً وراء ما يلتقط من السلوك في الظروف الملاحظة" (Quine 1987: 5)، ويصح الشيء نفسه، اعتماداً على تماثل الحجة، في دراسة طريقة النطق، أو البنية المركبية، أو غيرها من مظاهر اللغة. زيادة على ذلك، وكما يبين كوين بجلاء مرة أخرى، فالسلوك الذي يهتم به لللساني إنما هو سلوك متكلمي اللغة الذين يعزو إليهم معرفة لغة: "إذا اختلف المترجمون في ترجمة جملة من لغة سكان غابة ولا يمكن لأي سلوك عند هؤلاء [الذين يسلم ضمناً بأنهم متجانسون] أن يقرر أمر هذا الاختلاف، فيعنى هذا أنه ليس هناك، ببساطة، شيء يمكن عدّه أمراً من أمور الحقيقة" (Quine 1990: 38)، وأن اللساني الذي يعتقد أن هناك حقائق يمكن اكتشافها، وأن بعض النظريات (الأنحاء) صحيح وبعضها غير صحيح، يرتكب خطأ منهجياً خطيراً أو هو ضحية لـ "حُمق" خالص (لنتذكر أن "المترجم" يمثل متعلم اللغة كذلك) (19) وأن الحجة نفسها تنطبق على طريقة النطق، والبنية المركبية، وغير ذلك).

انظر الآن إلى الحجة الشبيهة التالية، فيعتمد الكائن العضوي بشكل خالص، في مساره من الحالة الجنينية إلى الحالة الناضجة ليصل إلى بنيته المادية النهائية، على التغذية التي يستمدّها من الخارج (ويشمل ذلك الأوكسجين، إلخ). فلا يوجد شيء في البنية المادية للكائن العضوي للناضج - إن - وراء ما يمكن أن يلتقط من للدخول الغذائية. لهذا يجب على دارس التطور البشري وما يؤول إليه، إن، أن يقصر انتباهه على هذه للدخول وحدها؛ وهو ما يعنى أن "المقاربة الغذائية لازمة" عند عالم الأحياء. وتماثل هذه الحجة حجة كوين، وهو ما يجعلنا نرى سبب عدم إمكانها فوراً. فصحيح أن الجنين "يعتمد" على البيئة الغذائية مثلما "يعتمد" متعلم اللغة على السلوك

الظاهرى. لكن ما الذى يتضمنه مصطلح "يعتمد"؟ وهنا نلتمت إلى بنية الكائن العضوى التى يمكن أن ننظر إليها بشكل مجرد بوصفها تحويلاً لدخول خارجية إلى حالة ناضجة. وفى غياب مثل هذه البنية لن يودى السلوك الملاحظ إلى معرفة للغة، ولن تقود التغذية إلى نمو. وكوين يعرف هذا بالطبع. لهذا يربط "اللغوى الميدانى" فى عُرْف كوين، فى تتبُّعه مسارَ متعلم اللغة، بشكل مؤقت أقوال المتكلم بالسياق الملاحظ المصاحب، كما يُسمح له أن يستفيد من الفرضيات الأخرى التى يُزعم أنها تمثل القدرات التى زود بها متعلم اللغة، وربما أمكن لهذه الفرضيات، إذا ما وُضحت، أن تكون أساساً لنظرية عن البنية الفطرية للكائن العضوى وللتحويل.

وكما يتفق الجميع، فليس هناك أثرٌ للبيئة الخارجية على نمو اللغة (أو غيرها) فى غياب البنية الفطرية؛ ولن يمكن لجونز، على وجه الخصوص، فى غياب البنية الفطرية، أن يتطور بطريق محددة من جنين إلى شخص، ولا يمكن أن تصل ملكته اللغوية إلى حالة للمعرفة الناضجة التى تؤسِّس لسلوكه وتفسِّره. لكن الطفل مزودٌ بهذه البنية الفطرية، لهذا ينمو لينصل حدَّ النضج بحسب مسارٍ موجَّهٍ داخلياً بشكل كبير؛ ومهمة العالم أن يكتشف طبيعة هذا الإعداد الداخلى وطبيعة الحالة التى حصَّلت. وأفضل نظرية - الآن - أن الحالة الأولى للملكة اللغوية تتضمن بعض المبادئ العامة لبنية اللغة، ويشمل ذلك المبادئ الصوتية والدلالية، وأن الحالة الناضجة للمعرفة اللغوية إجراء توليدى يعين الأوصاف البنيوية للتعبيرات اللغوية وتفاعلاتها مع النظام الحركى والنظام الإدراكى والأنظمة الإدراكية الأخرى للذهن/الدماغ؛ لتعطى تأويلات دلالية وصوتية لقول ما. وهناك أنواع كثيرة جداً من الألية الاختبارية ذات الصلة المبدئية بتحديد الكيفية الدقيقة التى يجب أن يبيِّن بها هذا الاقتراح بالتفصيل. ومرة أخرى، لا يعدو هذا كله أن يكون علماً نموذجياً، وهو يودى إلى نظريات إما صحيحة أو زائفة (٢٠) عن المعرفة اللغوية لجونز وحالته الأولى، التى هى جزء من الإعداد الأحيائى البشرى.

وربما يجب التخلي عن هذا الاقتراح في ضوء بعض التصورات الأخرى التي لا توجد الآن، لكن الوصول إلى هذه النتيجة لا يكفي لأن نطلب من اللساني هجر المناهج العلمية.

وكما هي الحال في صياغات كوين المبكرة لهذه الأفكار، فتقريراته المحددة عن البنية الفطرية (ومن هنا عن "التحويل") اعتبارية خالصة، وليس لها صلة هنا، بغض النظر عن سوابقها التاريخية. فليس هناك من سبب لأن نقبلها في حال اللغة، مثلما أن شبيبتها المذهبية عن "الاعتماد" سترفض فوراً في دراسة للمظاهر الأخرى لنمو الكائنات العضوية. وهناك أدلة مقنعة، زيادة على ذلك، على أنها زائفة، على حد ما صيغت به من وضوح. وكما هي الحال في دراسة للتطور المادي عموماً، سوف يضرب الباحث المنهجي صفحاً عن هذه المسلمات المذهبية عن طبيعة "الاعتماد" (الذي يتعلق بطبيعة البنية الفطرية) مع الاعتقادات الأخرى، كذلك التي أشرنا إليها آنفاً، وسيستعمل أي دليل متوفر يتيسر وجوده عن بنية الكائن العضوي والتحويل وطبيعة الحالات المحصلة في حالات معينة. وتبقى النتائج التي استخلصها كوين وديفيدسون ورورتي وكثير غيرهم مقفلة إلى الحجة. وليس هناك ما يمكن نعه من الصورة التي يرسمها كوين لهذه الأمور، على حد ما أرى، مع أن بعض نتائجه — خاصة ما يتعلق منها بـ "شبكة المعنى" — ربما يثبت أنها صحيحة، إلى حد كبير في الأكل.

لنعد الآن إلى التمييز بين "التحليل والتأليف"، وإلى حجة ديفيدسون (Davidson 1986a: 312) التي مفادها أن كوين استطاع بالتخلص من هذا التمييز [إنقاذ فلسفة اللغة بوصفها موضوعاً جاداً]. لنتذكر أن موضوع النقاش هنا ليس هذا التمييز ببساطة، بل مسألة الارتباطات الدلالية التي تحدد اللغة عموماً. ونحن لا نستطيع، كما نكرت، الاحتجاج بحجة رورتي، المنسوبة إلى كوين، ومفادها أن "اللساني الميداني" يجد هذا التمييز "غير مفيد". أما من حيث الممارسة فتعزى البنية الدلالية دائماً إلى الوحدات المعجمية في الأبحاث

الوصفية والدراسات النظرية لدلالة اللغة الطبيعية، ثم تُشتق الارتباطات الدلالية مختلفة الأنواع من هذه الخصائص البنوية وغيرها، ويشمل ذلك الارتباطات التحليلية، وهناك أسباب وجيهة وراء هذه المسلمات النموذجية عن البنية المعجمية. ذلك أن اكتساب الوحدات المعجمية يثير ما يسمى أحياناً بـ "مشكلة أفلاطون" بشكل أكثر جلاء. فكما يعنى كل من حاول جمع معجم أو اشتغل بالوصف الدلالي أن من الصعب أن نصف معنى أية كلمة، ثم إن مثل هذه المعاني تبلغ حدًا عاليًا جدًا من التعقيد، وتشتمل على أكثر المسلمات لغتًا للنظر، حتى في حالة أبسط التصورات، كما في حالة الشيء الذي يمكن أن يكون قابلاً للتسمية. ويكتسب الأطفال ("يتعلمون")، في نزوة فترة اكتسابهم للغة، عددًا كبيرًا من الكلمات يوميًا، ربما يصل عدد هذه الكلمات أكثر من عشر، وهو ما يعنى أنهم يكتسبون الكلمات في سياق عدد قليل جدًا من مرّات التعرّض [للغة]، بل ربما لا يتعرضون لها إلا مرة واحدة. وربما يوحي هذا بأن التصورات متوفرة [في دماغ الطفل] بشكل مسبق، مع تحديد الجزء الأكبر من تعقيدها وبنيتها بشكل مسبق، إن لم يكن تحديد ذلك كله، وأن مهمة الطفل لا تعدو أن تكون إعطاء أوصاف لهذه التصورات، وهو ما يمكن أن يُنجز بناء على عدد محدود من الأدلة في وجود بنية فطرية غنية بشكل كاف. كما يبدو أن هذه البنى التصورية تعمل على إنتاج ارتباطات دلالية من النوع الذي سيسمح - بصفة خاصة - بوجود تمييز تحليلي - تألفي، بوصفه حقيقة اختبارية.

ويبدو أن الوحدات المعجمية وطبيعتها، على حد ما يُعرف عنها، مؤسمة على بنى تصورية من نوع محدد ومتناسك جدًا. وتدخل التصورات ذات الطبيعة الموضوعية بصورة واسعة في البنية المعجمية، وبطرق مجردة إلى حد بعيد غالبًا، كما يجادل بصورة معقولة أن بعض التصورات ذات الطبيعة المحلية - ويشمل ذلك هدف الحدث ومصدره، والشيء الذي حرك، إلخ - تدخل فيها كذلك وبالكيفية نفسها. يضاف إلى ذلك أن مفاهيم كالمفرد

وهدف الحدث، وآلة التنفيذ، والحدث والقصد والتسبب وغيرها عناصر لازمة في البنية المعجمية، بخصائصها وعلاقاتها الداخلية المحددة، خذ مثلا كلمات مثل chase "يُطرد" أو persuade "يُقنع". فيدخل في هاتين الكلمتين بوضوح الإحالة إلى القصد البشري، فلا يعنى أن تطرد جونز أنك تتبعه وحسب، بل أن تتبعه بقصد أن تسلك الطريق التي يسلكها، ربما لتمسك به. ويعنى أن تقنع سميث أن تفعل شيئا يجعله يقرر أو يقصد أن يفعل ذلك الشيء؛ فإذا لم يقرر أو يقصد أن يفعل ذلك الشيء فيعنى هذا أننا لم نتجح في إقناعه. ويجب، زيادة على ذلك، أن يقرر هو أو يقصد برغبته هو، لا بسبب إزمه بذلك؛ فإذا قلنا إن الشرطه أُنعت سميث، باستخدام التعذيب، أن يعترف فإننا نستخدم الكلمة حينئذ للمفارقة. وبما أن هذه الحقائق معروفة أساسا من غير دليل فلا بد أن نستنتج أن الطفل يقارب اللغة مزودا بفهم حدسى عن التصورات التي تشتمل على القصد والتسبب والحدث وهدف الحدث إلخ؛ وأكثر من ذلك، لا بد أن الطفل يضع الكلمات التي يسمعها في سلسلة تسمح بها مبادئ النحو الكلى، وهي التي توفر الإطار للفكر واللغة، وتكون مشتركة بين اللغات البشرية بوصفها المبادئ التي تدخل في مختلف مظاهر الحياة البشرية. كما يبدو أن هذه العناصر تدخل في "خطة تصويرية" متماسكة، وهي إحدى مكونات الحالة الأولى للملكة اللغوية التي تتخذ شكلها النهائي بطرق محددة، ولها مدى وحدود محددة مسبقه، في أثناء نمو اللغة، وهذا واحد من مظاهر التطور الإدراكي. وربما تخضع هذه الخطط التصورية لبعض التنقيحات وإعادة البناء (انظر Carey 1985)، لكن يجب أن ندقق في التمييز بين العوامل المختلفة التي تدخل في مسار التطور، ويشمل ذلك، إلى حد بعيد من المعقولية، النضج المحدد وراثيا الذي يؤدي إلى بعض المؤثرات التي لا نلاحظ إلا في المراحل المتأخرة من النمو الإدراكي.

لاحظ مرة أخرى أنه يبدو أن هناك ارتباطات للمعنى في حالات مثل هذه؛ فلدينا فارق واضح إلى حد بعيد بين صدق المعنى وصدق الوقائع. لهذا

فإذا أقنع جونُ بيلُ بأن يذهب إلى الجامعة فيعني هذا أن بيل قرَّر عند حد معين أن يذهب إلى الجامعة أو قصد أن يذهب إليها وقام بتلك من غير إرغام؛ أما إذا لم يكن الأمر كذلك فجون لم يقنع بيل بالذهاب إلى الجامعة. وبالمثل، فإذا قتل جونُ بيلُ، فيعني هذا "أن بيل مات" (مع أنه يمكن أو لا يمكن أن يكون جون مات، تبعاً للوقائع). وهذه أمثلة لصديق المعنى لا صديق الوقائع. ويوفر الإطارُ المسبقُ للفكر البشري، الذي تكتسب اللغة ضمته، بعض الارتباطات الضرورية بين التصورات، وهي التي تبيِّنها ارتباطات المعنى بين الكلمات، وعلى نطاق أوسع، بين التعبيرات التي تظهر فيها هذه الكلمات، كما في مثال الاعتماد الإحالي الذي أشرنا إليه سابقاً. وتوفر العلاقات التركيبية مجموعة غنية من الأمثلة الأخرى. ومن ذلك، أنه يبدو أن هناك فارقاً واضحاً بين الجملة:

Everyone who lives upstairs lives upstairs.

كُلُّ إنسانٍ يعيش في الطابق الأعلى يعيش في الطابق الأعلى".
والجملة:

Everyone who lives upstairs is happy.

كُلُّ إنسانٍ يعيش في الطابق الأعلى سعيد".

ويبدو أن كوين يعتقد أن هذا الفارق أكثر إشكالاً وعموضاً من التمييز الذي وضعه بين "صحيح نحويًا" و"غير صحيح نحويًا"، الذي يعدُّه حاسماً شيئاً ما للاستقصاءات التي يقوم بها اللساني^(١١). لكن العكس هو الصحيح. ذلك أنه يبدو أن ليس للفارق المطلق بين "صحيح نحويًا" و"غير صحيح نحويًا" إلا أهمية ضئيلة - إن كان له من أهمية أصلاً - فهو فارق يمكن رسمه بأية طريقة أو، ربما بشكل أفضل، ألا يرسم إطلاقاً، ذلك أن من المشكوك فيه أن يؤدي هذا التصور، بمعناه عند كوين، أي دور في أية نظرية عن اللغة. وقد نوقشت أسباب ذلك في الأبحاث المبكرة في النحو

التوليدى؛ بل إنها الأبحاث الوحيدة التي سعت لتطوير مثل هذا التصور بطرق ربما تكون ذات صلة بالنظرية اللسانية، وإن كان ذلك بمعايير تُظر إليها منذ زمن بعيد أنها غير ملائمة^(٢٢).

فيظهر، إذن، أن إحدى النتائج المركزية في الفلسفة الحديثة مشكوك فيها إلى حد بعيد، وهي: الاعتقاد — الذي يؤخذ غالباً على أنه قد بُرهن عليه في أبحاث كوين وآخرين — بأنه لا يمكن لأحد أن يرسم فارقاً مبدئياً بين مسائل الوقائع ومسائل المعنى، فلا يعدو التمييز بينهما أن يكون من أمور الاعتقاد العميقة إلى حد ما، وقد دُعيت هذه النتيجة بالتأمل في صنف محدود من الأمثلة السطحية؛ ومنها بعض التصورات التي إما أن لها بنية علانقية محدودة أو ليس لها مثل هذه البنية إطلاقاً. فليس من السهولة العثورُ في جمل مثل:

Cats are animals

مثلاً، على دليل يقرّر إن كانت هذه الجملة صحيحة بحسب المعنى أم بحسب الوقائع، أو إن كانت هناك إجابة عن السؤال في هذه الحالة، كما كان هناك خلاف واسع لم يؤدّ إلى نتيجة محدّدة في هذا الشأن، أما إن وجّهنا أنظارنا إلى تصورات ذات بنية علانقية لازمة مثل persuade أو chase أو إلى عبارات ذات تركيب معقد كالعبارات التي تنشئ بالاعتماد الإحالي أو السببية أو عبارات الصلة، فيبدو أنه من الممكن حينئذ اكتشاف العلاقات الدلالية فوراً. وعلى عكس ما يدعى رورتى وآخرون، فهذه مسألة عامة من مسلمات البحث الاختباري في دراسة الدلالة اللغوية، وهي، زيادة على ذلك، فرضية معقولة، كما يبدو.

ولا يمكن تقرير إن كان حكم ما ينتمي إلى صدق المعنى أم أنه حقيقة اختبارية إلا بالبحث الاختباري، وربما يكون هناك صلة لاعتبارات من مختلف الأنواع بهذه المسألة؛ كالبحث في اكتساب اللغة والتنوع بين اللغات،

مثلاً. فمسألة وجود الصدق التحليلي والارتباطات الدلالية بصورة أعم مسألة اختبارية، ويجب تقريرها عن طريق البحث الذي يذهب إلى حد بعيد جداً وراء الأثلة التي يُحتج بها عادة في الأبحاث التي تتناول هذه القضايا. افترض أن شخصين يختلفان في حكميهما الحدميين عن إن كان باستطاعتي إقناع جون بأن يذهب إلى الجامعة من غير أن يقرر هو أو يقصد أن يفعل ذلك (انظر Harman 1980). ولا نواجه هنا طريقاً مسدوداً أبداً. بل إن بإمكاننا أن نصوغ نظريات متعارضة ثم نختبرها. فسيعمد من يرى أن العلاقة بين persuade "يقنع" و decide "يقرر" أو intend "يقصد" علاقةً تصوريةً إلى تفصيل بنية هذه التصورات، كبيان عناصرها الأولية، والمبادئ التي تلحقها ببعض الأنظمة الإدراكية الأخرى وتصلها بها، إلخ؛ ثم يسعى لبيان أنه يمكن تفسير الخصائص الأخرى للغة والمظاهر الأخرى لاكتسابها واستخدامها في ضوء المسلمات نفسها عن البنية الفطرية للملكة اللغوية، في اللغة نفسها وفي اللغات الأخرى، وأن التصورات نفسها تؤدي نوراً في المظاهر الأخرى للفكر والفهم. أما من يرى أن العلاقة علاقة اعتقاد عميق يُعتقد لا علاقة ارتباطية معنى فستكون مهمته أن يطور نظرية عامة لتثبيت الاعتقاد من النوع الذي سيؤدي إلى العلاقات الملائمة في هذه الحالات وحالات أخرى كثيرة. هب أننا افترضنا - مع بول تشيرشلاند مثلاً - أن الارتباط يقوم على "الأهمية الدلالية" للجمل التي تصل: persuade و decide أو intend (أي أن هذه الجمل تؤدي نوراً مهماً في الاستدلال، أو أنها تُستخدم لتقديم الكلمة persuade لرصيد الطفل من المفردات؛ ولهذا فهي أكثر أهمية من الكلمات الأخرى من أجل التواصل (Paul Churchland 1979: 51f)). ويواجه الباحث حينئذ مهمة تبيين أن هذه المزاعم الاختبارية حقيقية في الواقع. ويبدو الطريق الأول - الذي يقوم على البنية التصورية الفطرية - أكثر وعظماً كما أظن، وهو المقاربة الوحيدة التي تؤدي إلى نتائج بل إلى بعض الاقتراحات التي نحمد له؛ لكن هذا من أمور البحث الاختباري، لا من أمور الادعاء

الذى لا يقوم على دليل تقريبا. وبصورة أكثر تحديداً فالحجج التى يؤتى بها لمعارضة المقاربة الأولى (التصورية)، بناء على بعض الأسباب مثل عدم التحديد وعدم الوضوح والقضايا التى لا حل لها، إلخ، لا تثبت شيئا إلا إن يُبين أن المقاربات البديلة التى تقوم على نظريات (لا توجد الآن) لتثبيت الاعتقاد أو الأهمية الدلالية ليست عرضة لهذه المشكلات.

وينتطلب الأمر كله إعادة تفكير واسعة، كما يبدو أن أكثر ما افترض عموما في العقود القليلة الماضية عن هذه المسائل مشكوك فيه على أفضل تقدير. فهناك، كما يبدو واضحا، بنية تصويرية غنية تحددها الحالة الأولى للملكة اللغوية (وربما تعتمد على موارد ملكات أخرى للذهن محددة أحيانا)، تنتظر أن توقظها التجربة، ويتوافق هذا كله مع التصورات للعقلانية التقليدية، بل يتوافق كذلك - بمعايير أخرى - مع ما يسمى بالتفكير "التجريبي" عند جيمس هاريس وديفيد هيوم، وآخرين.

ويجد كثير من الناس أن هذه النتائج لا يمكن قبولها إطلاقا، بل هي سخيفة؛ ذلك أن فكرة وجود ما يشبه أن يكون مجموعة من التصورات الفطرية وأن الأمر لا يعدو "وَسَمَّ" هذه التصورات بعلامة في أثناء اكتساب اللغة - كما يوحي للدليل الاختباري - تخالف جنريا بكل تأكيد كثيرا من المسلمات الشائعة. فيجانك بعض الباحثين، ومنهم هيلارى بنتام مثلا، أنه ليس من المعقول أبدا افتراض أننا نمتلك "رصيذا فطريا من الأفكار" يشمل كلمة carburetor "آلة احتراق الوقود فى الآلات" وكلمة bureaucrat "موظف حكومي" (Putnam 1988a: 15). لكن حتى إن صح رأيه هذا فلن يكون نقيفا؛ إذ تبرز المشكلة بطريقة أكثر جدا عن كلمات بسيطة مثل: table و person، و chase، و persuade، و kill، وغيرها. ومع هذا فحجته عن المثالين اللذين أوردتهما ليست مقنعة. فتعنى هذه الحجة أنه لكي نمدنا عملية التطور الأحيائي برصيد فطري من الأفكار "لا بد أنها كانت قادرة على توقع الاحتمالات كلها التى ستحدث نتيجة لتأثير البيئات المادية والثقافية فى

المستقبل. ومن الواضح أنها لم تفعل ذلك ولا تستطيعه* (ص ١٥).

لاحظ أن هذه الحجة غير صحيحة ابتداءً؛ ذلك أن افتراض أن اكتساب البشر في مسار التطور رصيداً فطرياً من الأفكار يشمل كلمات مثل: carburetor و bureaucrat لا يعنى أن عملية التطور تستطيع توقع "كل" احتمال مادي أو ثقافي في المستقبل — وهذه الاحتمالات فقط. وإذا تركنا هذا جانباً، لاحظ أن هناك حجة تكاد تكون مماثلة لهذه الحجة كانت مقبولة منذ زمن طويل في علم المناعة: وهي أن عدد المستضدات antigens كبير جداً، ويشمل ذلك حتى للمواد المصنوعة التي لم توجد من قبل في العالم، وكان يعدُّ أمراً سخيفاً أن نفترض أن عملية التطور وفرت رصيداً فطرياً من المضادات antibodies؛ فيجب، بدلاً من ذلك، أن يكون تخلق المضادات نوعاً من "عملية للتعلم" تؤدي فيها المستضدات دوراً توجيهياً. لكن هذا الافتراض ربما يكون زائفاً؛ فقد نال نيلز كاج جيرن جائزة نوبل عن أبحاثه التي تحدى بها هذه الفكرة، وعن تمسكه بتصوره الخاص الذي يقضى بأنه "لا يمكن أن يَحْتَّ حيوانٌ لكي ينتج أنواعاً محدّدة من المضادات، إلا إن كان قد أنتج مضادات من هذا النوع المحدد، قبل وجود المستضد" (Jerne 1985: 1059)، فتخلق المضادات - إذن - عملية انتقائية يؤدي فيها المستضد دوراً انتقائياً توسيعياً^(٣٣). وبغض النظر عن إن كان رأي جيرن صحيحاً أم لا، وربما يكون صحيحاً بكل تأكيد، فالشيء نفسه ربما يكون صحيحاً فيما يخص معنى الكلمة؛ ذلك أن الحجة مماثلة إلى حد بعيد.

وهناك سبب وجيه، زيادة على ذلك، لافتراض أن هذه الحجة صحيحة إلى حد بعيد في الأقل حتى عن كلمات مثل carburetor و bureaucrat، وهي التي تثير المشكلة المعروفة لفقر المنبه إن تأملنا بعناية الفجوة الواسعة جداً بين ما نعرفه والدليل الذي تستند إليه هذه المعرفة. والشيء نفسه صحيح غالباً عن المصطلحات التقنية في العلوم والرياضيات، وهذه هي الحال فيما يبدو مؤكداً عن مصطلحات الخطاب العادي. ومهما كانت درجة المفاجأة في

القول بأن الطبيعة أمَدَّتْنا برصيد فطري من التصورات، وأن مهمة الطفل أن يكتشف علاماتها، فلا تترك الحقائق الاختبارية لنا فيما يبدو إلا احتمالات قليلة أخرى. أما هذه الاحتمالات الأخرى (ومنها الاحتمالات التي تصاغ في ضوء "آليات التعلم المعممة"، مثلاً) فما نزال بانتظار أن تصاغ بشكل متماسك، وإذا نجح أحدٌ في صياغتها مستقبلاً، فربما يسهم ذلك في حل هذه المسألة المتخيلة.

وليس واضحاً ما للفرضية التي يقترحها بتنام والأخرون الذين يرفضون ما يدعونه بـ "الفرضية الفطرية"؛ وينبغي أن أضيف هنا أنه مع أنني أُتهم بأنني من القائلين بهذه الفرضية، بل ربما للمجرم الرئيس، إلا أنه لم يسبق أن دافعت عنها ولا أعرف الوجة الذي يفترض أن تكون عليه. ومهما كانت الحقيقة عن تخلق المضادات فهي تعتمد على الموارد الفطرية للجسد ونظامه المناعي، ومهمة العالم أن يكتشف ماهية تلك الموارد. وهذا الأمر صحيح تماماً عن تكون التصورات واكتساب اللغة. وهذا هو السبب الذي يجعل أولئك الذين يفترض أنهم المدافعون عن "الفرضية الفطرية" لا يدافعون عنها، بل لا يستخدمون هذه العبارة، إذ لا توجد فرضية عامة كهذه، أما ما يوجد ففرضيات محدّدة عن الموارد الفطرية للذهن، وعن ملكته اللغوية على وجه الخصوص. وليس للحجج العامة التي لم تصنع ضد "فرضية فطرية" صلة بالفرضيات الفعلية عن مفهوم "الفطرية"، في حالة نمو اللغة والأنظمة التصورية أو الأشكال الأخرى للنمو المادي.

ويقدّم بتنام حجة مضادة للحجة التي أوضحت معالمها العامة آنفاً قياساً على نظام المناعة. فيشير إلى أن التصورات "كثيراً ما تتشأ عن 'النظريات'، وأن عدد النظريات الممكنة (وربما 'أنواع' النظريات) كبير جداً، حتى في النظريات 'القصيرة'، وهو ما يجعل فكرة استغراق عملية التطور للاحتتمالات كلها بشكل مسبق غير معقولة إلى حد بعيد" (Putnam 1988a: 128). وهذه حجة صحيحة، لكن لا صلة لها - مرة أخرى - بما

نناقشه. ذلك أننا معنيون، في المقام الأول، بما يمكن أن يكتسبه البشر، وليس هناك سبب لأن نعتقد بأن البشر يستطيعون تعلم "النظريات كلها" أو أن يصوغوها، بل إن مغزى تلك الأطروحة ليس واضحاً^(٤٦). كما يفترض أن حجّة بتنام الأساسيّة صلة بالكلمتين المحذّبتين: carburetor و bureaucrat ، وأنه ليس لأية حجة مبدئية صلة بهما، أو بأية فرضية اختبارية جوهرية أخرى عن البنية الفطرية. وبكلمات أخرى، فحجته التي مفادها أن "عملية التطور لا يمكنها أن تقوم بذلك" لا تصح في الحالات التي قُدِّمها من أجلها. أما الاحتجاج بأنه لا يمكن أن تكون عملية التطور قد أنجزت كل شيء* — حتى ما يقع خارج القدرة البشرية — فيمكن أن تكون صحيحة إن استطعنا إضفاء معنى عليها؛ وليس لهذه الحجّة صلة هنا، حتى إن كان من الممكن صياغتها بشكل متماسك.

ويجادل بتنام، في السياق نفسه، أن دعوى "شبكة المعنى" مصحوبة بمبدأ كوين القائل بأن "المراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان"، تسهم في تقويض بعض النتائج المحدّدة عن البنية الفطرية للأنظمة التصورية واللغة عموماً. لكن هذا النهج من الاحتجاج لا يستقيم. هب أن دعوى "شبكة المعنى" صحيحة بمعنى أنه "ليس هناك، كما يقول بتنام، وحدات واقعية نفسياً" تتحلّى بما يكفي من الخصائص التي نسيبها على "المعاني" قبل التحليل من أجل أن تكون صالحة للتعيين، وأن الإحالة تُحدّد تحديداً خالصاً اعتماداً على أسس شبكية فقط. لكن لا يترتب على هذا أن الارتباطات الدلالية لا يمكن أن تكون مثبتة وقارة بشكل خالص نتيجة للإعداد الأحيائي. لهذا ربما تظل بعض العلاقات المحدّدة قارة في الوقت الذي تقود فيه بعض الاعتبارات الأخرى إلى اختيارات أخرى مختلفة فيما يخص تثبيت الإحالة. إضافة إلى ذلك، فللاعتبارات الاختبارية من النوع الذي ناقشناه من قبل صلة بالسؤال عن إن كان صحيحاً حقاً أن "المراجعة يمكن أن تحدث في أي مكان". ولا يمكن أن تقوم هذه الفكرة عن اللغة الطبيعية بالإحالة إلى الممارسة في العلوم

الطبيعية التي يأخذ بتنام منها كثيراً من أمثله؛ تلك أن هذه الحجج، إن افترضنا صحتها، لا تكفي لتبين عدم وجود بنية دلالية وتصورية ذاتية تقوم على خصائص قارة للذهن البشري، وربما كانت دعوى "شبكة المعنى" صحيحة بمعيار معين أو شكل ما، لكن مسائل الارتباطات الدلالية في اللغة الطبيعية ما تزال تنتظر أن تحل عن طريق الدراسة الاختبارية، كما يبدو أن الدليل يؤيد وجودها - في الوقت الحاضر في الأقل - بل يؤيده بشكل قوى، كما يبدو لي.

دعنا نستمر في استقصاء حجة ديفيدسون في بحثه: A Derangement of Epitaphs (1986b)، تحريف بسيط في شاهد قبر * الذي قصد به أن يبين أن دراسة التواصل الفعلي تقوض "التفسير الشائع للمعرفة اللغوية والتواصل" وأنه ليس هناك ما يمكن أن يسمى لغة، إن كانت اللغة شيئاً يشبه ما يفترضه كثير من الفلاسفة واللسانيين. لهذا فليس هناك شيء يمكن أن يتعلم، أو يُجاد، أو نوّلد به" (Davidson 1986b: 446). ويقوم تصور اللغة هذا، الذي يعتقد ديفيدسون أنه أثبت خطأ، على ثلاث معلمات أساسية عما يسميه بـ "اللغة الأولى" أو "النظرية المسبقة"، أي نظام معقد أو نظرية "يشارك فيها المتكلم والسامع تقريبا (ص ٤٣٦). والمصلمات هي:

- ١- أن النظرية المسبقة "نمّية" systematic بمعنى أن "المؤول" الذي يمتلك هذه النظرية يستطيع أن يؤول الأقوال انطلاقاً من خصائص الأجزاء المكوّنة لهذه الأقوال وبنيتها.
- ٢- أن منهج التأويل هذا مشترك.
- ٣- أن العناصر المكوّنة للنظام محكومة بالمواضع المتعلّمة أو الاطرادات.

والمسألة الثالثة غير ممكنة لأسباب أخرى، لكن بدلاً من الانشغال بها دعنا نقدّمها بالشكل الذي توجبه حجة ديفيدسون: فالعناصر المكوّنة للنظام

متوفرة، كما يقول، "بشكل سابق على مناسبات التأويل"؛ فهي عنصر قار في السياقات التواصلية، عند مؤوليين في حالة قارة من المعرفة اللغوية.

ويلاحظ ديفيدسون، ليبين خطأ هذا التصور، أن المؤول يستغل في المقامات التواصلية العادية أنواعاً كثيرة من الحدوس والمسلمات عما يمكن أن يكون في رأس المتكلم، معتمداً على خصائص السياق، والقصد المفترض للمتكلم، إلخ. لهذا فالمؤول "يكيف نظريته"، ويعتدل "النظرية المسبقة" لتصير "نظرية عابرة" "مناسبة للمقام". لكن هذه "النظرية العابرة لا يمكن في العموم أن تكون متوافقة مع المعرفة اللغوية عند المؤول". ذلك أن هذه "النظرية العابرة ليست نظرية عما يمكن لأحد (باستثناء الفيلسوف، ربما) أن يسميه لغة طبيعية حقيقة" (Davidson 1986b: 443)، ويستمر قائلاً، و: "ربما لا تكون 'إجادة' مثل هذه اللغة مفيدة؛ ذلك أن معرفة نظرية عابرة لا تعدو أن تكون معرفة بكيفية تأويل قول ما في مناسبة معينة" (ص ٤٤٣). يضاف إلى ذلك، أنه يمكن للتواصل أن يحدث بصورة جيدة إلى حد بعيد في حال لا تكون النظرية المسبقة فيه مشتركة بين المتكلم والسامع، كما أن النظرية المسبقة نفسها ليست ما يمكن أن نسميه عادة لغة" ذلك أنها خصيصة نفسية، مقصورة على المتكلم - السامع وسماتها ليست مشتركة بين أفراد "الجماعة". فيمتلك المؤول نوعاً من "الخطأ"، أي "عملية غامضة يمكن أن يستخدم المتكلم أو السامع بواسطتها ما يعرفه من قبل بالإضافة إلى المادة الحاضرة ليصوغ نظرية عابرة"، أما ما يحتاجه شخصان لإنجاز التواصل، فهو "القدرة على الوصول إلى نظريات عابرة لكل قول على حدة". وفي ضوء هذه الحقائق ليس هناك مكان لـ "تصور اللغة"، أو لـ "نحو مشترك أو قواعد مشتركة"، أو "آلة خفيفة مؤولة لاغتصار للمعنى من قول ما"؛ فما نحتاجه، بدلاً من ذلك، شيء أقل وضوحاً، وأكثر غموضاً وأكثر اتصافاً بـ "شبكية المعنى"، وهو قدرة الاتفاق على الوصول إلى نظرية عابرة من حين إلى آخر" (ص ٤٤٥). ويقودنا هذا إلى "لا إلى التخلي... عن المفهوم العادي

للغة وحسب، بل إلى إلغاء الحدّ بين معرفة اللغة ومعرفة كيفية التعامل مع العالم بصفة عامة . . . لهذا ليس هناك شيء في التواصل اللغوي يمكن أن يتماثل مع أية معرفة لغوية" (ص ٤٤٥ - ٤٤٦) تقوم على المبادئ الثلاثة التي أوردناها آنفاً، إذ ليس هناك قواعد للوصول إلى النظريات العابرة، ويؤكد ديفيدسون، في ختام النقاش، مع ذلك، أنه يمكن أن تُشتق نظرية عابرة بشكل ما "من المفردات والنحو عند فرد معين" أي من "نظرية مسبقة" تتوافق مع الشرط الأول وربما مع إحدى صيغ الشرط الثالث، لكنها قد لا تكون مشتركة بين أفراد "الجماعة"؛ فهناك إذن، "نظرية مسبقة" وهناك على اليقين بعض الطرق المعينة، بدلاً من طرق أخرى، للوصول إلى نظريات عابرة، سواء أردنا تسمية هذه الطرق "قواعد" أم لا (ص ٤٤٦).

والأقسام المتعددة للحجة صحيحة عموماً، لكن لا يبدو أنها تكشف عن شيء كثير. فلم يقدّم، على الأخص، أي سبب للتشكيك في وجود "نظرية مسبقة" بالمعنى المألوف في دراسة اللغة ومعرفة اللغة؛ أي إجراء توليدي محدّد مدمج في حالة الملكة اللغوية تتصف بأنها ناضجة محدّدة. وستكون هذه "النظرية المسبقة" بالطبع، مختلفة جداً عما يسمى "لغة" في الاستخدام العادي، لكن هذا يعود إلى أن أي تصور مثل هذا لا يؤدي دوراً في البحث الاختباري في اللغة والذهن، كما لاحظنا من قبل.

ويمكن لنا، في مواجهة حجج ديفيدسون، أن نستمر في افتراض أن هناك، إلى حد بعيد من التقريب، ملكة لغوية ثابتة غير متنوعة تُحوّل الدليل المقدم إلى نظام من القواعد والمبادئ (أو أي شيء يثبت أنه صحيح عن الحالة الإدراكية المحصّلة) التي تعطي تأويلات للتعبيرات. دعنا نسمّ هذا النظام المكتسب "إجراء توليدياً". فيعني أن تُعرف لغة ما أن يكون لديك تمثيل داخلي لهذا الإجراء التوليدي، وهو الذي سنعبّر عنه في مستويات متعددة من التجريد عن الآليات "الأكثر أولية" وسنسعى لربطه بمثل هذه الآليات، بالطرق المعهودة في العلوم الطبيعية^(٢٥). كما يمكن أن نسعى - إن اتبعنا الممارسة

المعهودة - إلى صياغة "محلل" - وهو آلة تُعزى إلى الذهن/الدماغ كذلك - يدخل فيه الإجراء التوليدي الذي حُصل مع البنى والخصائص المحددة الأخرى^(٢٦)، ويحول الأقوال المقترمة إلى أوصاف بنوية تؤولها المكونات الأخرى للذهن. وإلى هنا فنحن نتعامل مع الأسئلة الممكنة في البحث الاختباري.

وهناك مشكلة أخرى، يمكن أن نصوغها بطريقة تقريبية لكن لا يمكن دراستها عملياً: وهي أن نصوغ "مؤولاً" يشتمل على المحلل بوصفه أحد مكوناته إلى جانب القدرات الذهنية الأخرى كلها - أياً كانت - ويقبل الدخول اللغوية إلى جانب الدخول غير اللغوية. ويعطى هذا المؤول، حين يقدم له قول ومقام، تأويلاً معيناً لما قاله شخص ما في هذا المقام. ودراسة التواصل في عالم التجربة الفعلية دراسة للمؤول، لكن هذا ليس موضوعاً للبحث العلمي؛ للأسباب المعهودة: وأهمها أنه لا يوجد موضوع يتصف بأنه دراسة كل شيء. كذلك لا يدرس العلم المظاهر الأخرى للعالم كما تقدم لنا في التجربة اليومية. فيشتمل المؤول - كما يلاحظ ديفيدسون بحق - على أي شيء يستطيع الناس فعله، وهذا ما يمنعه أن يكون موضوعاً للبحث الاختباري، وهو ما يمنعنا أن نقول أي شيء ذا معنى عنه. وربما نأمل أن نتعلم شيئاً عن عناصر المؤول المتعددة، متوسلين بالمناهج المعهودة في العلوم، بادئين بـ "المفردات والنحو عند فرد ما" وهذا ما يكون اللغة المحصلة، ثم تنتقل إلى المحلل، ثم نلتفت، ربما - بأقصى ما يمكن من الوضوح - إلى العناصر الأخرى للذهن والمقامات التي تدخل في الحياة البشرية العادية. ومع ذلك، فإذا بدأنا بالمطالبة بنظرية لكل شيء فلن نحصل على شيء؛ وليس ضرورياً هنا صياغة حجج مفصلة لتأكيد هذه النقطة^(٢٧). ولا يختلف هذا الوضع عنه في العلوم التي حققت قدراً كبيراً من التقدم. ولا تتمثل النتيجة الملائمة في وجوب أن نتخلى عن تصورات اللغة التي يمكن أن تدرس بطريقة مثمرة، بل في أن موضوع التواصل الناجح في العالم

الفعلية للتجربة معقد جداً وغامض مما يجعله لا يستحق الدرس في البحث
الاختباري، إلا بوصفه دليلاً على الحدوس في أثناء اشتغالنا بالبحث الذي
يصنم لكي يقود إلى قدر من فهم العالم الواقعي، ويشمل ذلك التواصل. وليس
لهذه الملحوظات أهمية لوجود "نظرية مسبقة" أو عدم وجودها، أي لوجود أو
عدم وجود إجراء توليدي مستبطن، بالمعنى المألوف في الممارسة
الاختبارية.

و"النظرية العابرة" عند ديفيدسون فكرة غير مفيدة؛ وكلامه عن هذا
الأمر صحيح بالتأكيد. فسيصوغ المؤول "نظريات عابرة" كثيرة (لكن ليس
"أي" نوع منها، وهذا أمر مهم)، وهي تتغير من لحظة إلى أخرى، ذلك أن
المؤول كما يرى ديفيدسون يشتمل على أي شيء متاح للذكاء البشري؛ ومع
هذا، ليس هناك معنى لأن نسمى حالاتها الانتقالية "نظريات" أو نعدّها
موضوعاً للبحث المباشر. وليس لحجة ديفيدسون، من ناحية جوهرية، صلة
بمسألة أن "النظرية المسبقة" (مع فهمها بطريقة مغايرة شيئاً ما لفهمه هو)
تظل عنصراً قاراً غير متنوع لـ "المؤول" (وللمحلّ المؤمل المحدّد تحديداً
أضيق)، وأنها تدخل في الطريقة التي يقوم بها المؤول بوظيفته.

ويركز ديفيدسون انتباهه، في هذا النقاش، على ظاهرة سبق اللسان في
نطق الأصوات malapropisms وعلى ما يسمى بـ "الخطأ في استخدام
اللغة" بصفة عامة. وينبغي الاحتراس شيئاً ما هنا. لنأخذ مرة أخرى جونز،
وهو متكلم لنوع مما نسميه عموماً بـ "الإنجليزية". فقد أجاد جونز إجراء
توليدياً يربط الأقوال بأوصاف بنيوية، ويشمل ذلك الخصائص الدلالية،
ويمتلك قدرات ذهنية أخرى تسمح له بإنتاج بعض التعبيرات اللغوية وتأويلها
بناء على هذه الأوصاف البنيوية. ولنسمّ هذا الإجراء التوليدي بـ "اللغة - د"
لجونز، حيث توحى "د" بـ "داخلي" (في اللذهن/الدماغ) و"مفهومي" (بمعنى
أن الإجراء دالة تحدّد الأوصاف البنيوية، منظوراً إليه على أنه مفهوم يرتبط
بوصف خاص به)^(٢٨). ونحن نشير هنا إلى آليات مفترضة معينة

للذهن/الدماغ، منظوراً إليه بشكل مجرد.

ويمكن لجونز أن يتكلم بطريقة لا تتوافق مع لغته - د" أو يُصدر أحكاماً لا تتوافق معها؛ وربما تكون أحكامنا عن أنفسنا، كالآخرين، خاطئة، وربما يدخل في السلوك ما هو أكثر من "اللغة - د". وهذه حالة من الخطأ في استخدام اللغة لا تفت النظر؛ ولنسمها بـ "المعنى الفردي".

افترض أن جونز، شأنه شأن كثير منا، يقول عادة جملاً مثل:

Hopefully, we'll be able to solve that problem.

"أملاً، سوف نتمكن من حل تلك المشكلة"

أو يستخدم كلمة مثل disinterested ليعنى uninterested "غير مهتم". ويقول لنا كثير من المهتمين بالتصحيح اللغوي إن هذه الاستخدامات "غير صحيحة" أو "خطأ"، أو لا تتوافق مع قواعد اللغة الإنجليزية، فجونز "مخطئ" في استخدام لغته، أي الإنجليزية، ولا يملك إلا معرفة جزئية بها وربما تكون معرفة مشوشة، كما في مفهوم "المعنى الأساس" للغة عند نوميت. بل حتى إن تكلم ٩٥ بالمائة من متكلمي الإنجليزية - أو متكلموها جميعاً باستثناء وليم سافير لوهو صحفي أمريكي يكتب عموداً أسبوعياً بعنوان "عن اللغة" في مجلة نيويورك تايمز التي تصدر مع عدد يوم الأحد] وعدد قليل آخر - بالطريقة التي يتكلم بها جونز، فستظل هذه الحالات تمثل "خطأ" في استخدام اللغة. وربما كان جونز يحاول التكيف مع ممارسة جماعة ما لأسباب معينة، أو لغير ما سبب، وربما يُخفق في هذا التكيف، وهي حالة ربما يصفها الذين يلاحظون جونز من غير المتخصصين بأنها خطأ في استخدام لغة هذه الجماعة. وقد تكون هذه التصورات للخطأ في استخدام اللغة، وهو ما يمكن أن نسميه "معنى الجماعة"، مهمة لدراسة اجتماع التماهي مع الجماعة، وبنية السلطة، وما أشبه ذلك، لكن ليس لشيء منها صلة مهمة بدراسة اللغة، على حد ما نعلم. ونحن نفهم هذا الأمر فهماً جيداً

في مسألة طريقة النطق، لهذا ليس للقول بأن نوعية معينة من الإنجليزية "صحيحة" وأخرى "خاطئة" من المعنى إلا ما للقول بأن الأسبانية صحيحة والإنجليزية خطأ؛ والأمر نفسه صحيح عن المظاهر الأخرى للغة - وإن بنت هذه النقطة، لبعض الأسباب، أكثر غموضاً.

ويأتى أحد المعانى المحتملة لفكرة "الخطأ في استخدام اللغة" من فكرة هيلارى بنتام عن "تقسيم العمل اللغوى". لهذا ربما تشتمل كلمات: elm و beech أو mass "كتلة" و kinetic energy "الطاقة الحركية" فى المعجم الممثل فى ذهني/ دماغى على الإيحاء بأن المحال إليه فى هذه للكلمات يجب أن يحدده الخبراء الذين أرجع إلى أحكامهم. وربما استخدمت هذه الكلمات استخداماً غير دقيق، بمعنى أن المحال إليه لا يتوافق مع التحديدات التى يراها هؤلاء الخبراء. وفى هذه الحالة، ربما يقال عنى إنى "مخطئ" فى استخدام لغتى^(٢١). دعنا نسم هذا بـ "المعنى عند الخبير" للخطأ فى استخدام اللغة. ومرة أخرى، لا يبدو أن شيئاً مهماً يترتب على هذا، ومن المؤكد أنه لن يترتب شيء له صلة بمقاربة اللغة فى إطار علم النفس الفردى الذى أشرنا إليه باقتضاب فيما مضى، وهو الذى يتبع فى الممارسة عادة^(٢٢). لاحظ أنه لا ينتج عن هذه الاعتبارات أى تصور مفيد لـ "اللغة" أو "الجماعة". لهذا ربما يكون الخبير الذى أقلده بشأن كلمتى elm و beech بستانياً إيطالياً لا يعرف كلمة من اللغة الإنجليزية، وهو الذى يصحح لى استخدامى بالإحالة إلى الأسماء اللاتينية التقنية التى نتشارك أنا وهو فيها، وربما يكون الخبير الذى أقلده بشأن كلمتى mass و kinetic energy عالم فيزياء ألمانياً لا يتكلم إلا الألمانية. لكن لا يمكن لنا أن نستنتج من هذا أن الألمانية والإيطالية داخلتان فى الإنجليزية، أو أننا جميعاً ننتمى إلى "جماعة" واحدة بأى معنى مفيد للمصطلح.

فهل هناك تصور آخر لمفهوم "الخطأ فى استخدام اللغة"؟ أما أنا فلا أعرف تصوراً كهذا. وإذا كان الأمر كذلك، فلا يؤدي هذا التصور أى دور

مهم في دراسة اللغة أو المعنى أو التواصل أو غير ذلك. وإذا أخذنا بعض الأمثلة من النوع الذي ناقشه تايلور بيرج، افترض أن جونز يستخدم مصطلح "التهاب المفاصل" في الإحالة إلى ألم في الفخذ. ثم افترض أن هذا هو المستخدم في قرينته، لكنه ليس الاستخدام خارج تلك الجماعة. ويعني هذا أن جونز ليس مخطئاً في استخدام لغته بالمعنى الفردي؛ إذ إن استخدامه صحيح في لغته - د. وهو ليس مخطئاً في استخدام لغته في قرينته بمعنى الجماعة، أما خارج حدود قرينته فمخطئ. ويحدّد كون استخدام جونز للغته خاطئاً أم لا بـ "المعنى عند الخبير" اعتماداً على الكيفية التي يمثل بها مصطلح "التهاب المفاصل" في معجمه الذهني. لكن كيف ينبغي لنا أن نعزو الاعتقاد عن التهاب المفاصل إلى جونز؟ وهنا تختلف الحدوس، وربما يكون السبب أن الدليل الذي يمكن أن يحل هذا الإشكال بطريقة مرضية ضئيل في هذه اللحظة. دعنا نتخ "المعنى عند الخبير" جانباً، ثم نفرض أننا استخدمنا مصطلح "الاعتقاد - د" في الإحالة إلى تصور يشبه الاعتقاد، باستثناء أن جونز يمتلك الاعتقاد نفسه في قرينته وفي الجماعة الأوسع، أي الاعتقاد الذي يمكن أن نعبر عنه في لغتنا - د، بالقول بأن لديه نوعاً من الألم الجسدي⁽³⁾. وربما يكون هذا مماثلاً لتصور الاعتقاد في لغتنا العادية أو لا يكون، لكنه هو التصور الذي يبدو ضرورياً لدراسة ما يسمى خطأ بـ "تسبيب السلوك" - ونقول "يسمى خطأ" لأنه ليس واضحاً إن كان السلوك أمراً يتسبب في حدوثه" بأي معنى مفيد لهذا المصطلح. ومن الواضح أنه لن يكون هناك سبب للافتراض بأن تصورات علم النفس العام سوف تكون هي نفسها في الاستخدام العادي، مثلما أن الأمر في تصورات الفيزياء، أو في علم النفس الفرعي الذي يسمى "اللسانيات"، ليس كذلك، بصفة عامة. كما لا يبدو لي واضحاً إطلاقاً أن هناك فرعاً معقولاً للعلم (أو بصورة أدق، للعلم البشري وهو ما يعني نوعاً من البحث العلمي الذي يستطيع البشر، بقدراتهم المعرفية الخاصة، أن يقوموا به) يشتغل بأسئلة من هذا النوع.

ولم يُثبت أحدٌ، كما أظن، أن هناك ما يمكن قوله أكثر من هذا عن هذا الأمر. ويبدو، على وجه الخصوص، أن الإحالة إلى "الخطأ في استخدام اللغة"، وإلى "المعايير"، وإلى "الجماعات" إلخ، تتطلب مزيداً من العناية يفوق العناية التي نتناول بها هذه القضايا عادة. ذلك أن هذه التصورات غامضة، ولا يبدو واضحاً أنها مفيدة في مجال البحث في اللغة والسلوك البشري. وتستحق أية حجة تعتمد على مثل هذه الأفكار استقصاءً أدق، وربما لا يمكن أن تصمد الحجج المألوفة [عن هذه القضية] أمام هذا الاستقصاء؛ ذلك أن الجماعات تتألف بطرق عديدة جداً ومتداخلة، وسرعان ما تتحلل دراسة الجماعات لتصير دراسة لكل شيء. أما الحقيقة الباقية فهي أن جونز يتكلم ويفهم بالطريقة التي هو عليها معتمداً على "اللغة - د" التي اكتسبها في أثناء نمو لغته، وإذا أتبع جونز أو لم يتبع ما يمكن أن نسميه، من أجل بعض الأغراض العابرة، بـ "معايير الجماعة" أو "الممارسة الاجتماعية"، فهو يقوم بذلك انطلاقاً من هذه "اللغة - د" المستبطنة (إلى جانب أشياء كثيرة). أما بورس، الذي لا يتكلم إلا اللغة الروسية، فيملك لغةً - د" مختلفة، ويتبع "معايير" مختلفة. وقد أفهم ما يقوله جونز، إلى حد ما؛ لأن لغتي - د" لا تختلف كثيراً عن لغته؛ ولأننا نتشارك تقريباً في الخصائص الأخرى غير المعروفة التي يتضمنها المؤول الكامل، لكن هذا لا يصلح أن يكون موضوعاً للبحث الاختباري على الحال التي هو عليها، أي على حاله المعقدة قبل أن يحلل. ويبدو لي أن هذا هو الطريق الواجب اتباعه في مقاربة هذه المسائل.

ويمكن أن نطور، بمقتضى هذه الطرق، تصوراً لـ "المعرفة اللغوية" يكون ملائماً للبحث في اللغة والذهن؛ وهو إجابة لغة - د" معينة وتمثيلاتها الداخلية. والنحو الذي بصوغه اللساني نظريةً عن "اللغة - د"، كما أن النحو الكلي نظريةً للحالة الأولى للملكة اللغوية. وتمثل "اللغة - د" عند جونز حالة معينة ناضجة - أو خرج، إذا نظرنا إلى الملكة اللغوية على أنها دالة تحول الدليل إلى لغة - د". لكن ماذا عن تصور اللغة؟ وربما نفهم اللغات ببساطة

على أنها "لغات - د"، أي أن ننظر إلى اللغة على أنها تشبه أن تكون "طريقة في الكلام"، أي "الوسائل المتناهية" التي تمكن من "الاستخدام غير المتناهي"، كما يحدّد وليم فون همبولت اللغة (von Humboldt 1836: 122, paragraph) (Chomsky 1964: 17؛ انظر 13؛ 1988: 91)، كما أنها جهدٌ للإحاطة بتصوّره للغة على أنها "عملية توليد" بدلاً من كونها "وحدات مؤلدة". لهذا نأخذ اللغة على أنها - في نهاية الأمر - "فكرة للبنية" توجّه المتكلم عند صياغته "للتعبيرات الحرة"، كما يقول أوتو جيسبرسن (19: 1924؛ وانظر Chomsky 1977). وهذا قرار ملائم لغرض البحث العلمي، في ظني، وإن لم يكن كذلك في الخطاب العادي. وربما كنا نرغب، بدلاً من ذلك، في أن نصوغ تصورًا للغة مفصلاً عن الحالات الإدراكية، وقد يكون ذلك بشكل يشبه اقتراح جيمس هيجنبوثم (James Higginbotham 1989). وإذا نظرنا إلى معرفة اللغة على أنها حالة إدراكية فربما نفهم "اللغة" على أنها شيء مجرد، أي موضوعًا للمعرفة، أي نظامًا مجردًا يتألف من قواعد ومبادئ (أو أي شيء نكتشف أنه صحيح) يمثل صورةً للإجراء التوليدي، أي "اللغة - د"، التي تمثل في الذهن، ومن ثم في الدماغ بآليات "أكثر أولية" لا نعرفها الآن. ولما كانت اللغة بهذا المعنى تحدّد تحديداً كاملاً بـ "اللغة - د"، وإن كانت مجردة عنها، فمن غير الواضح تمامًا إن كانت هذه الخطوة الإضافية ضرورية؛ إلا أنها ربما تكون، مع ذلك، كذلك.

ويبدو، مع ذلك، أن صياغة الأسئلة التي يمكن أن تكون موضوعًا للبحث الاختباري عن اللغة واستخدامها ممكنة بهذه الطرق، وأن هذه الطرق هي الأفضل لمقاربتها، على حد ما نعلم. وربما يكون هناك مزيد من الأسئلة التي لا تصلح أن تكون موضوعًا للبحث الاختباري بالطرق المستخدمة في العلوم - وقد لا تخضع لها أبداً - إن كان البشر أنفسهم جزءًا من العالم الطبيعي، وهو ما يعني أنهم يمتلكون بعض القدرات الأحيائية المحددة التي تتصف بمدى وحدود خاصة بها، كالكائنات العضوية الأخرى جميعها. ويجب

علينا بذل مزيد من العناية كي لا نقع فريسة لبعض التخيلات السرابية عن عملية التطور ومعجزاتها التكيفية. فلا تتضمن نظرية التطور شيئاً يوحى بأنه ينبغي أن يكون بإمكاننا الإجابة عن بعض الأسئلة التي نستطيع إثارتها، حتى من حيث المبدأ، بل حتى إن كان من الممكن الإجابة عنها، أو إن كنا نستطيع إثارة الأسئلة الصحيحة. وبقدر ما لدينا من قدرة فإننا نمتلك العلم الاختباري، وهو نوع من التلاقى الصدقي بين خصائص الذهن وخصائص العالم غير الذهنية. وليس هناك شيء مفاجئ في هذا؛ ذلك أننا نراه أمراً مسلماً أن شيئاً شبيهاً صحيحاً عن الفئران والنمل، ويجب ألا نَفْجأ حين نكتشف أن البشر كائنات عضوية أحيائية، لا ملائكة. ويبدو لي مع ذلك، وفي حدود العلم البشري، أن أفضل تخمين في الوقت الحاضر هو أن الإطار الذي بيّنت ملامحه العريضة باختصار آنفاً ملائم للبحث في الأسئلة الاختبارية عن اللغة والذهن؛ وقد تحقق، في إطاره، قدر عظيم من النجاح وكثير من المنظورات العميقة.

هوامش الفصل الثالث

(١) لهذا يترتب على النص الأخير الذي أوردناه، أنى إن اعتقدت أن السماء تمطر؛ لأنى سمعت ذلك من المذيع، أى أن هذا التفاعل هو التفسير التام للعلاقة السببية بين اعتقادى والعالم، فلن نكون بحاجة، إذن، إلى أن نعرف أى شيء آخر عن علاقة اعتقادى بأن السماء تمطر بحقيقة كونها تمطر أو لا تمطر؛ فليس هناك حاجة إلى مزيد من الأسئلة بخصوص علاقة اعتقادى بالعالم.

(٢) ومع هذا ربما يختار باحث، بالطبع، أن يتجاهل فارقاً لو آخر من أجل بعض الأغراض فى نوع معين من البحث. أما النقطة الأساس هنا فهى أنه ليس هناك تأويل عام لـ "المعنى الأساس" عند نوميت (ليس له تأويل ضيق، مثلاً) يمكن أن يتغلب على مشكلات من النوع الذى أشرنا إليه، وليس من طريق معروف لصياغة تصور عام كهذا بوصفه أمثلة مفيدة، أو أى سبب لمحاولة القيام بذلك، لاحظ أنه ليست كل أمثلة تستحق أن تصاغ، أما هذه الأمثلة فيبدو أنها ليست كذلك، بغض النظر عن المقصود بها.

(٣) ولا أعرف إلا محاولة واحدة نجحت فى فهم هذه القضايا (Pateman 1987). فقد طور باتيمان فكرة للغة بوصفها "حقيقة اجتماعية" بطريقة تبدو معقولة، لكنها لا تتصل بأى من القضايا التى أناقشها هنا. فسيتكلم الشخص الذى يعنى بعض الحقائق الأولية عن اللغة والمجتمع، بالمعنى الذى يقصده باتيمان، عدداً كبيراً من اللغات يتغير من لحظة إلى أخرى، اعتماداً على الكيفية التى يختارها للتماهى مع هذه الجماعة أو تلك، أما الذى لا يعنى هذه الحقائق فسيكون لديه مدى واسع جداً من الاعتقادات (والتخيلات، كالعادة) عما يفعل، وهى اعتقادات يمكن أن تؤدي دوراً اجتماعياً معيناً فى بعض الجماعات.

- (٤) وعن خطأ كيني في فهم رفضي لهذه الآراء، والنتائج المترتبة على عدم صلة رده على ذلك الرفض، انظر (Chomsky 1988b).
- (٥) وهذا هو المنحى تحديداً الذي اتخذته كيني (Kenny 1984) ضد بعض الاعتبارات التصورية من هذا النوع، مع أنه لم يكن واعياً بأن تغييراً جوهرياً حدث عن فهم التمييز بين "القدرة" أو "الطاقة"، انظر (Chomsky 1988b).
- (٦) سأعود مباشرة إلى بعض التقييدات التي وضعها كوين، فيما يخص هذه المذاهب الغربية.
- (٧) ولتركيز المناقشة سوف أترك جانباً كثيراً من التقييدات؛ ومن تلك مثلاً، حقيقة أن موارد الحالة الأولى تؤدي تورا في تحديد ما يُعدُّ دليلاً وكيف يُستعمل (أو يُهمل)، وسيؤدي النظر في مثل هذه العوامل الإضافية إلى دعم النتائج هنا.
- (٨) وهذا المثال حقيقي، في الواقع. انظر (Chomsky 1986: 61).
- (٩) وهو يقترح كذلك دراسات للتماثل في اكتساب اللغة؛ وتنطبق الاعتبارات نفسها في هذه الحالة.
- (١٠) ويمكن لنا أن نلاحظ، عرضاً، أن العبارة الأخيرة ليست ملائمة إلا إن أمكن رفض الكلام عن النظريات بأنها صحيحة في الفيزياء، أي حين تكون مفيدة لبعض الأغراض في مجال من الظواهر؛ وربما رفض كوين هذه النتيجة انطلاقاً من شروطه الخاصة بدراسة "اللساني" للذهن/الدماغ، وهي الحال التي تعدُّ فيها المعايير السائدة في العلوم الطبيعية (بصورة ضمنية) غير مقبولة، كما ناقشنا ذلك في النص.
- (١١) وأنا أضع كلمة "التبسيط" بين مزدوجات؛ لأن هذا التصور مضلل جداً، فستكون قاعدة قديم عبارة "who-"; لأنها ليست موضوعاً لتقييد

البنية على العطف" والشروط المحلّية الأخرى، أبسط بالتأكيد من القاعدة الحقيقية، التي تخضع لهذه الشروط، عند كائن عضوي يفكر لهذه الشروط (أو بشكل أكثر ملاءمة، للمبادئ التي تشتق منها) بوصفها جزءاً من بنيتها الفطرية؛ أما عند البشر، فالعكس صحيح. وبغض النظر عن معنى تصور "البساطة المطلقة"، باستقلال عن بنية النظام المناقش، فليس له صلة هنا. للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر (Chomsky 1955/1975).

(١٢) ويفترض كوين أن "قيد البنية" على العطف مربوط بالقابلية للترجمة، مسلماً بأننا يجب، إن أردنا تحديد إن كان صحيحاً في بعض اللغات، أن نحدّد التعبيرات التي تصلح أن تكون نظائر لعبارات العطف في الإنجليزية. ولهذا القيد صلة بالبنية، باستقلال عن علاقاتها الدلالية بعبارات العطف في بعض اللغات، وربما أمكن اشتقاقها، في جزء مهم، في الأقل، من بعض الشروط الأكثر عمومية على محليّة العمليات النحوية المستقلة تماماً عن الارتباط بأي تعبير معين، ومن المؤكد أن كثيراً من أمثلة القيود التي تثير القضايا نفسها تنسجم بهذه الصفة، وربما كلها.

(١٣) ولمناقشة وجه هذا الرأي عند دوميت، انظر تشومسكي ١٩٨٦، لاحظ أنه يبدو أن نيفيدسون يقصر عنايته هنا على ما يسمى بـ "كفاية الملاحظة"، لا "كفاية الوصف"، في الأبحاث اللسانية؛ وإذا صح أن تفهم نظرية المعرفة اللغوية بالمعنى الأخير فربما تعزو بعض الآليات المحددة (وسيكون ذلك، في مستوى مجرد، بكل تأكيد).

(١٤) انظر تشومسكي (Chomsky 1986: 240) للاطلاع على مناقشة هذه المسألة، ويتسبب روجر جيبسون إلى الاعتقاد بأنه ليس في علم الفيزياء واللسانيات حقائق" (Gibson 1986: 141)، وهي نتيجة لا أقبلها ولا توحى بها الحجة، التي يشير إليها، وهي أن دراسة اللغة لا

تواجه مشكلة من عدم التحديد لا نجدها في العلوم الطبيعية. ويُخفق
جهده الآخر لرسم فارق يقوم على أسس وجودية، وهو الفارق الذي
واقفه عليه كوين في إجابته إياه، وذلك لأسباب أشار إليها في
المراجع التي أوردتها. ويمكن أن نؤكد بكل ثقة، وبصوت عال إن
أردنا، أنه لا توجد إلا عناصر كيميائية وتكوينات مانيسة (غير
معروفة) تعمل على تحديد مسار النضج الجنسي، وأنه ليس هناك
معانٍ معجمية إطلاقاً، ولا ارتباطات للاعتماد الإحالي، ولا مكونات،
وربما سيظهر في المستقبل أن هذه النتيجة معقولة؛ أما ما نحن
بحاجة إليه هنا فإن نجد حجة على هذا، أما القول بأنه يمكن لكتابين
تعليميين في الترجمة متعارضين أن يقيا بتحويل الميول إلى سلوك
وأنها يتماشيان مع التوزيعات نفسها للحالات والعلاقات في
الجسيمات الأولية كلها" (Quine 1981: 23) - فليس له من المعنى
أكثر من معنى قول الشيء نفسه عن نظريتين في الكيمياء أو النضج
المادي؛ وربما كان بإمكان أحد أن يضيف في القرن التاسع عشر،
بقدر مماثل من عدم الصلة، أنه لا يمكن كذلك دمج النظرية الكيميائية
في نظرية طبيعية - مادية مقبولة" (Gibson 1986: 143)، إن كنا
نعنى بالنظرية الأخيرة "علم الفيزياء الأساسية" الذي يجب أن يُعدّل
بطريقة مهمة لكي يكون صالحاً ليشمل اكتشافات الكيمياء، وليس
لشيء من هذه الاعتبارات مقتضيات سواء أكانت إستمولوجية أو
وجودية، على اللغة أو أي شيء آخر.

(١٥) للاطلاع على بعض النقاش، انظر (Chomsky 1987) - ومنه أخذنا
بعض هذه الملحوظات، وفيه توجد المراجع.

(١٦) يصف كوين (Quine 1986: 186) "الآلة المفترضة" بأنها "أنحاء
هيكلية فطرية" ويوحى هذا بأنه يخلط بين بنية الحالة الأولى للملكة
اللغوية والحالات الناضجة المحصلة لها.

(١٧) وكانت الفرضية الأساس أن نظرية الجسد يمكن أن تُحدّد بحدود صارمة، وهي أساسًا حدود أليات التماس عند ديكارت، وقد هدم إسحاق نيوتن هذه الحدود، ولم يعد من الممكن - مننذ - صياغة مشكلة متماسكة للذهن - الجسد عن طريق أى شىء يشبه المصطلحات الديكارتية، أو أية مصطلحات أخرى، على حد ما أرى، ذلك أنه لا يوجد أى تصور ثابت للجسد.

(١٨) وتختلف الأنحاء، عند كوين، "مصدقًا" extensionally إن تمايزت في الخرج المحصل" (Quine 1986). وهذا التعبير المؤلف مضلل، ذلك أنه قرن بالاشتراطات عما يكون "الخرج المحصل" لنحو ما. لننذكر مرة أخرى أن كوين ليس مشغولاً بالتصور المهم اختياريًا، وهو: "التوليد القوي" للأوصاف البنيوية، بل بـ "التوليد الضعيف" لفصيلة "م" من التعبيرات تختار على أساس يبدو اعتباطيًا إلى حد بعيد. فالفصيلة "م" هي "الخرج الخالص"؛ لكن بغض النظر عن الطريقة التي اختيرت بها الفصيلة "م"، لا يبدو أن لخصائصها أهمية اختبارية. انظر عن هذه الأمور ((Chomsky (1955/1975); 1965) وقد دأب كوين على أخذ "الصحة النحوية" لتعنى "وجود معنى"، ويعتقد أن هذا التصور "بغض النظر عن أوجه القصور فيه أفضل درجة بكثير من تصور: "التشابه في المعنى" (Quine 1986). لكن "الصحة النحوية"، على حد ما نفهمها، ربما لا تكون ذات صلة بـ "وجود معنى" كما يبدو، ثم إنه ليس لتصورى "الصحة النحوية" و"وجود معنى" كما يراهما، أى معنى واضح بشكل مقبول، أو أية منزلة في دراسة اللغة.

(١٩) وهذه فرضية خاطئة؛ ذلك أن مهمة الطفل ومهمة اللسانى، كما أشرنا من قبل، مختلفتان اختلافًا جديرًا.

(٢٠) إلى الحد الذى تستحق عنده أية نظرية علمية هذا اللقب. وربما صح

لنا أن ننحى هنا أي سؤال يمكن أن ينطبق على البحث العلمي بصفة عامة. ولا يكاد يكون هناك من معنى لإثارة مثل هذه الأسئلة بخصوص "العلوم الهشة" soft sciences. وإذا كان هناك من يهتم بالوصول إلى أجوبة عن بعض الأسئلة، بدلاً من أن يكون مُغرمًا بالتغيب على العلوم الناشئة، فيمكنه أن ينظر إلى المجالات التي يمكن أن توجد فيها إجابات، وهي في هذه الحالة، تلك المجالات التي تتصف بعمق كافٍ من المعرفة والفهم الصالحين لتوجيه البحث بطريقة جادة.

(٢١) للاطلاع على تكرار كوين لهذه الفكرة مؤخرًا، انظر (Quine 1986). وهو يصف هنا "فكرة بارعة" اقترحها هاس W. Hass تتصل بطريقة لرسم الفارق الذي يراه، فيما يبدو، لكن هذه الطريقة، بشكلها هذا، لا توفر إلا فارقًا لا قيمة له في دراسة اللغة. ويقوم الاعتقاد المضاد الشائع جدًا جزئيًا على قياس خاطئ على اللغات التصويرية، حيث القضايا هناك مختلفة جدًا، وربما نال هذا الاعتقاد بعض الدعم من بعض الفقرات التي ظهرت في الأبيات المبكرة في النحو التوليدي التي يبدو جليًا أنها مضللة، وإن كان الباحثون قد بينوا بعض التحفظات الملائمة.

(٢٢) انظر تشومسكي (Chomsky (1955/1975) حيث نوقشت هذه القضايا بطرق يبدو لي أنها ما تزال دقيقة، وكان هناك محاولة لتعريف هذا التصور بموجب المبادئ التي تقوم بتعيين بنية المكونات المشتقة.

(٢٣) للاطلاع على مناقشة في سياق لغوي - إيراكي، انظر (Jeme, 1985) ولمناقشة مستفيضة انظر (Pittelli-Palmarini (1986).

(٢٤) وليس ضروريًا أن تكون "النظريات القصيرة" هي تلك التي يمكن للبشر أن يكتسبوها، أو يدركوها كنظريات مفهومة، إذا أخذنا في

الحسبان قدراتهم الفكرية المعيّنة المحددة أحيانًا.

(٢٥) ونفترض هنا، مرة أخرى، الأمثلة المعهودة، كما ناقشنا ذلك في مكان آخر.

(٢٦) كالخطط وبنية الذاكرة، إلخ. لاحظ أن المحلل، كما يُنظر إليه في البحث الحالي، يُفترض، صوابًا أو خطأ، أنه مكون واقعي للذهن/الدماغ، أي أنه نظام فرعي متماسك من نوع ما يتضمن بعض العناصر المحددة للمحلل الكامل، بدلاً من عناصر أخرى. وهذه الافتراضات موضوع لتلك الأسئلة العامة نفسها التي تبرز في البحث الاختباري. ويُنظر إلى دراسة المحلل دائمًا على أنها ليست عرضة نوعًا ما للمشكلات العامة التي تبرز في دراسة المعرفة اللغوية (أي: دراسة الإجراء التوليدي الذي يؤخذ كأحد مكونات المحلل)، لكن هذا خطأ. ويُعترض أحيانًا بأنه لما كان الدليل يؤخذ دائمًا من الأداء فلا يحق لنا استخدامه لتحديد طبيعة المعرفة اللغوية العميقة. ويمكن أن نستنتج، بناءً على هذه الحجج (الزائفة) نفسها أننا لسنا محققين في استخدام مثل هذا الدليل لتحديد طبيعة المحلل المُؤمَّل، مثلما أنه لن يكون لدينا أي أساس لافتراض أن الفيزياء دراسة كل شيء يتجاوز قراءة العداد. لكن المادة الأولية لا تأتي معلمة بأنها دليل صالح لـ "س"، لا لـ "ص".

(٢٧) وتساعد بعض الاعتبارات ذات الصلة في تفسير السبب الذي يجعل الجهود في مجال النكاه الاصطناعي الذي يتحمس له دانيال دينيت كثيرًا فقيرة من حيث المقتضيات (انظر Putnam 1988b; Dennett 1988). ويعتقد دينيت أن هناك، أو ربما يكون هناك، نتائج جوهرية تحت ما يسميه بـ "الهندسة"، لكن ليس من الواضح ما الذي يعنيه؛ كما يبدو لي أيضًا أن روايته للنقاش العام الذي جرى قبل سنوات، وهو الذي يقوم تفسيره جزئيًا عليه، خاطئة إلى حد بعيد، إن لم أقل أكثر من ذلك.

(٢٨) لاحظ مرة أخرى أنه ليس هناك سبب لافتراض أن "اللغة - د" تولد توليداً ضعيفاً بعض المجموعات المركبة تركيباً صحيحاً من التعبيرات، وهو ما يجعلها تعطى معنى للكلام عن "اللغات - د" (أي: "الأنحاء") بوصفها "متماثلة ماصداقياً" أو لا، بمصطلحات كوين؛ وحتى لو اكتشف أن لهذا التصور معنى أو أنه مهم، وهو ما لا نعرفه الآن، فليس هناك سبب لافتراض أنه ستكون للخصائص الصورية لهذه المجموعة أهمية في دراسة بنية اللغة أو المعنى أو التعلم أو النواصل أو التحليل، أو غير ذلك. انظر (Chomsky 1965). وقد حدث لبس كبير جداً عن هذه الأمور، لكنني لن أتحدث عنه هنا.

(٢٩) بمعنى غريب، مع ذلك. وأنا في هذه الحالة أستخدم كلمة تفتقر إلى دليل له علاقة باستخدامها، كما يُحدده معجمي الداخلي. وربما لن نقول إن جونز مخطئ في استخدام لغته حين يشير إلى شيء أمامه بأنه شيء مكور، حين لا يعرف أن للجزء المختفي منه شكلاً مختلفاً.

(٣٠) ويشمل هذا المتخصصين في اللسانيات الاجتماعية والآخرين الذين يزعمون أنهم لا يتبعون هذه الممارسة. انظر عن هذا الموضوع (Chomsky 1986: 17-18).

(٣١) لنفرض أن معجم جونز يتضمن تقليداً لخبير ماء، ولنقل متكلماً للغة الألمانية، في منخل معجمي لـ "مرض التهاب المفاصل". وحينها ربما اشتمل نسب "اعتقاد" لجونز تفصيلاً أكثر، أو ربما نرغب في إهمال هذا التصور؛ بوصفه غير مفيد بأي معنى من معانيه المألوفة في علم النفس. ولا يبدو أن هناك شيئاً مهماً هنا. للاطلاع على تفصيل أكثر عن المسائل التي أثيرت هنا باختصار انظر (Bilgrami 1987; Segal 1987).

الفصل الرابع المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية فى دراسة اللغة والذهن

يمكن فهم المصطلحات فى عنوان هذا الفصل بطرق شتى، هى والأطر التى تدمج فيها. وأود هنا أن أبين الخطوط العريضة لتأويلات أراها مفيدة وملائمة، وأن أقترح دعوى أكثر عمومية، ربما تتطلب حجة أكثر شمولاً، وهى أنه ليس هناك بديل متماسك للبحث فى ضوء هذه الطريقة لنقاش القضايا المتعددة المنظورة هنا، وأن المشاريع الأخرى فى المجال نفسه تقريباً ستكون أكثر وضوحاً وأسهل تناولاً، إن فهمناها على أنها توسعات للمقاربة التى نرسم خطوطها العامة هنا.

للتهوين من شأن المصطلحات

دعنا ننجح مصطلح "اللغة" جانباً الآن ونبدأ النظر فى المصطلحات الأخرى فى العنوان بطرق بريئة من بعض المقتضيات بعيدة المدى، وعلى الأخص، بمعزل عن أية إحياءات دلالية غيبية. خذ مصطلح "ذهن" أو، بدايةً، مصطلح "ذهنى". انظر الآن إلى الكيفية التى نستخدم بها مصطلحات مثل "كيميائى" أو "مناظيرى" أو "كهربائى". فتسمى بعض الظواهر والأحداث والعمليات والحالات "كيميائية" (إلخ)، لكن هذا الاستخدام لا يعنى أى مُميّز غيبى؛ فلا تزيد هذه الظواهر والعمليات والأحداث والحالات عن كونها مظاهر متنوعة للعالم نختارها لتكون محورياً توجهه إليه الانتباه لأغراض البحث والتبيين. وسوف أفهم مصطلح "ذهنى" بالطريقة نفسها تقريباً، أى بما يشبه ما يعنيه فى الاستخدام التقليدى، لكن مجرداً من أية أهمية غيبية ومن غير إحياء بأنه ربما يكون مهماً أن نحاول تعيين المعيار الصحيح لما يكون ذهنياً أو ما يكون علامة عليه. وأعنى بـ "ذهن" المظاهر الذهنية للعالم، من

غير أن أتلبث لتعريف هذه الفكرة تعريفاً أكثر دقة أو أن نتوقع اتصافها بنوع لافقت للنظر من الوحدة أو الحدود، يزيد عما في المجالات الأخرى؛ فلا أحد يأبه بتبيين حدود [ما يسمى] "كيميائياً" تبييناً صارماً.

وأقصر اهتمامي هنا على الذهن البشري (أي على نظام الإبصار، والتعليل، واللغة، إلخ). ذلك أنه لا يسعى أحد إلى تأسيس علم موحد للحركة، بدءاً من الأميبيا وانتهاء بالنسر، فالسفن الفضائية في روايات الخيال العلمي؛ أو [تأسيس علم موحد] للتواصل بدءاً من الخلية وانتهاء بالخطاب الشعري؛ ثم إلى الكائنات غير الأرضية المتخيلة. فيدرس علماء الأحياء، بدلاً من ذلك، كيف تسبح الدلافين وكيف تتواصل النمل، باثنين بتعليل "داخلي" و"فردى" (بالمصطلحات المعاصرة). ولا يهتمون كثيراً، حين يعملون بهذه الطريقة، بالكيفية التي تستخدم بها كلمات "لفين" و"يتواصل"، إلخ، في الخطاب العام الذي أثيرت فيه هذه المسائل للمرة الأولى. فهم يعملون، بدلاً من ذلك، في تطوير بعض التصورات الملائمة لأغراض التفسير والفهم التي يسعون إليها. ولا يقلل هذا الإجراء من شأن الخطاب العام والتفكير البديهي بحال؛ بل إن ذلك مما يحررهما من بعض المتطلبات الخطيرة غير الملائمة. والشئ نفسه صحيح في أنواع البحث العلمي الأخرى ذات الاهتمامات الأوسع (كدراسة جماعات النمل، مثلاً)⁽¹⁾.

ويمكن أن ننقل هذه الملاحظات — وهي بديهيات، كما أظن — إلى دراسة اللغة البشرية والذهن البشري. ولكون الدماغ، أو بعض عناصره، يتدخل بشكل مهم جداً في الظواهر اللغوية والظواهر الذهنية الأخرى، فيمكن أن نستخدم مصطلح "ذهن" — بصورة تقريبية لكن واضحة — في كلامنا عن الدماغ، منظوراً إليه من زاوية مخصوصة طوّرت في مسار البحث في بعض المظاهر المحددة للطبيعة البشرية وتحققاتها. ولدينا هنا مسلمات اختبارية — منها أن للذهن، لا القدم، هو العضو الذي له صلة بـ [اللغة]، وأن البشر يتشابهون إلى درجة كافية في القدرة اللغوية وهو ما يسمح بحدّ

اللغة البشرية موضوعًا طبيعيًا، إلخ. لكن ينبغي ألا تشغلنا هذه للمسلمات كثيرا.

دعنا كذلك نفهم مصطلح "المقاربة الطبيعية" بمعزل عن الإحياءات الغيبية: فتبحث "المقاربة الطبيعية" للذهن المظاهر الذهنية للعالم بالكيفية التي يمكن أن نبحث بها مظاهره الأخرى، ساعين إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، مع الأمل بدمجها في نهاية الأمر بالعلوم الطبيعية "الصرف". ويمكن أن تقابل هذه "المقاربة الطبيعية المنهجية"، بما يمكن أن يسمى بـ "المقاربة الثنائية المنهجية"، التي توجب التخلي عن المنهجية العلمية حين ندرس البشر "ما فوق الرقبة" (مجازًا)، أي أن نتحول إلى متصيدي غرائب في هذا المجال الفريد، وأن تفرض بعض المصادر الاعتباطية والمتطلبات "المسبقة" من أنواع لا يمكن أن ترد على أذهان المشتغلين بالعلوم، لو أنها تفارق، بطرق أخرى، المعايير المألوفة الموجهة للبحث العلمي.

وهناك أسئلة مهمة عن الكيفية التي ينبغي أن يسير البحث العلمي الطبيعي بها، لكن يمكن تجنبها جانبًا هنا، إلا إن قنم سببًا يبين أن لها صلة فريدة بهذا البحث تحديدًا. ولم يقم أحد سببًا كهذا، على حد ما أعلم، بل يمكن على وجه التعيين أطراح الحجج المتشككة في هذا السياق. فيمكن ببساطة أن نتبنى المنظور النمونجي للسائد للعلم المعاصر، وهو، أساسًا، رد فعل علماء القرن السابع عشر المتمثل في معارضة النزعة الأسسئية anti-foundationalism⁽²⁾ على أزمة للشك الديكارتية، التي كانت تتمثل، كما يقول ريتشارد بويكين، في "إدراك أن من المستحيل إعطاء أسباب نهائية محددة لتفسير معرفتنا، ومع هذا فنحن نمتلك معايير نمونجية نقوم بها مدى تقننا بما اكتشفناه عن العالم ومدى تطابقه عليه"، وهو ما يعني قبولنا بالمعرفة نفسها وزياتتها في الوقت الذي ندرك فيه أن "أسرار الطبيعة، وطبيعة الأشياء الذاتية، محجوبة عنا إلى الأبد" (Popkin 1979: 139ff). وربما يكون مهمًا أن نذهب إلى أبعد من هذا، لكن المكان الذي ينبغي أن

نوجه أبعصارنا إليه بحثاً عن إجابات، إن كان الأمر كذلك، هو حيث يحتمل أن نجد لها فيه: أي العلوم الصرفة، حيث يمدنا غنى الفهم وعمقه بقدر من الأمل في تحصيل معرفة أعمق بهذه المسائل. أما إثارة هذه الأسئلة عن ميادين بحث ما تزال في بداياتها الأولى فغير مفيدة، وربما لا تزيد عن كونها شكلاً من التنغيص على هذه العلوم الناشئة.

وينبغي ألا تكون المقاربة العلمية الطبيعية، حين نفهم على هذا الوجه، موضع خلاف، وإن كان المدى الذي يمكن أن تصل إليه لم يحدّد بعد، أما البديل الثنائي لها فينبغي أن يكون موضع خلاف كبير جداً. ومع ذلك فالعكس هو السائد الآن، كما أظن، وهذه سمة غريبة لتاريخ الفكر المعاصر. فقد اقترحت بعض النظريات التفسيرية للذهن، وفي دراسة اللغة خاصة. لكنها قوبلت بمعارضة قوية، لا لأنها تخالف معايير المقاربة الطبيعية المنهجية (التي يبدو أنها تتبعها، إلى حد بعيد)، بل انطلاقاً من بعض الاعتبارات الأخرى، كـ "الاعتبارات الفلسفية"، التي يزعم أنها تشهد بأن هذه النظريات مريبة، وربما متطرفة، على الرغم من النجاح الذي حققته بمقاييس النجاح المألوفة في العلوم؛ أو ربما تكون ناجحة، لكنها لا تعالج [مفهومي] "ذهن" و"ذهني". وسأقترح أن هذا النقد غالباً ما يكون شكلاً من أشكال النزعة الثنائية المنهجية، وأن تبني هذا الموقف (أو قبوله ضمناً) كان أحد المواقف البارزة في أكثر الأبحاث لفتاً للنظر في الفلسفة المعاصرة للذهن واللغة.

ومن الواضح أن المقاربة الطبيعية لا تلغي الطرق الأخرى لمحاولة تفهم العالم. إذ يمكن لمن يتبنى [هذه المقاربة] أن يعتقد باطراد (كما أفعل أنا) أن بإمكاننا أن نعرف عن اهتمامات البشر بالكيفية التي يفكر بها الناس ويشعرون ويتصرفون من قراءتنا للروايات أو دراسة التاريخ أو النشاطات اليومية العادية أكثر مما نعرفه عنها من مجمل النتائج التي نحصلها من علم النفس الذي يقوم على المقاربة العلمية الطبيعية، وربما سيظل الأمر كذلك دائماً، كما يمكن - بالمثل - أن تقمّ الفنون مستوى عالياً من التقدير لأسرار

السماء يفوق ما تحلم علومُ الفضاء الفيزيائية بالوصول إليه. ونحن نتحدث هنا عن الفهم النظري، وهو نوع خاص من الفهم. ويتحمل أى انحراف عن هذه المقاربة، فى هذا المجال، عبء التسويغ لهذا الانحراف. وربما أمكن تقديم تسويغ ما، لكنى لا أعرف تسويغاً واحداً.

اللغة فى البحث العلمى الطبيعى:

ولتأطير النقاش دعنا ننظر بإيجاز إلى المسار الذى تقودنا إليه المقاربة المنهجية الطبيعية فى دراسة الذهن، واللغة خاصة. إنها تقودنا، كما أظن، إلى شىء يشبه الوضع التالى، على حد ما نفهمه فى الوقت الحاضر.

فيحوى الدماغ مكوناً - سمّه "الملكة اللغوية" - مقصوراً على اللغة واستخدامها. وللملكة اللغوية، عند أى فرد، حالة أولى، يحددها الإعداد الأحيائى. وتتشابه هذه الحالات، إذا استثنينا الحالات المرضية، عند أفراد النوع إلى حد بعيد حتى ليمكن أن نجرّد "الحالة الأولى" للملكة اللغوية، وهى خصيصة مشتركة بين البشر. وتقدح البيئة مسار النمو الموجّه داخلياً وتشكله شيئاً ما، وهو الذى يستقر عند سن البلوغ تقريباً. وستحاول أية دراسة جادة تحديد ماهية الحالات "الخالصة" للملكة اللغوية تحت الظروف المثالية، بتجريد عن كثير من الاستثناءات والتدخلات التى تنتج عن عدد كبير من الظروف المعقّدة للحياة اليومية، وتأمل بهذا أن تُحدّد الطبيعة الحقّة للملكة اللغوية وتحققاتها؛ وهذا ما تمليه معاييرُ المنهجية الطبيعية، فى الأقل. وتعدّ وجهة النظر هذه، التى تؤخذ فى البحث العلمى الطبيعى أمراً مسلماً، مثيرة للخلاف دائماً، أو ربما أسوأ من ذلك، فى مجال اللغة والذهن، وهو ما يبرهن على النزعة الثنائية التى أشرت إلى مدى شيوعها وضررها.

وتُحدّد حالة الملكة اللغوية المحصلةً فصيلةً غير نهائية من التعبيرات اللغوية، يتألف كلُّ منها من مجموع محدّد من الخصائص الصوتية والبنوية

والداللية. فتحدد هذه الحالة عندى خصائص الجملة السابقة [هنا]؛ وتمائل حالتك حالي إلى حدّ يستطيع ذهنك عنده (أحياناً) اكتشاف شبيه ملائم للجملة التي قلّتها، وهو ما يعنى أنك تمتلك وسائل معينة تعينك على تحديد ما قصدته (ولا يمثل التعبير الذي سمعته إلا جزءاً من الدليل لديك، أما التواصل فأمر "تقريبى"). والحالة المحصلة نظام حوسبى (توليدى). ويمكن أن نسمى تلك الحالة "لغة" أو، لكي نتجنب خلاف المصطلحات، I-language لغة - د، وقد اخترت I "د" للإيحاء بأن هذا التصور داخلي، وفردى، ومفهومي (بالمعنى التقنى؛ أى أنه تحديد لدالة في الفهم). فيعنى امتلاك جونز لغة - (د)، أى "ل" [لغة]، أن تكون لغته في الحالة "ل". وتمثل الإشارات المعينة تحققات للتعبيرات اللغوية (المتكلمة والمكتوبة والمؤشّرة، إلخ)؛ والأفعال الكلامية تحققات للتعبيرات اللغوية بمعنى أوسع، ويمكن أن نفهم التعبيرات على أنها تعليمات للأنظمة الأخرى في الذهن/الدماغ "تتبعها" في استخدام اللغة.

وانطلاقاً من المسلمات الاختبارية (الضعيفة جداً) لهذه الملحوظات فإن فكرة لغة - د واضحة جداً؛ أى لا خلاف على أن الدماغ نظام معقد يتصف ببعض الحالات والخصائص. ويبقى بعد ذلك أن نفصل تصور "حالة الدماغ" وأن نكتشف خصائصها. وتتطلب الأفكار الأخرى "لغة" مزيداً من التسويغ - الذي ربما لا يكون سهلاً، كما أظن.

ويجب عدم الخلط بين فصيلة التعبيرات التي تولدها "اللغة (د) ل" وفصيلة الجمل الصحيحة صورياً، وهي فكرة ليس لها مكان معروف في النظرية اللغوية، وإن تسببت بعض الكتابات غير المتخصصة أحياناً في غموض هذه النقطة، وهو ما أدى إلى كثير من اللغط والجهد الضائع. لهذا ربما تُعین لغة جونز "ل" خصائص محدّدة لما يسمى بالتعبيرات "الشاذة" إلى حد بعيد؛ وربما تعطى تأويلاً محدّداً لأية إشارة ممكنة، حيث تُحدّد خصائص الحالة الأولى هذا الفكرة الأخيرة.

وربما يكون النظام الحوسبي نفسه غير متنوع (أسامناً)، ومثبّتاً بالإعداد الأحيائي الفطري، حيث تقتصر التنوعات بين اللغات وأنماط اللغات على بعض الخيارات المعجمية؛ وهي خيارات محدودة إلى حد بعيد. وربما تؤدي بعض التغيرات الضئيلة في نظام معقد إلى ما يبدو كأنه اختلافات مثيرة كبرى؛ لهذا، يبدو كأن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى اختلافاً جذرياً، مع أنه لا يختلف بعضها عن بعض إلا بأشكال هامشية جداً، كما يبدو. وهذا ما يمكن أن يتوقعه أي عالم منهجي يلاحظ البشر؛ أما لو لم يكن الأمر كذلك، فربما لن يتيسر لنا تحليل ما تتصف به الحالة المحصلة من تحديد دقيق غنى وتعقيد بناءً على معلومات محدودة جداً توفرها البيئة. وتؤخذ بعض الافتراضات المماثلة أمراً مسلماً في دراسة النمو والتطور عامة؛ لذلك لا تميز المقاربة الطبيعية الحالة الفريدة للعمليات الذهنية [عن غيرها].

ولا توجد خصائص الحالة الأولى والحالات المحصلة، حتى أكثر أشكالها بدائية، على حد ما نعلم، عند الكائنات العضوية الأخرى أو في العالم الأحيائي، باستثناء ما يتعلق منها بنقاط الالتقاء بينها وبين المادة غير العضوية. ولا توجد إلا علاقات ضعيفة جداً بينها وبين ما اكتشفتها العلوم المتخصصة بالدماغ. وينشأ عن هذا أننا نواجه مشكلات التوحيد المألوفة في تاريخ العلم، ونحن لا نعرف كيف سنحل هذا للمشكلات - أو إن كانت قابلة للحل ابتداءً.

وسأتوقف هنا عن إيراد مزيد من التحليل لنتائج البحث العلمي الطبيعي؛ وأعود إلى قضايا المقاربة الطبيعية والمقاربة الثنائية بصورة أكثر عمومية.

أنواع من المقاربة الطبيعية:

ينبغي ألا نخلط بين المقاربة الطبيعية المنهجية وبعض التنوعات الأخرى للمقاربة الطبيعية]. ولإيضاح ما أعنيه وما لا أعنيه، دعني أورد

أحد التفسيرات المفيدة لتصوّر المقاربة الطبيعية، وهو ما كتبه بولدوين مؤخراً (Baldwin 1993: 171). فيبدأ بولدوين بحثه بملاحظة أن "أحد أبرز الموضوعات في الفلسفة المعاصرة هو 'إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية' [تطبيع الفلسفة]. فقد كتب دانييل دينيت أن 'أحد أسعد التوجهات الفلسفية في العشرين سنة الماضية كان 'إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية'" (ص 171). أما كون ذلك التوجه بارزاً فصحيح، لكن وصفه بأنه سعيد يبدو أمراً خلافياً. فهو يختلف، على أية حال، عن المقاربة الطبيعية التي أتيناها هنا.

ويجد بولدوين "تمطين مختلفين من المقاربة الطبيعية في الفلسفة المعاصرة"، ويُسميهما المقاربة الطبيعية "الغيبية" والمقاربة "المعرفية" epistemic. والنمط الأول هو "ما كان يعنيه دينيت حين يحتق بـ 'إخضاع الفلسفة للمقاربة الطبيعية': أي الفكرة التي مفادها، كما يقول دينيت، أنه يجب أن تكون التفسيرات الفلسفية لعقولنا ومعرفتنا ولغتنا متمشية، في نهاية الأمر، مع العلوم الطبيعية ومتناغمة معها" (ص 172) - خلافاً للمقاربة الفريجية الأفلاطونية، مثلاً، التي لا تتماشى مع الفرضيات التي طوّرتها العلوم الطبيعية"، كما يُزعم.

وتشتق المقاربة الطبيعية المعرفية المعاصرة من "علم المعرفة epistemology المُخضع للمقاربة الطبيعية" عند ويلارد كوين، وهي تشترط وجوب أن تُلحق دراسة المعرفة والاعتقاد بفرع ضيق من علم النفس السلوكي الذي ليس له أهمية علمية معروفة، وهذا تصرف غريب بذاته، ومن المدهش أنه لم يُثر إلا اعتراضاً قليلاً، ويلاحظ بولدوين أن توجهها أوسع [منها] يعني بالنظر في "العلاقات الطبيعية" بين الأوضاع الخارجية والحالات الذهنية بعيداً عن أية قيود اعتباطية. ويمكن عدّ هذا الوجه الأوسع شكلاً متطوراً من علم النفس الذهني في القرن السابع عشر الميلادي، الذي كان يرى، كما يقول لورد هيربرت، أن هناك "مبادئ أو أفكاراً مغروسة في ذهن" وهي التي تُضفيها على الأشياء من داخلنا. . . . [بوصفها]. . . هبة

مباشرة من الطبيعة، وتمليها الغريزة الطبيعية* - أي "أفكاراً مشتركة" و"حقائق فكرية" "طبعتها على الروح إكراهات الطبيعة نفسها"، وهي التي، وإن كانت "الأشياء تحفزها"، إلا أنه لا يُعبر عنها عن طريق [هذه الأشياء] (Herbert 1624/1937: 133). ويورد بولدوين [الفيلسوف] توماس ريد بوصفه مصدراً لأحد أشكال "علم المعرفة المُخضع للمقاربة الطبيعية"، حيث يعبر عن وجهة نظر مشابهة لكنها "محررة من التزام هيوم بنظرية الأفكار" [أو أي التزام مبكر آخر] (Baldwin 1993: 181)؛ أي محررة من المحاولات المبكرة التي سعت إلى بيان ما يسميه ريد بـ "الأحكام الأصيلة والطبيعية" التي "زوتت الطبيعة بها الفهم البشري" بوصفها "جزءاً من كينونتنا"، وهي ما يكون "البدية البشرية" (Reid 1785: 600-601). ولما لم يوت ببديل للخطوط العريضة للنظرية التي تخلى عنها، فمن الصعب أن نرى كيف يتقدم هذا "الإخضاع للمقاربة الطبيعية" إلى ما يتجاوز الأشكال المبكرة. لكن الأمر يعكس ذلك، فتنظيرات الفلاسفة الديكارتيين وفلاسفة كامبردج الأفلاطونيين أكثر تقدماً [من تلك النظرية] من وجوه عدة، كما أرى. وقد اقترح تشارلز ساندرز بيرس في فترة لاحقة (Peirce 1957: 253) أن الفكر الإنساني موجّه بمبدأ "القياس الاحتمالي" abduction الذي "يضع قيوداً على ما يمكن قبوله من الفرضيات" وهو فطري فينا، ويؤدّ الذهن البشري بـ "تكيف طبيعي لنتخيل النظريات الصحيحة من نوع معين" (ص ٢٣٨) وهو (مع قليل من المعقولية) نتيجة لمبدأ الانتقاء الطبيعي. وهناك مقنضيات أخرى كثيرة، ومنها "علم المعرفة التطوري" الذي ظهر في السنوات الأخيرة. (للاطلاع على بعض النقاش، انظر: Chomsky 1966: Chapter 4; 1968/1972; 1975 Chapter 1).

ومشروع المقاربة الطبيعية المعرفية غير خلافي، باستثناء المصطلح، وهو [مصطلح] مضلل بطريقة معاصرة غريبة. فقد كانت المقاربة الطبيعية المعرفية علماً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أي أنها محاولة لصياغة نظرية اختبارية عن الذهن؛ وكان هيوم، مثلاً، يقارن مشروعه

بمشروع إسحاق نيوتن. أما المقاربة الطبيعية المعرفية [الآن] فقد قُدمت، بالمقابل، على أنها "موقف فلسفي"، وهو أمر مختلف، كما يبدو. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نفهم الآن ما كتب في فترات متقدمة على أنه مماثل للتمييز المعاصر بين العلم والفلسفة الذي طوّر في فترة لاحقة. وربما لا يمكننا إطلاق مصطلح "المقاربة الطبيعية الإبصارية" على الدراسة الاختبارية لنمو النظام الإبصارى ووظيفيته (الذي كان موضوعاً لاهتمام علم النفس الذهني في فترة مبكرة، كذلك)، قاصدين بذلك أنه كان هناك بديل متماسك لدراسة المشكلات نفسها. ويبدو لي أن مصطلح "المقاربة الطبيعية المعرفية" مضلل بالطريقة نفسها تقريباً، هذا إن لم نذكر بعض أوجهها المعينة المشتقة من مصطلح كوين: "علم المعرفة المُخضع للمقاربة الطبيعية".

والمقاربة المعرفية الطبيعية التقليدية عند المشتغل بالمنهجية الطبيعية نوع من العلم العادي normal science (انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب)⁽³⁾، بغض النظر عن الكيفية التي نقوم بها بعض تطبيقاتها المحددة. فالبحث العلمي في الحالة الأولى للملكة اللغوية، مثلاً، محاولة لاكتشاف "المبادئ والأفكار المغروسة في الذهن" التي هي "هبة مباشرة" من الطبيعة، أي إعدادنا الأحيائي. وينطلق البحث، كما في المجالات الأخرى، من الصياغات البديهية. انظر الجملة التالية، مثلاً:

Jones knows (speaks, understands, has) English.

"يعرف جونز (يتكلم، يفهم، يمتلك) اللغة الإنجليزية".

فتوجه هذه الملاحظة الانتباه إلى حالة معينة للعالم، ومنها إحدى حالات دماغ جونز، وهي حالة إدراكية، تقوم عليها معرفة جونز بأشياء معينة كثيرة، نحو: معرفته بكيفية تأويل الإشارات اللغوية، أو أن بعض التعبيرات اللغوية تعنى ما تعنيه، إلخ. ونحن نود أن نعرف كيف وصل دماغ جونز إلى هذه الحالة الإدراكية. ويقود البحث في هذا الأمر إلى بعض

الفرضيات الاختبارية عن الإعداد الأحيائي، والتفاعلات مع البيئة، وطبيعة الحالات المحصلة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى للذهن (كالأنظمة النطقية والإدراكية والتصورية والقصدية، إلخ). وتسمى النظريات التي نصل إليها عن نمو اللغة أحياناً بنظريات "جهاز اكتساب اللغة" Language Acquisition Device (LAD)، وهي التي تحدث تحولاً لحالة الملكة اللغوية الأولى إلى حالات تالية، أي تحول التجربة إلى الحالة المحصلة؛ وتسمى النظرية عن الحالة الأولى أحياناً بـ"النحو الكلي"، وهو استخدام [معاصر] لمفهوم تقليدي في سياق مختلف شيئاً ما. (ولن أعرض فيما يأتي للفروق بين نظريتي "جهاز اكتساب اللغة" و"النحو الكلي"). وهذه دراسة للذهن، كما أرى؛ وهناك آخرون يخالفونني، لأسباب سأعود إليها فيما بعد.

وتبدو المقاربة الطبيعية للغيبيّة أكثر إشكالاً من المقاربة الطبيعية المعرفية التقليدية. فأحد الأسئلة التي يثيرها بولدوين هو: "ما العلوم الطبيعية". ومن الإجابات الممكنة: إنها أي شيء يُنجز بالعمل بانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية. لكن لا يبدو أن هذا هو المقصود؛ فلنوجّل هذا السؤال قليلاً. ومن القضايا ذات الصلة أن نضمر ما "التعليقات الفلسفية لعقولنا، ومعرفتنا ولغتنا"، وكيف تختلف عن "التعليقات العلمية"، خاصة إن كانت تتماشى مع العلوم الطبيعية" (Baldwin 1993: 172). فهل يعني هذا الاعتقاد أنه ينبغي أن تكون أية نظرية عن الذهن "متماشية" و"متناغمة" مع الفيزياء في الوقت الحاضر؟ ومن المؤكد أن هذا غير مقبول؛ إذ يحتمل ألا تتوافق فيزياء المستقبل مع هذا الشرط. أم ينبغي أن تتوافق مع أحد أشكال المثال البيرومي [نسبة إلى بيرس] لما سيكون عليه العلم في "الحدود القصوى"؟ لكن هذا لن يساعدنا كثيراً، حتى إن كان له معنى. ذلك أنه ربما تتضمن فيزياء المستقبل وجهاً من التعليقات الممكنة في الوقت الحاضر (سواء سميت "فلسفية" أم لا)، حتى إن لم تتماشى هذه التعليقات مع الفيزياء في الوقت الحاضر.

وإذا كان الأمر كذلك فلن يكون هذا جديداً في تاريخ العلوم؛ فقد ظل

توحيد النظريات المختلفة عن العالم هدفا دائما للعلوم، لكن السعي نحو هذا الهدف اتخذ مسارات مختلفة عديدة. ولم يكن الاختزال الشامل النمط المعهود [نحو هذا التوحيد]؛ ويجب ألا نخدعنا بعض الأمثلة المثيرة كاختزال كثير من علم الأحياء إلى علم الكيمياء الأحيائية في أواسط القرن العشرين. أما ما يحدث دائما فهو أن العلم الأكثر "أساسية" هو الذي اضطرر لأن يخضع للمراجعة، وبشكل جذري أحيانا، من أجل أن يُنجز التوحيد. هب أن فيلسوفا في القرن التاسع عشر أصر على أنه يجب أن تتماشى التعليلات الكيميائية للجزيئات، والتفاعلات، وخصائص العناصر، وحالات المادة، إلخ مع العلوم الطبيعية وأن تتناغم معها، في نهاية الأمر، حيث يقصد بالعلوم الطبيعية الفيزياء كما كانت تفهم حينذاك. لكن تلك التعليلات لم تكن تتماشى مع الفيزياء آنذاك؛ لأن الفيزياء في تلك الفترة لم تكن قد تطورت بما يكفي. وقد تغيرت الفيزياء في ثلاثينيات القرن العشرين تغيرا جوهريا، ثم أصبحت التعليلات (التي عدت هي نفسها) "متماشية" مع الفيزياء الكمية الجديدة و"متناغمة" معها. افترض أن عالما في القرن السابع عشر أوجب الشرط نفسه على آلية الأجرام السماوية celestial mechanics، مشيرا إلى "الفلسفة الآلية" السائدة [آنذاك] ورافضا نظرية نيوتن الغامضة (كما فعل لايبنيز وهويجينز)، لأنها لم تكن تتوافق مع "قوانين الآلية" Laws of Mechanics (انظر Dijksterhuis 1986: 479f). ومع احتمال أن يكون رد الفعل هذا مفهوما إلا أنه كان سيكون (وقد كان) خاطئا؛ ذلك أنه لزم أن تتغير الفيزياء الأساسية تغيرا جذريا لكي تبدأ عملية التوحيد.

ونحن لا نعرف إلى أين ستقودنا تلك العملية، بل لا نعرف حتى المدى الذي يمكن أن يصل إليه الذكاء البشري في تحصيله مثل هذا الفهم للعالم الطبيعي؛ ذلك أننا لسنا إلا عضويات أحيائية، لا ملائكة. وتوحى الملاحظة الأخيرة، وهي، مرة أخرى، غير خلافية، بطريقة آخر للإجابة عن سؤال "ما العلوم الطبيعية؟". فمن مظاهر الذهن المظاهر التي تدخل في البحث العلمي الطبيعي؛ ولنسمها "ملكة صياغة العلم". فيواجه الناس، المزوونون بـ"ملكة

صياغة العلم، "أوضاعاً مشكلة" تتكون من بعض الحالات الإدراكية المحنّدة (للاعتقاد والفهم أو عدم الفهم)، والأسئلة التي تثار، إلخ (وهي، أساساً، ما سماه سيلفين برومبيرجر "معضلة ح" p-predicament؛ انظر كتابه الذي يحوى مقالاته Bromberger 1992b لوترمز "ح" لكلمة "حيرة"). ولا تؤدي "ملكة صياغة العلم" غالباً إلا إلى طريق مسدود. وتوفّر أحياناً بعض الأفكار عن الكيفية التي يمكن بها أن يجاب عن بعض الأسئلة أو كيف تعاد صياغتها، أو عن الحالة الإدراكية التي تعدّل، وهي أفكار يمكن تقويمها بعد ذلك بالطرق التي توفّرها "ملكة صياغة العلم" (كالفحص الاختباري، والتناغم مع الأجزاء الأخرى للعلم، ومعايير المعقولة والأناقة، إلخ). ولـ "ملكة صياغة العلم"، كالأنظمة الأحيائية الأخرى، مدى ممكن وحدود، ويمكن أن نميّز بين "مشكلات" تقع في مداها من حيث المبدأ، و"أحاج" لا تقع ضمن هذا المدى. وهذا التمييز مقصور على البشر؛ أما الفئران وسكان المريخ فلهم مشكلاتهم المختلفة وأحاجهم، بل إننا نعرف، في حال الفئران، قدرًا لا بأس به عن تلك المشكلات والأحاجي، وليس هناك حاجة لأن يكون هذا التمييز صارماً، وإن كنا نتوقع وجوده بكل تأكيد، عند أية عضوية وأية ملكة إدراكية. فتقع العلوم الطبيعية الناجحة، إذن، داخل منطقة تماسّ المدى الذي تصل إليه "ملكة صياغة العلم" مع طبيعة العالم؛ وهي تتعامل مع مظاهر العالم (المشنتة والمحدودة) التي يمكن أن نحيط بها ونفهمها عن طريق البحث العلمي الطبيعي، من حيث المبدأ. وهذا التماسّ نتيجة صُنقية للطبيعة البشرية. وليس في نظرية التطور، أو في أي مصدر آخر مما يمكن لنا فهمه، على الضد من بعض التخرصات منذ بيرس، ما يوحي بأنه ينبغي أن تتضمن إجابات عن بعض الأسئلة المهمة التي نثيرها، أو حتى أن نكون قادرين على صياغة الأسئلة صياغة ملائمة في بعض المجالات المحيرة.

ونحن لا نعرف، تحديداً، إن كانت مظاهر النظرية عن الذهن - كالأسئلة عن الشعور consciousness، مثلاً - مشكلات عند البشر أم أحاج، مع أننا ربما نستطيع من حيث المبدأ اكتشاف الإجابة [عن هذا السؤال]، بل

أنْ نكتشف أنها أحاج؛ فليس هناك تناقض في الاعتقاد بأن "ملكة صياغة العلم" ربما تسمح لنا بأن نتعلم شيئاً عن حدودها. (انظر Chomsky 1968 ch. 3; 1975, ch. 4. وانظر عن مسألة الحدود الممكنة، وصلتها بالبحث الفلسفي خاصة 1993; McGinn 1991).

فيمكن الإجابة عن سؤال "ما العلوم الطبيعية"، إذن، بشكل أكثر تحديداً، بالسؤال عن ما الذي أنجزته؛ أو بصورة أعم، بالبحث في إحدى ملكات الذهن (البشرى) المعينة، بخصائصه المحددة. لكن يبدو مع ذلك أنا بحاجة إلى شيء آخر؛ أما ما هو ذلك الشيء فخير وأوضح.

ومن الموحى أن ننعم النظر في أصول العلم المعاصر. وباختصار، فقد وضع التقدم العلمي خلال القرن السابع عشر الأسس لقواعد الفلسفة الآلية، التي أدت إلى القضاء على التخيلات العجيبة عن أشكال الأشياء التي تطير في الهواء وتغرس نفسها في الأمتعة، وعن الطاقات والقوى الغامضة، و"النوعيات السرية" للتعاطف، والتناذب، إلخ، وهو ما سمح باقتراح بعض الخرافات كالتأثير عن بُعد غير فراغ. وقد لاحظ الديكارتيون أن بعض الظواهر الطبيعية (ومن أبرزها استخدام اللغة) لا تقع في نطاق الفلسفة الآلية، على ما يبدو، وهو ما جعلهم يفترضون مبدأً جديداً لتفسيرها. فقد افترضوا، بناء على منظوراتهم الماورائية [الغيبية]، جوهرًا ثانيًا (*res cogitans* "ذهن")، ولأسباب أخرى كذلك. وبغض النظر عن التطبيق، لم يكن هذا الاقتراح بعيداً عن المعقول، بل لا يختلف كثيراً عن التفسير الذي اقترحه نيوتن حين اكتشف أوجه القصور في الفلسفة الآلية. وأدى افتراض شيء يقع وراء الفلسفة الآلية إلى نشوء مشروعين هما: تطوير النظرية وحل مشكلة التوحيد؛ ويتمثل هذان، في الحالة الديكارتية، في "مشكلة الذهن - الجسد". وهذا كله علمٌ عادي، وكان خطأ، لكن هذا الخطأ نفسه عادي كذلك.

وبمجرد أن بدا كأن الفلسفة الآلية انتصرت، قوّضها نيوتن، حيث أعاد إدخال نوع من السببية والنوعية "السرية"، مما أثار امتعاض العلماء البارزين

وقتذاك، بل امتعاضه هو نفسه. ولم تتأثر النظرية الديكارتيّة عن الذهن (بصورتها التي كانت عليها) باكتشافاته تلك، أما نظريته عن الجسد فقد بُرهن على أنها غير ممكنة. وبكلماتٍ أخرى، فقد قضى نيوتن على مشكلة "الروح في الآلة" بالتخلص من الآلة؛ أما الروح فلم تتأثر. كما تركنا نستنتج أنه لا يمكن أن نتوقع أن يبقى الحدس البديهي - أي "الفيزياء الشعبية" التي كانت أساساً للفلسفة الآلية - في وجه التحول نحو البحث العلمي المنهجي في طبيعة الأشياء. وقد اختفت مشكلة للذهن - الجسد، وبمستحيل بعثها، إن كان ذلك ممكناً بأية حال، (لا بتقديم فكرة جديدة للجسد (كأن يكون مادياً، أو فيزيائياً، إلخ) لتحل مكان الفكرة التي هُجرت، وهو مشروع ربما لا يكون معقولاً، كما يبدو. أما إن لم يحدث ذلك، فلن توفر لنا عبارة العالم "المادى" ("الفيزيائي"، إلخ) إلا طريقة غير منضبطة في الإحالة إلى ما نفهمه فهماً تقريبياً، ونأمل في توحيدده بطريق ما.

والنتيجة الطبيعية، التي استخلصها لو ميتر بعد ذلك بقليل ثم جوزيف بريستلي بعده، أن الفكر والفعل البشريين خصيصتان للمادة المنظمة، تشبهان قوى التجاذب والتنافذ، والشحن الكهربائي، وأشباهاها (Le Mettrie 1747)؛ كذلك (Cohen 1941؛ و Yolton 1983؛ و Wellman 1992). ونحن نسعى، حين نتبنى وجهة النظر تلك، إلى تحديد خصائص هذه الأشياء في العالم، وتعليل الظواهر الذهنية في ضوءها، وتبيين كيفية نشوئها عند الفرد والنوع، وإلى ربط هذه النتائج بأي شيء آخر نعرفه عن المادة المنظمة (وهذا هو الوجه الجديد لمشكلة التوحيد). ولم يتحقق إلا تقدم ضئيل، فيما يخص المشكلة الأخيرة. كما لم يتحقق تقدم حقيقي في تعليل خصائص الاستخدام العادي للغة، وغيرها من الظواهر، وهي التي دعت الديكارتيين إلى افتراض جوهر ثانٍ (وإن لم تعد حدود الآلية موضوعاً مهماً). وربما نكتشف في نهاية الأمر أن هذه [الظواهر] أحاج عند البشر. وقد تحقق قدر من التقدم في فهم آليات للذهن من الزاوية الأكثر تجريداً "للنحو الكلي" و"جهاز اكتساب اللغة"،

والحالات المحصلة، وتفاعلاتها مع الأنظمة الإدراكية الأخرى؛ وفي دراسة بعض هذه الأنظمة (كالنمو التصوري، مثلاً). وهذه فروع للعلوم الطبيعية، في ضوء المسلمات العلمية الطبيعية — سواء أكان ذلك أمراً جيداً أم سيئاً، خطأ كان أم صواباً.

وتُحاول العلوم الطبيعية أن تفهّم العالم في مظاهره الكيميائية والكهربائية والذهنية، إلخ. فهل يحوى العالم قوى نيوتنية غامضة تؤثر على أجساد يفصل بينها فضاء فارغ، أو يحوى مجالات كهربائية ومغناطيسية تتصف، وإن كانت أشياء رياضية [من الرياضيات]، بأنها أشياء فيزيائية "واقعية" نظراً للطريقة التي تُتدافع بها عبر فضاء فارغ" (Penrose 1989: 185- 186). أو يحوى فضاءً منحنيًا يبدو أنه يسلب البنية المحددة كلها أى شيء يمكن أن نسميه صلابة، أو أنه ربما لا يحوى في أعماقه إلا شذرات من المعلومات (Wheeler 1994: 294f). وهل يحوى أفكار هيربرت ومبادئه العامة بوصفها جزءاً من "الغريزة الطبيعية"، أو مفاهيم هيوم، أو أفكاراً وتصورات، أو مبادئ حوسبية وحالات، إلخ؟ ويسعى البحث العلمي الطبيعي للإجابة عن هذه الأسئلة، بقدر ما يستطيعه من نقد ذاتي، مبتعداً عن المسلمات الاعتيادية حين يمكن اكتشافها، مع الوعي بأنه لا يمكن التغلب على القيود الأحيائية على الفكر البشري، أما القيود الثقافية فربما لا يتيسر اكتشافها بسهولة.

دعنا نعد إلى الاتهام بأن النظرية عن الذهن التي تقدم أفكاراً كـ "الفهم الدقيق للمعاني الفرجية" لا تتناغم مع الفرضيات التي "طورتها العلوم الطبيعية" أو لا تتماشى معها. وهذه الملحوظة صحيحة لكنها غير مهمة، إن كنا نعنى للعلوم الطبيعية في الوقت الحاضر، باستثناء "النظرية عن الذهن". أما الأسئلة الحقيقية فيجب أن تتعلق بمكانة "النظرية عن الذهن" بناء على أسس علمية طبيعية، وبمشكلة التوحيد (إن كانت "النظرية عن الذهن" معقولة شيئاً ما). أما إن عني هذا الاتهام أن مشكلة التوحيد تقع وراء القدرة البشرية

فربما يكون ذلك صحيحاً، لكن ليس لهذا علاقة بالمكانة العلمية للنظرية عن
الذهن*. فلا يلزمنا أن ننظر في بعض التخرصات عن العلم "الصحيح"، وهو
الذي ربما يقع وراء ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري. لكن ما الأشياء
الأخرى التي تتطلبها المقاربة الطبيعية "الغيبية"؟ والجواب: إن هذا ليس
واضحاً.

فهل ينبغي أن نفهم المقاربة الطبيعية الغيبية على أنها المطلوب الذي
يوجب وحدة الطبيعة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فيمكن أن يُنظر إليها على أنها
فكرة موجّهة، لا مذهباً؛ ذلك أن علماء الفيزياء يقولون لنا إن "تسعين بالمائة
من المادة في الكون تنتمي إلى ما يسمى الآن بالمادة السوداء - وهي سوداء
لأننا لا نراها؛ وهي سوداء لأننا لا نعرف ماهيتها"، بل "إننا لا نعرف شيئاً
عن المادة التي يتكوّن منها تسعون بالمائة من الكون" (Weisskopf 1989).
افرض أننا وجدنا في نهاية الأمر أن المادة السوداء تختلف اختلافاً جوهرياً
عن العشرة بالمائة من الكون التي نعرف عنها شيئاً. ولا يمكن التقليل من
شأن هذا الاحتمال من حيث المبدأ؛ ذلك أن العلم المعاصر يقبل ببعض
الأشياء الغريبة. كما لا يمكن نفي هذا الاحتمال في حالة للنظرية عن الذهن.
ومع أنه ليس هناك دليل يلزم بقبول الفرضية للديكارتية، إلا أن بعض
جوهها (مع تصور للجسد أكثر غنى) ربما تكون صحيحة من حيث المبدأ
في نهاية الأمر، ومتماشية مع الموقف العلمي الطبيعي.

المقاربة المادية ونقلاها:

ستكون المقاربة الطبيعية الغيبية موقفاً متماسكاً إن بيّن لنا المدافعون
عنها ما الذي يمكن عدّه "فيزيائياً" أو "مادياً". أما قبل ذلك فلا يمكن لنا فهم
هذا المذهب، دعك من بعض الأفكار المشتقة منه كـ "المادية
الإقصائية" eliminative materialism وأشباهاها. أما من حيث الممارسة
فيبدو أن بعض أوجه الفكرة الأخيرة لا تزيد عن كونها شعارات تشير إلى

الاتجاه الذي يمكن أن نجد فيه إجابات، لهذا ليس لها أهمية خاصة.

ويبدو أن نقاد هذه المذاهب يواجهون المشكلة نفسها، أي: ما الذي ينتقدونه؟ ومن أبرز هؤلاء توماس ناجل، الذي يقدّم عرضاً مفصلاً واضحاً لوجهات النظر المهيمنة ونقده إياها، وهو النقد الذي يوجهه على وجه التحديد للمسائل التي أهتمُّ بها هنا (Nagel 1993). وأظن أن عرضه لهذه القضايا كان خاطئاً، وإن بطريقة لافتة للنظر، ونتائج مشكوك فيها لهذا السبب وأسباب أخرى، ويشمل ذلك النتائج التي انتهى إليها عن "جهاز اكتساب اللغة" والنظرية عن للذهن، التي يختتم بها حديثه.

يقول ناجل إن "مشكلة للذهن - الجسد" لم تُثر بشكلها الحديث إلا في القرن السابع عشر، بتزامن مع نشوء التصور العلمي للعالم الفيزيائي الذي نشأنا عليه جميعاً الآن" (1993: 97) (أي التصور النيوتني). لكن هذا يعكس القصة. ذلك أنه كان لمشكلة للذهن - الجسد معنى في ضوء الفلسفة الآلية التي هددها نيوتن، ولم تُثر بشكل متماسك منذئذ. وإذا كان الأمر كذلك فلا يمكن للنقاش أن يسير في ضوء ما يراه ناجل إلا إن وُجد تفسير جديد لطبيعة الجسد (المادية، أو الفيزيائية، إلخ) وللذهن.

ويقود هذا المنظور للقضايا وأصولها إلى تفسير خاطئ للإسهامات المعاصرة كذلك. لذلك يلخص ناجل "دعوى سيرل الجذرية" التي تقول إن "الشعور خصيصة فيزيائية للدماغ" وهي خصيصة "لا يمكن اختزالها إلى أية خصيصة فيزيائية أخرى"، وهو موقف، إن بئس بطريقة ملائمة (وهذا قد لا يكون ممكناً كما يرى ناجل)، ربما يكون إضافة رئيسة للإجابات الممكنة عن مشكلة للذهن - الجسد" (1993: 103). وتمثل هذه الدعوى "القلب الغيبى" لافتراح سيرل، وبكلماته هو: فـ "الشعور خصيصة للدماغ من مستوى أعلى أو هي خصيصة ناشئة عنه"، وتتنمى إلى الترتيب الأحيائي الطبيعي... . كانتماء التمثيل الضوئي والهضم والانقسام الفتيلي إليه".

وهذه الدعوى غير جذرية بغض النظر عن إن كانت صحيحة أو لا؛ بل هي - أو كانت - ردُّ الفعل الطبيعي على تفويض نيوتن للفلسفة الآلية، وتفويضه من ثم لمشكلة الذهن - الجسد، بشكلها الديكارتي في الأقل. وكما لاحظنا، فالقول بأن الفكر والفعل (ويشمل ذلك الشعور) خصائص للمادة المنظمة، ولا يمكن اختزالها إلى خصائص أخرى إلا بقدر إمكان اختزال الخصائص الكهربائية المغناطيسية إلى خصيصة الآلية، فكرة اقترحها العلماء في القرن الثامن عشر - لكن لم يقصد بها أن تكون إجابة ممكنة لمشكلة الذهن - الجسد، التي لم تُصغ بشكل متماسك (آنذاك، أو الآن). أما الأهمية الغيبية لهذه الدعوى فتماثل أهمية العلاقة بين الآلية الكلاسيكية والنظرية الكهربائية المغناطيسية [للمعاصرة].

ويقترض ناجل فهماً مسبقاً للذهن والجسد، وللذهني والفيزيائي، ويورد بعض الإشارات عما يعنيه بذلك. ففي تعبيره عن أحد المواقف النموذجية، ينظر إلى "جوهر الذهن" على أنه الشعور، أي أن "الظواهر الذهنية كلها شعورية إما حقيقة أو إمكاناً" (1993: 97). وسواء قصد بهذه الصياغة أن تكون اقتراحاً اصطلاحياً أم جوهرياً، فهي تتطلب تفسيراً لمفهوم "شعوري إمكاناً"؛ ويتبنى ناجل اقتراح سيرل (Searl 1992) عن هذا الأمر، لكن هذا الاقتراح يواجه صعوبات حقيقية، كما يبدو.

هب أننا أخذنا للشعور على أنه علامة ما يكون ذهنيًا. فماذا عن الجسد؟ وهو الذي يماهى ناجل بينه وبين ما "يمكن أن تصفه العلوم الفيزيائية" (باستثناء الشعور، أما إن كان هذا الاستثناء افتراضاً أم اكتشافاً، فليس واضحاً). ومن هنا يفهم النزعة المادية (التي يقول إن أكثر الفلاسفة المعاصرين يقبلون بها) على أنها الاعتقاد "بأنه يجب أن يكون كل ما في الكون وأى شيء يحدث فيه قابلاً للوصف بالعلم الفيزيائي" - وهي وجهة نظر يرى أنها متماسكة، مع أنها زائفة. ويعنى تبنيها محاولة للقيام بـ "نوع من الاختزال لما هو ذهني إلى ما هو فيزيائي - حيث يكون الفيزيائي،

تعريفًا، ما يمكن أن يوصف بمصطلحات غير ذهنية" (أي بمصطلحات لا تتضمن "الشعور الممكن"). "أما ما نحتاجه لإكمال الصورة المادية للعالم فخطاظة تشبه الشكل التالي: إن "الظواهر الذهنية - كالأفكار والمشاعر والأحاسيس، والرغبات، والإدراكات، إلخ - ليست إلا . . ."، حيث يمكن أن يُمَلأ مكانُ النقاط بوصف إما فيزيائي صراحة أو يستعمل مصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون فيزيائيًا محضًا، أو ربما يُعطى شروطًا للتأكيد" بناءً على "أسباب خارجية يمكن ملاحظتها". ويمضى ناجل قائلاً: "إن تاريخ فلسفة الذهن في الخمسين سنة الماضية يتمثل في المحاولات المختلفة لتنفيذ هذه المهمة التي تبدو مستحيلة، والحجج التي تُبَيِّن إخفاقاتها". أما المشكلة التي لم تُحل، وربما يستحيل حلها، فمشكلة الذهن - الجسد، وهي مشكلة "أن نجد مكانًا في العالم لأدمغتنا نفسها، بتجاربها الإدراكية وأفكارها ورغباتها، وطريقتها في صياغة النظرية العلمية، وكثير غير ذلك مما لا يمكن للفيزياء أن تصفه".

وهناك ما يكاد يكون إجماعًا على اعتقاد أن هذه الأسئلة متماسكة ومهمة. لهذا يناقش تايلر بيرج، في مراجعة مفصلة موحية لقرن من فلسفة الذهن، ظهور "النزعة الطبيعية" ("المادية"، "الفيزيائية") في ستينيات القرن العشرين بوصفها "إحدى المواقف المحافظة القليلة في الفلسفة الأمريكية" (Burge 1992: 32). وهي وجهة النظر التي ترى أنه ليس هناك حالات ذهنية (أو خصائص ذهنية)، إلخ) تُعلو وتتجاوز الوحدات الفيزيائية العادية، أي تلك الوحدات التي يمكن أن تعيَّننا العلوم الفيزيائية أو للوحدات التي يمكن أن تُعَدَّها البديهة فيزيائية". ويصف "النزعة الإحصائية"، وهي إحدى التيارات الرئيسية في الجهود نحو "جعل الفلسفة علمية"، بأنها "وجهة النظر التي ترى أن الكلام الذهني والوحدات الذهنية ربما تُفقد مكانها في نهاية الأمر داخل المحاولات التي نقوم بها لوصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33)، وربما يكون هذا خطأ، لكنها دعوى مهمة بكل تأكيد. ومع ذلك فهذا ليس واضحًا بما يكفي.

انظر إلى فكرتي ناجل: "قابل لأن تصفه للفيزياء" و"وصفته للفيزياء".
 فما الذي تعنيانه؟ وهو يقَدِّم مثال "السيولة"، بعلاقتها "الشفافة" بسلوك
 الجزيئات. ولا يمكن لهذه العلاقة أن تكون شفافة تماما؛ فقد كان أبرز علماء
 الفيزياء قبل قَرْنٍ يَنظرون إلى الجزيئات على أنها خرافات مريضة، وأنها
 حالات للمادة، كما عُرف فيما بعد، لا يمكن وصفها بالفيزياء آنذاك. وربما
 صح لأحد فروع العلم لم يكن قد وُحِدَ مع الفيزياء حينذاك أن يلقي قدرا كبيرا
 من الضوء تأسيسا على صياغاته النظرية، إلى جانب أشياء كثيرة؛ لكن هذا
 الشيء نفسه صحيح الآن عن بعض جوانب مجال ما يُعدُّ ذهنيا (بالمعنى الذي
 أقصده). فلماذا تكون هذه التعليقات أقل "فيزيائية" مما كانت الكيمياء عليه قبل
 قرن؟ أو أقل فيزيائية من القوى السرية عند نيوتن، وهكذا حتى نصل إلى
 المفترضات النظرية الغامضة المضادة للحس في الوقت الحاضر؟ وربما
 أمكن توحيد التعليقات العلمية الطبيعية للظواهر الذهنية في المستقبل مع
 الفيزياء، وهي التي ربما يجب، مرة أخرى، أن تعُدَّ، وعندها ستكون
 العلاقات "شفافة" كذلك.

أما دعوى للزعة الإقصائية في صياغة بيرج لها (وهي صياغة
 نمطية، مرة أخرى)، فيمكن أن نسأل لماذا تكون مهمة أصلا. دعنا نستبدل
 بمصطلح "ذهني" مصطلح "فيزيائي" في هذه الدعوى. ولا خلاف على أن
 "الكلام الفيزيائي والوحدات الفيزيائية" فقدت مكانها منذ أمد بعيد في
 محاولتنا وصف العالم وتفسيره، إن عنيانا بـ "فيزيائي" و"فيزيائية" الأفكار
 التي تدخل في خطابنا وتفكيرنا العاديين. فلماذا ينبغي أن نتوقع شيئا مختلفا
 عن "الكلام الذهني والوحدات الذهنية"؟ افرض أنني قلت:

The rock dropped from the skies, rolled down the hill, and hit the
 ground.

"سقط الحجر من السماء، وتدرج على سفح الجبل، ثم وصل إلى
 الأرض".

ولا يمكن ترجمة هذا القول إلى النظريات التي طوّرت لوصف العالم وتفسيره، وليس هناك علاقة مهمة أضعف لبيان هذا القول وتلك النظريات؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالم فكرية مختلفة. لكن لا أحد يأخذ هذا على أنه يرأس لمشكلة "جسد - جسد"⁽⁴⁾. ولا تطمح العلوم الطبيعية كذلك إلى تمييز هذا الوصف عن القول بأن الحجر سقط في وَهْدَةٍ، وهو ما يمكن أن يكون الحدث نفسه منظوراً إليه من زاوية مختلفة (حين لا يميّز الجبل عن التضاريس الطبيعية المحيطة به). ولا يتوقع المهتمون بالمنهجية الطبيعية أن يجدوا نظائر لهذه الأحكام العامة في النظريات التفسيرية التي يصوغونها بوعي؛ كما لا يجدون مثل هذه النظائر لأقوال مثل:

John took his umbrella because he thought it was going to rain.

"أخذ جون مظلاته لأنه ظن أن السماء كانت ستعطر".
أو:

John is in pain.

"جون يتألم".
أو:

John speaks English.

"يتكلم جون الإنجليزية".

- مع أنهم يأملون، في الحالات كلها، في احتمال أن يؤدي البحث العلمي الطبيعي إلى فهم أعمق في المجالات التي فتحها للبحث خطاباً يعكس المنظورات البديهية.

ويبرز بعض الأسئلة المماثلة بشكل أكثر توسعاً. انظر إلى وجهة نظر نونالد ديفيدسون عن "ثنائية الذهن"، وهي أنه على الرغم من وجود علاقات سببية بين الأحداث الذهنية والفيزيائية، إلا أنه ليس هناك قوانين نفسية - فيزيائية تربط بينها في خطاطة تفسيرية ملائمة. وكما يصوغ ديفيدسون الأمر، ينبغي ألا نقارن بعض البديهيات عما سيفعله الناس عموماً

تحت بعض الظروف المحددة "بقانونٍ يبين ما السرعة التي سيهوى بها جسد في فراغ"، لأن "من الممكن التنبؤ في الحالة الأخيرة، لا في الحالة الأولى، هل يتحقق الظرف أم لا، وإذا لم يتحقق فإننا نعرف السبب الذي جعله لا يتحقق" (Davidson 1980: 233)، وهذا موقف من مشكلة الذهن - الجسد يصفه بيرج بأنه "عميق لكنه خلافي" وإن لم يوضّحه بشكل كاف. (الاطلاع على نقاش متعاطف، انظر Evnine 1991)، ولا تبدو هذه الحجة مقنعة تماماً. ذلك أنه ينبغي، وللسبب نفسه، ألا نقارن بعض البدهيات عن تدحرج الكرات على سفوح الجبال أو عن عاصفة تتولد في الغرب بقانون سقوط الأشياء إلى أسفل، لكننا لسنا معنيين بعدم وجود قوانين فيزيائية - فيزيائية physico-physical laws تربط بين الخطاب العادي عن الأحداث في العالم والنظريات التفسيرية للطبيعة. وهناك من يُحاج بأن "علم النفس الشعبي" يختلف عن "علم الآلية الشعبي"، مثلاً، أو "علم الكيمياء الشعبي" بسبب طبيعته الاستنتاجية [القبليّة] a priori وعلاقته الحميمية بأفكار العقلانية والتعليلات والمقاصد ومنظور المتكلم، إلخ. وهذه مجالات مختلفة بالتأكيد، لكن ليس واضحاً أنها تختلف في مظهر "الشدونية" بالمعنى المقصود في هذه المناقشة. وبقدر ما يمكن للبحث العلمي أن يزعم قناعة شخص ما بأن الشمس تغرب أو أن بعض الأشياء تتصف بخاصية "التنافي" impenetrability (مع بقاء مثل هذه القناعات في أجزاء أخرى من الحياة)، يمكن أن تنشأ عنه بعض النتائج المشابهة على قناعات الشخص عن طبيعة الاعتقادات (عن الدور الذي تؤديه العقلانية، مثلاً). وأكثر ما يعتقده الناس عن الاعتقادات أموراً استدلالية [بعديّة] a posteriori (ومن أمثلتها الجدل حول مفهومي "شبكة المعنى" و"الفطرية") كما لدينا بعض الاعتقادات الاستنتاجية عن الكرات التي تتدحرج على سفوح الجبال وعن تولد العواصف، ويبدو أن "علم الآلية الشعبي" (إلخ) ليس أكثر قبولاً من "علم النفس الشعبي" لأن تصاغ قوانينه بقوانين "جسريّة" bridge laws^(٥)، وكما يحاج ديفيسون، فأمثلة الحدت الذهنية، ليست

أمثلة من أنماط الحدث الفيزيائي (في الوصف العام). والشئ نفسه صحيح عن أمثلة الحدث الفيزيائي والأشياء الفيزيائية، كما تفهمها للديهسة؛ ولن تحوى اللغة البشرية مصطلحات للنوع الطبيعي، إلا نتيجة لصنفة رائعة، إن كانت الأنواع الطبيعية أنواعاً من الطبيعة⁽¹⁾.

وإذا بدّلنا المصطلحات قليلاً دعنا نتحدث عن "الأحداث التي توصف ذهنياً" ("أحداث - ع") و"الأحداث التي توصف فيزيائياً" ("أحداث - ف")، محيلين إلى تعليقات مصوغة باللغة العادية، محتفظين بمصطلحات "ذهني" و"كيميائي" و"مناظيري"، إلخ، للأحداث التي يفترضها البحث العلمي الطبيعي في المجالات الذهنية والكيميائية والمناظيرية، إلخ - وكلها "أحداث فيزيائية"، وهو مصطلح يتصف بالزيادة حين نتكلم عن الأحداث؛ والشئ نفسه فيما يخص الأشياء، وهكذا. ونتوقع من ثم أن نجد علاقات سببية بين "أحداث - ع" والأحداث الفيزيائية، لكن من غير قوانين تربط بينها في إطار العلم التفسيري؛ والشئ نفسه صحيح عن "أحداث - ف". وليست الاعتقادات والرغبات والإدراكات وتخرج الصخور نحو الأرض وتولد العواصف، إلخ، موضوعات للقوانين العلمية، كما لا توجد قوانين جسرية تربطها بالعلوم. ومن المسلم به أن العلم لا يحاول الإحاطة بمضمون الخطاب العادي، ناهيك عن عمليات التخيل الأكثر إبداعاً. وإذا صغنا عبارة ناجل بشكل آخر، فلا يمكن أن نجد مكاناً في عالم الفيزياء للظواهر الفيزيائية، بالصورة التي نصفيها بها في الكلام الفيزيائي ("ظواهر - ف")، لهذا لا غرابة أن يكون الشئ نفسه صحيحاً عن ("ظواهر - ع") كما توصف في الكلام الذهني.

وربما ينبغي التأكيد مرة أخرى أنه ربما يكون المدى الذي يصل إليه البحث العلمي الطبيعي محدوداً إلى حد بعيد، حتى إنه ليقتصر عن تناول بعض المسائل التي تمثل موضوعاً للانفعالات البشرية المهمة، مهما كان المدى الذي يمكن أن يصل إليه اهتمامه الفكري، وهذا هو الوضع الآن بكل

تأكيد، وربما سيظل كذلك. وتفضي النزعة الإقصائية بازدياد، كما يعلق ناجل ساخرًا، على "النظرية البدائية" التي كانت "مجالاً لاهتمام بعض البسطاء كفلوبير وبروست وهنري جيمس". ولا تبدو لي النزعة الإقصائية موقفًا متماسكًا، إلا أن من المستبعد أن تسعى المقاربة العلمية إلى استلحاق هذا المجال [النظرية البدائية]، إلا بقدر ما تسعى إلى استلحاق بعض الأمور الثقافية كتكحرج الصخور على سفوح الجبال وتولد العواصف؛ أما الأمر فبعكس ذلك، بل إنها تحرر الباحث من بعض المتطلبات غير الضرورية (انظر الهامش رقم ١).

لاحظ أن صدق الكلام الفيزيائي العادي ومكانة الوحدات التي يفترضها ليسا موضعًا للشك هنا. فهذه قضايا مختلفة. كما لا يثار أي سؤال عن دراسة التصورات البديهية بوصفها فرعًا للبحث العلمي الطبيعي (أي: العلم الإثني). فربما يكون من المهم أن نعرف كيف تبدو بعض الأفكار عن اللغة في ثقافة [القبيلة الهندية الأمريكية] النفاهو (للاطلاع على وصف وافٍ لهذا، انظر Witherspoon 1977) أو في شوارع نيويورك، بل في الثقافة الفلسفية الأكاديمية المصطنعة بوعي كذلك. ويصح الشيء نفسه عن بعض الأفكار الخاصة بالموضوعات الفيزيائية، والتفاعل، والفضاء، والحياة وبداياتها، إلخ. لكن لا بد من أخذ مثل هذا المقاربات بجد؛ إذ إنها ليست مقاربات عرضية، ويجب عدم الخلط بينها وبين البحث العلمي الطبيعي في طبيعة ما يتناوله العلم الشعبي بطريقته الخاصة، مستعملًا، ربما، ملكات أخرى مختلفة للذهن. والعلم الإثني فرعٌ للعلم يدرس البشر، ويسعى لفهم للطرق التي يؤوّلون بها العالم، وتتوعات هذه الأنظمة وأصولها. وتكرس فروع أخرى للعلم طبيعة ما يكتشفه للبشر ويؤوّلونه بطرقهم الفريدة الخاصة، سواء أكانت تلك الظواهر مناظرية أم كهربائية أم آلية أم ذهنية. ونحن نستمّر، في الوقت نفسه، في استخدام تصوراتنا، ونختار بوعي، أحيانًا، أن نصقلها ونغيرها، في محاولتنا للتعامل مع مشكلات الحياة اليومية. وهذه مقاربات متميزة.

ويَسأل العلمُ الإثنى عن كيفية تأويل الناس لما يجدونه في محيطهم وكيف يقومونه. ويُعنى بتفسيرات الأشياء التي تحاول الوصول إلى أماكنها الطبيعية وبحركة الأجرام السماوية قياسًا إلى بعض النجوم الثابتة؛ وبالعناصر الجوهرية الأساسية كالأرض والماء والهواء والنار والطرق التي تتحد بها لتنتج ظواهر الطبيعة؛ وظواهر القوى المهمة التي توجّه للتطور الأحيائي والتميز؛ وظواهر الاعتقادات والرغبات والخسوف والعناصر الأخرى التي تدخل في تحليل الأحداث اللغائية؛ إلخ. وليس ادعاءً اختياريًا تافهاً أن نقول إن الناس في بعض الثقافات التقليدية يؤوّلون الحركة في ضوء مفهوم النّماس؛ أو يعزّون، متوافقين مع آراء ديفيدسون، بعض الاعتقادات والرغبات في ضوء معايير العقلانية والمعيارية normativity منطلقين من منظور شيكي، في جهودهم لتقويم الأفعال. وهذه ادعاءات قوية، وتتطلب أدلة. وربما تبين في نهاية الأمر أن الاعتقادات والرغبات تعزى إلى بعض المخلوقات (كالبشر، ربما) انطلاقًا من اعتبارات مختلفة كليًا، إذ ربما تكون انعكاسًا لطرق غريزية للتأويل يحددها الإعداد الأحيائي الفطري (أي: البيئية)، وأنه يقام بمثل هذا العزو باطراد حتى حين يُمكن للنظر إلى الكائنات المعزوة إليها على أنها تتصرف بطرق لا تتوافق مع العقلانية تمامًا، أو موجهةً بالغريزة في بعض السياقات التي لا تبرز فيها مسألة العقلانية.

وبغض النظر عما يمكن أن يكتشفه المهتمُّ بالعلم الإثنى عن طبيعة الموقف القصدى "intentional stance"، بمعناه عند دانيال دينييت، فهنالك طريقان آخران يُشرعان أمام البحث العلمي. فالأول عن الناس، أي: ما الأصول التي جاءت منها طرق الفهم عندهم؛ وتحديدًا، ما الدور الذي يؤديه الإعداد الفطري في تطوير علم الكون cosmology، أو الحكم بأن شخصًا آخر يحاول تناول كتاب أو يقرأ كتابًا، أو يُسرّع ليلاحق بالحاظلة. وينظر التوجه الثاني في الأشياء التي يحاول الناس فهمها بطرق العلم الشعبي التي تقوم على الغريزة وتحددها الثقافة. [مثل] ما مدى الصدق في علم الكون،

وتكوّن القارات، وتمايز الحشرات، وتخطيط المرء لما يفعله، إلخ. وستؤطر الإجابات، بقدر ما يكون نفاذًا للنكاه البشري إليها ممكنًا، في ضوء بعض الحدود الملائمة للمشكلات المعنية، مع اهتمام ضئيل بالوسائل الفكرية للعلوم الشعبية، ومن غير أن نتوقع أنه سوف يُمكن التعبير بصورة مباشرة عما يوصل إليه من الصياغات والمبادئ في ضوء فروع العلم الأكثر "أساسية"، حتى إن حلت مشكلة التوحيد. وربما تكون النتيجة النهائية أننا نستطيع تفسير السبب الذي يجعل تأويلات العلم الشعبي تعمل بقدر ما، سواء أكانت تهتم بالأجرام السماوية والزهور، أم بلاعب متمرّس للشطرنج، أم بطفل يستخدم قوالب لبناء قلعة (انظر Burge 1992)، للاطلاع على بعض التعليقات الخاصة بعزو الحالات الذهنية، في هذا السياق، انظر Chomsky 1969).

وإذا رجعنا إلى نقد النزعة المادية - بحسب ما يراه ناجل، مثلًا - فيبدو أنها تواجه عددًا من المشكلات. فليس هناك معنى واضح للتصورين المفترَضين "فيزيائي" و"مادي"؛ وكذلك التصور "ذهني"، إلا إن أضيقنا معنى معينًا على فكرة الشعور "الممكن" وحتى بعد ذلك، ليس من الواضح ما الأهمية التي ربما تكون لهذه المقولة تحديدًا، بتمييزها عن مقولات أخرى كثيرة. وليس من شأن العلوم أن تعبر عن مضمون الخطاب العادي عن أي شيء، فيزيائيًا كان أم ذهنيًا. فليس هناك مذهب متماسك للنزعة المادية أو النزعة الطبيعية الغيبية، فيما يبدو، وليس هناك قضية إقصائية، ولا مشكلة للذهن - الجسد.

وتتزايد المشكلات حين ننظر في الكيفية التي نتناول بها بعض المسائل الاختبارية المحددة. وينظر ناجل في إحدى هذه المشكلات وهي: الاقتراح بأن هناك "جهازًا لاكتساب اللغة" LAD، يسمح للطفل بأن يتعلم نحو لغة ما بناء على عينات من الكلام الذي يتعرّض له (Nagel 1993: 109). وينظر إلى هذا على أنه جزء محترم من العلم، صحيحًا كان أم خطأ. إلا أنه يجادل بأنه ليس صحيحًا أن يوصف "جهاز اكتساب اللغة" بأنه "آلية نفسية"، كما هو

رأى: بل ينبغي أن يُنظر إليه على أنه "آلية فيزيائية وكفى" - ذلك أنه لا يمكنه أن يؤدي إلى نشوء فكر شعوري ذاتي يتكوّن مضمونه من تلك القواعد نفسها" (ص ١٠٩). وإذا وضعنا جانباً هذا للتصور لـ "جوهر الذهن" وصحة وصف ناجل لـ "جهاز اكتساب اللغة" (وهو وصف ربما لن أصوغه بهذه الطريقة تماماً)، ينبغي أن نلاحظ أن تأكيد ناجل يبدو تأكيداً اختياريّاً عن "قنطرة" نظام فيزيائي ما. وهنا نواجه، مرة أخرى، الأمر الأهم المتمثل في "الشعور الممكن"، الذي يُقدّم الآن بوصفه فرضيةً اختياريّة. وسنعود إلى هذا.

وماذا سيكون ردُّ فعل من يتبنى صراحةً "المادية الإقصائية" على نظرية لـ "جهاز اكتساب اللغة" (أو للنحو الكلي)، وننقل كوين، الذي يصفه بيرج بأنه مؤسس هذا المذهب؟ فيقدّم كوين "دعوى المقاربة الطبيعية" التي تقول إن "العالم هو ما يقول العلم الطبيعي إنه هو، بقدر ما يكون العلم الطبيعي صحيحاً" (Quine 1992: 9)؛ لكن هذا غير مفيد حتى يبيّن لنا ما "العلم الطبيعي". وكنت قد اقترحت عدداً من الإجابات الممكنة، لكن يبدو أن كوين يفكر بأشياء أخرى. فالعلم الطبيعي عنده هو "تظريات الكواركات وما يماثلها". لكن ما للشيء "المماثل تقريباً" ليكون جزءاً من العلم؟ ومن الواضح أن هذا يسمح بإدخال العصبونات، ومعها بعض العمليات النفسية المعينة؛ لهذا يؤكد كوين أن اللغة "موصولة إلى دخلنا العصبي بالآليات العصبية للترابط أو التقيد". لكن الأتلة الاختبارية كثيرة جداً على أنه لا شأن للترابط والتقيد باكتساب اللغة أو استخدامها، إلا أن ذلك لا يبدو مهماً عنده، والسبب وراء موقفه هذا غير واضح. ومهما كانت الإجابة، فهناك أمثلة مما يحبّذه كوين (كالكواركات والدخول العصبية والتقيد) وأخرى مما لا يحبّذه (كأدوات "جهاز اكتساب اللغة"، أي الآلية العاملة، على حد ما نعرفه عنها). لكنه لم يقدّم أسباباً لقراراته هذه، أو شيئاً يتجاوز أمثلة قليلة توحى بمدى [هذه القرارات].

وتكتشف "دعوى المقاربة الطبيعية" التي اقترحتها عن الاعتبارية نفسها

في مجالات أخرى. لهذا يكرّر كوين وجهة نظره التي يقنّمها في أغلب الأحيان ومؤداها أن تشييء الأجساد [إدراك الأشياء للمجردة بصورة مادية] يأتي على مراحل في أثناء اكتساب اللغة، حيث تكون "المرحلة الأخيرة" من [هذا التشييء] إدراك ماهية [الشيء] من غير اعتبار للزمن. وإذا كانت هذه فرضية اختبارية، فنودّ أن نعرف كيف يمكن تقديمها بمثل هذه الثقة. والمؤكد أنها ليست فرضية واضحة، بل ليست معقولة. ويجب ألا نكتفي بالأدلة النادرة؛ ذلك أن دراسات الأطفال في السنوات الماضية توفر لنا أسباباً وجيهة جداً للاعتقاد بأن مثل هذا "التشييء" يحدث في الأشهر المبكرة من حياة الطفل، قبل وقت طويل من أي تحقق للغة. (للاطلاع على مراجعة عامة، انظر، Spelke 1990؛ وللإطلاع على مراجعة للأبحاث الأحدث، انظر Baillargeon 1993؛ وانظر كذلك الهامش رقم ٧ على هذا الفصل).

وبما أن نظريات "جهاز اكتساب اللغة" التي يشير إليها ناجل لا تقرّ مذهبيات الترابط والتقييد، وتفترض بعض الآليات التي لا يمكن صياغتها على صورة كواركات أو عصبونات (الآن، في الأقل، وربما إلى الأبد)، فربما لا تنتمي إلى العلم، بمعناه عند كوين. ويُشبه هذا حال الكيمياء قبل قرن، أو الآليات السماوية في زمن نيوتن، ولأسباب مماثلة. وربما لا يتوافق التقصي الاختباري "للتشييء" مع المعايير التي يفترضها كوين كذلك، والسبب نفسه^(٧). ويبدو أننا نواجه مثالاً متطرفاً من الثنائية المنهجية، يتجاوز خصيصاً غموض مفهومي "المادية" و"الإقصائية".

النفذ إلى الشعور

دعنا نوجّه النظر الآن إلى تحديد الذهني في ضوء النفذ إلى الشعور، الذي يؤدي إلى التمييز بين الذهن والجسد، كما يرى كثيرون. فيخلص ناجل، متبنياً هذا الوصف، إلى أن "جهاز اكتساب اللغة" (والحالة المحصلة كذلك، أي "اللغة - د"، وهو ما سنطلق عليه مصطلح "اللغة"، منذ الآن) آلية فيزيائية

وحسب، لا آلية نفسية، ذلك أنه لا يستطيع أن يؤدي إلى فكر شعوري ذاتي يتألف مضمونه من تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). افترض أن أحد خيارات التنوع بين اللغات يتصل باتجاه ترتيب [مكونات الجملة]: شمال - يمين، حيث يكون الاتجاه التركيبي في الإنجليزية: "الرأس أولاً"، كما في:

See – the book.

In – the room.

إلخ، أما في اليابانية فيكون: "الرأس أخيراً" (وهذا تناظر في التركيبات كلها في اللغتين). لكن "جوني" [وهو منكم للإنجليزية] ليس واعياً أنه كان يُنبت "وسيط الرأس" في ضوء الترتيب: "شمال - يمين" اعتماداً على دليل استقاه من عبارة:

See the book

إلخ، ولا يستطيع أن يقول لنا ذلك، مع أن هذا ما يحدث احتمالاً على وجه الدقة، ومثل ذلك أن ماري لا تملك وعياً شعورياً بأنها تستعمل المبدأ (C) في نظرية الربط العاملي حين تؤول المثال (1) بشكل مختلف عن المثال (2)، مطرحة خيار اعتماد الضمير he إحصائياً على Bill في المثال (1) مع سماحها بذلك الاعتماد في المثال (2). لذا لا تؤول المثال (1) على أنه (1') لكنها ربما تؤول المثال (2) على أنه (2') (حيث يشير الضمير he إلى Bill في الحالتين كلتيهما):

He thinks Bill is a nice guy. — 1

يظن (هو) أن بيل شخص لطيف.

The woman he married thinks Bill is a nice guy. — 2

"المرأة التي تزوجها تظن أن بيل شخص لطيف."

Bill thinks he is a nice guy. (١١)

"يظن بيل أنه شخص لطيف".

The woman Bill married thinks he is a nice guy. (٢٠)

"المرأة التي تزوجها بيل تظن أنه شخص لطيف".

ويقارب عدم الوعي هذا، زيادة على ذلك، فكرة "الشعور الممكن"، وهي فكرة لم توضح بعد. وربما تعني أنه لا يمكن لمخلوق بملكة لغوية تماثل ملكة ماري اللغوية، بهذه "الآليات الفيزيائية"، أن يمتلك الشعور الذي لا تمتلكه ماري، وهذه حقيقة اختبارية مهمة. ويترتب على هذا أن نظريات "جهاز اكتساب اللغة" ونظريات اللغة لا تخرق الحد بين الجسد والذهن؛ إذ هي ليست عن الذهن، بل عن الآليات النفسية.

خذ مثالاً من مجال آخر: فلا تعي ماري شعورياً بأنها تستعمل "مبدأ صلابة" يؤول الصور البصرية التي تُقدّم لها على أنها شيء صلب يتحرك حين تزي ما تعدّه مكعباً يتقلب في الفضاء، ولا يستطيع جوني ذو الثلاث سنوات أن يُخبرنا عن الاعتقادات الخاصة بثبات الشيء ("التشيؤ") والمسار الذي يجعله يتوقع ظهور شيء ما بشكل معين، وفترة معينة، ومكان محدد بعد مرور هذا الشيء من وراء حاجز، وربما لا يكون واعياً بذلك (Spelke 1993; Bailargeon 1990). ويترتب على هذا أن لا نستطيع أن نصيف هذه الحالات والخصائص التي نعزوها لماري وجوني كأنها آليات نفسية للإبصار - إن كان الشعور الممكن غائباً أيضاً في هذه الحالات، في الأقل.

وقد قدّم دانييل دوميت فكرة مماثلة، وإن كانت بمصطلحات مختلفة. فهو يعدّ نظريات "جهاز اكتساب اللغة" واللغة المحصّلة "فرضيات نفسية"، وإن لم يوفر أي منها "تفسيراً فلسفياً" لأنها لا تتحدث عن "الشكل الذي يؤدي

به [جسد المعرفة]؛ أما الوعي الشعوري فربما يعبر بنا تلك الحد (Dummett 1991: 97). ويحتمل أن ينطبق الأمر نفسه على فكرة ثبات الشيء وما يماثلها. ولا يقع الفارق هنا بين الذهن والجسد، بل بين العلم والفلسفة. ذلك أن النظريات في العلوم (بغض النظر عن دقة هذه الدعوى)، تبين لنا كل ما يتصل بالشكل الذي يؤدي به جسد المعرفة؛ أما في حالة النظرية عن المعنى (واللغة والفكر عموماً، على وجه الاحتمال، وربما الإبصار والتشويء، إلخ)، فيشترط نوع إضماقي من التفسير، أي تفسير فلسفي، وهو الذي يذهب وراء العلم.

فلدينا، في الحالتين كليهما، فارق جوهري - وربما يكون فارقاً غيبياً - مؤسّس على النفاذ إلى الشعور.

ويتابع تفسير ناجل تفسير سيرل في كتاب [سيرل] الذي كان [ناجل] يراجع (انظر Burge 1992). ويمكن أن نرجع أصول الشكل المعاصر لهذه الحجة إلى تمييز كوين المؤثر بين "المواقفة" fitting و"التوجيه" guiding. فيعترض كوين على مذهب تقليدي (وهو الذي أعيد تأويله في اللسانيات المعاصرة) يقول بأن المتكلمين "يوجهون" بفكرة للبنية" ربما لا تكون شعورية حين يصوغون "التعبيرات الحرة" الجديدة ويؤوّلونها (Jespersen 1924: 19). وهو مذهب ينظر إليه كوين على أنه "مذهب غامض"، أو ربما "حماقة" خالصة (Quine 1972: 447). وربما لا يمكننا الحديث عن "التوجيه" إلا حين نتطبق القواعد بصورة شعورية لكي "تتسبب" في حدوث السلوك؛ أما في غير هذه الحال، فربما لا يمكننا أن نقول إلا أن السلوك "يتوافق" مع نظام ما للقواعد أو "يخضع" له، كما يخضع كوكب ما لقوانين سقوط الأجساد، كما يجب ألا نعزو "واقعية نفسية" لتصور معين عند كائن عضوي "يخضع" للقواعد.

فيبتني كوين، مرة أخرى، شكلاً متطرفاً من الثنائية. إذ يُسمح لنا - بل يلتزمنا - في حالة الأجساد الساقطة، أن نعزو "واقعية فيزيائية" لتصور معين

لطبيعتها وللمبادئ المفترضة. إلا أن الواضح أننا لا نستطيع أن نعلل الحالة التي حصلت لها الملكة اللغوية والطرق التي تدخل بها في السلوك؛ اعتماداً على الافتراض بأن للدماغ كتلة، وأنه يخضع لقوانين سقوط الأجساد. فنحن بحاجة إلى مزيد من البنية. أما المقاربة العلمية الطبيعية فستتناول هذا الأمر بالطريقة نفسها التي تدرس بها الكواكب والنمل؛ أي أنها تسعى في هذه الحالة للوصول إلى نظرية للحالة الأولى والحالة المحصلة، والعلاقة بينهما، وإلى علاقة الحالة المحصلة بالأداء والأحكام، عازية "الواقعية" لأي شيء نفترضه في أفضل نظرية يمكن أن نصوغها. ومستوى فهمنا أقل من ذلك بكثير فيما يخص العضويات الأكثر تعقيداً، لكن لا صلة لهذا بما نحن فيه هنا.

فهناك فارق مذهبي للتمييز بين الحالتين: فما يُشترط في حالة (الأجساد الساقطة) ممنوع في الحالة الأخرى (حالة البشر في "ما فوق الرقبة"). أما ما يجعل الأمرين مختلفين، مرة أخرى، فهو للشعور، إضافة إلى تسبب السلوك، وهي فكرة لها مشكلاتها غير التافهة. ولا يكاد يكون هناك سبب للاعتقاد بأن السلوك العادي "يتسبب فيه"، بأي معنى معروف لذلك المصطلح في الأقل، وليس هناك سبب يجعل عالماً يتبنى المنهجية الطبيعية يفترض بصورة مذهبية غير ذلك.

ويبدو كأن تعليل كوين ينطبق بالطريقة نفسها على مثال الإبصار. فجوني وماري ليسا "موجهين" بمبدأ الصلابة، ولا بمبدأ ثبات الشيء، إلخ. فسلوكهما "يتوافق" وحسب، مع هذه المبادئ، كما يخضع المريخ لقانون سقوط الأجساد. وستكون أية نظرية عن حالات الدماغ تتضمن مثل هذه المبادئ لتعليل سلوك ماري وجوني قاصرة منهجياً، مهما كان تلاؤمها مع معايير البحث العلمي الطبيعي؛ وستكون غامضة، في أفضل الأحوال، وحمقاء، في أسوأها. (وكما تقدّم، يصعب أن نعرف بشكل محدد وجهة نظر كوين عن هذا الأمر. انظر الهامش رقم ٧).

وتظهر هذه الأفكار بصيغ أخرى كثيرة. وليس من السهل تقويمها. لهذا، لم يقدم سبب وجيه لهذه القيود، ولا يبنى شيء بأنها ليست أكثر من اشتراطات اصطلاحية فارغة. وأكثر أوجهها تطوراً للوجه الذي يتبناه ناجل من سيرل. فدعنا ننظر فيه باختصار.

ولا يبدو أن الثنائية التي لم تُفسر في تمييز كوين أثارت كثيراً من الاهتمام، لكن كثيراً من الباحثين يرون أن المقتضيات التي تترتب على صياغتها المحددة مناقضة للحس. انظر إلى ظاهرة "الإبصار الأعمى" blindsight، مثلاً: فتستطيع "ألس"، التي أصيبت بعطب في القشرة المخية، أن تميز تقريباً تمييزاً وثقاً بين ما يقم لها من أوضاع بصرية (كرسم لببت يحترق وآخر لببت لا يحترق)، لكنها تُصِرُّ على أن هذه الأوضاع متماثلة، وهو ما يعنى أنها ليست واعية بما يدخل في سلوكها المُمَيِّز. ولا يمكن - بحسب رأى كوين - أن نتحدث عن "توجيه" هنا؛ إذ يمكن أن نتحدث عن "موافقة" فقط (كما يبدو، انظر Quine 1992: 9؛ للهامش رقم ٧). ولا يمكن أن نعزو إلى "ألس"، في وجوه أخرى [لفكرة كوين]، "تمثيلات ذهنية"، وإن أمكننا ذلك في حالة جون، الذي يعى الفرق بين [الحالتين] ويستطيع أن يخبرنا عنهما، كما كانت ألس تفعل قبل الإصابة بالجرح. فلدينا في حالة ألس "آليات فيزيائية" فقط، أما في حالة جون فلدينا "آليات نفسية"؛ أو بتعبير آخر، لدينا في حالة ألس "فرضية نفسية" فقط، لا تفسيراً فلسفياً، كما في حالة جون. وليس شيء من هذه المقتضيات جذاباً.

ويأمل سيرل أن يتجنب هذه المقتضيات بتقديمه فكرة النفاذ إلى الشعور "من حيث المبدأ" - وهو ما يسميه ناجل، في مراجعته، "إمكان الشعور"^(٨). ويتطلب "المبدأ للرابط"^(٩) الذي يقترحه سيرل "النفاذ إلى الشعور" من حيث المبدأ لعزو الحالات والعمليات الذهنية. ويرى سيرل، في حالة "الإبصار الأعمى"، أن "ألس" تمتلك النفاذ من حيث المبدأ إلى التمثيل، أو القاعدة، أو غير ذلك. فليس "الإبصار الأعمى" إلا حالة من "الاعتراض"، blockage لا

حالة من "عدم النفاذ من حيث المبدأ"، وهو ما يمكننا من أن نتكلم عن عمليات ذهنية في حالة ألس، كما في حالة جون. لكن لن يكون لهذه النتيجة معنى إلا بعد تفسير عبارة "من حيث المبدأ".

افترض أن جين تماثل ألس (من حيث الاعتبارات ذات الصلة، وهذا احتراز لن أكرره)، إلا في تاريخ حياتها: كأن لا تكون حالتها العصبونية نتيجة لجرح أصيبت به بعد الولادة بل لجرح تعرضت له في بداية الحمل، وهو ما أدى إلى هذه الحالة. ومن المحتمل أنها تمتلك أيضاً "النفاذ من حيث المبدأ"؛ وما يزال المبدأ الرابط ينطبق (أما إن كان الأمر بخلاف ذلك فليس للنقاش كله من هدف؛ ذلك أن وقت الإصابة بالجرح لا يكاد يكون مهماً). افترض أن هذا الجرح الذي حدث في بداية الحمل أثر على المورثات بطريقة تجعلها تؤدي إلى الإصابة بـ "الإبصار الأعمى"، وربما ينطبق المبدأ الرابط في هذه الحالة كذلك، وإلا لن تكون النتائج أقل مناقضة للحس، افترض الآن أن سوزان تماثل جين إلا أن هذا التغير الوراثي [الإبصار الأعمى] حدث نتيجة لطفرة، لذلك فهي تماثل جين في التكوين الوراثي، وإن لم تصب بـ "الإبصار الأعمى" نتيجة لجرح، كما حدث لألس وجين. ومرة أخرى، يجب أن ينطبق المبدأ الرابط، أما إن لم ينطبق فلن يكون لهذا للنقاش من هدف. ويعنى هذا أن سوزان تعاني من "الاعتراض" فقط. افترض أن هذه الخصيصة الوراثية عند سوزان انتقلت [إلى نريتها] بالوراثة، وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى ظهور نوع [بشرى] فرعى، فلدينا الآن "توغ - جون" [النوع الذي يتكوّن أفراده من أمثال جون] و"نوع - سوزان"، وهما يتشابهان تشابهاً تاماً من حيث آلياتهم الإدراكية. ولا يعنى للذين ينتمون إلى "توغ - سوزان" التمثيلات الذهنية ولا القواعد التي توجههم ولا يستطيعون الإخبار عنها. أما فيما عدا ذلك فلا يمكن التمييز بين النوعين الفرعيين، بل إن هناك شيئاً من التماهي عبر النوع في الآليات البصرية، كما هي حال ألس وجين بعد الإصابة بالجرح. وبما أن المبدأ الرابط ينطبق على سوزان، فهو ينطبق

احتمالاً على "توع - سوزان"؛ أما إن لم يكن الأمر كذلك فلا يدعو ما بين أيدينا، مرة أخرى، أن يكون افتراضات لاصطلاحية لا قيمة لها.

دعنا نأخذ الآن حالة اللغة. افترض أننا اكتشفنا أن تاريخنا التطوري يشبه تاريخ "توع - سوزان". أي أن أجداننا كانوا في الواقع من "توع - جون"، واعين وعيًا تامًا بالكيفية التي يثبتون بها وسيط الرأس، ويحدثون الاعتمادَ الإحالي، إلخ، ويستطيعون وصف ذلك كله وصفاً بيّناً لعلماء من المريخ كانوا يلاحظونهم. لكن طفرة حدثت (أو حدث جرح نشأ عنه تغير وراثي، كما في حالة جين) ثم انتشرت، مما أدى في نهاية الأمر إلى وجودنا، أي لتكون من "توع - سوزان"، أي محرومين من هذه القدرة. افترض أننا اكتشفنا أننا لم نتمكن حتى من اختبار الرواة اللغويين الملائمين بعد. وأن النوعين الفرعيين يختلط بعضهم ببعض، ويتصرف أفرادهما بشكل متماثل تماماً؛ وينتج عن هذا أنه لن يكون بإمكان أحد منا، ولا بإمكان أي عالم، اكتشاف أي فارق بين أعضاء المجموعتين، إن لم تبحث مسألة الوعي. وينطبق المبدأ الرابط على "توع - جون" الميكرو، وعلى بقاياها بيننا؛ ومن هنا فهو ينطبق علينا كذلك، إلا إن اخترنا اتخاذ بعض القرارات المصطلحية التي تبين، كما في السابق، أنه لا فائدة لهذا الجهد كله.

لكن هذه النتيجة خاطئة تماماً؛ ذلك أن الغرض الوحيد من هذا النقاش أن يبرهن على أن البحث العلمي الطبيعي في اللغة والذهن لا يؤدي إلى "واقعية نفسية"، أو "آليات نفسية"، أو "تفسيرات فلسفية"، أو "تمثيلات ذهنية"، أو "توجيه" بالقواعد. وبصورة أكثر جوهرية، يجب أن يُحدّد المبدأ الرابط أننا لا نستطيع النفاذ إلى الآليات ولا العمليات التي تقوم بها "من حيث المبدأ". ونحن لا نعاني من مجرد "الاعتراض"؛ بل نعاني من أن الآليات أدمغتنا التي لا نستطيع أن تؤدي إلى فكر شعوري ذاتي يتكون مضمونه من هذه القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109)، ذلك أن هذا بأجمعه يقع خارج الشعور "الممكن".

ولإنقاذ القصة، يجب علينا، فيما يبدو، أن نصرّ على أنه لا يمكن أن يوجد "توغ" — جون" في حال اللغة (مع أنه يمكن أن يوجد، وهو كذلك، كما في حالة الإبصار الأعمى، أي البشر): أي أن من المستحيل أن يوجد نوع عضوي يشبهنا تماماً إلا أنه يشعر شعوراً تاماً بمضمون القواعد التي يتبعها حين يتعلم اللغة (ويستخدمها). ويشبه ذلك أن يكون فرضية اختبارية لا مصادرة اصطلاحية، في الأقل. لكن ما الأساس الذي جعلنا نؤكدده؟ أو، إن لم يكن هذا الزعم اختبارياً، بل تصورياً، ما الأسس التي يقوم عليها؟ وبغض النظر عن إن كنا نقبله أو لا نقبله — وسواء أكان فرضية اختبارية أم تصورية — فما أهميته المحتملة؟ وكيف يختلف عن ادعاء ما عن "جوهر الكيمياء" (أو الكهربائي أو المناظيري، إلخ)؟

وتبرز أسئلة مشابهة عن إدراك الشيء الذي ناقشناه آنفاً، ويمكن أن نفصل تلك الصعوبات، وهو ما يؤدي إلى مزيد من أنواع التناقض. ولا يبرز أي من هذه الأسئلة في البحث العلمي الطبيعي الذي لا مكان فيه لأفكار مثل "الشعور من حيث المبدأ" أو "الشعور الممكن" أو "المبدأ الرابط"، ولا فكرة "لتفسير الفلسفي" وراء التفسير، ولا أصناف مفضلة من الأدلة (كـ "الوعي"، أو "الدليل النفسي" مقابل "الدليل للغوي")، ولا لثنائية "الذهن — الجسد"، ولا لـ "الثنائية المنهجية" (أو غيرها من الثنائيات).

ولا تعدو الجهود التي تسعى للإبقاء على مثل هذه الثنائيات أن تكون بقايا للمحاولات التي كانت تسعى لإنقاذ الفكرة التي مفادها أن المعرفة نوع من القدرة، على الرغم من حقيقة أن القدرة يمكن أن تصقل أو تضعف — بل ربما تختفي تماماً — في حين تبقى المعرفة ثابتة، كما بينا ذلك بمثال فقد القدرة على الكلام (أو السباحة، إلخ)، مثلاً، بعد الإصابة بجرح والشفاء منه من غير أن يكون هناك دخل نو صلة بعد براء الجرح. والنتيجة الطبيعية أن المعرفة (التي يمكن تأطيرها في عبارات مثل: "كيف..."، و"أن..."، إلخ) تتضمن عنصراً إدراكياً مهماً، ويجب ألا يخلط بين القدرة على استخدام

المعرفة والمعرفة نفسها. ولتجنب هذه النتيجة، يصاغ تصورٌ تقني يتصف بخصائص للمعرفة — يسمى "قدرة" — لكنه مختلف عن التصور العادي، وهي محاولة غريبة بشكل خاص حين يلجأ إليها بزعم الدفاع عن وجهة نظر فتجينشتاين، (انظر الهامش رقم ٤ للاطلاع على بعض المراجع ذات الصلة وبعض النقاش).

أنواع أخرى من التثنية:

يأخذ أغلب النقاش عن "اتباع القاعدة" قواعد الرياضيات أو قواعد المرور نموذجًا، أو تلك القواعد التي نجدها في كتب النحو التقليدي، أو أنواع أخرى مما يتصف بالمعيارية. وإحدى الملامح الرئيسة في اتباع القاعدة، إذن، أنه يجب أن يكون الوقوع في الخطأ ممكنًا بمعنى الخروج على المعيار، وبغض النظر عن هدف هذا النقاش، فهو غير دقيق هنا. وقواعد اللغة — كمبادئ النحو الكلي، أو تلك المبادئ التي توجه أحكام ماري عن المثالين (١) و(٢) أعلاه (انظر ص ٢٣٩)، مثلًا — ليست معيارية بهذا المعنى؛ إذ يمكن أن تكون أحكام ماري ومظاهر سلوكها الأخرى "خاطئة"، لعدد كبير من الأسباب؛ نحو: عدم الانتباه أو صعوبة التحليل (كما في الجمل التي تسمى بـ"جمل ممشى الحديقة"، أو للتعبيرات التي ترهق قدرات الإدراك). كما تستطيع ماري أن تقرّر مخالفة قواعدها، ربما لأسباب وجيهة، كأحداث أثر أدبي، مثلًا. ويمكن للأحكام والسلوك كذلك ألا تتوافق مع المعيار بطرق عدّة: كالمعايير التي تفرضها البنى التسلطية المختلفة، والممارسات المشتركة عند جماعات لا حد لتنوعها ويمكن أن يرتبط الأفراد بها، إما اختياريًا أو بضغط خارجي، إلخ. وتبرز أسئلة عدة تتصل بالحقائق والسياسات المتبعة، إلخ، لكن لا يبدو شيء منها مبدئيًا، باستثناء الأسئلة التي يمكن أن تُخترل إلى حجج متشككة لا أهمية خاصة لها بهذا الخصوص (للمناقشة أوسع، انظر Chomsky 1986).

فهل ينبغي أن نتحدث عن "اتباع القواعد" في حالة أحكام ماري للغوية وسلوكها؟ وهذا سؤال غير مهم كثيراً. وذلك لأسباب ذكرناها آنفاً؛ إذ لا يتوقع أحد أن يبقى الخطاب العادي أمام التحوّل إلى نظرية تفسيرية. ومع ذلك - وهذا للتوثيق - فربما يكون الكلام عن ماري كأنها تتبع القواعد في هذه الحالة أقرب إلى الاستخدام اللغوي العام منه إلى المواضعة الفلسفية النموذجية التي توجب وجود رابط بالشعور. بل هو أكثر قرباً إلى الاستخدام العادي إلا بمعيار واحد. ذلك أنا نستخدم مصطلح "اتباع القاعدة" عادة عند "الخروج" عن معايير الجماعة، لا عند احترامنا لها، كما هو الاستخدام التقني في الخطاب الفلسفي. فإذا كان جوني يقول:

I brang my lunch home.

"أحضرت غدائي إلى منزلي"

[بصيغة ماضى الفعل bring "يحضر" على صيغة brang ، التي لا تتبع قاعدة تصريف هذا الفعل]

فربما يصف الاستخدام المألوف هذا الاستخدام بأنه يتبع القاعدة التي تنطبق على فعل sing "يغنى" [التي ماضيها sang] - وهو استخدام خساطي؛ لأن أصحاب السلطة أو بعض المعايير الأخرى تتطلب أن تكون صيغة ماضى هذا الفعل brought. ومثل ذلك إن كان يستعمل الكلمة puppy "جرّو" في الإشارة إلى صغار القطط، متبعاً للقاعدة التي مؤداها أن صغار الحيوانات المنزلية الأليفة تسمى puppies "جرّاء". وربما يستطيع ملاحظ مدقق إصدار أحكام مماثلة عن قواعد للنطق التي يتبعها [جوني]. ولو حدث أن مات البالغون جميعاً وبقي جوني وأترابه فسيستمرّون في اتباع قواعدهم الفردية الخاصة، إلا أن هذه القواعد ستكون الآن قواعد للغة بشرية عادية إلى حد بعيد تختلف عن الإنجليزية النموذجية في هذه المظاهر (ومظاهر أخرى). وربما لا يكون مألوفاً أن نقول في هذه الحالة إن جوني يتبع قاعدة؛ إذ قلما يُستخدم هذا المصطلح حين تحترم للمعايير والنماذج. لهذا يمكن

للسائين وحدهم أن يقولوا إن ماري تتبع المبدأ C في نظرية الربط للعاملين في المثالين (1) و(2)، أو لأنها تتبع القواعد المعقدة المتشابكة الخاصة بالإحالة إلى الأشياء حين تتكلم عن بيتها.

ولا نقصد، حين نعزو اتباع القاعدة بالطريقة المألوفة - لجوني كما في الحالة التي ذكرناها أعلاه، مثلاً - أن نوحى بأن متبعي القواعد واعون (أو يمكن أن يكونوا واعين) باتباعهم القواعد أو أنهم يختارون القيام بذلك. أما أولئك الذين يتكلمون عن "حقيقة أن المعنى اللغوي يتضمن اتباع القاعدة عن قصد" فإنما يستخدمون مصطلح "اتباع القاعدة" بمعنى تقني مستخدم في الخطاب الفلسفي، لا بالطريقة المتواضع عليها (انظر Baldwin 1993: 187؛ مستشهداً بـ P. Pettit). والشئ نفسه صحيح، كما أظن، عن مصطلحات أخرى في الخطاب الفلسفي، ويشمل ذلك مصطلحات "المعرفة" و"المضمون" و"الإحالة"، من بين مصطلحات أخرى. (للاطلاع على مزيد من النقاش، انظر المراجع التي أعلنا إليها فيما سبق، والفصل الثاني في هذا الكتاب).

ويمكن، في إطار للنظرية العلمية الطبيعية "لغة (- د)" - وهي داخلية وفردية - أن نستخلص بعض النتائج عما ينبغي للمرء أن يقوم به، لكن في ضوء شروط فرضية غير مهمة فقط (مثل: إن كنت تريد كلمة تسجع مع كلمة tower "برج" أو تحيل إلى أزهار من نوع "دافوديل"، استخدم كلمة flower ، لا book "كتاب"). وهذه المعيارية، وهي إحدى المقترضات المألوفة للمعرفة، متوفرة بكثرة في سياق البحث العلمي الطبيعي، لكنها ليست من النوع الذي يبرز حين نسأل إن كان ينبغي لجونز تغيير استخدامه لكلمة arthritis "التهاب المفاصل" ليتفق مع استخدام الطبيب، وهو سؤال من نوع مختلف جداً، وليس له إجابة محددة إلا من حيث تحديد مكان معين أو آخر في الفضاء المعقد جداً للاهتمامات والمشاكل البشرية.

والأمر الآخر هو الصلة بين فكرة اللغة بوصفها "ملكاً للجماعة" من نوع معين، كما في قولنا إن هانز وماريا يتكلمان الألمانية حتى إن كانا لا

يستطيعان التفاهم، وإن هانز لا يتكلم الهولندية مع أنه يفهم جيداً اللغة الهولندية التي تتكلم قريباً من الحدود الهولندية الألمانية، أو حين نقول إن بيير وولده جين، اللذين لا يتكلمان إلا الفرنسية انتقلاً للعيش في نيويورك، يتعلمان اللغة الإنجليزية، التي سينجح جين في تعلمها لكن بيير سيتعلمها جزئياً. أو أن جوني، بـ "أخطائه" في brang و puppy ، وبطريقة نطقه لاسمه، لا يتكلم لغة على الإطلاق (وهي فجوة غريبة في الاستخدام العادي)، مع أنه سيتكلم الإنجليزية يوماً ما وهو يمتلك "معرفة جزئية" بها الآن، وأن لغته - د - الحالية ربما تكون لغة عادية إن بقيت على الصورة التي وُصفت بها. ولا يمثل عدد كبير من هذه الاستخدامات مشكلة في الحياة العادية، لكن ليس لها إلا أهمية ضئيلة في إطار الجهد الذي يسعى لفهم ماهية اللغة وكيف تُستخدم. وليس هذا من أمور الأمثلة؛ ذلك أنه ليس هناك أمثلة معقولة، إلا بمقدار ما نستطيعه من تشيبي "المناطق" حين نحاول إيضاح ما يعنيه الحكم بأن جون يسكن قريباً من ماري لكن بعيداً من بيل. ويمكن لهذه الاستخدامات أحياناً أن تُفسر فيما يسمى بـ "اللغات الوطنية"، وهي تُفرض بالقوة أحياناً. وتجعل محاولات ربط فكرة "اللغة المشتركة" بالثقافات الأمور أكثر سوءاً. إذ يمكن في العادة أن ينتمي شخص إلى عدد من الجماعات والثقافات، مع بعض الارتباطات الضعيفة غالباً بين أشكال الترابط. فيمكن أن يُشارك جون في ثقافة عامة ما - بقيم مشتركة واعتقادات وأفهام، إلخ - مع متكلم أحادي اللغة لا يعرف [جون] منها كلمة واحدة، وربما يكون هذا الاشتراك بقدر يفوق ما يتشارك فيه مع توعمه المماثل، الذي نشأ معه ولا يكاد يميّز بين لغتيهما. وليس لشيء من هذا صلة بالتواصل الناجح. ولسنا بحاجة لافتراض طرائق نطق مشتركة، أو معانٍ مشتركة لكي نفسر هذا، أكثر مما نفترضه من أشكال مشتركة من أجل تفسير الناس المتشابهين.

ومرة أخرى، يمكن أن نصِف أوضاعاً جديدة لا حصر لها مما يجيد، ودراستها مشروعة ومفيدة. وحين تكون هذه الدراسة جادة تفترض ما نتعلمه

عن طريق البحث العلمي الطبيعي في الملكة اللغوية. ومع ذلك، لا يمكن أن تقوم محاولات تأسيس نظريات خاصة بطريقة النطق أو المعنى (بطرق نطق مشتركة ومعان مشتركة) انطلاقاً مما يدعى أنه ملك للجماعة إلا إلى اللبس. وتبين مثل هذه المحاولات، مرة أخرى، نوع الثنائية الذي لا يمكن حمله على الجِد وراء ما يُعدُّ ذهنياً.

ويتضح شكلاً آخر من الثنائية برز في ثنايا النقاش عن اكتساب اللغة من حوار غريب عن "الفطرية" أو "الفرضية الفطرية". وهو حوار من طرف واحد؛ إذ لا أحد يدافع عن هذه الفرضية، وهو ما يشمل أولئك الذين عُرِيت إليهم (ومنهم أنا خاصة). ذلك أنه ليس هناك فرضية كهذه. فهناك بعض المقترحات المحددة عن الحالة الأولى للملكة اللغوية (أي: "جهاز اكتساب اللغة" و"النحو الكلي"). ولم يُسأل أحدٌ من المنتقدين هذه الاقتراحات. إلا أنهم ينظرون إلى هذا المشروع على أنه مخطئ بطريقة ما، وربما يقوم ذلك على مسألة ثنائية ما. ولا تثار أسئلة مماثلة حين نقم بعض الاقتراحات عن المظاهر الأخرى للنمو، ولم يُقَمَّ سبب يسوع القول بملاءمة [هذه الاقتراحات] في مثل هذه المظاهر. وقد قُدمت دعاوى بديلة من طبيعة عامة جداً، ومنها مثلاً: أن "آليات التعلم المعتم" كافية، وليس هناك حاجة لافتراض خصائص محددة للملكة اللغوية. ولا يمكن أن تناقش مثل هذه الفرضيات إلا بعد أن يبين لنا ما هذه الآليات. أما الاقتراحات المحددة التي قُدمت إلى الآن فلا تكاد تستحق الالتفات، إذا نظرنا إليها من خلال الاعتبارات العلمية الطبيعية، لهذا يجب أن يُبحث عن مسوغات لها من خلال بعض المتطلبات الأخرى، وهي متطلبات ذات طبيعة ثنائية.

والنزعة السلوكية عند كوين نوع من هذا الشكل للثنائية^(١)، فهو يُجادل بأن "المقاربة السلوكية لازمة" (Quine 1990: 37) لدراسة اللغة؛ لأننا في اكتساب اللغة، نَعتمد اعتماداً حاسماً على السلوك الظاهري في السياقات الملاحظة (ص ٣٨). وانطلاقاً من حجة مماثلة، فالمقاربة الغذائية

nutritionist لازمة في علم النمو الجنيني، ذلك أن الكائن العضوي يعتمد بصورة حاسمة، في انتقاله من الحالة الجنينية إلى حالة النضج، على التغذية التي تأتي من الخارج؛ فكما يجب أن يكون اللسانيون سلوكيين، يجب أن يكون علماء الأحياء غذائيين، يقصرون أنفسهم على ملاحظة الدخول الغذائية. والزيف في الحجة الأخيرة واضح؛ ويهدد الزيف نفسه الحجة الأولى كذلك. ولا يسمح بمناقشة هذا الأمر إلا المسلمات الثنائية المتطرفة وحدها. وربما تكون الدراسة الفعلية للغة خاطئة تصوريًا، لكن لا يكفي، في البرهنة على هذا، أن تطالب اللساني بأن يهجر البحث العلمي الطبيعي - كما يفعل كوين وأتباعه - ليتبنى بعض المصادر العشوائية بغض النظر عن سوابقها التاريخية، غير المهمة كما هو واضح.

ويتصل بهذا اتصالاً قوياً نموذج الترجمة المتطرفة عند كوين. فنحن نحاول في الدراسة العلمية الطبيعية للتفاعل بين الكائنات العضوية (كالخلايا والحشرات والطيور والدلافين، وغيرها)، أن نكتشف الحالات الداخلية التي تجعل هذا التفاعل ممكناً، وهي الحالات التي تنتج عنها التأويلات التي تعطى للإشارات. لكن هذا الطريق مسدود، في دراسة اللغة البشرية. إذ يجب أن تقتصر دراسة التفاعل [في دراسة اللغة البشرية] على ما يكون داخل الحدود المقررة: أي أن يُسمح للعالم الباحث بأن يسجل الضوضاء بطريقة محدّدة، ويختار بعض الملامح من السياق، ويختبر ما يتفق مع البحث وما يختلف معه: مثل: "هل هذا 'س'؟"، ثم يقوم ببعض الاستقراء الأولى، وكفى. وتقدّم إشارات متعددة لما يُسمح به من سمات، مثل نوع 'س'، إلخ. ويَزعم كوين زيادة على ذلك أن هذا أيضاً هو السياق المعرفي للطفل الذي يكتسب اللغة والشخص الذي يتخرط في اتصال متبادل. لكن الحالات الثلاثة مختلفة اختلافاً جثرياً من حيث طبيعتها؛ ذلك أن الطفل يأتي مزوداً بالحالة الأولى للملكة اللغوية ("جهاز اكتساب اللغة"، و"النحو الكلي")؛ ويمتلك الشخص الذي يتخرط في تبادل اتصالي خصائص الحالة المحصّلة؛ أما اللساني فمزود

بملكة صياغة العلم وبناتج الأبحاث السابقة عن اللغة. وليس مهماً أن نبين هذه الفروق، ذلك أن هناك مشكلة أكثر عمقا: وهي الثنائية المتطرفة التي تتسم بها هذه المقاربة بأكملها. ولا يمكن أن يُقبل مثل هذا، أو ما هو قريب منه، في دراسة الكائنات العضوية الأخرى، أو المظاهر البشرية التي لا تقع داخل الصنف الوصفي التقليدي لمفهوم "ذهني".

وقد استنتج من هذا النموذج، الذي يُبنى ويُناقش بشكل واسع، نتائج بعيدة المدى عن اللغة والفكر. ومع هذا يبدو أنه ممارسة فكرية لا هدف لها إن قصد به أن يُلقى ضوءاً على طبيعة التواصل أو الاكتساب أو دراسة اللغة والفكر. ذلك أنه لم يقم أي تسوية مرضٍ له، في الأقل، على حد علمي، ولم يقدم تفسيراً للسبب الذي يلزم بتبني هذه المقاربة في هذه الحالة الفريدة (ناهيك عن أن يُنظر فيها). وإذا كان الهدف منها الإسهام في صقل الفهم لتصورات الاعتقاد والقصد والمعنى، وما يشبهها، فمعايير تقويمها أكثر غموضاً، لكن يصعب أن نرى سبباً يوجب إضفاء مكانة خاصة على الشروط المحددة المفترضة في هذا البحث التصوري.

وتقوم على هذا النموذج بعض التوجهات الثنائية الأخرى. فيحتاج ديفيدسون، مكيفاً هذا النموذج لاهتماماته الخاصة، أن هدف الدراسة الوصفية للمعنى أن تصوغ نظرية تكون نموذجاً للقدرة اللغوية عند محل ما، لكن "لا يُضيف شيئاً لهذه الدعوى أن نقول إنه إذا وصفت النظرية القدرة اللغوية لمؤول ما وصفاً صحيحاً، فيجب أن تتماثل بعض الآليات عند المحل مع هذه النظرية" (Davidson 1986b: 438). ويبين ديفيدسون، مثل كوين، ما يُنظر إليه على أنه دليل نو صلة، وهو: "أن ما يمكن ملاحظته ليس إلا استخدام جمل في سياق"، وكفى. ويمكن أن تُقدم النظريات "فكرة الإحالة والأفكار الدلالية الأخرى ذات الصلة بها"، لكن "لا يمكن السؤال عن صحة هذه التصورات النظرية فيما يتجاوز السؤال عن قدرتها على تقديم تفسير مرضٍ لاستخدام الجمل" (Davidson 1990: 300). وقد طور دوميت وآخرون

مواقف مماثلة (انظر، Davidson 1986b; 1990a؛ وانظر عن الوجه الذى يقترحه دوميت لهذا الموقف: Chomsky 1986).

ومرة أخرى، لن نُحمل أفكار مثل هذه على محمل الجد فى دراسة أنظمة أخرى، ولا يمكن أن يُقصر الدليل على استخدام المتكلم للجمل، إلا إن تمسكنا بنموذج الترجمة للمتطرفة أو قيد عشوائى آخر (أو جماعة مختارة ما). أما حين نقارب هذا الموضوع بالمقاربة المألوفة فى العلوم فسنبحث عن أنواع كثيرة من الأدلة، ومنها الدليل الذى سنأخذه من اللغة اليابانية (وهو يُستعمل بشكل مطرد) فى دراستنا للغة الإنجليزية؛ وهذا قرار معقول جداً يقوم على الافتراض الاختبارى القوى جداً الذى مفاده أن اللغات أشكال متنوعة للحالة الأولى نفسها، ويمكن، بالمثل، أن نجد دليلاً من دراسات اكتساب اللغة والإدراك والحُبسة ولغة الإشارة والنشاط الكهربائى للدماغ، وغير ذلك كثير. فمن المفيد جداً، زيادة على ذلك، أن نفترض بعض الآليات عند المؤول مما "يتماثل مع النظرية"، ذلك أن هذا التوجه تحديداً هو ما يُخضع النظرية لعدد كبير من الأدلة وراء افتراضات الترجمة المتطرفة. ولا يودى الاشتراط الذى يقترحه ديفيدسون إلا إلى منع البحث العلمى الطبيعى فى طبيعة المؤول. أما الجهود التى تسعى إلى البرهنة على التفسير المقترح وصفه فقد أعلن أنها غير مقبولة، أو لا أهمية لها لسبب ما. ويصح الشئ نفسه فى أنواع أخرى كثيرة [لهذا الاقتراح].

ويلاحظ ستيفن سنك، فى ترميمه التاريخى لأصول نظرية – النظرية^(١١) أنه بـ "أقول الثنائية الديكارنية، بدأ للفلاسفة يبحثون عن طريق لوضع ذهنى "داخل" الفيزيائى، مُماثلين الأحداث الذهنية ببعض مقولات الأحداث فى العالم الفيزيائى" (Stick 1983: 13). ويلاحظ أنه كان يمكن لمثل هذا التوجه أن يسلك مسارين اثنين: أولهما محاولة تعريف المفردات الذهنية بمصطلحات "أعصابية" (ص ١٤)، وثانيهما تحليل التصورات الذهنية بمصطلحات السلوك، مما يودى إلى ظهور السلوكية الفلسفية. ويحاج بأن

المسار الثاني هو الذي غلب. والنوع الذي راجعته هنا نوع مؤثر جداً [من السلوكية الفلسفية]، ويتسم بملامح لا يمكن إصلاحها، على حد ما أرى. أما المسار الأول فكان موضوعاً للنشاط البحثي كذلك، لكنه متلبس أيضاً بتنائية لا يمكن تسويغها.

وقبل أن نلتفت إلى تلك القضية، أقدم بعض التعليقات على هذه الطريقة في تأطير القضايا، فأولاً، لقد أخطئ في فهم الأسباب التي أتت إلى انهيار الثنائية الديكارتية؛ ذلك أن ما نحض هو مشكلة الذهن – الجسد وحسب، كما سبقت الإشارة، وهو ما أدى إلى غموض مشكلة الذهن – الجسد، واختفاء فكرة "الفيزيائي"، إلخ. ولم يبق لدينا في هذا المجال إلا المقاربة العلمية الطبيعية وحسب، أي: أن تصوغ نظرية تفسيرية في ضوء أية مصطلحات ملائمة، وأن نواجه مشكلة التوحيد. ثانياً، أنه لا يدعو أن يكون أملاً، الآن، أن تكون "المصطلحات الأعصابية" ذات صلة بمشكلة التوحيد. وأخيراً، ليس هناك سبب يلزمنا بمحاولة تعريف "المفردات الذهنية" للخطاب اليومي في إطار بحث طبيعي ما، مثلما أنه لم يجرؤ أحد على مثل ذلك فيما يخص "المصطلحات الفيزيائية"، في العصر الحاضر في الأقل. ويصل سنك إلى نتيجة مماثلة، لكن ليس هناك سبب واضح، فيما يبدو، يجعلها تتطلب حتى الاحتجاج لها، إذا غضضنا النظر عن التحيز الثنائي.

وينتج البحث العلمي الطبيعي في الذهن نظريات عن الدماغ، أي عن حالاته وخصائصه؛ ومنها نظرية النحو الكلي، مثلاً. ولا يعرف أحدٌ كيفية التي يمكن بها أن نبدأ بربط هذه النظريات بخصائص الذرات أو العصبونات أو البنى الأخرى التي لا نعرفها [الآن] للدماغ. ويخلص عالم الأحياء جيرالد إديلمان إلى أن التناظر بين النظريات عن الذهن وبين ما تعلمناه عن علم وظائف الأعصاب يُخلق أزمة لأولئك الذين يعتقدون أن النظام العصبي دقيق ومثبّت بصورة مادية، شبيهة بالحاسوب" (Gerald Edelman 1992: 27f)، وللقائلين بالنظريات الترابطية والقائلين بنظريات الشبكة العصبونية كذلك.

وتطلق التواريخ الفردية المختلفة للنظام العصبى و"التنوع البنيوى الفردى الهائل" للأدمغة "رصاصة الرحمة" (بل رصاصات عدة!) على المحاولات التى تصوغ نظريات حوسبية أو نظريات شبكية عصبونية للذهن (Edelman 1992، فى الملاحظات الإلحاقية فى نهاية كتابه). ويأخذ اينلمان، فيما يبدو، هذه النتيجة على أنها صحيحة بغض النظر عن مدى نجاح مثل هذه الدراسات، الآن، أو إلى الأبد، فى ضوء معايير العلم (كالتفسير وعمق الفهم، إلخ).

وكان يمكن الاحتجاج قبل سنين عدة، وبمنطق مماثل، بأن هناك مشكلة خطيرة فى دراسة المادة والكائنات العضوية فى ضوء الألوان والتكافؤ وحالة الصلابة، وعدد وافر من الخصائص الأخرى، والشئ نفسه قبل ذلك فى دراسة الكهرباء والمغناطيس وحركة الكواكب والأجرام السماوية، إلخ. والواقع أن العلم بأجمعه تقريباً كان يعانى ما يشبه الأزمة بسبب الفجوة الواسعة بين ما تعلم عن هذه الموضوعات ومبادئ الفلسفة الآلية (بل أكثر علوم الفيزيائية إلى وقت قريب). والأزمة التى يراها اينلمان حقيقية، لكنه أساء تعيين الموقع الذى تحتله.

أما "التنوع الهائل" فى بنية الأدمغة والتجربة فلا يُبين لنا إلا شيئاً قليلاً. فقد كان يبدو، قبل سنوات قليلة، أن اللغات تختلف الواحدة منها عن الأخرى بصورة تشبه فى تطرفها الاختلاف بين البنى العصبونية كما يراها كثير من المتخصصين اليوم، وكان يُنظر إليها على أنها ليست إلا انعكاسات للتجربة التى تتنوع بصورة غير نهائية. وسوف يبدو أى نظام معقد خليطاً متنكبساً قبل أن يفهم، وتُكتشف مبادئ انتظامه ووظيفته. ويحاج اينلمان بأن إدخال الاعتبارات الخاصة بالمعنى ستعين بشكل ما على التغلب على المشكلات المزعومة فى المقاربات "الصورية". وهو مخطئ فى فهم هذه الطرق خطأ كبيراً - كما يدل تعليقاته القليلة - لكن الأهم هو وجهة نظره الخاطئة عن علم الدلالة. فتخلق بعض الخصائص الدلالية البسيطة المشكلات كلها التى

يراهما إيدلمان في النظريات التركيبية والتعبيرات. فهي محكومة بالقاعدة ومحددة تحديدا صارما ومثبتة بشكل مستقل عن التجربة والمظاهر المعروفة للبنية العصبونية؛ ومن هنا فهي تخلق "الأزمة" التي تنشأ عنها الفجوة بين ما يبدو أنه صفة خوارزمية رقمية للغة والتنوع الملاحظ والتشتت المستمر للتجربة الفردية والبنية العصبونية. ونحن نواجه هنا مشكلة معهودة من مشكلات التوحيد في العلوم، وهي التي ربما توجب، كما حدث في الماضي كثيرا، أن تعاد صياغة العلوم "الأكثر أساسية" بصورة جزرية لكي تتوافق مع النظرية التفسيرية الناجحة في المستويات الأخرى.

وقد اقترح عدد من العلاجات للتعامل مع هذه "الأزمة"، ومنها الاقتراح بأن "الذهني" هو "العضوي العصبي" في مستوى أعلى، وقد يكون هذا صحيحا، في نهاية المطاف، أما الآن فلا يعدو أن يكون فرضية عن "العضوي العصبي"، لا وصفاً "للذهني"؛ وهو ما يعني أن الحذاء في القدم الخطأ، على حد فهمنا. ومنها وجهة "الزرعة المادية الإقصائية" الذي يرى أنه يجب علينا أن نركز اهتمامنا على علم وظائف الأعضاء العصبي، وهو اقتراح ليس له من المعنى إلا ما كان لاقتراح قدم منذ زمن يوجب التخلي عن الكيمياء لصالح دراسة الجسيمات الصلبة من خلال حركتها، أو وجوب أن يتبع المتخصصون في علم الأجنة المسار نفسه، وهناك أبحاث غزيرة تسأل عما سيحدث إن أمكن لنماذج نظرية الشبكة العصبونية (الترايبوية) تفسير الظواهر التي سبق أن فسرت في ضوء أنظمة تمثيلية حوسبية. وربما يبدو هذا النقاش كأنه علمي طبيعي من حيث الكيف، لكن ذلك ليس واضحا تماما؛ فقلة هم علماء الأحياء الذين يمكن أن يلفت أنظارهم لاقتراح أن الأنظمة التي نفتقر إلى البنية ولا تتصف بخصائص معروفة يمكن أن تعطى في المستقبل تفسيراً لتطور بعض الكائنات العضوية من غير اللجوء إلى التركيبات المعقدة في ضوء تركيز العناصر الكيميائية والبرنامج الداخلي للخلية وإنتاج البروتين، إلخ.

وتتنمى النظريات الناجحة في بعض المجالات عادةً - ومنها اللغة على وجه خاص - إلى النوع الحوسبي التمثيلي، وهي حقيقةٌ تحدثُ قدرًا كبيرًا من عدم الارتياح. وللتغلب على عدم الارتياح هذا يلجأ في كثير من الأحيان إلى الاستعانة بالتمذجة الحاسوبية؛ لتبيين أن لدينا حالات كثيرة واعية من هذا النوع، ثم يؤدي هذا إلى القول بأن علم النفس يدرس المشكلات البرمجية. وهذا توجهٌ مشكوك فيه. ذلك أن الأشياء المصنوعة تُثير أسئلةً لا تبرز في حالة الأشياء الطبيعية. فيعتمد كونُ شيء ما مفتاحًا أو طاولة أو حاسوبًا على مقصد الصانع منه، والاستعمال المعهود، وطريقة تأويله، إلخ. وتبرز الاعتبارات نفسها حين نَسأل عن إن كانت آلة ما تُخفق في أداء وظيفتها، أو في اتباع القاعدة، إلخ. فليس هناك نوع طبيعي أو حالة معيارية. فلا تبرز هذه الأسئلة في دراسة الجزيئات العضوية، ودراسة أجنحة الدجاج، أو دراسة الملكة اللغوية، أو الأشياء الطبيعية الأخرى، ويعكس الاعتقادُ بأن هناك مشكلة تتطلب حلاً، وراء الحالات المعهودة، ثنائية غير مسوَّغة، كما أن العلاج المقترح أسوأ من المرض.

ولا تَمَسُّ هذه الملحوظات إلا ظاهرَ العناصر الثنائية في أغلب التوجهات الفكرية المؤثرة عن اللغة والفكر وأكثرها تعقيدًا، فالواجب إما أن نسوِّغ هذه التوجهات أو نتركها، كما يبدو لي أيضًا أن نقد المقاربات الطبيعية يعاني من خلل. وهناك، فيما أظن، سببٌ وجيه لأن نتفحص عن قرب المذاهب التي كانت تُفترض بشكل غير منضبط، وإذا لم تصمد أمام هذا التحليل، فيجب أن نَسأل عن السبب الذي يجعلها تبدو قوية.

هوامش الفصل الرابع

- (١) للاطلاع على مناقشة لهذا الموضوع، انظر (Bilgrami 1993). وانظر (Chomsky (1980: 25f) عن الافتراض (الضمني غالباً) لمقاربة داخلية فردية في مجالات بحثية أوسع (كاللسانيات الاجتماعية، واكتساب اللغة، ومفهوم هيلاري بنتام "تقاسم العمل الاجتماعي"، إلخ).
- (٢) النزعة الأسسية anti-foundationalism هي وجهة النظر التي تقول إن المعرفة غير ممكنة إلا إن اتخذت بعض الوحدات أساساً محدثاً للوحدات الأخرى. ويوجه اهتمام خاص إلى النقمة المدعاة بالأسس المقترحة وإلى العلاقة بين هذه الأسس وسائر المعرفة. (المترجم)
- (٣) انظر مفهوم "العلم العادي" عند توماس كون في كتابه The structure of scientific Revolutions، ١٩٦٢. وقد ترجمه إلى العربية شوقي جلال بعنوان: "بنية الثورات العلمية". الكويت: عالم المعرفة (العدد ١٦٨)، جمادى الآخر ١٤١٣هـ / ديسمبر ١٩٩٢م. (المترجم)
- (٤) وهي التي تتعلق بالطرق التي تبحث في الكيفية التي ترتبط بها التمثيلات بالعالم أو بالأفراد الذين يمتلكون هذه التمثيلات والكيفية التي تترابط بها لتكون أنظمة للاعتقادات والأحاسيس والتوجهات. (المترجم)
- (٥) يرى بعض فلاسفة العلم أنه يبدو أن من الطبيعي التسليم بأنه سيكون للنظرية الجديدة دائماً نوع من علاقة التماهي مع النظرية السابقة لها. ويسمى إرنست ناغل هذه العلاقة بـ"قوانين الجسرية" Bridghe laws. (المترجم)
- (٦) ولا تتماشى تصورات "العلوم الخاصة" (كعلوم الأرض، وعلم الأحياء، وغير ذلك) مع شروط ديفيدسون؛ انظر (Fodor 1987).
- (٧) ليس من الواضح إن كان كوين سيخلص إلى هذه النتيجة أم لا، وذلك لتمييزه بين الدليل "النفسي" والدليل "اللغوي". فهو يقبل، لتحديد حدود

العبارة، الدليل الأول دليلاً حقيقياً لكنه لا يقبل الدليل الثاني؛ ويتضمن الدليل الأول بعض التجارب على الإزاحة الإدراكية للقطقات؛ أما الدليل الثاني فيتضمن الاعتماد الإحالي، كما في المثالين (١) و(٢) فيما يلي. وهذا تمييز غامض، خاصة أن "الدليل اللغوي"، بناء على أسباب علمية طبيعية، أكثر وجاهة، هذا إن لم نتكلم عن حقيقة أن المادة الأولية لا تأتي مصنفة بمثل هذه الطرق. وربما يسمح هذا التمييز، بغض النظر عما يعنيه، بمراجعة فكرة "التشويؤ" عنده، إلا أنه لا يسمح بمراجعة اللغة فيما يبدو. انظر الفصل الثالث في هذا الكتاب عن هذا الأمر والمراجع ذات الصلة هناك.

(٨) للاطلاع على مناقشة أوسع، انظر التعليقات على عرض سيرل لوجهات النظر هذه في Chomsky 1990؛ كذلك وجهات نظر نيد بلوك وآخرين. ولم يجب [سيرل] عن هذه الاعتراضات في إجابته هذه أو في كتابه الذي نشره بعد تلك Searle 1992.

(٩) يعنى "مبدأ الربط" connection principle أن هناك نوعاً من العلاقة الداخلية بين حالة ذات مضمون قصدي وكونها شعورية (إمكاناً، في الأقل). (المترجم)

(١٠) للاطلاع على نقاش أحدث انظر Quine 1990؛ وللإطلاع على نقاش أكثر توسعاً لوجه مبكر منها (ومماثل تقريباً) انظر Chomsky 1987، والفصل الثالث هنا.

(١١) يرى كثير من الفلاسفة وعلماء "علم المعرفة" أن الفهم اليومي أو الفهم "الشعبي" للحالات الذهنية يكون نظرية عن الذهن. وتسمى هذه النظرية عموماً بـ "علم النفس الشعبي" أو "علم النفس البديهي". (المترجم)



الفصل الخامس اللغة موضوعاً طبيعياً

أريد أن أناقش هنا مقارنةً للذهن تأخذ اللغة والظواهر المماثلة لها على أنها عناصر للعالم الطبيعي، وينبغي أن تُدرس بمناهج البحث الاختباري المعهودة، وسأستخدم في هذه المناقشة المصطلحين "ذهن" و"ذهني" مجردين من أي مُعَيَّر غيبي، فأنا أفهم المصطلح "ذهني" بالطريقة التي يفهم بها مصطلح "كيميائي"، أو "بصرياتي"، أو "كهربائي". فتسمى بعض الظواهر والأحداث والعمليات والحالات المعيّنة في الحديث العام "كيميائية" (إلخ)، من غير أن يوحي هذا بأي مُمَيَّر غيبي. فَتُستخدم هذه المصطلحات لانتقاء بعض مظاهر العالم المعيّنة محوراً للبحث. فنحن لا نسعى [بهذا] لتحديد "المعيار الصحيح للكيميائي"، أو "علامة الكهربائي"، أو "حدود البصرياتي"، وسأستخدم مصطلح "ذهني" بالطريقة نفسها، وبما يشبه معناه في الاستخدام العادي، من غير أن يكون لهذا مقتضيات أعمق. ولا أعني بـ "ذهن" إلا المظاهر الذهنية للعالم، من غير اهتمام خاص بتعيين الحدود تعييناً صارماً أو بمحاولة العثور على معيار معين يختلف عما في الحالات الأخرى.

وسأستخدم مصطلحي "لساني" و"لغة" بالطريقة نفسها تقريباً. فنحن نوجه اهتمامنا نحو بعض مظاهر العالم التي تدخل تحت هذا العنوان العريض غير التقني، ثم نحاول فهمها بشكل أفضل، وربما أمكن لنا أن نطور - ونحن نطور بالفعل - في أثناء قيامنا بذلك تصوراً يتماثل تقريباً مع المفهوم غير التقني "للغة"، ثم نفترض أن مثل هذه الموضوعات تنتمي إلى أشياء موجودة في العالم، إلى جانب الجزيئات المعقدة والمجالات الكهربائية ونظام الإبصار البشري، وغير ذلك.

وتسعى المقاربة العلمية للطبيعية لمظاهر العالم اللسانية والذهنية إلى صياغة نظريات تفسيرية معقولة، أخذة ما نقاد إلى افتراضه في هذا المسعى

على أنه "حقيقي"، مع الأمل في التوحيد مع العلوم، الطبيعية "الصرف"، في نهاية الأمر: ونؤكد أنه التوحيد لا الاختزال بالضرورة. فالاختزال الكاسح نادرٌ في تاريخ العلوم. بل الشائع أن العلم الأكثر "أساسية" هو الذي كان يلزمه الخضوع لمراجعة جذرية ليحصل التوحيد. وحالة الكيمياء والفيزياء مثال أخير لهذا: فقد وُجدَ تعليل بولنج Pauling للرابط الكيميائي هذين العلمين، لكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن جعلت الثورة الكمية في الفيزياء هذه الخطوات ممكنة. ويمكن عدُّ توحيد أكثر علم الأحياء مع الكيمياء بعد ذلك بسنوات قليلة اختزالاً حقيقياً، لكن ذلك ليس الغالب [في العلوم]، وليس له أية أهمية معرفية خاصة أو أية أهمية أخرى؛ إذ لم يكن "توسُّع" الفيزياء لتشمل ما كان يُعرف عن التكافؤ والجدول الدوري والأوزان الكيميائية... إلخ أقل صلاحاً ليكون شكلاً من أشكال التوحيد، ونَعزُو نظريات اللغة والذهن، في الحالة التي بين أيدينا، التي يبدو أنها مؤسَّسة أفضل من غيرها على أسس علمية طبيعية، إلى الذهن/الدماغ خصائص حوسبية من نوع مفهوم جدًا، وإن كنا لا نعرف ما يكفي لنفسر الكيفية التي يمكن بها أن يكون لبنية مركبة من خلايا خصائص كهذه. ويثير هذا مشكلةً من مشكلات التوحيد، لكنها من نوع مألوف.

ونحن لا نعرف الكيفية التي ربما يسير بها التوحيد في نهاية الأمر في هذه الحالة، أو إن كنا اكتشفنا المقولات الملائمة التي ينبغي توحيدها، أو حتى إن كانت هذه المسألة تقع في مدى إيراكنا. وليس هناك ما يبيح لنا أن نفترض ببساطة وجوب أن تُختزل الخصائص الذهنية إلى "خصائص للشبكة العصبية"، كما تقول إحدى المزاعم النمطية (انظر Patricia Churchland 1994). وكثيراً ما بُرهن على أن ادعاءات مماثلة في مجالات أخرى زائفة، وليس لها أهمية علمية خاصة في هذه الحالة. وإذا فهمت دعوى الشبكات العصبية على أنها خطة بحثية وحسب، فذلك حسن؛ وسوف ننتظر ما سينتج عنها. أما إن قصد بها أكثر من هذا فستجد أسئلة أكثر خطراً.

أما فيما يخص المدى الذي يصل إليه الإدراك، فإذا كان البشر جزءاً من العالم الطبيعي، لا كانتات فوق طبيعية، فلذكاء البشرى، إذن، مدى وحدود يحددها التصميم الأولي [للإنسان]. فيمكن، لهذا، أن نتوقع أن بعض المسائل لن تقع في نطاق قدراتهم الإدراكية، مثلما أن الفئران لا تستطيع الجرى عبر شبكات ذات خصائص عديدة، لافتقارها إلى التصورات الملائمة. ويمكن أن نسمي مثل هذه المسائل "أحاجي عند البشر"، مثلما نثير بعض المسائل "أحاجي عند الفئران". ومن هذه الأحاجي أسئلة يمكن أن نثيرها، وأسئلة أخرى لا نعرف كيف نصوغها بشكل ملائم أبداً. ولا تعنى هذه الحقائق البديهية وصم البشر بضعف الذكاء. ذلك أننا لا نحكم على الجنين البشرى بـ"الضعف" لأن تعليماته الوراثية غنية إلى حد يكفى لمساعدته كي ينمو بشراً، وهو ما يمنع مسارات أخرى للتطور. وسنساعد جميعاً إن تحولت هذه المسائل من أحاجٍ لا نملك إلا أن نتأملها مبهوتين، إلى مشكلات صعبة بدأنا للتو في فك أسرارها" (Patricia Churchland 1994)⁽¹⁾. وليس بيان التحول في أمور كانت مجالاً للاهتمام التقليدي أمراً تافهاً، ويمكن أن نسأل إن كانت الأفاق ما تزال بعيدة كما كانت دائماً، وربما لأسباب مغروسة بعمق في الإعداد الأحيائي البشرى.

ويحاج دانيل دينيت بأن فكرة "المحدودية المعرفية"، مع أنها ملائمة مذهبياً إلا أنها ليست قارة خطيبياً، ذلك أن تشومسكى وجيرى فودر يمتدحان قدرة الدماغ البشرى على تحليل اللانهائية الرسمية للجمل الصحيحة نحويًا في لغة طبيعية ما، وربما فهمها من ثم، ويشمل ذلك تلك الجمل التي تعبر أفضل تعبير عن الحلول لقضايا الإرادة الحرة أو الشعور، التي زعم [دينيت] خطأ أنني حكمت بأنها "خارج حدود البحث" (Dennet 1991: 10). وهذه حجة زائفة حتى إن أمكن صياغة تلك الحلول باللغة البشرية - وهو ما ننتظر البرهنة عليه، لا ادعاءه. ذلك، أولاً، أن التعبيرات اللغوية الطبيعية لا يمكن تحليلها غالباً، كما هو معروف، (لا طولها فحسب، أو لتعقيدها بمعنى

ما مستقلٌ عن طبيعة الملكة اللغوية). ثانيًا، إنه ربما لا يمكن فهم هذه التعبيرات أبدًا حتى إن حُلَّتْ وألَّتْ؛ ومن السهل جدًا إيراد أمثلة على ذلك.

ويُلْقَى تاريخُ العلوم المتقدِّمة أضواءً كاشفةً على السعي نحو التوحيد. خذُ كبداية "الفلسفة الآلية" التي بلغت أوجها في القرن السابع عشر؛ وهي الفكرة التي مفادها أن العالمَ ألهً من نوع يستطيع صانعٌ ماهر أن يصنعه. وتعود جذورُ هذا التصور إلى الفهم البيهيمي، الذي يستنتج منه المسلمة الجذرية التي تقول إنه لا يمكن للأشياء أن تتفاعل إلا عبر التماس المباشر. وقد حاجَ رينيه بيكارت، كما هو معروف، بأن بعضَ مظاهر العالم المعينة - ومنها، أساسًا، الاستخدام العادي للغة - تقع وراء حدود الآلية. وقد افترض لتعليل هذه المظاهر مبدأً جديدًا؛ أي جوهرًا ثانيًا أساسه التفكير، في الإطار النظري عنده. وبرزت "مشكلة التوحيد" بصفاتها سؤالاً عن التفاعل بين الجسد والذهن. وكانت هذه الثنائية الغيبية بحثًا علميًا طبيعيًا من حيث الجواهر، وتستعمل الأدلة الاختبارية في مقارنة الدعاوى الواقعية عن العالم - وكانت [هذه الثنائية] خاطئة، لكن هذا هو ما يحدث دائمًا.

وقد انهارت النظرية الديكارتية بعد ذلك بقليل، حين بينَ إسحاق نيوتن أن حركة الأرض والكواكب السيارة تقع وراء حدود الفلسفة الآلية - أي وراء ما كان يُفهم بأنه جسد، أو مادة. أما ما بقي [بعد ذلك] فكان صورةً للعالم تتصف بأنها "مضادة للمادية"، وتعتمد اعتمادًا كبيرًا على القوى الروحية"، كما تقول مارجريت جاكوب (M. Jacob 1988: 97).

وقد شجِبَ أبرزُ العلماء آنذاك بقوة لجوء نيوتن إلى فكرة الجاذبية، ويشير ديكسترهويز إلى أن "رواد الفلسفة الآلية الحقيقية نظروا إلى نظرية الجاذبية كأنها (بعبارة بويل Boyle وهويجينز Huygens) انتكاسةً إلى تصورات القرون الوسطى التي كان يُظن أنها انقرضت، وتشبه أن تكون نوعًا من الخيانة لمشروعية العلم الطبيعي" (E. J. Dijksterhuis 1986: 479). كما رأوا أن فكرة نيوتن "القوة الغامضة" كانت ردةً إلى عصور الظلام التي

"استنقذ العلماء أنفسهم منها"، وإلى "علم الفيزياء المدرسى الذى كان يتصف بالتنوعيات والقوى"، وإلى "المبادئ التفسيرية للروحانية"، وما أشبه ذلك من المبادئ، التى كانت تجيز التفاعل من غير تماس مباشر". وكان ذلك يشبه أن نيوتن قال إن الشمس تولد فى الكواكب نوعية تجعلها قادرة على وصف الدوران"، وقد أدان لايبنيز وهويجينز، فى الرسائل المتبادلة بينهما، نيوتن لتخليه عن "المبادئ الآلية" الراسخة ورثته إلى بعض الأفكار الغامضة كـ "التعاطف والتناوب"، و"النوعيات الأخرى غير المادية التى لا يمكن تفسيرها". ويبدو كأن نيوتن كان يتفق مع هؤلاء. وكان سياق تعليقه المشهور: "إنى لا أؤطر الفرضيات تعبيراً عن انزعاجه من عجزه عن تحديد سبب هذه القوة للجاذبية، التى تبعد كثيراً عن "المسببات الآلية"، وقد وجد أنه لا مفر من أن يوطن نفسه على النتيجة التى مفادها "أن للجاذبية موجودة فعلاً؛ فقوانينها تُفسر حركات الأجرام السماوية كلها، وحركات بحارنا" - وإن عدّ مبدأ [الجاذبية] الذى كان قد افترضه "سخيفاً". واستمر نيوتن حتى أيامه الأخيرة، يسعى إلى البحث عن "الروح العميقة التى تتخلل الأجساد المادية كلها وتكمن فيها"، وهى التى ربما تفسر التفاعل، والتجانب والتناوب الكهربائيين، وأثر الضوء، والإحساس والطريقة التى تتحرك بها أجساد الحيوانات تحت توجيه الإرادة"، وقد استمرت بعض الجهود المماثلة قروناً بعد ذلك.

وتوحى هذه الانشغالات، فى فجر العلم الحديث، بطعم النقاش المعاصر لـ "مشكلة الذهن - الجسد". كما تثير أسئلة عن ماهية القضايا ذات الصلة هنا. فيلاحظ توماس ناجل أن "المحاولات المتعددة لإنجاز هذه المهمة التى تبدو مستحيلة [أى اختزال الذهن إلى المادة] والحجج التى يقصد بها تبين إخفاق هذه المحاولات، تشكل تاريخ فلسفة الذهن فى الخمسين سنة الماضية". وتتمثل المهمة المستحيلة فى "إكمال الصورة المادية للعالم" بترجمة تعليقات "الظواهر الذهنية" فى ضوء "وصف إما أن يكون فيزيائياً بصورة صريحة أو يستخدم مصطلحات لا يمكن أن تنطبق إلا على ما يكون فيزيائياً خالصاً"، أو

ما يمكن أن يوفر شروطًا للتقرير* انطلاقًا من "أسس يمكن ملاحظتها خارجيًا" (Nagel 1993: 99). ويناقش تايلر بيرج، في مراجعة شاملة لقرن من فلسفة الذهن، نشأة "المقاربة الطبيعية" ("المادية"، "الفيزيائية")، في المستنبات بوصفها "إحدى النزعات المحاذية القليلة في الفلسفة الأمريكية" (Burge 1992: 32)، وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب). وهي الفكرة التي مفادها أنه ليس هناك حالات ذهنية وراء الوحدات الفيزيائية العادية، التي يمكن تعيينها في العلوم الفيزيائية أو الوحدات التي يمكن أن تعدّها للبيهة "فيزيائية" (Burge 1992: 31؛ وانظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

وتفترض مثل هذه المناقشات، خلافاً لنيوتن ومعاصريه، أن نيوتن ظل في إطار "الصورة المادية للعالم"؛ وربما لا يكون ذلك صحيحًا إلا إن فهمنا "الصورة المادية للعالم" بأنها أي شيء يمكن أن يصوغه العلم، مهما كانت درجة مفارقتها "للمسببات الآلية". وتفترض هذه المناقشات، بتعبير آخر، فهمًا مسبقًا لما يكون فيزيائيًا أو ماديًا، ولماهية الوحدات الفيزيائية. وكان لهذه المصطلحات شيء من المعنى في إطار الفلسفة الآلية، لكن ما الذي تعنيه في عالم مؤسس على فكرة "القوى الغامضة" عند نيوتن، أو على بعض الأفكار الأكثر غموضًا لمجالات الطاقة، والفضاء المنحني، والأوتار اللانهائية ذات البعد الواحد في فضاء ذي عشرة أبعاد، أو أي شيء يمكن أن يتدعه العلم غدا؟ وفي غياب أي تصور لـ "المادة" أو "الجسد" أو "ما يكون فيزيائيًا"، لن يكون لدينا طريقة متماسكة لصياغة القضايا الخاصة بـ "مشكلة الذهن - الجسد". وكانت هذه مشكلات حقيقية في العلم إنان ازدهار الفلسفة الآلية. لكن العلم يفترض، منذ أقول الفلسفة الآلية، أي شيء يجد له مكانًا في نظرية تفسيرية معقولة، بغض النظر عن درجة مخالفته للبيهة. ولا يمكن أن تثار مثل هذا الإشكالات عن مجال المظاهر الذهنية للعالم خاصة، دون سواها من مظاهر العالم، إلا انطلاقًا من بعض المسلمات الثنائية غير المسوغة.

ثم رسخت النزعة المضادة للمادية بصورتها عند نيوتن وأتباعه

سريعاً؛ لذلك كانت انتماءات ديدرو Diderot للنزعة المادية، في منتصف القرن الثامن عشر، السبب، فيما يبدو، لرفض الجمعية الملكية القاطع قبوله عضواً فيها. كما كتب هيوم أنه "يبدو كأن نيوتن كشف عن بعض غوامض الطبيعة"، لكنه "بيّن في الوقت نفسه عدم نضج الفلسفة الآلية؛ وبهذا أعاد أسرار [الطبيعة] الجوهرية إلى الغموض الذي كانت تقبع فيه منذ الأزل وستظل فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol. 6: 341؛ نقلاً عن Gay 1977: 130).

ويتعرض القول بإمكان بقاء هذه الأسرار غامضة للإنكار أحياناً. فقد كان إسحاق بيكمان، الذي تصفه جاكوب بأنه "أول فيلسوف ألسي للثورة العلمية" (M. Jacob 1988: 52)، واثقاً بأن "الرب خلق الطبيعة كلها بالشكل الذي هي عليه لكي يستطيع فهمنا. . . النفاذ المفصل لأسرار كل ما في الأرض" (M. Jacob 1988: 52-53). وتُقدّم بعض الدعاوى الشبيهة في الوقت الحاضر، وبقدر مماثل من الثقة، ويقترحها على الأخص من يصفون أنفسهم بأنهم علماء طبيعة راسخون، وهم الذين يُعيدون صياغة معادلة بيكمان عادةً مستبدلين "الانتقاء الطبيعي" بـ"الرب" – ويقدر أقل من التسويغ، ذلك أن لعبارة "الروح في الآلة" تعريفاً أفضل في هذه الحالة، ومن هنا فمن السهل أن نرى سبب إخفاق هذه الحجج.

ومع أن النزعة المضادة للمادية عند نيوتن صارت بديهية علمية، إلا أن الإشكالات التي أثارها لم تهجر حقاً، وكان أحد أوجه التعبير عن هذه النزعة الاعتقاد بأن الطبيعة لا يمكن فهمها، ويرى نوع آخر منها أنه يجب أن تؤوّل الافتراضات النظرية تأويلاً إجرائياً فقط. وكان لافوازييه يعتقد أن "عدد العناصر وطبيعتها مشكلة لا يمكن حلها، فهي تقبل عندنا غير نهائي من الحلول التي ربما لا يتوافق أي منها مع الطبيعة"؛ ويبدو أنه من المحتمل جداً أننا لا نعرف أي شيء. . . عن الذرات غير القابلة للانقسام التي تتكون منها المادة" (Lavoisier؛ نقلاً عن Brock 1992: 129)، ولن يكون بإمكاننا

ذلك، كما يعتقد. ووصف لودفيج بولتزمان نظريته الجزيئية للغازات بأنها لا تزيد عن كونها تشبيهاً مُريحاً، ورأى يوليس بوينكاريه أنه ليس لدينا سبب للاختيار بين النظريات الآلية الأثيرية والنظريات الكهربائية المغناطيسية للضوء وأنها تُقبل بالنظرية الجزيئية للغازات بسبب معرفتنا بلعبة البليارد (Brock 1992: 165)، ويلاحظ وليم بروك أنه كان يُنظر إلى الذرات التي يتحدث عنها الكيميائي على أنها "وحدات نظرية غيبية"؛ وإذا أُولت إجراءات، فإنها تُقدّم "أساساً تصوّرياً لإعطاء أوزان أولية تقريبية ولتحديد المعادلات الجزيئية" (ص 171)، كما تميّز هذه الوسائل الأدائية عن "النزعة الذرية الفيزيائية الخلافية جداً، وهي التي تُقدّم بعض المزايم عن الطبيعة الآلية الحقيقية للعناصر الجوهرية كلها"، ولم يتحقق التوحيد إلا نتيجة لبعض التغييرات الجوهرية في "النزعة الذرية الفيزيائية"، أي: نموذج بور، والنظرية الكمية، واكتشافات بولنج (انظر Chomsky 1986: 251-252، نقلاً عن Heilbron). وقد تغلب التوحيد في نهاية الأمر على ما كان يبدو أنه فجوة لا يمكن ردمها قبل بلانك: "فقد كانت المادة التي يتعامل معها الكيميائي متمايزة وغير متواصلة، أما الطاقة عند عالم الفيزياء فكانت متواصلة، وكانت تتمثل في عالم رياضي غائم من الطاقة والموجسات الكهربائية المغناطيسية. . . ." (Brock 1992: 489).

وكان يُنظر، في منتصف القرن التاسع عشر، إلى المعادلات التي تحلّل الجزيئات المعقدة على أنها "مجرد رموز تصنيفية تُلخص المسار الملاحظ لردّ فعل ما"؛ وكان للرأي السائد أنه "لا يمكن إيجاد حل للطبيعة الخالصة للتجميعات الجزيئية"، وأن التنظيمات الفعلية للذرات داخل الجزيء، إن كانت تعني شيئاً ألبتة، "يجب ألا تُقرأ" في المعادلات (Brock 1992: 254). وقد عبّر كيكولي Kekulé، الذي مهّنت بنيويته الكيميائية الطريق لعملية التوحيد في نهاية الأمر، عن شكّه في "إمكان اكتشاف المكونات الصرّقة للجزيئات العضوية أبداً" (ص 252)؛ وأنه ليس للنماذج التي اقترحها للتكافؤ

وتحليله له إلا تأويل أداتي وحسب. ورفض كيكولي، حتى سبعينيات القرن التاسع عشر، فكرة كون "المعادلات المنهجية... تمثل حقاً التنظيمات الحقيقية لذرات جزيء ما". ولم يكن يُسمح للمدارس الفرنسية - حتى سنة ١٨٨٦م - بتدريس النظرية الذرية، لأنها كانت "مجرد فرضية"، بحسب قرار وزير التعليم، الكيميائي المشهور بيرتيلو (ص ٣٦٤).

ويلاحظ بروك أن أبرز العلماء كانوا يسخرون، بعد ذلك بأربعين سنة، من اقتراح جي. ن. لويس الذي مفاده أن "النويات الذرية يمكن أن تتداخل، حيث يمكن لألكترون واحد أن ينتمي إلى نواتي ذرتين مختلفتين" وعثوا هذا اقتراحاً تصورياً سانجاً - مع أنه الاقتراح الذي صار في فترة لاحقة "مبدأً رئيساً في النظرية الآلية للكمية الجديدة" (Brock 1992: 476)، وكان أحد الاعتراضات أن هذا "يمثل القول بأن زوجين يمتلك كل منهما ثمانية دولارات، لكونهما يمتلكان دولارين في حساب مشترك، ويمتلك كل واحد منهما ستة دولارات في حساب ثان خاص به" (Brock 1992: 477)، نقلاً عن Kasimir Fajans؛ وكان ذلك كأن الألكترونات "تقتعد صناديق بضائع عند كل ركن، وهي في حال تأهب لتصافح... الألكترونات الأخرى في ذرات أخرى"، كما علق ساخرًا أحد أعضاء هيئة التدريس البارزين في معهد فارادي (Brock 1992: 477)، نقلاً عن R. A. Mullikan). وقد سلفه ثيودور ريتشاردز، وهو أول كيميائي أمريكي يفوز بجائزة نوبل، الحديث عن الطبيعة الحقيقية للروابط الكيميائية ووصفه بأنه "ترثرة غيبية. إذ لا يعدو هذا أن يكون طريقة فجأة لتمثيل بعض الحقائق المعروفة عن التفاعلات الكيميائية. إذ هي طريقة للتمثيل وحسب" (Brock 1992: 466)، نقلاً عن ثيودور ريتشاردز). إلا أن رفض لويس وآخرين لهذا التشكك مهد الطريق إلى التوحيد في نهاية الأمر.

وليس صعباً العثور على نظائر معاصرة في نقاش مشكلة الجسد -
الذهن، بغض النظر عما يُفترض أنها تعنيه. وهناك، كما أظن، أشياء كثيرة

يمكن أن نتعلمها من تاريخ العلوم منذ أن تخلت عن الأسس البديهية، وهو التخلي الذي يصحب دائماً بقدر من عدم الارتياح لانتهاجها هذا النهج. ويجب أن يكون بإمكاننا الآن القول بأننا لا نستطيع أن نفعل أكثر من السعي نحو "أفضل النظريات" من غير أن يكون لدينا معيار مستقل للتقويم إلا الإسهام في الفهم، والأمل بأن يكون باستطاعتنا إنجاز التوحيد لكن من غير مذهبية مسبقة عن الكيفية التي يمكن بها أن يوصل إلى هذه النظريات أو إن كان من الممكن إنجازها. وكما صاغ مايكل فريدمان هذا الموقف؛ فلا يمكن فهم "فلسفة التقاليد [العلمية] الحديثة"، منذ ديكارت، بشكل أفضل كأنهم كانوا يحاولون الوقوف خارج العلم الجديد ليبيّنوا، من زاوية غامضة خارج العلم نفسه، أن معرفتنا العلمية "تعكس" بشكل ما واقعية خارجية مستقلة. فهم يبدأون، بدلاً من ذلك، من "حقيقة" المعرفة العلمية الحديثة بوصفها نقطة محدّدة، فليست مشكلتهم أن يسوّغوا هذه المعرفة من زاوية "أعلى" معينة بقدر ما تتمثل في قدرتهم على التعبير عن التصورات "الفلسفية" الجديدة التي يفرضها العلم الجديد علينا" (Freidman 1993: 48). وكما يعبر كائط عن ذلك، فليست الرياضيات و علم الطبيعة بحاجة إلى البحث الفلسفي لذاتيهما، بل من أجل علم آخر، هو: المقاربة الغيبية" (Kant 1783: section 40).

فالعلوم الطبيعية، من وجهة النظر هذه، "فلسفة أولى" – سواء أكان الموضوع حركة الكواكب، أو نمو كائن عضوي، أو اللغة والدّهن، وهذه الفكرة مألوفة في الفيزياء الآن؛ وينذر أن تجد فيلسوفاً [الآن] يعترض على مبادئها الغربية وعلى مناقضتها للحس ومعارضتها للتفكير السليم فيراها من ثم غير ممكنة. ومع هذا يُنظر إلى وجهة النظر هذه عموماً على أنها لا تنطبق على علم الإدراك، واللسانيات على الأخص، فهناك حد فاصل ما في مكان متوسط [بين تلك العلوم و علم الإدراك واللسانيات]، فيسوّغ العلم نفسه، داخل هذا الحدود؛ ومن هنا يسعى الناقد المحلّل ليتعلم شيئاً عن معايير المعقولة والتسوية من خلال دراسته للتجاح الذي يحققه العلم، أما وراء هذا

الحد، فكل شيء قابل للتغيير؛ فيطبق الناقدُ بعضَ المعايير المستقلة لِيصدر حكمه على النظريات المقترحة والوحدات التي تفترضها، وليس هذا، فيما يبدو، إلا نوعاً من "الثنائية المنهجية"، وهي أكثر غرابة من الثنائية الغيبية التقليدية التي كانت فرضية علمية، ومقاربة علمية طبيعية روحاً. وإذا ما تخلينا عن هذا الموقف الثنائي فإننا نشغل بالبحث إلى حيث يفودنا.

كما ينبغي أن يكون بإمكاننا الآن أن نتبنى موقفاً نحو مشكلة الذهن - الجسد صاغه جوزيف بريستلي، مثلاً، بعد أن قوَّض نيوتن النزعة المادية و"الفلسفة الآلية"، إذ استنتج "أنه ليس الأمر أن كل شيء يُختزل إلى المادة، بل الأمر أن نوع المادة الذي قامت عليه وجهة النظر التي تقول بالجوهرين غير موجود"، وأنه "بالتصور المعدل للمادة، ليس هناك مكان للطرق الأكثر تقليدية لإثارة السؤال عن طبيعة التفكير وعلاقته بالدماغ، فيجب أن تفكر في نظام أحيائي معقد منظم بخصائص ربما يُصنّفها المذهب التقليدي ذهنياً" و"فيزيائية" (كما يصوغ جون يولتون قول بريستلي 114: 1983 John Yolton).

وتمتلك المادة، بتعبير بريستلي نفسه، "قوى الجذب والنبذ" اللتين تعملان على "مسافة حقيقية وبعُد يمكن تعيينه عموماً عما نسميه الجسم نفسه"، وهما خصيصتان "أساسيتان خالصتان للطبيعة الحقة" للمادة (Yolton 111: 1983). وبهذا نتغلب على الاعتقاد الساذج بأن للأجساد (إن نحينا الذرات جانباً) صلابة وتماسكاً ذاتيين، ونتخلص من الحجج التي تقوم على "اللفظية الساذجة" و"الفهم الساذج"، كما في السعي إلى البحث في "يأء النسبة" المحال إليها في عبارة "جسدي". ومع الاكتشافات النيوتنية ينبغي أن يرتفع مقام [المادة] لدينا، ليفترب من طبيعة الكائنات الروحية غير المادية، بعد أن نتخلص من خزي الصلابة أو جمودها أو كسلها" (ص 113). ولم تعد "الملاءمة بين المادة والإحساس والفكر" بأقل من الملاءمة بينها وبين الجنب والنبذ. كما أن قوى الإحساس أو الإدراك والتفكير "خصائص" — تسبق منظم محدد للمادة؛ والخصائص التي تسمى ذهنياً "نتائج" (سواء أكانت

ضرورية أم لا) لبنية عضوية مخصوصة كبنية الدماغ. ولا يقل الاعتقاد بأن قوى الإحساس والفكر نتيجة لازمة لتنظيم ما، في معقوليته، عن الاعتقاد بأن الصوت نتيجة لازمة لحركة الهواء، فالتفكير عند البشر "خصيصة للنظام العصبى، أو للدماغ، على الأقر"، وقد وصل لو ميتسر إلى نتائج مشابهة قبل ذلك بجيل، وإن على أسس مختلفة.

ويمكن القول، بقدر أكبر من الحذر، إن "الناس" هم الذين يفكرون فى الظروف الملائمة، لا أدمغتهم، التى لا تفكر، وإن كانت أدمغتهم توفر آليات للتفكير، فيمكن أن أقوم بعملية قسمة رياضية طويلة باستخدام إجراء تعلمته فى المدرسة، لكن بماغى لا يقوم بعملية قسمة طويلة حتى إن كان ينفذ هذا الإجراء، وبالمثل، فأنا لا أنفذ عملية قسمة طويلة إن كنت أنفذ بطريقة آلية تعليمات تؤول بأنها هى الخوارزم نفسه الذى أستعمله، مستجيباً لبعض الدخول فى شفرة ما فى ما يشبه "الغرفة الحسابة" عند سيرل، ولا يترتب على هذا شيء عن تنفيذ دماغى خوارزما، فى هذه الحالة أو فى حالة الترجمة والفهم، فيفهم "الناس" فى بعض الأوضاع لغة ما؛ لكن دماغى لا يقوم بفهم الإنجليزية أكثر من كون قلمي تقومان بالمشى، وهى قفزة عظيمة بعيداً عن أنواع العزو القصدى البديهى للناس، باتجاه مثل هذا العزو لأجزاء محددة فى الناس أو الأشياء الأخرى. ويقفز الباحثون هذه القفزة بسهولة بالغة، وهو ما أدى إلى نقاش واسع يبدو أنه غير مفيد عن أسئلة مزعومة تتصل بما إن كان من الممكن للآلات أن تفكر، ومنها مثلاً: كيف يمكن أن ندافع "اختبارياً" عن الزعم بأن شيئاً (غريباً) يلعب الشطرنج* (Haugeland 1979)، أو نحدد إن كان يمكن لأداة أو خوارزم ترجمة اللغة الصينية، أو تناول شيء، أو تنفيذ عملية قتل، أو اعتقاد أن السماء ستمطر. وتعود جنود كثير من هذه النقاشات إلى بحث [العالم البريطانى المعاصر] ألين تيرنج الكلاسيكى الذى اقترح فيه اختبار تيرنج لكاء الآلة، لكن هذه النقاشات تخفق فى التنبه إلى ملاحظته التى مفادها أن "السؤال الأساس، وهو هل يمكن

للآلات أن تفكر؟" ليس له - كما اعتقد - أي نصيب من المعنى يجعله يستحق النقاش" (Turing 1950: 442): فهو ليس سؤالاً عن حقيقة، بل أمراً متروكاً لتقرير إن كان من الممكن أن نتبنى استعمالاً مجازياً معيناً، كما في قولنا (بالإنجليزية) إن الطائرات تطير أما المذنبات فلا - أما في المركبات الفضائية، فتختلف الاختيارات. وبالمثل، فالغواصات تُبحر لكنها لا تسبح، ولا يمكن أن يكون هناك نقاش ذو معنى عن مثل هذه المواضيع، أو عن ذكاء الآلة، بتتبعاتها الكثيرة المألوفة.

وربما كان مفيداً أن نقارن النقاش المعاصر بالنقاش في القرنين السابع عشر والثامن عشر عن بعض الموضوعات المشابهة؛ فقد كان كثير من الناس - حينذاك - مأخوذين كذلك بقدرات الأدوات المصنوعة، وكانوا يتناقشون عن إن كان البشر ليسوا إلا أدوات تتسم بتعقيد أكبر وتركيب مختلف. لكن ذلك النقاش كان بحثاً علمياً طبيعياً من حيث طبيعته، ويتصل بخصائص لم تدخل في إطار الفلسفة الآلية، كما يبدو. فقد بين ديكارب وأتباعه، خاصة جيرود دي كورنيموي، مركزين اهتمامهم على استخدام اللغة، الخطوط العامة للاستقصاءات الاختبارية عن 'العقول الأخرى' مبينين أنه إن استطاع شيء ما المرور بأكثر التجارب صعوبة مما أستطيع صوغه لاختبار إن كان [هذا الشيء] يعبر عن أفكار جديدة أو يؤولها مني، فسيكون "من غير المعقول" أن أشك في أن له ذهنًا كذهني، ولا يعدو هذا أن يكون طريقة علمية مألوفة تماثل اختبار عبّاد الشمس لقياس الحموضة. وقد نشطوا في العمل في مشروع التشابه مع الآلة، لكنهم فهموه على أنه طريق للكشف عن طبيعة العالم. ولم يكن جاك دي فوكانسون، وكان أشهر الأدواتيين، يقصد خداع مشاهديه ليحملهم على الاعتقاد بأن البطة الآلية التي صنعها كانت تهضم للطعام، بل كان يسعى لأن يتعلم شيئاً عن الأشياء الحية بصياغة نماذج لها، كما هو المعهود في العلوم، ويتضاد النقاش المعاصر مع التقاليد [العلمية القديمة] بصورة ليست في صالحه إلى حد كبير، كما يبدو

(Jonathan Marshall 1989؛ وانظر Chomsky 1993a؛ وللمزيد من التعليقات ومناقشة أوسع، انظر Chomsky 1966).

وتصحّ اعتبارات مماثلة عن المصطلحات القصصية التي تُستخدم عادة في وصف ما يحدث في العالم. فنحن نقول إن المذنب يتوجه نحو الأرض، ويرتفع الصاروخ نحو القمر، وتتجه الزهرة نحو الضوء، وتطير النحلة نحو الزهرة، ويتناول الشمبانزي ثمرة جوز الهند، ويمشي جون إلى مكتبه، وربما نستطيع نظرية علمية طبيعية في المستقبل قول شيء عن الاستخدام [اللغوي] المؤلف والحالات التي تسعى إلى تناولها، معاً، وهذان موضوعان مختلفان كثيراً. ولن تكون أي من المقاربتين محدودة بـ "اللفظية السانجة والفهوم السانجة"، مثلما أننا لا نتوقع أن نتناول نظرية عن الإبصار روى كلينتون عن الأسواق العالمية، أو نتناول نظرية عن اللغة حقيقةً لأن الصينية لغة لمدينة بكين وهونج كونج، أما اللغة الرومانشية فليست لغة لبوخارست وريو دي جانيرو — نتيجة لبعض العوامل كاستقرار الإمبراطوريات وما أشبه ذلك.

وربما يكون مضللاً القول بأننا نتخلى عن "نظريات" أن المذنب يتوجه نحو الأرض، وأن الشمس تغرب وأن السماء تظلم، وأن الموجة تضرب الشاطئ ثم تتراجع، وأن الريح تموت والموجات تختفي، وأن ناساً يتكلمون الصينية لا الرومانشية، إلخ، وأننا نستبدل بها نظريات أفضل. ويسير البحث عن الفهم النظري، بدلاً من ذلك، متبعاً طرقه الخاصة، ويقود إلى صورة للعالم تختلف اختلافاً كلياً، وهي صورة لا تؤكد صحة طرفنا العادية في الكلام والتفكير أو نقضى عليها. ويمكن أن نقدر هذه الطرق، ونعدّلها ونغنيها من نواح عدة، مع أن العلم قلما يكون هادياً في المجالات المهمة للبشر، والبحث العلمي الطبيعي مشروع بشري مخصوص يسعى للوصول إلى نوع خاص من الفهم، يمكن أن يحصله البشر في مجالات محدودة إن أمكن تبسيط المشكلات بشكل كاف، ونحن نعيش حيواناً، في خلال ذلك، ونواجه بأفضل

طريقة نستطيعها مشكلات يختلف بعضها عن بعض اختلافًا جوهريًا، وتتصف بأنها غنية جدًا في طبيعتها حتى إنها لتحد من أملنا في القدرة على اكتشاف مبادئ تفسيرية لها على أي عمق، إن كانت مثل هذه المبادئ موجودة ابتداءً (للاطلاع على نتائج مماثلة تقريبًا انطلقًا من أسس مختلفة، انظر Baker 1988 وتطبيقات Charles Chastain).

ولا تبدو فئاعة بريستلي الأساسية وغيره من العلماء البارزين في القرن الثامن عشر موضعًا لخلاف؛ فالتفكير واللغة خصيصتان لمادة منظّمة — وهي في هذه الحالة، غالبًا، الدماغ، لا الكلية أو القم. وليس من الواضح السبب الذي يوجب بعث هذه النتيجة بعد قرون كأنها اقتراح جرىء جديد — فهي "الادعاء الجريء بأن الظواهر الذهنية طبيعية بصورة خالصة وتسببها النشاطات العصبية العصبية للدماغ" (Patricia Churchland 1994)، أو فرضية "أن قدرات الذهن البشري قدرات للدماغ البشري حقيقة" (Paul Churchland 1994)؛ أو أن "الشعور خصيصة عليا للدماغ أو خصيصة ناشئة عنه"، وتنتمي إلى النظام الأحيائي الطبيعي . . . كائتماء التركيب الضوئي أو الهضم أو الانقسام الفتيلي له، كما في صياغة جون سيرل الأخيرة (John Searle 1992: 90)، وهي التي وصفها ناجل (Nagel 1993) بأنها "القلب الغيبي" لفرضية جذرية ربما تمثل إضافة كبرى للإجابات المحتملة عن مشكلة الذهن — الجسد" إن بينت بشكل ملائم (وهو ما يراه غير محتمل)، ويخرج علينا كل عام أو عامين كتاب يؤلفه عالم بارز يتضمن نتيجة محيرة أو فرضية باهرة تقول إن التفكير عند البشر "خصيصة للنظام العصبي، أو للدماغ بشكل أصح"، وأنه "النتيجة الضرورية لتنظيم معين" للمادة، كما صاغ ذلك بريستلي منذ أمد بعيد، بطرق تبدو قريبة من البديهية — وهي غير مفيدة بشكل يماثل عدم فائدة البدائه عادة، ذلك أن علوم الدماغ، على الرغم من أوجه التقدم المهمة، ما تزال بعيدة جدًا عن ردم الهوة إلى المشكلات التي يثيرها التفكير واللغة، بل حتى إلى ما نفهمه فهمًا تقريبًا عن هذه الموضوعات.

ونواجه هنا مشكلات مألوفة من مشكلات التوحيد. فـ "اختلاف الخرائط العصبية ليس متميزاً أو ثنائي القيمة بل مستمر، ومفصل تفصيلاً دقيقاً جداً، وواسع"، كما يقول جيرالد اينلمان (Edelman 1992: 28)، مستنتجاً من ذلك أنه يجب أن تكون النظريات الحوسبية أو الترابطية للذهن خاطئة بسبب طبيعتها التمايزية، لكن هذا ليس أكثر معقولية من النتيجة التي كانت تقضى، قبل قرن، بأنه يجب أن تكون الكيمياء خاطئة لأنه لا يمكن توحيدها مع ما نعرف الآن أنه كان علم فيزياء فقيراً جداً؛ خاصة "أن المادة التي يتعامل معها الكيميائي متميزة وغير مستمرة، أما الطاقة عند عالم الفيزياء فمستمرة" (Edelman 1992: 27)^(١). وهذا الفارق حقيقى إلى حد بعيد، لكنه ليس "أزمة" لعلم الإدراك، كما يرى اينلمان، بل مشكلة من مشكلات التوحيد، التي لا يمكن أن نقول عنها شيئاً مؤكداً.

وليس هناك مشكلة من حيث المبدأ فى أن نصوغ أنظمة تحوّل الدخول المستمرة إلى خروج متميزة محدّدة جداً، ومن هذه طابع التفاعل العصبى الذى يتصف إما "بالوجود أو بعدم"، والشاهد الأخر ما بينته دراسة حديثة تستخدم "نموذج حاسوب ديناميكى حرارى لتبيّن أنه يمكن أن ينشأ اطراد عظيم فى موضع سمة دقيقة جداً، كالتغير من ست طبقات إلى أربع، من عدم استمرار ضئيل فى دخول [جمع "نخل"] التّجنيب الجينى فى أثناء النمو"، وهو "خلخله ضئيلة" تؤثر تأثيراً بيّناً على التنظيم العام لـ . . . بنية كبيرة، وهذا واحد من أمثلة كثيرة، كما يلاحظ المؤلف (Stryker 1994: 1244). وبغض النظر عن الوضع الاختبارى لبعض الاقتراحات المعينة، فلم يبيّن أحدٌ إلى الآن أن مشكلات التوحيد فى النظريات المتميزة (الحوسبية أو الترابطية) والنظريات الخلوية مختلفة نوعاً عن النظريات الأخرى التي ظهرت فى مسار العلم.

ويتمثل الوضع الحالى فى أن لدينا الآن نظريات جيدة ومتطورة عن بعض مظاهر اللغة والذهن، لكن ليس لدينا إلا أمشاج من الأفكار عن العلاقة

بين أي منها والدماغ. لتأخذ مثالاً محدداً. فنحن نفهم الآن فهماً جيداً إلى درجة بعيدة، في إطار النظريات الحوسبية عن الملكة اللغوية للدماغ، الفروق بين أنواع من "الشنوذ" - أي الخروج عن مبدأ عام أو آخر من مبادئ الملكة اللغوية. فقد اكتشفت الأبحاث في مجال النشاط الكهربائي للدماغ التي أنجزت مؤخراً بعض أنواع الترابط بين عدد من فصائل الشنوذ هذه، ووجدت نوعاً مختلفاً من الاستجابة العصبية للكهربائية للمخالفات التركيبية في مقابل المخالفات الدلالية (Neville et al. 1991; Hagoort et al. 1993; Hagoort and Brown 1994). ومع ذلك، فتظل هذه النتائج شيئاً لافتاً للنظر وحسب؛ لأنه لا توجد نظرية ملائمة عن النشاط الكهربائي للدماغ - أي ليس هناك سببٌ معروف يلزم بوجود هذه النتائج، بدلاً من نتائج أخرى، أما النظريات الحوسبية، بالمقابل، فمؤسّسة بشكل أكثر صلابة من وجهة نظر المقاربة العلمية الطبيعية؛ لذلك يقع تحليل الشنوذ، على الأخص، في إطار مصفوفة تفسيرية ذات مدى أوسع.

وتسعى أية مقاربة طبيعية للغة والذهن إلى تحسين كل مقاربة، مع الأمل في الوصول إلى توحيد أكثر دلالة. ومن الشائع الافتراض بأن هناك أمراً مشكلاً على درجة عميقة في النظرية المؤسّسة تأسيساً أقوى على أسس علمية طبيعية، وهي "النظرية الذهنية"، وفي الانشغال الزائد بمشكلتى "اللزعة الإقصائية" أو "اللزعة الفيزيائية" اللتين لم تصاغا إلى الآن صياغة متماسكة. ولا يهيمن هذا التوجه الثنائي على النقاش والحوار فحسب، بل يكاد يُعد مسلماً، وهي ظاهرة غريبة في تاريخ الفكر تستحق استقصاء أكثر دقة.

ويمكن لنا، حين نضع مثل هذه التوجهات جانباً، أن نسأل كيف يسير البحث العلمي الطبيعي. ونحن نبدأ بما نأخذه موضوعاً طبيعياً، كجونز مثلاً، ونهتم في البداية ببعض المظاهر الخاصة بـجونز، أي مظاهره اللغوية. ونجد أن عناصر معينة في دماغ جونز مخصصة للغة - ولنسمها "الملكة اللغوية"، وربما يكون لبعض أجزاء الجسد الأخرى تصميم محدّد نو علاقة محددة

باللغة كذلك، ويمكن أن تدخل عناصرُ الملكة اللغوية في بعض مظاهر الحياة الأخرى، وهو ما يمكن أن نتوقعه في أي عضو أحيائي. ونترك هذه الأمور جانباً في البداية، موجّهين اهتمامنا إلى الملكة اللغوية في الدماغ، وهذا أمرٌ أساسي بوضوح. وهناك أدلة قوية على أن للملكة اللغوية مكونين مختلفين، في الأفل، هما: "نظام إدراكي" يخزن المعلومات بصورة ما، و"أنظمة للأداء" تستخدم هذه المعلومات للنطق والإدراك، والكلام عن العالم، وصياغة الأسئلة، وإطلاق النكات، إلخ. وللملكة اللغوية نظامٌ لإدراك الدخّل ونظام لإنتاج الخرج، وهناك ما هو أكثر من هذا؛ فليس هناك أحد يتكلم اليابانية فقط، ولا يفهم إلا السواحلية، وتتعامل أنظمة الأداء هذه مع رصيد مشترك من المعلومات يربط بعضها ببعض ويزودها بتعليمات من نوع معين. ويمكن أن تتعطل أنظمة الأداء وحدها، وربما بشكل حاد، في حين يبقى النظام الإدراكي كما هو، وقد اكتشفت بعض حالات انفكك الترابط الأخرى [يسين مثل هذه الأنظمة]، وهو ما يكشف عن نوع البنية القالبية المتوقعة في أي نظام أحيائي معقد.

لاحظ أننا لا نفهم "القالبية" هنا بمعناها في أبحاث جيرى فودر اللافتة للنظر، تلك التي تقتصر على أنظمة الدخّل والخرج؛ وتتخذ هذه الأنظمة إلى النظام الإدراكي للملكة اللغوية، لكنها متميزة عنه. وربما يكون صحيحاً أن "الآليات النفسية تتألف من ملكات مستقلة مكثفة بذاتها كإدراك الوجود وإدراك اللغة" (Mehler and Dupoux 1994)، لكن لا يبدو أن لهذه "الأعضاء الذهنية" مكاناً في إطار القالبية، كما تفهم بدقة - كما يبدو - بالمثل، أن أفكار ديفيد مار المؤثرة عن مستويات التحليل لا تنطبق هنا أبداً، خلافاً للنقاش الواسع عنها، ذلك أنه هو كذلك كان يهتم بأنظمة الدخّل - الخرج وحدها، أي بتحويل المثبرات الشبكية، في هذه الحالة، إلى نوع من الصورة الداخلية.

وللملكة اللغوية عند جونز "حالة أولى" تثبتها الإعداد الأحيائي، كما

يفترض عمومًا أن الحالة الأولى تُحدّد أنظمة الأداء بصورة كاملة - مما يعنى أن أى تغيير لحالة معينة موجةً داخليًا أو أنه نتيجة لعوامل خارجية كالجروح، لا نتيجة للتعرض للغة معينة أو أخرى، وهذا هو الافتراض الأبسط، ولا يقول أحد بأنه زائف، مع أنه ربما يكون كذلك، وحين نتنبأه نعزو الاختلافات اللغوية فى الإدراك (كعدم قدرتنا على إدراك فوارق النفث كما يدركه متكلم اللغة الهندية، مثلاً) إلى اختلافات المظاهر الصوتية للنظام الإدراكي، من غير أن نثق كثيرًا بهذا الافتراض، مع أن هناك أدلة عليه؛ فيستطيع متكلمو اللغة الإنجليزية، فى الظروف الاختبارية، اكتشاف التقابل [بين الأصوات المنفوتة وغير المنفوتة] فى اللغة الهندية، وهو الذى لا "يسمعونه" حين يكون فى سياق لغوى. وربما كانت أنظمة الأداء مخصصة للغة حقًا، فيبدو أنه حتى الأطفال الصغار جدًا يمتلكون نظامًا قارًا شبيهًا بالنظام الصوتي عند الكبار، وهو الذى ربما يكون صقلًا خاصًا لخصيصة أشمل لدى الفقريات، ويقترح ميلر ودوبو فرضية مؤقتة تقول إن "الأطفال حديثى الولادة حساسون للتقابلات 'كلها' التى يمكن أن توجد فى اللغات الطبيعية 'كلها'، وبالطريقة نفسها التى توجد بها عند الكبار" (Mehler and Dupoux 1994: 167)، وهم "يتعلمون عن طريق النسيان" (ص 168) نتيجة للتعرض المبكر، فلا يصل الطفل إلى نهاية السنة الأولى من عمره إلا وقد انتقى نظامه الإدراكي رصيدًا معينًا من بين الاحتمالات المتاحة.

ونكتفى - بناء على هذه الفرضيات المبسطة عن النمو - بملاحظة النظام الإدراكي للملكة اللغوية، وحالتها الأولى، وحالاتها التالية. ومن الواضح أن هناك تغيرات للحالة تعكس التجربة؛ فليست الإنجليزية اللغة السواحلية، أو أنها ليست هى بدقة. وربما نجد عالمً مريخيً منهجى أن هذا التنوع سطحي إلى حد بعيد، وهو ما يجعله يستنتج أن هناك لغة بشرية واحدة وحسب، بتنوعات هامشية. لكن النظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جونز "يتغير" استجابةً للتجربة اللغوية، وهو ما يؤدي إلى تغيير الحالة حتى تصل

إلى وضع مستقر تقريباً، وربما يكون ذلك في وقت مبكر بين السادسة والثامنة من العمر، وربما يعنى ذلك، إن كان صحيحاً، أن التغيرات التالية (غير المعجمية)، التى اكتشفت، حتى سن البلوغ، موجّهة داخلياً.

دعنا نسمّ مؤقتاً حالة معينة للنظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جونز بـ "لغة" - أو، بالمصطلح التقنى: لغة - د، حيث تعنى "د" "داخلي"، و"فردى"؛ لأن هذه المقاربة للغة داخلية تحديداً، وفردية بصورة حاسمة، وتشبه بهذا المعيار دراسات نظام الإيصار⁽³⁾. فإذا كان النظام الإدراكي للملكة اللغوية عند جونز في حالة "ل"، فسنقول إن جونز يمتلك اللغة لغة - د. وتشبه اللغة - د قولنا: "طريقة في الكلام"، وهى إحدى الأفكار التقليدية عن اللغة.

وعلى الرغم من بعض التشابه بين المصطلحات هنا والتعبيرات المعيارية المألوفة إلا أنها مختلفة، وهو ما نتوقعه حتى فى الأطوار المبكرة من البحث العلمى الطبيعى. ونصف اللغات المختلفة فى العالم مثل هذه الأمور بطرق مختلفة. فنقول، فى الإنجليزية، إن جونز "يعرف" لغته؛ ويقول آخرون إنه يتكلمها، أو يتكلم بها، إلخ. كما تتنوع المصطلحات التى تطلق على شئ كاللغة، إلا أنى لا أعرف دراسة جادة تناولت هذه الأمور عبر الثقافات، وهذه الموضوعات مهمة للبحث فى علم دلالة اللغة الطبيعية، والفروع الأخرى للبحث العلمى الطبيعى التى تسعى لتبيين كيف تنتج الأنظمة الإدراكية، ومنها اللغة، ما يسمى أحياناً بـ "العلم الشعبى". فنحن نتكلم عن أن الأزهار تتوجه نحو الشمس، وأن السماء تظلم، والتفاح يسقط نحو الأرض، والناس يعتقدون بعض الاعتقادات ويتكلمون اللغات، إلخ؛ وربما يمكن لطرفنا فى التفكير والفهم - ولأفكارنا الحدسية عن الكيفية التى يتكوّن بها العالم - أن تتصل بصورة مباشرة بمثل هذه الأنواع من التعبيرات، أو لا يمكن. فتتبع عناصر العلم الشعبى من إعدادنا الأحيائى المسيق، منخذة أشكالاً معينة تحت ظروف ثقافية متنوعة. وهناك أدلة على أن الأطفال الصغار

يعززون بعض الاعتقادات والخطط للأخرين قبل أن يكتسبوا الكلمات التي تصف هذه الأشياء بوقت طويل، وربما صحَّ الشيء نفسه عند البالغين عموماً، مع أن أغلب اللغات، كما تُروى بعض الدراسات، ليس فيها كلمات تُسبِّب الكلمة belief "اعتقاد" في الإنجليزية، وهذه دراسات جادة، ويجب ألا نتناول بخفة؛ وتوفّر حدوسنا عنها بعض الأدلة، لكن ليس أكثر من ذلك. يضاف إلى ذلك أنه لن يكون هناك صلة بين ما يمكن أن نتعلمه عن العلم الشعبي وبين النشاط البحثي العلمي الاختباري عن الموضوعات التي يتناولها العلم الشعبي بطريقته الخاصة، بغض النظر عن مقدار ما نتعلمه، وهذه نتيجة تُعدُّ بديهية في دراسة ما يسمى بـ "العالم الفيزيائي" لكن ينظر إليها على أنها خلافية أو زائفة في دراسة المظاهر الذهنية للعالم (بناء على أسباب مشكوك فيها، كما أظن).

ولم أتحدث إلى الآن إلا عن جونز ودماعه وملكة دماغه اللغوية وبعض مكوناتها، وهذه كلها موضوعات طبيعية، وحين نلتفت إلى سميت نكتشف أن الحالة الأولى لمملكته اللغوية تتماثل فعلاً [مع ملكة جونز]؛ وإذا مرَّ بتجربة جونز فسيمتلك لغة جونز، ويبدو هذا صحيحاً عبر النوع، وهو ما يعنى أن الحالة الأولى خصيصة مقصورة على النوع، إلى حد بعيد جداً. وإذا كان الأمر كذلك فـ "الملكة اللغوية البشرية" و"اللغات (د)" التي هي تحققات لها تصلح أن تكون موضوعات طبيعية.

وإذا كان جونز يمتلك اللغة "ل" فهو يعرف أشياء كثيرة، مثل: أن كلمة house تسجع مع mouse وأن عبارة brown house تتألف من كلمتين بينهما علاقة صوتية صوتية من التجانس الصوتي [في الحركة الوسطى فيهما]، وأنها تُستخدم في الإحالة إلى بنية صممت لأغراض محددة وتستخدم لهذه الأغراض التي لها سطح خارجي بني، ونودُّ أن نكتشف كيف يعرف جونز مثل هذه الأشياء، وهذه هي الطريقة التي يبدو أن معرفة جونز تعمل بها.

وتتألف "اللغة - د" من إجراء حوسبي ومعجم، أما المعجم فمجموعة

من الوحدات، كلُّ منها مجموعٌ معقدٌ من الخصائص (تسمى "سمات")، كخصيصة "صوت شفتاني وقفي" أو "شيء مصنوع". ويختار الإجراء الحوسبي وحدات من المعجم ويصوغ منها تعبيراً، وهو مجموع مسن هذه السمات أكثر تعقيداً، وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن النظام الحوسبي غيرٌ متنوع، إلى حد بعيد، ويوجد بعض التنوع في الأجزاء التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالإدراك والنطق؛ وليس هذا غريباً؛ لأن هذا هو المكان الذي تتوفر فيه المادة الأولية للطفل في أثناء اكتسابه اللغة — وهي عملية يمكن وصفها بصورة أفضل بـ "النمو" بدلاً من "التعلم"، في رأيي. وإذا تحينا هذا جانباً، يبدو أن التنوع اللغوي مكانه المعجم. وأحد مظاهره "الاعتباطية السوسورية"، أي الربط الاعتباطي بين التصورات والأصوات: أي أن البرنامج الوراثة لا يحدّد إن كانت "شجرة" tree، أي التصوّر، ترتبط بالأصوات المكوّنة لكلمة "شجرة" [في العربية] أو tree (في الإنجليزية) أو baum (في الألمانية). ويمكن أن يُكتسب الربط بين التصوّر والصوت بناءً على أقل قدر من الدليل، فالتنوع هنا غير مفاجئ، لذلك، إلا أن الأصوات الممكنة وجودها مقيدةٌ تقييداً دقيقاً، وربما تكون التصورات مثبتةٌ إلى حد بعيد، ويصعب أن نتخيل الأمر بشكل مختلف، نظراً لسرعة الاكتساب المعجمي، الذي يصل إلى كلمة واحدة في الساعة بين السنة الثانية والثامنة من عمر الطفل، مع اكتساب الوحدات المعجمية عادةً بناءً على تعرّض واحد لها، في ظروف غامضة جداً، لكنها تُفهم في سياق تعقيد دقيق هائل يذهب بعيداً جداً وراء ما يمكن أن يسجّل في أي معجم مفصلٍ مستقصٍ، وهو الذي لا يعطى، شأنه شأن أكثر الأنحاء التقليدية المفصلة، إلا إشارات تكفي إلى حدٍّ ما أولئك الذين يعرفون الإجابات مسبقاً، وهي معرفة فطرية إلى حد بعيد.

وربما يكون التنوع، وراء هذه العوامل، مقصوراً على المظاهر الصورية للغة — كإعراب الأسماء، وتصريف الأفعال، إلخ، بل ربما يكون التنوع محدوداً حتى هنا. فيبدو أن الإنجليزية تختلف، ظاهرياً، اختلافاً حاداً

عن الألمانية أو اللاتينية أو اليونانية أو السنسكريتية من حيث غنى التصريف، كما أن الصينية أكثر اختلافاً. إلا أن هناك أدلة على أن فى اللغات الأنظمة التصريفية نفسها أساساً، ولا تختلف إلا فى الطرق التى يتعامل بها الإجراء الحوسبى مع العناصر الصورية فيها الذى يوفر تعليمات لأعضاء النطق والإدراك. ويبدو أن الحوسبة الذهنية متماثلة فيما عدا ذلك، مما ينشأ عنه الآثار غير المباشرة للبنية التصريفية الملاحظة، حتى إن لم تكن التصريفات نفسها تُسمع فى الكلام، وربما يكون ذلك أساس التنوع اللغوى، إلى حد بعيد، ذلك أنه يمكن لتغيرات بسيطة فى الطريقة التى يودى بها النظام وظيفته أن تؤدي، بالطبع، إلى ما يبدو كأنه تنوع هائل.

وللإجراء الحوسبى خصائص ربما تكون مقصورة عليه إلى حد كبير. وهو "متشعب" كذلك، فهو لا يستطيع النفاذ إلى كثير من خصائص الأنظمة الإدراكية الأخرى؛ إذ يبدو أنه لا "تظانر" له، مثلاً. وهو يعين [خصيصة] "التجاور" adjacency؛ لهذا يمكن أن يكون لكل مقطع بين مقطعين خصيصة ما (كـ "النبر"، مثلاً). لكن لا يمكنه استخدام فكرة "الثلاثة". فليس هناك نظام صوتى يحدث فيه شيء ما فى كل ثالث مقطع، مثلاً؛ كما يبدو أن التركيب يخضع لخصيصة "اعتماد البنية"، ولا يمكن أن يستغل الخصائص الخطية أو الحسابية الأيسر فى التنفيذ خارج الملكة اللغوية.

ومما له صلة بهذا الأمر البحث الاختبارى الذى أنجزه نيل سميث وزملاؤه مؤخراً (Neil Smith et al. 1993: 279-347). فقد كانوا يدرسون شخصاً - أسموه "كريستوفر" - لديه ملكة لغوية طبيعية فيما يبدو لكنه يعانى من مشكلات إدراكية شديدة، وهذا مثال لنوع من قابلية البنية الذهنية مما يكتشفه الباحثون دائماً، فيجيد كريستوفر ست عشرة لغة، ويستطيع للترجمة منها إلى الإنجليزية. وشملت هذه للتجارب كريستوفر ومجموعة أخرى اتخذت مقياساً؛ فقد درسوا جميعاً للغة البربرية ونظاماً آخر مصطنعاً صيغ لى يخالف مبادئ اللغة، وقد تعلم كريستوفر البربرية بسهولة، كما هو

متوقَّع، لكنه لم يستطع أن يتعلم إلا قدرًا ضئيلاً من النظام المصطنع، بسبب افتقاره إلى قدرات إدراكية أخرى. أما أفراد المجموعة القياسية فقد حققوا قدرًا من النجاح في تعلُّم النظام المصطنع؛ إذ يبدو أنهم عاملوه على أنه مجرد لغز. لكنهم لم يستطيعوا اكتشاف بعض القواعد البسيطة جدًا، كالقاعدة التي تضع علامة توكيدية على الكلمة الثالثة في جملة ما، ويبدو أن "تُكشَف" الملكة اللغوية كان كافيًا ليمنع اكتشاف قاعدة بسيطة لا تعتمد على البنية، في سياق لغوي.

وتدخل الأعداد في استخدامنا للغة بالطبع؛ فنحن نستطيع أن نكتشف المقطوعات الشعرية [المكونة من عدد من الأبيات] ونفهمها، مثلًا، كما يشتمل على الاستدلال، إلا أنه يبدو أن الإجراء الحوسبي على درجة من النقشف يجعل قدرته على استخدام هذه الموارد محدودة أيضًا، والملكة اللغوية غنية جدًا وهي في الوقت نفسه فقيرة جدًا، وهو ما نتوقَّعه في نظام أحيائي؛ فهي تستطيع تحقيق مستوى عالٍ من الإنجاز في مجالات محددة، لكنها لا تستطيع بالمقابل أن تتعامل مع بعض المشكلات التي تقع خارج هذه المجالات. وكما ذكرنا سابقًا، ينبغي أن نتوقَّع أن يكون ذلك صحيحًا في الملكات الأخرى كلها، ومنها تلك التي يمكن أن نسميها بـ "ملكة صياغة العلم"، وهي المجموع الخاص من التوعيات والقدرات التي نستخدمها في أثناء اشتغالنا بالبحث العلمي الطبيعي.

ومع أن الملكة اللغوية متخصصة جدًا فإنها لا ترتبط بوسائل إحساسية محددة، خلافًا لما كان يُفترض منذ زمن غير بعيد. لهذا تشبه لغة الإشارة عند الصم اللغة المنطوقة شبيهًا كبيرًا، وطريقة اكتسابها تماثل طريقة اكتساب تلك إلى حد بعيد. ولا يبدو للقصور الحسي الكبير إلا أثر محدود على اكتساب اللغة؛ فيكتسب الأطفال المكفوفون اللغة بالكيفية التي يكتسبها بها الأبطال المبصرون، بل يشمل تلك كلمات اللون والكلمات التي تتصل بالتجربة البصرية كـ "يرى" و"ينظر"، وهناك أناس يحققون معرفة لغوية

تقرب من المستوى العادي في غياب أي دخل إحساسي يتجاوز ما يمكن أن يحصلوه بوضع أيديهم على وجه شخص آخر أو حنجرته، ويبدو كأن الآليات التحليلية لملكة اللغة تقدح بالطرق نفسها إلى حد بعيد بغض النظر عن إن كان الدخل سمعياً أو بصرياً، أو حتى لمسياً⁽⁴⁾، ويبدو أنها تحل في المناطق نفسها من الدماغ، وهو ما يبدو مفاجئاً شيئاً ما.

وتنبئ أمثلة فقر الدخل هذه بغنى الإعداد الفطري - مع أن اكتساب اللغة العادي مثير للدهشة بقر كاف، كما يوضحه النفاذ المعجمي كذلك، لا بسبب سرعته وتعقيد ما ينتج عنه وحسب؛ لهذا يمكن أن يحتد الأطفال الصغار جداً معنى كلمة مصطنعة من المعلومات التركيبية في جملة يفوق تعقيدها أية جملة يمكن لهم أن ينتجوها (Gleitman 1990).

ومن الفرضيات المعقولة اليوم أن مبادئ اللغة متبينة وفطرية، وأن التنوع محدود بالطريقة التي بيئناها. فكل لغة، ابن، محددة (إلى حد بعيد) عن طريق اختيار بعض قيم الوسائط المعجمية؛ فباستطاعتنا، بوساطة طيف من الاختيارات، أن نشق اللغة المجرية؛ وأن نحصل على لغة اليوروبا باختيارات أخرى، ويوفر منهج المبادئ والوسائط هذا طريقاً لحل التجانب الأساسي الذي ظهر في بدايات النحو التوليدي. فقد اكتشف الباحثون مباشرة بعد محاولاتهم المبكرة لتوفير أوصاف حقيقية للغات قبل أربعين سنة أن تعقيد بنية اللغة يتجاوز بكثير ما كانوا يتخيلونه، وأن الأوصاف التقليدية للشكل والمعنى لم تكن إلا مساً رقيقاً لظاهر اللغة، أما الأوصاف التي أنجزها البنيويون فلا قيمة لها تقريباً. ويتزايد تنوع اللغات الظاهري الخادع تزايداً هائلاً، إضافة إلى ذلك، بمجرد توجيه الباحث نظره إلى تناول الحقائق التي تعزى بصورة ضمنية لـ "نكاه القارئ" الذي لم يحل. وبدا أن تحقيق كفاية الوصف يقتضى الإتيان بتفسير معقد جداً، مقصور على اللغات المعينة، بل خاص ببعض التركيبات المعينة في لغات معينة، كالقواعد المعقدة لجمل الصلة في الإنجليزية، مثلاً. وكان من الواضح، مع ذلك، أنه لا يمكن لشيء

من هذا أن يكون صحيحا، ذلك أن ظروف اكتساب اللغة تُبين بوضوح أنه لا بد أن تكون هذه العملية موجهة بصورة داخلية، كالحال في مظاهر النمو الأخرى، وهو ما يعنى أنه لا بد أن تكون اللغات جميعا متماثلة تقريبا، ومحددة بالحالة الأولى بصورة كلية إلى حد بعيد، وظل هذا التجانب، منذ ذلك الحين، يوجه التيار الرئيس في الجهود البحثية لانتهاج المقاربة العلمية الطبيعية، أى: أن تجرد من مرجل التعقيد الوصفى المعقد بعض المبادئ العامة التى تحكم الحوسبة وتسمح بصياغة القواعد فى لغة ما بأشكال بسيطة جدا، مع تنوع محدود.

وأدت الجهود لحل هذا التجانب بهذه الطريقة فى نهاية الأمر إلى المقاربة المسماة بالمبادئ والوسائط التى بينها أنفا باختصار. وهى فرضية جريئة أكثر من كونها نظرية محدثة، مع أن إكمال الصورة ما يزال مستمرا، وما تزال الأفكار النظرية الجديدة تقود إلى توسع أبعد فى المواد الاختبارية ذات الصلة فى لغات مختلفة جدا من حيث الأصول النسبية.

وتمثل هذه الأفكار مفارقة جذرية لتقليد غنى استمر ألفين وخمسمائة سنة. فلا تُبين هذه الأفكار، إن كانت صحيحة، أن اللغات متماثلة، بإجراء حوسبى يكاد يكون واحدا وتنوع ضئيل مقصور على المعجم وحسب، بل تبين كذلك عدم وجود قواعد أو تراكيب شبيهة بالقواعد والتراكيب بالمعنى التقليدى، التى نقلت إلى النحو التوليدى المبكر؛ فليس هناك قواعد لتكوين جمل الصلة فى اللغة الإنجليزية مثلا. فليست للتراكيب التقليدية — كالمركب الفعلى، وجملة الصلة، والمبنى للمجهول، إلخ — إلا وسائل تصنيفية مصطنعة، أما خصائصها فتنتج من تفاعل مبادئ أكثر عمومية.

وتُميز مقاربة المبادئ والوسائط بين فكرتين تقعان معا تحت تصور "اللغة - د"، هما: أن هناك تمييزا تصوريا واضحا بين حالة الملكة اللغوية، من جانب، وحالة مشخصة ما للحالة الأولى بعد تثبيت الوسائط، من جانب آخر. وفى غياب أية معجزة سيختلف هذان الموضوعان اختباريا دائما،

فحالة الملكة اللغوية الفعلية عند فرد معين نتيجة لتفاعل عدد كبير من العوامل، ولبعضها فقط صلة بالبحث في طبيعة اللغة. فنحن نأخذ "اللغة - د"، إذن، بناءً على أسس داخلية أخرى تتبع من النظرية، بأنها تشخيص للحالة الأولى، إذا "أمتلنا" من الحالات الفعلية للملكة اللغوية، ومصطلح "الأمثلة" مضلل شيئاً ما، كما هي الحال في أنواع البحث العلمي الطبيعي الأخرى، فهي إجراء نتبعه حين نحاول اكتشاف الواقع، أي المبادئ الحقيقية للطبيعة، ومع هذا لا يُعد هذا الإجراء غير شرعي إلا في دراسة المظاهر الذهنية للعالم خاصة، وهذا مثال للتثنية الغريبة التي يجب أن نتغلب عليها.

وقد فتح النقطة في هذا المسار مسائل جديدة، ومنها تحديداً، ما المدى الذي يمكن أن يصل إليه اختزال المبادئ نفسها إلى الخصائص الطبيعية الأكثر عمقا للحوسبة. وإلى أي مدى تكون اللغة "محكمة" perfect، بناءً على شروط المثوية الطبيعية optimality وبعض العلاقات البسيطة جداً؟ فتري إحدى النظريات أننا، إذا نحينا جانباً السمات الصوتية التي تنفذ الأنظمة النطقية الإدراكية إليها، فإن خصائص تعبير معين، مما يدخل في استخدام اللغة، تأتي بشكل مطلق من المعجم: أي أن الحوسبة تنظم هذه الخصائص بطرق مقيدة جداً، لكنها لا تضيف سمات أخرى؛ وهذا تبسيط كبير للمسلمات المبكرة، وهي التي ربما تتطلب، إن كانت صحيحة، إعادة تفكير واسعة في "المستويات الوجيهية" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى للذهن، وتري نظرية أخرى، اقترحتها أساساً ريتشارد كاين (1994) أنه ليس هناك تنوع وسانطي للترتيب زمنياً. فالترتيب، بدلاً من ذلك، صورة لخصائص تحدد في أثناء الحوسبة: ويعني هذا أن الترتيب الأساس في اللغات جميعاً، انطلاقاً من هذه المسلمات، هو: "فاعل - فعل - مفعول". وتسعى بعض الأبحاث التي أنجزت في مؤخرًا لبيان أن بعض التعبيرات الممكنة التي ربما تؤوّل عند المستوى الوجيهي، إن كوّنت، تمنع لأن حوسبات أخرى بالموارد المعجمية نفسها أكثر اقتصاداً. (للاطلاع على نقاش هذه الموضوعات، انظر Chomsky 1993b، و Chomsky 1996b، والمراجع المذكورة هناك).

ونتوقع، بناءً على مثل هذه المسلمات، أن اللغات "يمكن تعلمها"؛ لأنه لا يوجد إلا قدرٌ قليلٌ ليتعلم، لكنها "لا يمكن استخدامها" جزئياً، لسبب واحد، هو أنه ربما ينتج عن شروط الاقتصاد العام مستويات عليا من التعقيد الحوسبي، أما أن اللغات "يمكن تعلمها" فإكتشاف اختباري مفاجئ؛ إذ ليس هناك سببٌ أحيائي عامٌ لو غير أحيائي يمكن أن يفسر أنه ينبغي أن تكون اللغات التي توفرها الملكة اللغوية مما يسهل التنفيذ إليه بشكل كامل، وهو ما ستكونه إن كانت تُثبت عن طريق تثبيت الوسائط البسيطة. لكن النتيجة التي مفادها أن اللغات "لا يمكن استخدامها" جزئياً ليست مفاجئة بحال. فمن المعروف منذ أمد طويل أن أنظمة الأداء "تُحقق" غالباً، وهو ما يعني أنها توفر تحليلاً يختلف عن التحليل الذي يحدده النظام الإدراكي ("اللغة - د"). وقد نُرسِت أصنافٌ كثيرة من التعبيرات التي تُخلق مشكلات بنيوية للتأويل، كـ "الدمج المتعدد"، وما يسمى بـ "جمل ممثلي الحقيقة"، إلخ، بل إن أبسط التصورات ربما تثير مشكلات صعبة للتأويل، ومنها: الكلمات التي تتضمن تعذداً في المسوّرات أو النفي، مثلاً. فهسبب تعبيرٌ مثل:

I missed (not) seeing you last summer.

قانتى أن (لا) أراك الصيف الماضى.

(الذى يعنى: " توقعتُ أن أراك لكننى لم أرك")

لبسنا لا نهاية له. بل إن اللبس في بعض الأحيان يُشفر. كما في التعبير المنثى: near miss الذى يعنى nearly a hit "كادت تكون إصابة" لا nearly a miss "كادت تكون عدم إصابة" (وهي مماثلة لـ near accident "كادت تكون حادثة").

والاعتقاد بأن التحليل "سهل وسريع"، كما تقول إحدى الصياغات المألوفة — وأن تصميم النظرية اللغوية يجب أن يتعامل مع هذه الحقيقة — خطأ؛ فليست هذه حقيقة. أما القضية فأن نبين أن تلك الأجزاء من اللغة التي

يمكن استخدامها محدّدة تحديداً دقيقاً بنظريات الحوسبة والأداء، وليس هذا أمراً تافهاً.

وتقريباً أسئلة أخرى من هذا النوع إلى مشارف البحث الجارى، وهى أسئلة على مستوى جديد من العمق، لذا فهى مهمة، فى دراسة اللغة والذهن.

وتتصل أسئلة أخرى بخصائص المستويات الوجيهية، مثل: كيف تستعمل أنظمة الأداء التعبيرات التى تولدها "اللغة" - د³ وتوفّر بعض السمات فى هذه التعبيرات تعليمات للأنظمة النطقية والإدراكية فقط؛ لهذا فأحد العناصر فى تعبير لغوى ما هو "صورته الصوتية" "ص ص"، ويفترض عموماً أن هذه التعليمات مشتركة بين النطق والإدراك، وليس هذا واضحاً تماماً، وهو لافت للنظر إن كان صحيحاً. وتوفّر بعض الخصائص الأخرى فى التعبير تعليمات للأنظمة التصورية - القصديّة فقط؛ ويسمى هذا العنصر فى التعبير بـ "الصورة المنطقية" غالباً، لكنه يختلف بمعنى تقنى ما عن الاستعمالات الأخرى؛ ولنسمه بـ "ص م" كى نتجنب سوء الفهم، ويفترض، مرة أخرى، أنه لا يوجد إلا مجموعة واحدة من التعليمات، وأنها معزولة عن الصورة الصوتية. وتبلغ هذه المسلمات حدّاً أبعد من عدم المعقولية، ومن هنا، فهى اكتشافات لافتة للنظر، إن كانت صحيحة.

ويحوّل الإجراء الحوسبى، بناءً على هذه المسلمات، مجموعة من الاختيارات المعجمية إلى موضوعين رمزيين، هما: "ص ص"، و"ص م"، وهو يقوم بذلك بطريقة "مثلى" optimal، من زاوية معينة. ويمكن أن تسمى عناصر هذين الموضوعين الرمزيين سمات "صوتية" و"دلالية"، على الترتيب، لكن يجب أن نتذكر أن هذا كله ليس إلا تركيباً محضاً وهو داخلى بشكل خالص، وهذه دراسة للتمثيلات والحوسبات الذهنية، وتشبه إلى حد كبير البحث فى الكيفية التى يُحدّد بها خيال مكعب يتأرجح فى الفضاء عن طريق إثارة الشبكية، أو عن طريق التخيل، ويمكن أن تأخذ السمات الدلالية لتعبير ما لتعنى "معناه" والسمات الصوتية لتعنى "صوته"؛ فيعنى التعبير

السمات الدلالية بما يشبه معنى الكلمة الإنجليزية المعينة، وأن التعبير
"يُصَوِّتُ" بمعنى مماثل، وتوفّر الدلالة والصوت المعلومات ذات الصلة
لأنظمة الأداء.

فتفد أنظمة الأداء إلى تعبير مثل:

I painted my house brown.

"صبغت بيتي بنيًا"

وهي تؤوِّله، على جانب التلقّي، وتُتَطَّقُه فيما تستعمله عادةً من أجل
فعلٍ كلامي معين أو آخر، على جانب التلقُّظ. فكيف يحدث ذلك؟ وقد تُرست
المظاهرُ النطقية – الإدراكية وما تزال بشكل مكثف، لكن هذه القضايا لم
تُفهم بشكل جيد إلى الآن، أما في المستوى الوجيهي التصوري – اللغوي
فالمشكلات أكثر غموضاً، ويمكن الظن بأنها تقع بعيداً عن متناول البحث
للعلمي الطبيعي البشري من حيث بعض الاعتبارات المهمة.

وربما تكون الفرضية المعقولة الأضعف فيما يخص المستوى الوجيهي
"ص م" أن خصائص التعبير الدلالية تركز الانتباه على بعض المظاهر
المنتقاة للعالم بالصورة التي ترى الأنظمة الإدراكية الأخرى أنها عليها، ثم
توفّر منظورات على درجة عالية من التعقيد والتخصص لكي تنظر إليها من
خلالها، وهي التي يدخل فيها بصورة جوهرية الاهتمامات والانشغالات
البشرية حتى في أبسط الحالات. ففي حالة مثل:

I painted my house brown.

تفرض السمات الدلالية تحليلاً في ضوء خصائص محدّدة للتصميم
والاستخدام المقصودين، ولسطح خارجي معين، بل لتعقيدات أخرى أكثر
تشابكاً، فإذا صبغت بيتي بنيًا، كما ذكرنا في الفصل الثاني، فسيكون سطحه
الخارج بنيًا؛ لكنني أستطيع، مع ذلك، أن أصبغ بيتي بنيًا "من الداخل". وللبعد
خارجي – داخلي خيار موسوم وآخر غير موسوم؛ فإذا لم يحدّد أي منهما

فسيكون المفهوم من ذلك هو الخارج. وهذه خصيصة نمطية للمعجم؛ فإذا قلت إن "جونز صعد الجبل" Johns climbed the mountain، فأعني أنه كان (عموماً) يصعد إلى الأعلى، لكن يمكن أن أقول إنه: climbed down the mountain "صعد نازلاً الجبل"، مستعملاً الخيار الموسوم. وإذا كنت داخل بيتي فأستطيع تنظيفه، حيث أؤثر في الداخل فقط، لكني لا أستطيع أن أراه، إلا إن كان من الممكن رؤية أحد أسطحه الخارجية (عبر نافذة، مثلاً). ومن المؤكد أني لن أكون قريباً من بيتي إن كنت في داخله، على الرغم من كونه سطحاً، في الحالة غير الموسومة. وبالمثل فليس المكعب الهندسي إلا سطحاً، لكن إن كنا نستعمل اللغة الطبيعية، فلا يمكن أن يكون حيزاً في داخل المكعب قريباً منه. وتصح هذه الخصائص بشكل عام جداً، كما في حالة الصناديق والكهوف والطائرات والجبال، وغيرها. فإذا نظرت عبر نفق في جبل ورأيت كهفاً مضاءً في داخله، فإنني لا أرى الجبل؛ إلا إن كنت أنظر إلى سطحه الخارجي (من داخل الكهف، ناظرًا عبر النفق في مرآة في الخارج تعكس السطح، مثلاً). ويصح الشيء نفسه في الأشياء غير الممكنة. فإذا قلت لك إنني صيغت مكعباً دائرياً بنياً فسأفهم أن سطحه بني في الحالة غير الموسومة، وإذا كنت في داخله فإنك تعرف أني لست قريباً منه، وهكذا، إلى حدود التعقيد الذي لم يُقترَ إلا تقديراً ضئيلاً جداً، وهو الذي يثير مشكلات "فقر المنبّه" بشكل متطرف مما يجعل من المستحيل ألا نفترض أن المعرفة اللغوية من هذه الزوايا محدّدة فطرياً إلى حد بعيد جداً، ومن هنا فهي تكاد تكون واحدة عبر اللغات، وهو ما يشبه ما نفترضه عن المظاهر الأخرى للنمو والتطور من غير مناقشة أو فهم.

وتقدّم الكلمات منظورات متعارضة، دائماً تقريباً. فتتصف مدينة ما بأنها محسوسة ومجردة في آن، وأنها حية وغير حية معاً؛ فربما تترقب لوس أنجليس مصيرها بكآبة، في تخوّفها من التعرض للدمار إما بزلزال أو بقرار إداري. وليست لندن مكاناً. بل هي، بدلاً من ذلك، "في" مكان، مع أنها ليست

تلك الأشياء التي تكون في ذلك المكان، وهي التي يمكن أن تتغير جذرياً أو تنقل من مكانها، تاركة لندن كما هي. ويمكن أن تدمر لندن ويعاد بناؤها، بعد آلاف السنين ربما، لكنها ستظل هي لندن؛ ويمكن أن يعاد بناء مدينة قرطاج اليوم، مثلما يمكن أن يُستنسخ توم جونز، مع أنه شيء محسوس بشكل خالص، على هيئة حشرة، لو أن تغيّره ساحرة إلى ضفدع، ينتظر قبلة الأميرة، لكنه سيظل توم جونز على أية حال — وهذه تصورات متوفرة للأطفال الصغار من غير تعليم أو تجربة ذات صلة.

والطبيعة المجردة لمدينة لندن جوهرية لفرديتها. فإذا نُمّرت لندن وحوّلت إلى كوم من التراب، فـ"إنها" — أي لندن — يمكن أن "يعاد" بناؤها في مكان آخر وستكون المدينة "نفسها"، أي لندن. وإذا حوّل بيتي إلى كوم من التراب، فسيمكن بناؤه (أي: بيتي) في مكان آخر، لكنه لن يكون البيت نفسه، وإذا حوّل محرك سيارتي إلى كوم من التراب، فلن يمكن إعادة بنائه، إلا إن كان خرابه جزئياً، حيث يمكن إعادة بنائه. ويدخل في الضمان اعتماد الإحالة، لكن ليس ضرورياً أن تُحيل إلى الشيء نفسه؛ ولا اعتماد الإحالة والفكرة الأضيق للتماثل كليهما أنوار في فضاء معقد جداً من الاشغالات والاهتمامات البشرية. ويمكن أن تكون الأحكام [في مثل هذه الأمور] أكثر دقة، ويدخل فيها عوامل لم تبحث إلا بشكل سطحي جداً.

وهناك أمثلة واقعية كثيرة لإيضاح مثل هذه الخصائص لكلمات اللغة الطبيعية، فليس صعباً أن نفهم تقريراً في الصحافة اليومية عن المصير البائس لمدينة تشيلسي، التي "تتأهب للانتقال" (منظوراً إليها على أنها حية)، مع معارضة بعض سكانها لذلك لأن "نقل مدينتهم، سينزع روحها"، في حين يعترض فريق آخر من السكان بالقول إنه "إن لم تنتقل تشيلسي، فسوف تقتلها السيول في نهاية الأمر". وهناك مدينة تسمى "لورشليم" و"القدس" معا (بالكيفية نفسها التي تسمى بها لندن: London و Londers [في الفرنسية] معا)، فما هذه المدينة؟ وموقعها موضوع لخصام محتدم، بل إنها محل اهتمام لقرارات

مجلس الأمن الدولي. وتخطط الدولة التي تزعم أنها عاصمتها لنقل "القدس"، في حين تترك "أورشليم" مكانها. ويفسر رئيس إدارة تطويرها "أنا بحاجة إلى إيجاد عاصمة للفلسطينيين، ويجب أن نجد مكاناً للقدس" - في مكان ما إلى الشمال الشرقي من "أورشليم". والمقترح معقول تماماً، وهو الذي يجعله مصدر إزعاج كبير لمن يُهمهم أمر "القدس". ويمكن لهذا النقاش أن يثير ألغازاً من النوع المألوف في الأدبيات الفلسفية، وسيصل إلى حد أعلى من ذلك إن نفذ هذا القرار - أي إن كنا سنفترض أن كلمات مثل "لندن" أو "أورشليم" تحيل إلى أشياء في العالم في لغة عامة ما، وكنا نحاول أن نصقل المعاني والأفكار من أجل شروط لا تتحقق فيها مسلمات الاستخدام العادي، حيث نخفق في الالتزام ببعض نصائح فتجنشتاين الجيدة.

بل إن منزلة الشيء (الذي يمكن تسميته) نفسها، وهو الذي ربما يكون أبسط تصور لدينا، تعتمد بصورة جوهرية على أمور متشابكة كأفعال الإرادة البشرية، وهو، مرة أخرى، شيء يفهم من غير تجربة ذات صلة، وتحذده الخصائص الذاتية للملكة اللغوية وبعض الملكات الأخرى. فيمكن لمجموع من الأعواد الملقاة على الأرض أن يكون شيئاً (مفرداً) - كأن يكون أوتاداً لسياج، أو سوراً، أو عملاً فنياً. لكن الأعواد الملقاة على الأرض نفسها ليست شيئاً إن تركت هناك نتيجة لحريق في غابة. (انظر عن مثل هذه الأمور، وعن أهميتها لنظرية كوين والنظريات المماثلة عن التعلم، Chomsky 1975: 203, 43ff.)

وليس لمتواصل "الفضاء - الزمن" صلة خاصة بهذه القضايا، بعكس ما يفترض أحياناً (انظر Putnam 1993)، فعدم اتصال الأشياء ليس موضعاً لخلاف إطلاقاً؛ فليست الولايات المتحدة متواصلة من حيث المكان، مع أنها أصبحت شيئاً يمكن تسميته (فتحول اسمها عبر الزمن من استعماله جمعاً ليمتعل مفرداً)، ويمكن لقول أو مسرحية أن يكونا غير متصلين من حيث الزمن. وتفهم الأشياء غير المتصلة اتصالاً مباشراً، كما ذكرنا آنفاً، على أنها

أشياء تقبل للتسمية، في إطار مصفوفة ملائمة للاهتمام البشري. أما فهم مدينة ما في إطار "العلم الشعبي" بأنها شيء غير متواصل (احتمالاً) ذو أبعاد أربعة فمسألة من مسائل الحقيقة. فيتطلب الافتراض بأنها كذلك، أو أنه ينبغي على النظرية للدالية أن تقول إنها كذلك، تأويلات غير طبيعية إلى حد بعيد لتعبيرات مثل "انقل (تشيلى)" و"تشيلى (السابقة)"، إلخ، وهي قضايا يسهل عدم الانتباه إليها عند التركيز الضيق على موضوع العلاقة بين الشيء والإحالة، أما الخصائص والمنظورات التي تدخل في أفراد المدن والمنازل وما أشبه ذلك، فما تزال بانتظار أن تُكتشف وتفسر، باستقلال عن قضية الاتصال.

وتكشف الأشياء الجوهرية عن الأنواع نفسها من التصميم الذهني الخاص. خذ كلمة "ماء" بالمعنى الذي اقترحه هيلاري بتنام: أى بصفته يعنى ما يعنيه "الرمز الكيميائي للماء" H_2O مع احتمال وجود شيء من الشوائب" (Putnam 1992)، مستشهداً ببحثه الذي نشره سنة 1975 وصار الآن بحثاً كلاسيكياً). فنجد، حتى في مثل هذا الاستخدام، مع توسلته المشكوك فيه بالعلم الطبيعي، أن كون شيء "ماء" يعتمد على الاهتمامات والانشغالات البشرية الخاصة، ومرة أخرى، بطرق تفهم من غير تجربة ذات صلة؛ ويشمل مصطلح "الشوائب"، مرة أخرى، بعض المناطق الصعبة. افرض أن الكأس ١ ملى من الصنبور. فهو إذن كأس ماء، لكن إن غمس فيه كيس شاي، فلن تكون حالته كذلك؛ فهو الآن كأس شاي، وهو شيء مختلف. افرض أن الكأس ٢ ملى من صنبور موصول بخزان ماء ألقى فيه شاي (كان يكون نوعاً من المطهرات، مثلاً). وهنا سيكون ما في الكأس ٢ ماء، لا شايًا، حتى إن لم يكن باستطاعة كيميائي تمييزه من المحتوى الحالي للكأس ١. فيحوى الكأسان الشيء نفسه من وجهة نظر معينة، ويحويان شيئين مختلفين من وجهة نظر أخرى؛ لكن في الحالتين كليهما لا تحوى الكأس ٢ إلا ماء ولا تحوى الكأس ١ إلا شايًا. والشاي في الكأس ٢ هو "الشوائب" بالمعنى عند بتنام، أما في

الكأس ١ فليس كذلك، وليس لدينا ماء أبدا [في هذه الحالة] (إلا بمعنى كسوف الحليب ماءً في أغلبه، أو كسوف شخص ماء من أجل ذلك). وإذا كانت الكأس ٣ تحوى H2O خالصًا وقد غمس فيه كيس شاي فهو شاي، لا ماء، مع إمكان أن يكون تركيز جزيئات الـ H2O فيه أعلى من تركيزها في الماء الذي يأتي من الصنبور أو يُجلب من النهر. لاحظ أن هذه الحالة سهلة بشكل خاص، ليس كمنظارتها الكلاسيكية، نحو "الأرض" و"الهواء" و"النار"، من بين أشياء أخرى كثيرة.

وتتزايد التعقيدات حين نتجاوز الحالات الأكثر سهولة. فيمكن أن أصبح الباب المؤدى إلى المطبخ بنيًا، لذلك فهو شيء مادي محسوس بشكل واضح؛ لكن يمكن أن أُعبر الباب إلى المطبخ، وهو ما يعنى التبادل بين الشكل والأرض. ويمكن أن ينهى الطفل محتوى القارورة ثم يكسرها، مما يؤدي إلى التبادل بين المحتوى والإناء مع إحالة مقصودة ثابتة. وهناك بحث لاقت للنظر أنجزه جيمس بوستيغوفسكى بدرس الاطرادات فى مثل هذه الأنظمة، اعتمادًا على أفكار جيوليوس مورافيك، وهى أفكار أرسطية فى الأصل. (انظر بحثه والأبحاث الأخرى المنشورة فى 1992; Pustejovsky 1993؛ وانظر كذلك Moravcsik 1990؛ و Chomsky 1975). وحين نوجه اهتمامنا إلى كلمات ذات خصائص علائقية أكثر تعقيدًا، وإلى البنى التى تظهر فيها، نجد أن التأويل موجة بتفاصيله الدقيقة جدًا بالنظام الإدراكى الذى نتوقع ألا يكون متنوعًا إلا بقدر ضئيل لبعده الشاسع عن التجربة الممكنة.

وقد صاغ عالم الأعصاب رولفو ليناى الأمر بأفضل وجه حين وصف الإدراك بأنه "حلم يقويه النخل الحسى"، حيث الذهن "حالة حوسبية للدماغ يولدها التفاعل بين العالم الخارجى ومنظومة داخلية من أطر الإحالة" (Linás 1987: 351)، والأطر الداخلية التى تشكل الأحلام أكثر تعقيدًا وأكثر إدهاشًا مما يفترض دائمًا، حتى فى مستوى المعجم، وتبلغ حدًا أعلى من ذلك حين نوجه أنظارنا إلى تعبيرات كوئنتها الإجراءات الحوسبية.

وحيث نبين تفصيلات خصائص التعبيرات، نتعلم قدرًا أكبر عن التعليمات في المستوى الوجيهي "ص م" (أي: "الدلالة")، وهي التي تزول ببعض الطرق من أجل التفكير عن العالم والكلام عنه، إلى جانب أشياء أخرى، وما تزال بعض الأسئلة المهمة الغامضة تقع وراء ذلك، ومنها، مثلاً: ما المعايير التي تنتمي بها هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية بوصفها متميزة عن ملكات الذهن الأخرى الموصولة بها؟ وكيف تتصل الموارد المعجمية بأنظمة الاعتقاد، مثلاً؟ وتظل مثل هذه الأسئلة في مجال ما يعرفه الناس، لا ما يفعلونه. وستظل الإجابات عن هذه الأسئلة تتركنا قاصرين عن فهم الكيفية التي تستعمل بها موارد الأنظمة الإدراكية، ومن الصعوبة بمكان أن نرى من هذه القضايا المتشابهة كيف يمكن أن نستخلص شيئاً مهماً يمكن أن يخضع للبحث العلمي الطبيعي، وللإطلاع على بعض التعليقات على هذا الموضوع، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب.

لاحظ أن خصائص كلمات مثل: "بيت" و"باب" و"لندن" و"ماء" وغيرها لا تشير إلى أن لدى الناس اعتقادات متعارضة أو محيرة. ولن يكون هناك ما يدعو لاستخلاص نتيجة كهذه، إن تخلينا عن الافتراض الاختباري الذي مفاده أن للكلمات تعين الأشياء، إذا استثنينا بعض الاستخدامات المعينة، وهي التي نقيدها بطرق متداخلة إلى حد عال جداً.

فهل ينبغي أن نفترض أن التعبيرات تُعين الأشياء، بصورة ذاتية؟ وبشكل أعم، هل ينبغي أن يزداد شيء على "أضعف الافتراضات" عن العلاقات الوجيهية والطرق التي تدخل بها في التفكير والفعل لتشمل العلاقات التي توجد بين بعض التعبيرات المعينة والأشياء الخارجية؟ وهذا ما يفترض غالباً، مع أنه يجب بذل مزيد من العناية لتمييز بين نوعين، هما: (١) الأشياء في العالم، أو (٢) الأشياء في نوع من النماذج الذهنية، وتمثيل الخطاب، وما أشبه ذلك^(٥)؛ فإذا كان النوع الثاني فالدراسة، مرة أخرى، داخلية، أي شكلاً من التركيب، أما إذا افترضت النوع الأول فستستمر في افتراض وجود

مستويين وجيهيين، أى: "ص ص" و"ص م".

هب أننا افترضنا أن هناك عنصراً a فى الصورة الصوتية يقابل شيئاً خارجياً $*a$ تختاره a على أنه "قيمتها الصوتية"؛ لذلك يختار العنصر $[ba]$ فى "اللغة - د" عند جونز وحدة ما نحو $[ba]^*$ ، تكون "مشاركة" بينه وبين سميث إن كان لها نظير فى "اللغة - د" عند [سميث]. ويمكن وصف التواصل عندئذ فى ضوء هذه الوحدات المشتركة (جزئياً)، وهى التى يمكن صياغتها بسهولة: خذ $*a$ على أنها المجموعة المفردة $\{a\}$ أو $\{3, a\}$ ، أو إن أراد أحد شيئاً أكثر واقعية، صياغة أخرى مؤسدة على حركات الجزئيات. ويمكن أن ندافع، بقدر أكبر من الشجاعة، عن وجهة نظر كهذه، مع أنه لا أحد يفعل ذلك لأن الواضح أن هذا جهد لا طائل من ورائه.

ويمكن فعل الشيء نفسه فى المستوى الوجيهى "ص م"، هب أن النظام الحوسبى صاغ a من اختيار معجمى واحد أو أكثر، حيث تكون a تمثيلاً لـ "ص م" أو شيئاً تركيبياً آخر مشتقاً منه (أى: تعبيراً ما فى لغة صورية ما، أو نوعاً لنموذج ذهنى، إلخ). ويمكننا عند ذلك أن نفترض شيئاً $*a$ على أنه قيمة دلالية لها، وهو شيء خارجى عن "اللغة - د"، وربما كان مشتركاً بين جونز وسميث. وربما تكون $*a$ ، مرة أخرى، تركيبياً اعتبارياً نصفى عليه الخصائص المرغوبة، أو تُصبغ عليه مسحة من الواقعية بطرق مختلفة. ويمكننا عندئذ أن نصوغ نظريات الصنق، ونطور تفسيراً للتواصل بحسب الوحدات المشتركة - ومن المؤكد أن هذه غالباً ما تكون من نسوع غريب جداً. أما ما يجب تبينه، كما هى الحال فى أى اقتراح نظرى يُدخل وحدات ومبادئ جديدة، فهو إمكان تسوية هذا بالطرق الاختبارية المعهودة (مثل: قوة التفسير، إلخ).

ويهتم تيار عريض من الفلسفة المعاصرة للغة بتحليل العلاقات المزعومة بين التعبيرات اللغوية والأشياء، ويتناول بالبحث غالباً الحسوس عن بعض الأفكار التقنية مثل: "يعين" $denote$ ، و"يحيل" $refer$ ، و"صانق عن"

true of، إلخ، التي يُدعى وجودها بين التعبيرات اللغوية وأشياء أخرى. لكن لا يمكن أن توجد حدوس عن هذه الأفكار، مثلما أنه لا يمكن أن يوجد حدس عن مصطلحات مثل "السرعة الزاوية" angular velocity، أو "بروتين"؛ ذلك أن هذه مصطلحات تقنية تنتمي إلى الخطاب الفلسفي ولها معانٍ معطاة لا نظير لها في اللغة العادية؛ وهذا هو السبب الذي جعل فريجه يلجأ إلى اقتراح معنى تقني جديد للمعنى Bedeutung "المعنى"، مثلاً، وإذا كررنا التجربة الذهنية باستخدام كلمات يومية، فإن الأحكام تتهاوى، فيما يبدو، أو بدلاً من ذلك، تصير مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باهتمام [الباحث] مما يمنعها من أن تؤدي إلى نتائج مهمة.

ومن غير أن نستمر في مناقشة هذا الأمر هنا، ليس واضحاً أن علاقات مثل "تعيين المعنى" denotation، أو "صائق عن" true of، إلخ، تدخل في نظرية اللغة الطبيعية واستخدامها بأي معنى يشبه المعنى الذي لها في النظرية التقنية للمعنى.

ويُزعم أحياناً أن مثل هذه الأفكار التقنية ضرورية لتفسير التواصل أو لدراسة الصدق والكذب. ولا يقوم الاعتقاد الأول على أساس (النظر، من بين آخرين، Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب). كما لا يبدو أن الزعم الثاني صحيح، انظر ببساطة للكلمتين اللتين بدأ بهما هذا النقاش في اللغة اليومية، أي: "اللغة" و"الذهن". انظر إلى الحكمين التاليين عن اللغة والذهن:

Chinese is the language of Beijing and Hong Kong, but not

Melbourne

"اللغة الصينية لغة بكين وهونج كونج، لكنها ليست لغة مدينة ملبورن".

The mind is its own place, and in itself can make a Heaven

of Hell, a Hell of Heaven.

"الذهن هو المكان الذي هو فيه، ويمكن له بنفسه أن يجعل الجنة ناراً والنار جنة".

والجملة الأولى صحيحة، لكن المؤكد أنه ليس لعبارة "اللغة الصينية" أي "مرجع" في العالم الواقعي، بالمعنى التقني، ولا يلزم أحد أن يعتقد أنها كذلك من أجل أن يُعَيَّن قيمة الصدق، أما إن أُفْعِنَا بحجة ميلتون (في قصيدة "الفردوس المفقود" Paradise Lost)، فسوافق على أن الجملة الثانية صحيحة، لكن من غير أن نلزم أنفسنا باعتقاد أن الفاعل [في هذا البيت]، أو الضمير، أو الضمير الانعكاسي (أو العبارات الاسمية الأخرى) تحيل، إما إلى شيء ما في العالم أو في عالم ذهني غامض ما. إذ ليس هناك، في الأقل، ما يلزم بالانسياق وراء هذه الإغراءات، وذلك لأسباب اقترحت في النقد الذي وجّهه في القرن الثامن عشر لنظرية الأفكار، وهي التي أُغْنِيَتْ كثيرًا في الفلسفة للحديثة لغة العادية، ومثل هذه الخصائص نمطية في كلمات اللغة الطبيعية، وبقدر يفوق ما يُعتقد، كما يتراءى لي، لأسباب بينها أنفا. ولا يعني هذا أننا ننفي إمكان صدور مثل هذه الأحكام بقصد إحالي، لكنها تنتمي إلى طبيعة أكثر تعقيداً.

ويبدو، على أية حال، أن ليس هناك ارتباط خاص بين عزو الصدق أو الكذب وبعض الأفكار عن الإحالة أو "تعيين المعنى" denotation بأي معنى يشبه المعنى في الخطاب التقني.

انظر بالمقابل إلى مصطلح آخر استعملته، أي: "اللغة - د"، وهو الذي يظهر في جمل مثل الجملة التالية:

I-language has a head parameter.

—٣

"هناك وسيط للرأس في اللغة - د"

وهذه الجملة كاذبة إن كانت النظرية التي اقترحتها كاين Kayne (١٩٩٤) صحيحة، وربما تكون صادقة إن لم تكن تلك النظرية صحيحة، فمن المعقول في هذه الحالة، أن نقول إن للمصطلح "اللغة - د" "مرجعاً" حقيقياً في العالم، أو قصد أن يكون له، في الأقل. وينتمي هذا الحكم إلى نوع الخطاب الذي تنتمي إليه الجمل عن H₂O، والأحماض والأملاح، وتحديد

الجينات للبروتينات، إلخ. ولا تنتمي هذه للجمل إلى اللغة الطبيعية، حقيقة؛ ذلك أنها تتضمن مصطلحات تقنية، كـ "اللغة - د"، التي نخلت [في اللغة] بطريقة مختلفة جداً. ومع تطور التخصصات، تأخذ [هذه المصطلحات التقنية] بالابتعاد أكثر فأكثر عن الأصول البديهية واللغوية العادية التي يبدأ منها البحث العلمي.

ومن المعقول أن نفترض أننا نحاول، في اشتغالنا بمثل هذا البحث، صياغة أنظمة بقصد أن تُعَيِّن بعض الموضوعات الرمزية المركبة تركيباً جيداً أشياء معينة في العالم، كالجزيئات، و"اللغات - د"، إلخ. وربما تسمى هذه الأنظمة الرمزية "لغات"، إلا أن هذا مجاز وحسب. ذلك أنها لا تتضمن خصائص اللغة الطبيعية عادة، وتكتسب وتستخدم بطرق مختلفة تماماً، وليست تشخصات للحالة الأولى للملكة اللغوية، ويمكن أن نطبق الموضوعات الرمزية في هذه الأنظمة بأصوات لغتنا وأن نستعير لها تركيبات لغتنا حين نستخدمها، حتى حين تتضمن مصطلحات مختراعة أو مأخوذة من لغات لا نعرفها (مثل: eigenvector، و"الإنسان العاقل")، لكن ليس لشيء من هذا صلة هنا. إذ يمكن أن تقارن هذه الأنظمة اللغة الطبيعية بطرق اعتباطية، باستخدامها حساب التفاضل والتكامل، أو الرموز أو الرسوم البيانية الكيميائية، إلخ.

وربما تفسر هذه الأنظمة الرمزية باتجاه المثال الفريجي، وبحسب هذه المقاربة، فهناك لغة، عامة، مشتركة بمعادلات أو إشارات تعبر عن أفكار مشتركة، ولهذه "اللغة" تركيب، أي لها فصيلة من الصياغات المركبة تركيباً صحيحاً؛ وليس هناك "إجابة صحيحة" للسؤال عن كيف ولدت هذه المجموعة، ولها دلالة كذلك، وتقوم هذه الدلالة على الفكرة التقنية لـ "المعنى" Bedeutung، أي علاقة بين الرموز والأشياء. ومن المحتمل أن إحدى خصائص ملكة صياغة العلم في ذهن البشرى تهدف إلى صياغة أنظمة فريجية. وإذا كان الأمر كذلك، فلن يبين لنا هذا شيئاً عن اللغة الطبيعية. إذ

ليس فيها نظائر لفكرة اللغة "المشتركة" أو "العامة". وتركيبها مختلف اختلافاً جذرياً. وهناك إجابة حقيقية عن السؤال: "ما الإجراء التوليدي الصحيح؟" و"اللغات - د" وظائف يُنظر إليها من خلال المفهوم intension. كما يبدو أن ليس هناك فكرة "الصياغات المركبة تركيباً صحيحاً" بالمعنى عند كوين، مثلاً، في نقاشه للتماثل الماصدقي وعدم التحديد في الترجمة، أو عند كثير من اللسانيين، وعلماء النفس، والفلاسفة، وآخرين يهتمون بالقدرة التوليدية، والقدرة على تقرير الصحة التركيبية، والاختزال إلى الأنحاء الحسرة من السياق، والقوة المفرطة لبعض النظريات، ومشكلات أخرى لا يمكن حتى صياغتها عن اللغة الطبيعية - على حد ما نعلم - للاطلاع على بعض أوجه سوء الفهم لهذه القضايا والأصول التي جاءت منها (انظر Chomsky 1980; 1986).

أما فيما يخص الدلالة، وعلى حد فهمنا لاستخدام اللغة، فيبدو أن الحجة التي تدافع عن الدلالة التي تعتمد على الإحالة ضعيفة (إذا استثنينا الوجه التركيبي الداخلي)، فيحتمل ألا تتضمن اللغة إلا التركيب والذرية؛ ولا تتضمن "دلالة" إلا بمعنى أنها "دراسة كيف تُستخدم هذه الوسيلة، التي تخضع بنيتها الصورية واحتمالات التعبير فيها للبحث التركيبي، فعلاً عند مجموعة لغوية ما"، إن استشهدنا بالصياغة الميكروية في النحو التوليدي قبل أربعين سنة، وهي التي كانت متأثرة بفتجينشتاين وأوستن وآخرين (Chomsky 102-103: 1957; 1955/1975). فتتألف اللغة، من وجهة النظر هذه، من حوسبات داخلية وأنظمة للأداء تنفذ إليها إلى جانب عدد كبير من المعلومات والاعتقادات، وتنفذ تعليماتها بطرق محدّدة لكي تساعدنا في الكلام والتواصل، من بين أشياء أخرى. ولن يكون هناك استثناء خاص لما يسميه سكوت سومس "الحقيقة الدلالية المركزية عن اللغة... التي تعني أنها تُستخدم لتمثيل العالم؛ إذ لا أحد يفترض أن اللغة تُستخدم لتمثيل العالم، بالمعنى المقصود (Soames 1989)، نقلاً عن (B. Smith 1992)، بصفتها القضية المركزية عند الفلاسفة أو في اللغة).

ولم أفسر فيما مضى إلا الظاهر، أملاً في الإيحاء بصورة عامة للكيفية التي يمكننا بها دراسة اللغة بصفاتها موضوعاً طبيعياً، وبالالتجاء الذي قاد إليه مثل هذا البحث، وبأنواع المشكلات التي ما تزال على الأفق. وربما أختتم هذا النقاش بكلمة واحدة وحسب عن حدودها، حتى إن وُضعت إلى مدى أبعد؛ فقد أوضحت أن هناك ما يوحي بوجود بعض الحدود المحتملة لها، وأن القضايا العامة للقصدية، ويشمل ذلك القضايا الخاصة باستخدام اللغة، ربما لا يمكن افتراض دخولها في حدود البحث العلمي الطبيعي، كما أظن. ويمكن أن يوضح هذا الأمر بشكل أكثر جلاءً بالعودة إلى الثنائية الديكارتيّة، وهي الفرضية العلمية التي سعت، على وجه الخصوص، لتفسير حقيقة أن استخدام اللغة يقع وراء حدود أية آلة ممكنة، وقد زُعم الإطار الديكارتي باكتشاف أن سلوك المادة غير العضوية نفسه يقع وراء هذه الحدود. ويمكن، مع ذلك، ترسيخ هذه الحجج، لكنها الآن بتجريد من أية مقتضيات غيبية، ذلك أن تصور المادة قد اختفى، وإذا أعيدت صياغتها على هذا الشكل، فستظل تثير لغزاً خالصاً، كما يبدو. ذلك أنها لم تتأثر، مثلاً، بالتحول من الآلات المصنوعة التي أثارت خيال الديكارتيين إلى الحواسب في الوقت الحاضر، ولا تلقى العلوم التي تدرس الدماغ إلا قليلاً من الضوء عليها.

وربما لا تكون هذه المشكلات حقيقية، كما يعتقد بعض الباحثين، وربما تكون حقيقية لكننا لم نكتشف بعد طريقة لتناولها، وربما يقع "ذلك الطريق"، بغض النظر عما يكون، وراء قدراتنا الإدراكية، أي وراء تناول ملكة صياغة العلم. ويجب ألا يكون ذلك مفاجئاً لنا، إن كان صحيحاً، إن كنا على استعداد، في الأقل، لقبول الاعتقاد بأن البشر جزء من العالم الطبيعي، يتصفون بمدى غني وحدود تماثل هذا المدى في غناهم، ويواجهون مشكلات ربما يأملون في حلها وأحاجي تقع خارج تناولهم، أي تلك "الأسرار القصوى للطبيعة" التي تستظل إلى الأبد" مغلفة بـ "الغموض" كما اقترح هيوم، مردداً بعض افتراضات ديكارت.

هوامش الفصل الخامس

- (١) وكانت هذه التعليقات الساخرة موجهةً ضد كتاب كولن ماجن: *The problem of consciousness* (1991): Colin McGinn 'مشكلة الشعور'. ويشير ماجن إلى زيف هذه الحجة. انظر أيضا (McGinn 1975; Chomsky 1993).
- (٢) للاطلاع على بعض التعليقات عن خطئه في تأويل النظريات الحوسبية التي يلمح إليها، وطبيعة الدلالة، التي يتوقع أن يجد فيها حلاً للأزمة، انظر (Chomsky 1993a).
- (٣) لاحظ أن هذا التأويل لمثل هذه الدراسات يختلف عن تأويلات أخرى نجدها في الأدبيات الفلسفية. فقد اقترح مصطلح "اللغة - د" للتغلب على سوء الفهم الذي ينجم عن الغموض التركيبي لمصطلح "نحو"، الذي يُستخدم في الإحالة إلى لغة - د" وإلى النظرية التي يصوغها اللساني عن تلك اللغة معاً. لهذا لا تشبه معرفة جونز بـ"اللغة - د" عنده (أي "النحو"، في أحد معانيه) المعرفة (الجزئية) عند لساني ما.
- (٤) وفي بعض حالات نمو اللغة التي درست دراسة دقيقة كان هناك تعرض من النوع المعهود للغة حتى سن ١٩ إلى ٢٠ شهراً، وهو يسبق بفترة طويلة بدء التمرين (وكان ذلك أربع سنوات تقريباً، في أكثر الحالات نجاحاً). وعلى الرغم من غياب الأدلة المؤيدة فإن من المعقول الظن بأنّ التعرض المبكر ربما يكون حاسماً، خاصة في ضوء الاكتشافات الأخيرة عن الاكتساب اللغوي المبكر جداً (انظر C. Chomsky 1986; Mehler and Dupouz 1994).
- (٥) ولن أناقش، هنا أو فيما يأتي، الفرضية الأخرى التي تقول إن هذه العلاقات تصح عن الأشياء في لغة عامة. وهذه الفكرة معروفة في البحث العلمي، وهي تثير ما يبدو كأنه مشكلات لا حل لها، وهي مشكلات لم تناقش بعد (للاطلاع على مناقشة هذه الأمور، انظر Chomsky 1993a، والفصل الثاني في هذا الكتاب).

الفصل السادس اللغة من منظور المقاربة الداخلية

أودُ [هنا] التوسّع في تفصيل بعض الملحوظات الخاصة بدراسة اللغة والذهن التي قُدمتْها في الفصول السابقة، وفي الفصل الخامس خاصة، وأريدُ بدايةً أن أُميّز بين المقاربة "الداخلية" و"المقاربة العلمية الطبيعية"، ولا تعنى الأخيرة إلا محاولة أن ندرس البشر بالطريقة نفسها التي ندرس بها أي شيء آخر في العالم الطبيعي. أما المقاربة العلمية الطبيعية الداخلية فتسعى إلى فهم الحالات الداخلية لكائن عضوي ما، وليست الدراسة العلمية الطبيعية محدودة بهذه الحدود بالطبع؛ ولا يلغى البحث الداخلي الذي يدرس كوكبًا أو نملة دراسة النظام الشمسي أو جماعة للنمل أو يمنعها. ويمكن أن تتخذ الدراسات غير الداخلية للبشر أشكالًا كثيرة: فيمكن [أن تدرسهم] كأطوار في دورة التحول من الأوكسجين إلى ثاني أكسيد الكربون، أو أطوار لانتقال للمورثات، أو فلاحين أو طبّاحين، أو أعضاء في جماعات وجماعات، بما لهذه من بنى للقوة، وأنظمة مذهبية، وممارسات ثقافية، إلخ. وتتخذ الدراسات الداخلية غالبًا أمرًا مسلمًا في أنواع أخرى من الدراسات الأبعد مدى، لكن ينبغي أن يكون واضحًا أن مشروعية هذا النوع من البحث أو ذلك ليست من القضايا التي تثار.

ولمزيد من الإيضاح فأنا أقصر اهتمامي هنا على السعي نحو الفهم النظري، وهو ذلك النوع المحدّد من البحث الذي يسعى إلى تفسير بعض مظاهر العالم انطلاقًا من بعض البنى والمبادئ التفسيرية المتوارية خلف ظواهر الأشياء غالبًا، ويمكن لمن يعتقد أن البحث العلمي الطبيعي هو المنهج الوحيد الصحيح أن يعتقد من غير أن يكون متناقضًا أنه يمكن أن نتعلم من دراستنا للتاريخ أو قراءة الروايات عن الاهتمامات البشرية الخاصة عن الكيفية التي بها يفكر الناس ويشعرون ويتصرفون أكثر مما نتعلمه عنها عن

طريق البحث العلمي الطبيعي كله. وقد برهن البحث العلمي، خارج بعض المجالات الضيقة، أنه سطحي أو لا أمل منه، وربما سيظل كذلك دائما، وربما لأسباب تتبع من طبيعتنا الإدراكية.

وسأسمى مظهرى العالم اللذين أهتم بهما هنا بمظهريه الذهني واللغوي، مستخدما هذين المصطلحين بشكل غير ضار - بالطريقة التي تستخدم بها مصطلحات "كيميائي" أو "كهربائي" أو "بصرياتي" optical - من أجل انتقاء بعض الظواهر والأحداث والعمليات المعقدة وغيرها التي يبدو أنها تتصف بقدر معين من الوحدة والتماسك، وأقصد بـ"ذهن" المظاهر الذهنية للعالم. وليس هناك حاجة في أية حالة من هذه الحالات أن يكون لها سوابق واضحة، وليس هناك ما يلزم باعتقاد أن هذه المقولات ستبقى حين يحقق البحث العلمي الطبيعي قدرا من التقدم.

وأعني بـ"المقاربة العلمية الطبيعية" "المقاربة العلمية الطبيعية المنهجية" في مقابل "المقاربة للتأني المنهجية": وهي المذهب الذي يرى أنه ينبغي، في سعينا نحو الفهم النظري، أن ندرس اللغة والذهن من حيث المبدأ، بكيفية مختلفة عن الطرق التي ندرس بها الموضوعات الطبيعية. وربما لا يعتقد هذا المذهب إلا قلة، ومع هذا فهو يهيمن على تيار عريض من الممارسات البحثية، كما أعتقد. (للاطلاع على بعض النقاش الذي جرى مؤخرا عن هذا الأمر، انظر Chomsky 1986، والفصلين الثاني والثالث في هذا الكتاب).

ويندرج أحد فروع البحث العلمي الطبيعي الفهم البيهيمي. ونحن نهتم هنا بالكيفية التي يؤول بها الناس ثبات الموضوع، وطبيعة الحركة ومسبباتها، والفكر والفعل، إلخ (أي: "العلم الشعبي"، بأحد معاني هذا المصطلح)، وربما يكون الطريق الصحيح لوصف هذه [القضايا] أن ندرستها في ضوء الاعتقادات عن مكونات العالم (ونسماها بـ"الوحدات") وتنظيمها وتفاعلها وأصولها. دعنا نفترض أن الأمر كذلك. وليس من الواضح إن كان لمولرد

العلم الشعبي للتصورية صلةً بالتصورات التي تدخل في الموارد التصورية للبحث التأملی الواعی الذي نجدہ في كل ثقافة نعرفها (أي: "العلم المبكر")، أو بالنشاط المعین الذي نسميه "العلم الطبيعي"، وإذا كان الأمر كذلك، كيف تكون تلك الصلة، وسنسمى دراسة هذه الأمور كلها بـ "العلم الإثنی"، من أجل التبسيط.

وليس واضحاً كذلك كيف تتصل الموارد التصورية التي تدخل في هذه الأنظمة الإدراكية بالموارد الدلالية (ومنها المعجمية) للملكة اللغوية. فهل يعزو الناس بعض الاعتقادات beliefs إن كانوا يتكلمون لغة ليس فيها مثل هذا المصطلح، وهي الحال في أكثر اللغات، كما يبدو؟ وهل يمكن لمن لا يعرف كلمات savoir faire, Schadenfreude, machismo أن يدركها، أو يدرك ما يعبر عنه بتعبيرات لا حصر لها مما يمثل تحدياً للمترجمين؟ وإذا قلت إن أحد الأشياء التي تهمني هو "الرجل المتوسط ونقاط ضعفه"، أو "أولويات جو المذمن"، أو "المسار الداخلي الذي ضمنتته شركة ريثون آخر اتفاقية للصواريخ"، فهل يترتب على هذا أنني أعتقد أن العالم الواقعي، أو نموذجاً ذهنياً له عندي، يتكوّن من وحدات كـ "الرجل المتوسط" و"نقاط الضعف"، و"جو المذمن"، و"الأولويات" و"المسارات الداخلية"؟ وحين تقول الأخبار إن مذبذباً يتوجه نحو المشتري أو أن صيادي اللوبستر يصيدون السمك في مياه ولاية إنجلترا الجديدة [الأمريكية] بشكل جائر فهل يعني ذلك أن الكتاب والقراء يظنون أن للمذنبات رغبات أو أن اللوبستر سمك؟ وهذه أسئلة عن حقائق تتعلق بمعمار الذهن، وهي مصوغة، لا شك، بشكل غير ملائم؛ لأننا لا نفهم إلا القليل عن هذه الأمور.

وإذا صحّ الحدسُ قليلاً فهناك، فيما يبدو، فجوة واسعة بين الموارد الدلالية للغة حين تؤوّل تأويلاً حرفياً والأفكار التي يعبر عنها باستخدام هذه الموارد. فأنا سعيد بأن أتحدث عن أن الشمس تغرب وراء الأفق، والمذنبات تتوجه نحو المشتري، وعن ضرب الأمواج للشاطئ، ثم تراجعها، واختفائها

حين تموت الريح. لكنى لست واعياً بأن لدى اعتقادات تتماثل حرفياً مع هذه المصطلحات التي تدل على الحياة والقصدية وأنا أستخدمها بحرية، أو تلك التي تتعارض مع أي شيء أفهمه عن النسبية وحركات الجزيئات. ولا يبدو لي، كذلك، أن العالم، أو كوتى الذهني، مسكونان بأي شيء أصفه بأنه أشياء تعينني، ويوجد بعض علماء النفس وعلماء الأناسة الذين يدرسون علاقة اللغة بالفكر (كفرضية سابير وورف، مثلاً) هذه المشكلات صعبة ومتحدية؛ وتُقدّم [عنها] بعض الإجابات الجاهزة في كثير من الأدبيات الفلسفية المعاصرة، لكنها إجابات تقوم على أسس أقل إقناعاً، كما يبدو لي.

بل لقد قُدمت إجابات تختلف بعضها عن بعض اختلافاً جذرياً. خذ اللغة مثلاً. فقد كتب دونالد ديفيدسون: "إننا جميعاً نتحدث بقدر كبير من الحرية عن اللغة، أو اللغات، حتى إننا نميل إلى أن ننسى أنه ليس هناك شيء كهذا في العالم؛ فليس هناك إلا الناس وما يصدر عنهم من أحداث كتابية وصوتية مختلفة. ومع أن هذه النقطة واضحة جداً إلا أن من السهل أن ننسأها" (Davidson 1990b). كما يرى أغلب فلاسفة اللغة - وبالقدر نفسه من الوضوح - أن "هناك" أشياء في العالم كاللغات، بل هناك "لغات عامة، مشتركة" - كالصينية والألمانية، وغيرهما - ونحن نفهمها، كما يرى بعض الفلاسفة، "فهماً جزئياً، بل فهماً جزئياً خاطئاً" (Dummet 1986: 468). ويرى هيلاري بتنام، من بين آخرين كثر، أن هذا الزعم حقيقةً تماثل في وضوحها وضوح نفى ديفيدسون لها، إضافة إلى بعض الحقائق الواضحة بالقدر نفسه عن الأشياء في العالم مما تشير إليه العبارات الاسمية بشكل حر إلى حد بعيد، كما يبدو، لهذا يحوى العالم أي شيء يمكن أن نحيل إليه على أنه شيء يعنينا أو يُزعجنا، ويشمل ذلك المراجع التي لا نعرفها ونزعم أن الكلمات تشير إليها (Davidson 1990b; Putnam 1992, 1998a)⁽¹⁾.

وهناك موقف ثالث يرى أنه قلماً تكون النتائج عن مثل هذه الأمور واضحة، فيجب أن نكتشف الإجابات عن كل حالة على حدة، كما تتطلب

الأسئلة صياغة أكثر عناية في المقام الأول. ويسعى العالم الإثنى إلى اكتشاف ما ينظر إليه الناس على أنه مكونات للعالم، مهما كانت الطريقة التي ربما يتكلمون بها عنه. ويسعى نوع مختلف من البحث نحو أفضل نظرية عن اللغة واستخدامها، والحالات والعمليات والبنى التي تدخل فيها.

وتبرز هذه الأسئلة في أكثر الحالات بساطة، كالأشياء التي يمكن تسميتها، والأشياء الطبيعية، والمواد المصنوعة، والأفعال، إلخ. فأنا أخذ الشيء الذي أمامي على أنه مكتب، لكن يمكن أن أقنع بأنه سرير صلب لقزم أخطأت في استخدامه مكتبا؛ وذاك أمر مرده إلى مقصد المصمم والاستخدام المألوف. فأنا أخذه، من زاوية، على أنه الشيء نفسه مهما كانت الإجابة؛ ومن زاوية أخرى، أخذه على أنه شيء مختلف. والعوامل التي تدخل في مثل هذه الاختيارات متنوعة ومعقدة. فأنا أخذ محتوى كأس موضوع أمامي على المكتب على أنه شاي، لكن إن أخبرت بأنه جاء من صنوبر بعد أن مر عبر مصفاة شاي موضوعة عند مصدر الماء، فإني أستنتج أنه ماء حقيقة، لا شايًا (انظر الفصل الخامس من هذا الكتاب). ومرة أخرى، فهو الشيء نفسه عندي في أي الحالين، من زاوية، لكنه شيء مختلف، من زاوية أخرى. وليست بعض الأعواد التي أمرُّ بها في الطريق شيئًا إطلاقًا، إلا إن قيل لي إنها وُضعت عن قصد لتكون نوعًا لشيء ما، بغض النظر عن إن كان الناس هم الذين وضعوها أم وضعتها حيوانات البيفرز: فتعتمد ماهية الشيء ونوعه على التكوينات المحددة للاهتمامات البشرية، والمقاصد والأهداف والأفعال؛ وهي، في أحد أشكالها، ملحوظة قديمة قدم أرسطو. وربما كانت الحال أنني في مثل هذه الحالات لا أعير من معتقداتي عن مكونات العالم تبعًا للتغير الذي تعرض لتعيينات الأشياء - ويعنى هذا، في نوع "العلم الشعبي" عندي، أن الوحدات التي تحمل حاسوبي، ويمثلني بها الكأس، وأمرُّ بها في الطريق، تظل كما هي باستقلال عن التفسيرات، وهي التي تضعها في علاقات غير متوقعة مع التصميمات، والمقاصد، والاستخدامات، والأهداف.

وربما نتمكن، مع التقدم في دراسة الملكة اللغوية والأنظمة الإدراكية الأخرى، من فهم المعايير التي ربما أطرت صورة العالم عندي في ضوء الأشياء التي عيَّنتها وأفرقتها خصائص المعجم لدى، أو ربما تدخل في هذه الصورة] وحدات وعلاقات يمكن وصفها بموارد الملكة اللغوية. وتبدو بعض الخصائص الدلالية كأنها تتصل فعلاً اتصالاً محدداً باللغة، وتتطور بوصفها جزءاً منها، وتتدمج اندماجاً وثيقاً بمظاهرها الأخرى، بل تمثل بطرق طبيعية في بناها الصرفية والتركيبية. وربما تعين كلمات اللغة بعض المواضع في أنظمة الاعتقاد، وهي التي تزيد من غنى المنظورات المعقدة التي تستخدمها في النظر إلى العالم. وربما لا تقدم بعض الكلمات، خاصة تلك التي تفتقر إلى بنى علائقية داخلية، أكثر من ذلك، ومنها على الأخص "الكلمات التي تسمى الأنواع الطبيعية"، وإن كانت هذه العبارة مضللة، إذ ليس لهذه الكلمات علاقة بالأنواع الموجودة في الطبيعة. وبلاحظ أكيل [عقيل؟] بيلجرامي، في رفضه للأفكار المشكوك فيها عن الاعتماد الإحالي، أن تحليل الموارد المعجمية في ضوء "منظور المنفذ اللغوي عن الأشياء" a linguistic agent's perspective on things، يقود بطريقة طبيعية إلى الربط بين دراسة المعنى و"أمور مثل الاعتقادات بوصفها تتوسط بين الأشياء في العالم الذي نقف معه في علاقات سببية" وبين فكرة "المحلية الجذرية أو السياقية" للمضمون الذي طوره في رفضه لمجمل التفكير الحالي الذي يُصنّف المضمون إلى واسع وضيق". وتبدو هذه التوجهات مثمرة وتستحق أن تُبحث (انظر Bilgrami 1993: 62؛ وانظر عن كلمات الأنواع الطبيعية Bromberger 1992a).

وليست دراسة الموارد الدلالية للملكة اللغوية علماً إثنياً، كما ينبغي أن يميز المشروعان كلاهما - بالطبع - عن البحث العلمي الطبيعي من حيث مدى الموضوعات التي تتناولها اللغة الطبيعية ويتناولها العلم الشعبي بطرقها الخاصة. وهذه الملاحظة بنائية في حالة سقوط التفاح، وتوجه النباتات نحو الضوء، وتصويب الصواريخ نحو السماء؛ فلا يتوقع أحد أن

تدخل اللغة العادية أو العلم الشعبي في المحاولات التي تتغيا الوصول إلى فهم نظري للعالم، وراء النقاط الحسنية التي ينطلقان منها. وفي مقابل ذلك، يعد مشكلة خطيرة أن تحدد إن كان "الكلام الذهني والوحدات الذهنية ستفقد، في نهاية الأمر، مكانتها في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره" (Burge 1992: 33). والاعتقاد بأن الكلام الذهني والوحدات الذهنية ستفقد مكانتهما تزعة إقصائية" أو "تزعة مادية إقصائية"، يصفها بيرج بأنها تيار عريض ضمن الجهود التي تسعى "لجعل الفلسفة علمية"؛ وربما تكون هذه الدعوى خاطئة، لكنها مهمة.

أما لماذا هي مهمة فغير واضح. فإذا استبدلنا "فيزيائي" بـ "ذهني" في هذه الدعوى ستفقد أهميتها؛ ذلك أن "النقاش الفيزيائي والوحدات الفيزيائية فقدت، منذ زمن بعيد، مكانتها في محاولاتنا وصف العالم وتفسيره"، إن عنيينا بـ "النقاش الفيزيائي" و"فيزيائي" مفاهيم الخطاب العام أو العلم الشعبي، وعنيينا بـ "محاولات وصف العالم وتفسيره" البحث العلمي الطبيعي. فلماذا يجب أن نتوقع شيئاً مختلفاً عن "النقاش الذهني والوحدات الذهنية"؟ ولماذا يجب، مثلاً، افتراض أن علم النفس "يسعى لفصل بعض الأحكام البديهية العامة عن النشاطات الذهنية للناس، وتعميقها وتعميمها وتتميطها" (Burge 1986a: 8).⁽¹⁾ مع خلو الكيمياء وعلوم الأرض والأحياء من أي اهتمام مماثل. فلا يتوقع أحد أن يكون للكلام العادي عن الأشياء التي تحدث في "العالم الفيزيائي" صلة خاصة بالنظريات العلمية الطبيعية؛ ذلك أن هذه المصطلحات تنتمي إلى عوالم فكرية مختلفة. ولم ينظر إلى هذه الحقائق على أنها تثير مشكلة الجسد - الجسد، ولم يقترح أحد دعوى لـ "اللزعة الشذونية لما يكون فيزيائياً" من أجل التعامل مع هذه الحقائق. لذلك يجب أن يكون الشيء نفسه صادقاً عن أحكام مثل:

John speaks Chinese.

'يتكلم جون الصينية'.

John took his umbrella because he expected rain. أو:

"أخذ جون مظلتَه لأنه توقع المطر".

— مع أننا ربما نأمل، في الحالات كلها، أن يكون باستطاعة العلم أن يقود إلى شيء من الفهم والتبصُر في المجالات التي فَتَحَتْ أبوابها منظورات البحث البديهية.

ولا يبدو أن هناك أساساً لأية مشكلة للذهن — الجسد هنا ولا سبباً للشك في دعوى ديفيدسون التي مفادها أنه لا توجد قوانين نفسية فيزيائية تربط الأحداث الذهنية بالأحداث الفيزيائية في منظومة تفسيرية ملائمة؛ ولأسباب مماثلة، ليس هناك قوانين "فيزيائية" — فيزيائية — لربط الكلام العادي عن الأشياء بالعلوم الطبيعية، حتى إن وقعت الأحداث المعينة الموصوفة في مدى ما يمكن أن تصفه [العلوم الطبيعية]. ولا يبدو التمييز بين المظاهر الذهنية للعالم ومظاهره الأخرى منوعاً، بهذه المعايير، إلا من زاوية واحدة هي: أن فهمنا للنظري للغة والذهن والناس عموماً على درجة كبيرة من الضحالة، إلا في بعض المجالات المحدودة، وهو ما يجعلنا مقصورين على استخدام مواردنا الحدمية في التفكير عن هذه الأمور والكلام عنها.

وليس ذلك أن الخطاب العادي يُخفق في الكلام عن العالم، أو أن الأشياء المحددة التي يصفها غير موجودة، أو أن تعليقاته ليست دقيقة جداً. أما السبب، بدلاً من ذلك، فهو أنه ليس من حاجة لأن يكون للمقولات المستخدمة والمبادئ المفروضة نظائر تقريبية في البحث العلمي الطبيعي. وينصح هذا حتى في أجزاء الخطاب العادي التي لها طابع شبيه بالطابع العلمي الطبيعي. فلا تهتم الكيمياء بالكيفية التي يقرّر بها الناس إن كان شيء ماءً أو شايًا. وليس هدفاً ضرورياً للكيمياء الحيوية أن تقرّر النقطة التي تبدأ عندها "حقيقة الحياة" في مسار الانتقال من الغازات البسيطة إلى البكتيريا، إن

فرضنا مثل هذا التصنيف، ولن يكون تماثل ذلك مع الأفكار البديهية أكثر من تماثله في حالة أفكار كـ"السماء" و"الطاقة" و"صليب". أما إن كان الاستخدام العادي [للغة] يُصنّف الفيروسات بأنها "حية" أم لا فليس من الأمور التي تلفت نظر علماء الأحياء، الذين سيصنفونها بالطريقة التي يرغبونها في ضوء المورثات والظروف التي تتحكم في قيامها بوظائفها. ولا يمكن أن نحتكم إلى الاستخدام العادي في تقرير إن كان فرانسوا جاكوب مصيباً في قوله إن "الحياة لا تبدأ، عند علماء الأحياء، إلا بما يكون قادراً على تأسيس برنامج وراثي" (Jacob 1974: 304)، مع أن "من الاعتباطي في علم الكيمياء، بالمقابل، رسم حدّ حيث لا يوجد إلا استمرار وحسب". وبالمثل، لا يدخل التصوّر "بشر"، بما يتصف به من خصائص غريبة للاستمرار النفسي، في العلوم الطبيعية. وتحاول النظرية التطورية والفروع الأخرى لعلم الأحياء أن تفهم "جون سميث" ومكانه في الطبيعة؛ وإن لم يكن ذلك تحت وصف "بشر" أو "شخص" كما تفهمهما في اللغة والفكر العاديين. وهذه الأفكار مهمة لعلم دلالة اللغة الطبيعية والعلم الإثنى، لكنها ليست كذلك لفروع علم الأحياء البشرى التي تسعى لفهم طبيعة جون سميث وأفراد النوع الذي ينتمي إليه أو لما يفرقهم عن القرود والنباتات (من أجل وجهة نظر معاكسة عن هذه الأمثلة، انظر Putnam 1992).

وتسير العلوم الخاصة بطرقها الخاصة بها كذلك. وإذا استعرنا المثال الذي ناقشه جيرى فودر عن نهر متعرّج يجرف شاطئيه، فلا تشغل علوم الأرض بالظروف التي يأخذ الناس في ضوونها النهر على أنه النهر نفسه إن عكس اتجاهه أو وجّه وجهه أخرى، أو حين يأخذون شيئاً يبرز من البحر على أنه جزيرة أو جبل نو قاعدة مائية. وينبغي أن نتوقع الشيء نفسه عن أفكار مثل "لغة" و"اعتقاد" والكلمات التي تنتمي إلى المجالات الدلالية نفسها في اللغات المختلفة والثقافات المتنوعة.

وينظر إلى العلوم الطبيعية المعيّنة عموماً على أنها غالباً أدوات

مصطنعة وأشياء متواضع عليها رغبة في السهولة، ولا يتوقع أحد أن تفصل الطبيعة على مقاييس قوالبيها، وتعليق فرانسوا جاكوب [عن هذا] نمطى. وملاحظته ليست خلافية عن "العلوم الصحيحة"، لكنها قوبلت باعتراضات قوية في حال اللغة. فقد كان هناك نقاش محتكم عن الموضوع الذى تشتغل به اللسانيات "حقيقة"، وعن أصناف المادة الأولية التى يُسمح لها أن تُعنى بها. ورسم فارق بين "الدليل اللغوى" الذى يُعدُّ ملائمةً "للسانيات"، والدليل "النفسى" وأنواع أخرى من الأدلة غير الملائمة لها. وهذه النقاشات التى يمكن أن نجدتها فى الحقول البحثية ذات الصلة كلها غريبة عن البحث العلمى الطبيعى. فلا تأتى أية ملحوظة اختيارية معلّمة بشعار مكتوب على كُمتها يقول ("إنى أصلح لـس")، حيث تكون "س" إما الكيمياء أو اللسانيات أو أى علم آخر. ولا يسأل أحد إن كانت دراسة جزئية معقّدة ما تنتمى إلى الكيمياء أو إلى علم الأحياء، كما يجب ألا يسأل أحد إن كانت دراسة التعبيرات اللغوية وخصائصها تنتمى إلى اللسانيات أو علم النفس أو علوم الدماغ.

وليس بإمكاننا أن نعرف مسبقاً أنواع الأدلة التى يمكن أن تكون مهمة لهذه المسائل. لهذا نقترح بعض الأبحاث الحالية أنه ربما تقدّم دراسات النشاط الكهربائى للدماغ دليلاً مهماً لها، وهى استحالة تصويرية كما يرى قسم كبير جداً من الأبحاث المتخصصة، كما نقترح [هذه الأبحاث] بعض المتطلبات الخلافية الغربية، نحو: احتمال أنه ربما توفر دراسات الإزاحة الإدراكية للطبقات دليلاً عن حدود المكونات التركيبية، فى حين لا تعد الملحوظات عن الضمائر العائدة فى اليابانية التى تقدّم دليلاً أقوى، اعتماداً على أسس علمية طبيعية، دليلاً على الدعاوى الواقعية بسبب شكل خطير من أشكال عدم التحديد (انظر مثلاً، Quine 1987). أو أنه ينبغي أن نكتفى — بل ربما أن نهتم — بـ "وجهة نظر الجدّات" [الكلام العام غير المتخصص] عن المجال الذى تهتم به اللسانيات، مع أنه ربما لا يكون هذا الموقف مقبولاً فى حال الكيمياء (Devitt and Sterelny 1989). أو أنه لا يمكن من حيث المبدأ

استخدام دراسات عمليات التحليل والاكتساب والأمراض والجروح والتنوع الوراثي وغيرها دليلاً على وجود عناصر التمثيل اللغوي ومكانتها (Soames 1989)، على الضد مما يراه اللسانيون الممارسون منذ زمن بعيد؛ كماورد سابير ورومان ياكوبسون في الأبحاث الكلاسيكية، أو في الدراسات التي أنجزت مؤخراً عن آثار للتداعي priming⁽³⁾ في تحليل الكلام ومقتضياته بشأن العناصر التي لا تتطوق. وتُعكس هذه التوجهات كلها شكلاً من الثنائية، أي الإصرار على أنه يجب ألا نعامل مجال "الذهني"، أو للمجال اللغوي في الأهل، بالصورة التي نعامل بها المظاهر الأخرى للعالم.

وتتبنى الثنائية المنهجية أحياناً صراحة، أو هكذا يبدو. انظر إلى دعوى مايكل دوميت عن أن التفسيرات العلمية تقصر عن التفسيرات الفلسفية لأسباب تصوّرية. لنأخذ المثال الذي أورده، وتفترض أن مقارنة علمية طبيعية للغة نجحت إلى حد يفوق ما نحلم به. افترض أن هذه المقارنة وفرت لنا تفسيراً دقيقاً لما يحدث حين تباشر موجات صوتية الأذن ثم تحلل، ثم دُمجت هذه المقاربة بشكل تام في نظرية علمية عن الحدث، وحلّت مشكلة التوحيد، وأدى ذلك إلى إلحاقها بالنظريات عن الخلية والعمليات الحوسبية. فسيكون لدينا، حينئذ، نظرية ناجحة عما يعرفه جونز جين اكتسب لغة ماء، أي: ما يعرفه عن السجع، والاقضاء، والاستخدامات اللغوية للملائمة للسياقات، إلخ. لكن بغض النظر عن مدى النجاح الذي حققته هذه الاكتشافات فربما، كما يقول دوميت، "لا تضيف شيئاً إلى الفلسفة"، التي تتطلب جواباً عن سؤال مختلف، وهو سؤال لا يتعلق بالكيفية التي تُخزن بها المعرفة وتستخدم، بل بـ"كيف أُدبِت". لذلك فسيكون التفسير العلمي الطبيعي "فرضية نفسية"، لا "تفسيراً فلسفياً"، ذاك أنه لا يبيّن لنا "الشكل الذي أدى به إفساد المعرفة" (Dummett 1991; 1993: xi). أما في العلوم فيقول لنا هذا التفسير كل شيء يمكن أن يُسأل عنه فيما يخص الشكل الذي أدبِت به المعرفة، أما الفلسفة فتتطلب نوعاً من التفسير لا يعرفه البحث العلمي للطبيعي.

ويبدو كأن الفلسفة، حين تُفهم بالطريقة السابقة، تستبعد جزءاً كبيراً من جوهر الفلسفة التقليدية. ومن ذلك فلسفة هيوم، مثلاً، الذي كان يهتم بـ "علم الطبيعة البشرية"، وسعى إلى اكتشاف "المنابع الخفية والمبادئ التي تحفز ذهن البشري في أثناء تنفيذه للعمليات التي يقوم بها" (١٩٧٥/١٧٤٨: ١٤، القسم ٩)، ومنها تلك "الأجزاء من معرفتنا" التي أنت "من اليد الأصلية للطبيعة" (١٩٧٥/١٧٤٨: ١٠٨، القسم ٨٥)، وهو مشروع كان يقارنه بمشروع نيوتن. ولو حقق هيوم هذه الأهداف لكان قد أسس "فرضيات نفسية"، في ضوء مصطلحات دوميت، لكنه لن يكون قد أضاف شيئاً إلى الفلسفة. ذلك أن "التفسير الفلسفي" يتطلب شيئاً أبعد من اكتشاف "المنابع الخفية ومبادئ" للذهن وكيفية أدائها لوظائفها.

ويدخل في التفسير الفلسفي بصورة حاسمة، إن كنت فهمت ما يقوله دوميت، النفاذ إلى الشعور. تخيل إذن مخلوقاً مريخياً يشبهنا تماماً إلا أنه ربما يكون واعياً بالكيفية التي يحفز بها ذهنه في أثناء قيامه بالعمليات التي يُنفذها". وحين نسال المخلوق المريخي عن إن كان يتبع قواعد الصوتية في صياغته للسجع، أو الشرط B في نظرية الربط العامل لتحديد الربط الإحالي، فسيتأمل ثم يقول (حقاً): "نعم، هذا ما أقوم به فعلاً" - وهو ما يماثل، افتراضاً، ما نقوم به أنا وأنت تماماً. وسيكون لدينا، في حالة المخلوق المريخي، تفسير فلسفي؛ وستفهم الشكل الذي أدت به المعرفة، ويمكن أن نعزو له معرفة بطريقة مسوغة. لكن هذا لن يعنى أننا نجحنا في الوصول إلى "تفسير فلسفي" وإلى عزو المعرفة للبشر الذين يعملون بالطريقة التي يعمل بها المخلوق المريخي تماماً، وإن بغير وعي. وربما يُسمح لنا، كما يصوغ كوين وجون سيرل وآخرون الأمر، أن نقول إن المخلوق المريخي يتبع قواعد وهي توجّهه، أما البشر فلا يمكن وصفهم بمثل هذه المصطلحات. ولتفادي المقتضيات المضادة للحدس وجهاً لوجه يُصرّ سيرل أيضاً على مفهوم "النفاذ من حيث المبدأ" الذي ظل غامضاً تماماً (انظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

فهل هذه الاقتراحات جوهرية أم أنها لا تعدو أن تكون قضية مصطلحات؟ أرى أنها من النوع الأخير؛ ذلك أنى لا أرى القضية الجوهرية التى تبرز هنا. وربما يضاف أن هذه الاقتراحات تفارق بشكل جوهرى الاستخدام العادى، بغض النظر عما لذلك من قيمة؛ فنحن نقول فى الاستخدام غير التقنى إن حفيدتى تتبع قواعد صياغة الفعل الماضى القياسى وبعض الأفعال غير القياسية حين تقول:

I rided my bike and brang it home.

"ركبتُ دراجتى وأحضرتها إلى المنزل"

[بصياغة الفعل ride فى الماضى بصورة قياسية، بدلاً من تصريفه المألوف فعلاً شاذاً، وصياغة الفعل bring فى الماضى بشكل يختلف عن صيغة ماضيه المعهودة brought].

مع أنه لا يمكن للشعور النفاذ إلى هذه القواعد عند الأطفال أو البالغين، منمّا أنه لا ينفذ إلى تلك القواعد التى يرى كوين وسيرل وآخرون أنه لا ينفذ إليها. ويكاد التصور "الفتجينشتاينى" لاتباع القاعدة فى ضوء معايير الجماعة اللغوية عند سول كريبك يكون متمماً للاستخدام العادى، الذى يعزو فى العادة سلوكاً موجّهاً بالقاعدة فى حالات الشذوذ اعتماداً على معايير كهذه، كما فى المثال الذى أوردته أنفا. لكنّ اللسانى وحده، بالمقابل، هو الذى ربما يقول إن حفيدتى تتبع قواعد نظرية الربط العاملى، متمشية مع الجماعة اللغوية التى تنتمى إليها (بل مع الجماعة اللغوية البشرية، على أكثر الاحتمال).

ونحن نقنع، فى دراستنا للمظاهر الأخرى للعالم، بحجج أفضل النظريات، كما أنه ليس هناك صنف مميز من الأدلة يوفر معايير للصياغات النظرية. إلا أن النظرية العلمية الطبيعية لا تكفى فى دراسة اللغة والذهن [كما يقول هولاء]، فيجب أن نبحث عن تفسيرات فلسفية ترسم حدود البحث

في ضوء معيار مفروض ما، وتوجب تأسيس الافتراضات النظرية على أصناف من الأدلة يختارها الفيلسوف، وتعتمد على أفكار كـ "النفاذ من حيث المبدأ" الذي لا مكان له في البحث العلمي الطبيعي، ومهما عناه هذا كله فلدينا هنا مطلب يتجاوز المقاربة العلمية الطبيعية، وهو شكل من الثنائية ما يزال بحاجة إلى تفسير وتسوية.

وتسوغ المتطلبات الفلسفية أحياناً بمشكلات الخطأ وبمعرفة المتكلم الواثقة. فيستنتج باري سميث، في دفاعه عن موقف لا يختلف كثيراً عن الموقف الذي بينته هنا، أن هذا الموقف ما يزال قاصراً عن "أن يكون تفسيراً فلسفياً مقنعاً" لهذه الأسباب؛ فهو يخفق في أن "يبين لنا ما الذي يُعد استخداماً صحيحاً للكلمات، أي استخدامها في ضوء بعض الأنماط المعيارية المعينة للاستخدام اللغوي"، ويخفق في تفسير معرفتنا الواثقة بتركيب لغتنا ومعناها. لهذا فـ "البحث الفلسفي... ضروري لإكمال المشروع بشكله العام"، وهو عمل يتجاوز "علم النفس العلمي" (ويشمل تلك اللسانيات الداخلية) (B. Smith 1992: 134-135).

وليس هناك مسوغ لهذه النتائج، في رأيي. دعنا نفحص أحد الأمثلة النمطية. افرض أن بيتر، وهو متكلم عادي للغة الإنجليزية، يقول:

John expects to like him.

"يتوقع جون أن يحبه"

فأنا أستنتج من هذا أنه يقصد أن يحيل إلى شخصين مختلفين: أحدهما جون، والآخر شخص ثانٍ يشار إليه بالضمير him "ضمير الغائب المفعول". أما إذا نصح بيتر التعبير نفسه في سياق مثل:

Guess who-----

"تخيل من _____"

مما ينتج عنه قوله:

Guess who John expects to like him.

"تخيل من يعتقد جون أنه يحبه".

فلا أعرف إن كان يقصد أن يحيل إلى جون وحده أم لا. ولا تعتمد
him إحصائياً على John في الجملة:

John expects to like him.

"يتوقع جون أن يحبه".

أما في:

Guess who John expects to like him.

فلاحتمالات مفتوحة. وهناك تفسير جيد لتمثل هذه الحقائق في ضوء
نظرية لسانية داخلية، ونسبها بـ T "ن" [نظرية].

افرض أن "ن" صادقة عن المخلوق المريخي وعنا نحن. فيمكن
للمخلوق المريخي أن يُخبرنا أنه يخلص إلى هذه النتائج انطلاقاً من "ن"، التي
يمكن أن يدركها بل يتكلم عنها كذلك؛ أما أنا فلا أستطيع ذلك، مع أنني
أتصرف مثله تماماً. ولما كان المخلوق المريخي ينفذ شعورياً إلى القواعد
التي يتبعها، فهناك من يميل إلى الظن بأن لدينا الآن تعليلاً لكون المخلوق
المريخي "واثقاً من غير مشقة" بالحقائق التي وصفناها هنا بطريقة غير تقنية؛
أما التعليل العلمي الطبيعي الداخلي فـ "يجعل [ثقة المتكلم هذه] أمراً محيراً"
أو "أحجية محضاً" في حالة بيتر، ويتشكك كريستين رايت في أنه إن كان
بيتر لا يتمتع بالإنفاذ الشعوري الذي يتمتع به المخلوق المريخي فكيف يمكن
له "أن يفهم. . . . تعبيرات معينة"، كالتعبيرات التي أوردناها، مثلاً، التي يكون
بشأنها "واثقاً من غير مشقة"؟ (Wright 1989: 236). ويقترح رايت أن
مشروعه ملحق ضروري [لما يراه تشومسكي].

هب أنا وضعنا الأمرَ بشكلٍ مختلف. أى أن نوع التعليل الذى يمكن أن يقدّم اليوم، ومنه "ن"، لن يجعل [ثقة المتكلم] أحجية، وإن ترك، فعلاً، أحجية، عن المخلوق المريخى وبينتر كليهما. نلك أن لسدينا الآن تعليلاً، لكليهما، يتمشى مع شروط العلم (إن تركنا أسئلة الدقة والوضوح جانباً)، لكننا نفتقر إلى أى قدر من الفهم العميق لطبيعة الشعور، وهو أمر لا صلة له بقضية اتباع القاعدة وثقة المتكلم، وإن كان مهماً بنفسه.

فيتبع بينتر قواعد "ن" لأن هذه هى الطريقة التى كون بها، وهو ما يشبه تماماً كونه يرى الشمس تغرب والأمواج تتسارع لتضرب الصخور؛ وتستغرق هذه الحقيقة ثقة المتكلم لديه استغراقاً كاملاً. أما ما نسميه بـ "الخطأ" فهناك أنواع كثيرة محتملة منه؛ إذ ربما يخالف بينتر معياراً خارجياً ما — فيستعمل disinterested ليعنى uninterested، أو يستعمل لهجته المحلية فى محاضرة رسمية. ويمكن أن يخالف القواعد مختاراً، كأن يستخدم كلمة "كرسى" ليعنى "طاولة" فى نوع كلامى معين — مع معرفته بأن هذه الكلمة فى لغته تعنى "كرسى". وهو يستغل فى عمله ذاك ملكات ذهنية تتجاوز الملكة اللغوية. وربما يسىء تأويل تعبير ما، فيعطى نظامه الأدائى تأويلاً مختلفاً عن التأويل الذى تفرضه لغته الداخلية؛ وهناك أصناف مشهورة من هذه الحالات، وقد نُرست بشكل مثير. ويبدو، حين نستعرض احتمالات أخرى، أن ليس هناك حدود مماثلة فى علم النفس الداخلى.

ويستعمل باحثون آخرون مصطلحات مختلفة لما يبدو كأنه الأمر نفسه؛ لهذا يحاخُ توماس ناجل، مثلاً، أن ما تصفه نظرية علمية طبيعية كاملة عن اللغة واستخدامها واكتسابها ليس "آلية نفسية" بل "آلية فيزيائية" وحسب — نلك أنه لا يمكن أن ينشأ عن هذه الآلية فكر ذاتى واع يتكوّن مضمونه من تلك القواعد نفسها" (Nagel 1993: 109). ويكمن الفارق الحاسم، مرة أخرى، فى النفاذ إلى الشعور من حيث المبدأ. وتبدو هذه الحجة شبيهة بحجة نوميت، وإن استُخدمت مصطلحاً مختلفاً؛ حيث يحل مصطلح "نفسى" بدلاً من

"قلسفى". وتزید مشكلة فهم "النفاذ من حيث المبدأ" و"مضمون الفكر"، هنا، من غموض فكرة "الآلية الفيزيائية"، التى كان لها شىء من المعنى فى الفيزياء قبل نيوتن، لكن لم يعد لها معنى منذ ذلك الحين.

وإذا لم نُقدِّم لنا فكرة جديدة لـ "الجسد" أو "المادى" أو "الفيزيائى"، فلن يكون لدينا أى تصور للمقاربة الطبيعية يختلف عن المقاربة الطبيعية المنهجية. ويُحيل الاستخدام الأكثر مواضعاً إلى مذهب مختلف، أى إلى "المقاربة الطبيعية الخيبية" التى يصفها بيرج بأنها "إحدى النزعات المحافظة القليلة فى الفلسفة الأمريكية" فى السنوات القليلة الماضية (Burge 1992: 32)؛ وتتمثل فى أنواع أخرى: كالمقاربة المادية، والمقاربة الفيزيائية، والمقاربة الإقصائية، وتطبيع الفلسفة [إدخالها ضمن البحث العلمى الطبيعى]، إلخ. لكنه لا يمكن فهم هذه المذاهب إلا حين يُحدِّد مجال الفيزيائى بصورة ما.

ويصوغ دانييل دينيت هذا المذهب، وهو أحد أبرز المدافعين عنه، كما يلي: يرى "إدخال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية"، الذى يصفه بأنه "أحد أسعد التوجهات فى الفلسفة منذ الستينيات"، أنه "يجب أن تكون التعليقات الفلسفية لعقولنا ومعارفنا ولغتنا فى نهاية الأمر متماشية مع العلوم الطبيعية أو متلائمة معها". ويورد بالدوين، فى نقاشه للمقاربة الطبيعية المعاصرة، هذه المقولة لتبيين دعوى "المقاربة الطبيعية الخيبية" (T. R. Baldwin 1993)، مستشهداً بالمقدمة التى كتبها دينيت لكتاب روث ميليكان Ruth Millikan عن هذا الموضوع). وتثير هذه الصياغة، كالصياغات الأخرى، بعض المشكلات. فما "التعليقات الفلسفية" بشكلها المختلف عن التعليقات الأخرى، بهذا المعنى للفلسفة "المنخلة فى العلوم الطبيعية"، خاصة؟ ثم ما العلوم الطبيعية؟ ومن المؤكد أنها ليست ما نفهمه اليوم [على أنه علوم طبيعية]، التى ربما لا تكون "متماشية ومتلائمة" مع الفيزياء فى المستقبل. أهى صورة مثالية نمونجية بيرسية [نسبة إلى بيرس]؟ ربما، ولا يبدو هذا الاقتراح واعداً. وما الذى يمكن أن يُحصِّله الذهن البشرى فى الحد الأقصى؟ وهذا

موضوع محتمل للبحث في الأهل، لكنه يتركنا في وضع أكثر سوءًا في السياق الحالي. أما إن فهمت "المقاربة الغيبية" على أنها أمل في التوحيد المستقبلي لدراسة الذهن مع الأجزاء الأخرى للعلم، فلا يمكن لأحد أن يعترض، لكنها دعوى لا تلتفت النظر إلا قليلا، بدلا من كونها "أحد التوجهات السعيدة في الفلسفة".

انظر إلى شكل هذا المذهب بالصيغة التي عبر عنها كوين (الذي يصفه بيرج بأنه يُنبوع المحافظة المعاصرة). فدعوى إدخال الفلسفة ضمن العلوم الطبيعية في آخر صياغاته لها، هي "العالم كما يقول العلم الطبيعي إنه كذلك، على حد ما يكون العلم الطبيعي صحيحًا". لكن: ما "العلم الطبيعي"؟ وكانت إجابة كوين الكاملة أنه "نظريات الكواركات وما يشبهها" لوكواركات أصغر مكونات المادة]. لكن ما الشبه الكافي؟ وهناك إشارات إلى بعض الإجابات الممكنة لكنها تبدو اعتباطية تماما، في ضوء المعايير العلمية الطبيعية المألوفة في الأهل (Quine 1992؛ للاطلاع على نقاش أوسع، انظر الفصل الرابع في هذا الكتاب).

هب أننا عرفنا مشكلة الذهن - الجسد (أو ربما جوهرها) بأنها مشكلة تفسير الكيفية التي يتصل بها الشعور بالبنى الأعصابية. فإذا كانت كذلك، فيبدو أنها معانلة تقريبا للمشكلات الأخرى التي برزت طوال تاريخ العلم، وهي التي تبقى من غير حل أحيانا، ومنها: مشكلة تفسير حركة الأشياء الأرضية وحركة الكواكب في ضوء "الفلسفة الآلية" وآليات التماس فيها، وهي المشكلة التي بين نيوتن أنه لا يمكن حلها، وأمكن التغلب عليها باقتراح ما كان يفهم على أنه قوى "غير مادية"؛ ومنها مشكلة اختزال الكهرباء والمغناطيس إلى الآليات، التي لا حل لها، ولم يتغلب عليها إلا بافتراض أكثر غرابة يتمثل في أن المجالات [الكهربائية والمغناطيسية] أشياء فيزيائية واقعية؛ ومشكلة اختزال الكيمياء إلى عالم للجسيمات الصلدة في حالة حركة، والطاقة، والموجات الكهرومغناطيسية، التي لم يتغلب عليها إلا باقتراح

فرضيات أكثر غرابة عن طبيعة العالم الفيزيائي. وقد أمكن تحقيق التوحيد، في كل حالة من هذه الحالات، وحلّت المشكلة لا بالاختزال، بل بأشكال مختلفة جدًا من التكيف. بل يكاد اختزال علم الأحياء إلى للكيمياء الحيوية يكون شكلاً من الوهم، لأنه لم يحدث إلا بعد سنين من توحيد الكيمياء وعلم الفيزياء الجديد المختلف اختلافاً جذرياً [عن علم الفيزياء القديم].

وتختلف هذه الأمثلة حقاً عن مشكلة العلاقة بين الشعور والذهن من وجه واحد مهم: فقد كان بالإمكان صياغة نظريات معقولة بعيدة جداً عن السطحية عن تلك الظواهر العصبية على الاختزال، أما في حالة الشعور فيبدو أن التقدم الذي حققناه لا يتجاوز وصف الظواهر والتمثيل لها (وربما لا يتفق أتباع فرويد وبونج وآخرون مع هذا الرأي). وأوضح ما يكون هذا الأمر في حال اللغة. فيتضمن الاستخدام العادي للغة "مظهراً إبداعياً" وفسر، في نظر أتباع ديكرت، أفضل دليل على وجود العقول الأخرى. ولا يمكن ربط الخصائص الحوسبية للملكة اللغوية ولا المظاهر الإبداعية اللافتة للنظر في استخدامها بأي شيء معروف عن الخلايا، لكن الموضوعين يختلفان في أنّ هناك نظريات تفسيرية معقولة للخصائص الحوسبية، أما المظاهر الإبداعية لاستخدام اللغة فليس لدينا إلا وصفها والتمثيل لها، وإذا كان الأمر كذلك فلا تتمثل القضية الجوهرية في عدم القابلية للاختزال الحقيقي أو الوهمي، وهي ظاهرة مألوفة في تاريخ العلم، بل تتمثل في أنه ليس بمقدورنا إلا الوقوف حائرين أمام بعض مظاهر الذهن كالشعور والتعبير عن الفكر الذي يتسم بالتماسك والملاءمة لكنه ليس مدفوعاً بسبب، وهذه سمة معهودة من سمات المشكلات الجوهرية في الفلسفة، كما يحاجّ كولن مساجن (Colin McGinn 1993).

يضاف إلى هذا، أنه إلى جانب أن الاختزال بمعناه الحرفي لا يكاد يُعرف في مسار العلم نحو التوحيد، فليس مؤكداً إن كان له معنى أصلاً بوصفه مشروعاً بحثياً. فقد كتب سيلفان شويبر أن الأبحاث الأخيرة في

فيزياء المادة المكثفة، التي خلقت ظواهر كالقوة التوصيلية الفائقة superconductivity تتصف بأنها "بدع حقيقية في الكون" (Schweber 35: 1993) بعثت أيضاً الشكوك المبكرة عن إمكان اختزالها إلى "ما يكاد يكون ادعاءً يُرهن عليه بشكل نقيق"، وهو ما يؤدي إلى تصور "القوانين الناشئة" بمعنى جديد (ص 36). وبغض النظر عن إن كانت هذه النتيجة صحيحة أم لا، فالواضح أنه ليس لدى المذاهب الفلسفية ما تقوله عنها في الأقل؛ وهي تقول أقل من ذلك عما يخص مجاليّ الذهن والدماع، اللذين يقل فهما لهما عن ذلك بكثير.

وتتبع المقاربة العلمية الطبيعية ببساطة مسار ما بعد نيوتن، مُدركة أنه ليس بإمكاننا أكثر من السعي نحو أفضل تعليل نظري لظواهر التجربة والتجريب، بغض النظر عن الاتجاه الذي يقود إليه هذا المسعى.

ونتوقع، كالحال في فروع العلم الأخرى، أن نترك تصورات الفهم البديهي وراعنا، ولناخذ مثلاً فعلياً، وهو حالة امرأة تدعى "لورا" ترسها جيني يامادا. فتبدو قدراتها اللغوية كأنها سليمة، لكن قدرتها الإدراكية والذريعية محدودة. وهي تعرف عدداً كبيراً من المفردات التي تستخدمها بطرق ملائمة، وإن لم تفهما إلا بقدر قليل، كما يبدو. ويقترح يامادا أنها تشبه الأطفال الصغار الذين يستخدمون الكلمات التي تدل على اللون في المواضيع الصحيحة "لتغليب الخطاب" [تزيينه]، لكن من غير أن يفهموا خصائصها الإحالية. فتعرف لورا متى ينبغي عليها وصف نفسها والآخرين بالسعادة أو الحزن، إلا أنه يبدو أنها لا تستطيع الشعور بالحزن أو السعادة؛ فهي تشبه القائلين بالمذهب السلوكي. والسؤال هنا هو: هل تعرف "لورا" اللغة الإنجليزية أو "تفهما" أو "تتكلمها"؟ وهذا سؤال لا معنى له؛ ذلك أن المسلمات المعهودة عن الناس لا تنطبق على حالتها؛ ولا تتوافق حالتها مع الافتراضات المألوفة عن الاستخدام العادي للغة، وربما أمكن للنظريات العلمية الطبيعية عن اللغة والذهن أن تمدنا ببعض التصورات التي تنطبق

على لورا، لكنها تصورات تختلف عن الاستخدام العادي للغة. وهي، بالمناسبة، جزء من نظرية داخلية عن اللغة والذهن، كما أنها النوع الوحيد الذي نمتلكه. ولا يمكن أن نسأل، مثلاً، عن "المضمون الواسع" لكلام لورا إلا إن وسعنا هذا المفهوم التقني ليشمل هذه الحالة (Yamada 1990).

لتأخذ مثلاً مختلفاً شيئاً ما، هو حقيقتي ذات الأربعة أعوام. فهل تتكلم الإنجليزية [في هذه السن]؟ ونحن نقول في كلامنا العادي إن لديها معرفة جزئية باللغة، وسوف تحنقها إن استمرت الأمور في مسارها المعهود، مع أن ما تتكلمه الآن ليس لغة إطلاقاً. لكن لو هلك البالغون جميعاً، وقدر أن ينجو الأطفال الذين في سنّها من هذا المصير، فسيكون ما سيتكلمونه لغات إنسانية مألوفة تماماً، وهي لغات لا توجد الآن. وهذا المظهر الغائي للفكرة البيديهية للغة واحد من سمات كثيرة غريبة تجعل هذا المفهوم غير ملائم لمحاولة فهم اللغة واستخدامها، مثلما أن علم الأحياء لا يهتم بالثبات النفسي للأشخاص، وأن علوم الأرض لا تتشغل بما يسميه الناس النهر نفسه أو جبلاً أو جزيرة. وهذه المسلمات تحصيل حاصل عن "الفيزيائي" و"الذهني" كذلك، إن تركنا المسلمات الثنائية جانباً.

ويصح الشيء نفسه عن عزو الاعتقاد، فمن المشاريع المعقولة للعلم الطبيعي أن يحدث إن كان الناس (والأطفال الصغار خاصة) يؤوگون ما يحدث في العالم في ضوء أفكار كالاعتقاد والرغبة، والسقوط من السماء نحو الأرض، والتوجه نحو الضوء، إلخ؛ وما الشروط التي يستعملون في ضوءها هذا الخطاب القصدي والموضوعي في اللغات المختلفة (وربما يكون هذا أمراً مختلفاً، كما لاحظنا من قبل). ويمكن أن نسأل، بشكل مستقل إلى حد بعيد، إن كان ينبغي أن تدخل أفكار كهذه في نظرية عن الناس والشهب والأزهار. والإجابة المقترحة في الوقت الراهن "لا، بكل تأكيد" في حالة الأزهار والشهب، ومجهولة في حالة الناس، فتحن لا نعرف إلا قدرًا قليلاً، لكن دعنا ننظر في نوع ثالث من المشكلات، وهي التي لا تدخل في أي من

الإطارين: وهي مشكلة تحديد متى "ينبغي" أن نعزو اعتقادًا أو نعزو الارتفاع والتوجّه و"القصد نحو" ... أي متى نكون "مُحقِّقِينَ" في القيام بذلك العزو؟ وإذا استشهدنا بإحدى الصيغ التي اقترحت مؤخرًا، ما "الشروط الضرورية فلسفيًا للمعتقد الحقيقي"؟ ويحتج بعض الفلاسفة دائمًا بالإنفاذ إلى الشعور عند هذه النقطة، ويرون غالبًا أن عدم التحديد الكويني [نسبة إلى كوين] ينشأ هنا بشأن الاعتقاد، وإن كان لا يصح في الحالات الأخرى، التي لا يُوجب بشأنها أي "شرط فلسفي" على الإطلاق (Clark and Karmiloff-Smith 1993). فلا يسعى أحدٌ لبيان الشروط الضرورية فلسفيًا عن مذنب بتوجه نحو الأرض حقيقة - ثم يخفق في إصابتها، إن كنا محظوظين، وهو عزو قصدي آخر.

ويدعونا هؤلاء، كذلك، إلى البحث عن المعايير التي تُحدّد أين نرسم الحدّ الفاصل بين مذنبات تتوجه نحو الأرض وجونز الذي يسير نحو مكتبه؛ وفي أي جانب يجب علينا أن نصنّف نُويّات "البرنقيل" التي تلتصق بالقواقع والحشرات التي تطير نحو الضوء، ولا تنتمي هذه الأسئلة إلى العلم الإثني أو إلى دراسة المعجم، ولا تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي في فروع العلوم الأخرى، ومرة أخرى، يبدو أن هذا المسعى يتغيّر بتفسيرات فلسفية، بغض النظر عن ماهيتها.

وتبرز أسئلة مماثلة بشأن النقاش عن تحقّقات "الذكاء" و"استخدام اللغة". ويمكن أن نبحث، في حالات نظام الإبصار ونظام الحركة والأنظمة الأخرى، عن بعض الارتباطات الشبيهة homologies أو التطورية. لكن الخصائص الذهنية لا تتناول بمثل هذه الطرق. فهناك شيء مختلف في النقاش عن إن كانت الآلات تفكر، أو تُترجم اللغة الصينية، أو تلعب الشطرنج. فنحن نسأل إن كان رجل مريخي متخيّل أو حاسوب مبرمج يستطيعان فهم الصينية، لكننا لا نسأل إن كان من الممكن لمخلوق فضائي أو آلة تصوير أن يرياً، كالبشر. وهناك أبحاث كثيرة جدًا عن إمكانية القول بطريقة ملائمة عن شخص ينفذ خوارزمياً ذا دخول وخروج مشفرة إنه

يترجم اللغة الإنجليزية إلى اللغة الصينية، لكن ليس هناك أبحاث عن الأسئلة المماثلة التي يمكن إثارتها عن تقليد للحوسبات والخوارزميات التي تحولت حيث الشبكية إلى صورة بصرية أو إلى تناول شيء ما. وهناك من يرى أن من المهمات الأساسية لـ "نظرية المعنى" أن تصوغ بعض الأفكار التي ربما تنطبق على أي مخلوق بغض النظر عن الطريقة التي كوّن بها، سواء أكان حقيقياً أم متخيلاً؛ لكن هذه ليست هدفاً للنظرية عن الإبصار أو الحركة إطلاقاً. ومن الغريب أنه لا يُنظر إلى هذا على أنه هدف للنظرية عن الصوتيات كذلك، مع أن لهذه الأسئلة الأهمية نفسها تقريباً هنا - وهي، كما أظن، صفر. وبالمثل، فلا يسأل أحد عن ما الذي يمكن عدّه نظاماً للدورة الدموية، أو ما يمكن أن يُعدّ جزيئاً، في عالم ما أهول بأشياء مختلفة أو قوانين مختلفة للطبيعة.

ولست هذه المناقشات ثنائية من حيث الجوهر فحسب، بل ليس لها هدف واضح كذلك ولا أهمية، ويبدو أنها تشبه النقاش عن إن كانت المركبة الفضائية تطير أو إن كانت الغواصات تبحر، لكنها لا تسبح؛ وهذه من أسئلة التقرير، لا الحقيقة، في هذه الحالات، مع أنها تعدّ جوهرية في حالة الذهن، اعتماداً على مسلمات ما تزال بحاجة إلى تفسير - يضاف إلى تلك، بالمناسبة، أنها تتجاهل أحد تحذيرات ألين تيرنج الصريحة في بحثه الكلاسيكي الذي ألهم كثيراً من النقاش الجاد في السنين الماضية.

وتبرز قضايا المقاربة الداخلية - الخارجية حين نوجه أنظارنا إلى اللغة؛ لكنها تبرز - مرة أخرى - بخصوص نظرية المعنى وحدها لا الصوتيات، حيث يمكن أن تثار بطرق مماثلة. لهذا يُطلب منا أن ننظر إن كانت المعاني في الرأس، أم أنها محدّدة بطرق خارجية. والإجابة المعهودة الآن أنها محدّدة بطرق خارجية بنوعين من العوامل: سمات العالم الواقعي، ومعايير الجماعات.

فما فكرة المعنى التي تبحث هنا؟ ويُقترح الترسيس المنهجي للممارسة

الواقعية للترجمة هدفا للبحث أحيانا، لكن لم يُقَوِّم أحدَ الافتراضات التي تقوِّم بطريقة جادة في ضوء هذه المصطلحات، كما أن أهمية المشروع ليست واضحة. ومن الأهداف المعلنة الأخرى أن نحدّد معنى كلمة ما (لكن ليس صوت كلمة ما، كما يبدو) في لغة مشتركة عامة، وهي فكرة ما تزال بحاجة إلى أن تصاغ في ضوء معايير متماسكة⁽⁴⁾. ومن الواضح أن الهدف لا يتمثل في أن نكتشف السمات الدلالية لكلمة meaning "معنى" في الإنجليزية أو التعبيرات المماثلة في لغات أخرى، إن وجدت. فهل ينتمي هذا البحث إلى العلم الإثني، وهو البحث في مصادرنا التصورية؟ لكن لا يبدو أن الأبحاث التي يقام بها مصممة تصميمًا ملائمًا لهذا الغرض. ولا صلة لهذه الأسئلة بالبحث العلمي الطبيعي في طبيعة اللغة واستخدامها، وهو الذي سيتطور بطرقه الخاصة به. فما الاحتمالات الأخرى الممكنة؟ والإجابة عن هذا السؤال غير واضحة.

والواقع أن بعض المحاولات الغربية تبدأ عند هذه النقطة. فنظر إلى تجربة "توعم الأرض" الذهنية التي صمّمها هيلاري بتنام، وهي التي وفّرت كثيرًا من المسوغات للافتراضات الخارجية. فيطلب منا، في إحدى صور هذه التجربة، أن نتفحص حدوسنا عن "ما صدق" أو "مرجع" كلمة "ماء" في توعم الأرض، حيث يستعمل أناسٌ يمانلوننا هذه الكلمة في الإحالة إلى "ص ص ع"، الذي ليس H₂O. لكننا لا يمكن أن نملك حدوسنا عن هذا السؤال، ذلك أن كلمات "ما صدق" extension، و"الإحالة" reference، و"صادق عن" true of، و"يعنى" denote، وعبارات أخرى تتصل بها، مصطلحات تقنية، وتُعنى بدقة ما يقول لنا مخترعوها إنها تعنيه: وستكون قائمة هذا الفحص مماثلة في عدم فائدتها لفحص حدوسنا عن مصطلح "العضلات الشاذة" [في للتشريح] أو [مصطلح] "اللایقین"، بالمعنى التقني [في الفيزياء].

افرض أننا صممنا تجربة ذهنية مستخدمين اللغة العادية، وافرض، مثلًا، أن توعم أوسكار هبط إلى الأرض وكان ظمآنًا، ثم طلب "ذاك"، مشيرًا

إما إلى كوب يحوى مشروبًا غازيًا أو إلى كأس يحوى ما يأتي من الصنبور — وهو مزيج غريب من الـ H2O والكلور، وأكره أن أفكر بشيء آخر، وهو يختلف بشكل لافت من مكان إلى مكان (لكنه يسمى "ماء"). فهل أخطأ في الحالتين كليهما؟ أم في إحداهما؟ وإذا أخطأ في إحداهما، ففي أي منهما؟ افرض أنه يحيل إلى شيء أتى من الصنبور كان قد مرَّ عبر مصفاة من الشاي عند مصدر الماء (لذلك فهو يعنى أنه "ماء" عند أوسكار)، وإلى شيء مماثل من حيث الجوهر الكيميائي غمس فيه كيس شاي (لذلك فهو ليس "ماء" عند أوسكار، بل "شاي"). ففي أي من الحالتين كان توعم أوسكار مخطئا (إن كان مخطئا في أي منهما)؟ لنعد إلى "مضمون الاعتقاد"، فإذا استمر توعم أوسكار في طلب ما يأتي من الصنبور ليروي عطشه، مسميًا إياه "ماء"، فهل غير من اعتقاداته عن الماء — بصورة غير معقولة، ذلك أنه لا يملك دليلاً على حدوث تغيير مثل هذا؟ أم هو يتصرف بصورة معقولة، محافظًا على اعتقاداته الأصلية عن الماء، التي تسمح بأن يكون الشيء الذي يوجد على الأرض ماء (في توعم الإنجليزية) في المقام الأول؟ فإذا كان الأمر الأخير هو الحال فاعتقاداته عن الماء مشتركة على الأرض وعلى توعم الأرض، مثلما يحتمل أن تختلف اعتقاداته، على أي من الكوكبين، عن المادة نفسها، حيث يأخذها على أنها إما "ماء" أو "شاي" تبعًا لاختلاف الظروف، حتى مع معرفته الدقيقة التامة بأن لموضوعات الاعتقادات المختلفة المكونات نفسها تمامًا. وأنا لدى حدوسي الخاصة بي، وهي التي ربما تكون لها صلة بدراسة المعجم والعلم الإثنى، لكنها تقوِّض النتائج المقصودة للتجربة الذهنية.

وهناك مشكلات أخرى كثيرة جدًا، فقد أثرت مشكلة توعم الأرض عن طريق تخليصها من مسلمات الخطاب التي يقوم عليها الاستخدام اللغوي العادي، وهي تشبه السؤال عن إن كانت لورا تفهم الإنجليزية. يضاف إلى ذلك، أنه إن كانت هذه الحجة تنطبق على "الماء" فلماذا لا تنطبق على "الأرض"، و"الهواء"، و"النار"، إذن، وهي التي كان لها منزلة شبيهة في أحد

التقاليد [الفلسفية] القديمة؟ ثم ما "الشيء نفسه" في هذه الحالات؟ أو انظر مثلاً إلى "السماء". فأنا أستعمل هذا المصطلح بخصيصته الإشارية، لأحيل إلى ما أراه في ليلة صافية: وهو شيء مختلف في بوسطن عنه في تسمانيا [مدينة في أستراليا]. وربما صح لي، حين أتخلص من المسلمات المعهودة كما هي الحال على توعم الأرض، أن أقرّر (في بعض الظروف) استخدام كلمة "ماء" بالطريقة نفسها. وأبعاد الاختيار متنوعة جداً حتى إنه لا يعود مفاجئاً ألا تستطيع "أكثر الأذان التي لم تولدتها النظرية الفلسفية من قبل" إصدار أحكام واضحة في الحالات النموذجية، كما لاحظ ستيفن سنك. وربما لا يمثل هذا اعتراضاً حاسماً في سياق نظري غني، لكنه إشارة تنبيهية يجب عدم تجاهلها حين لا يكون لدينا إلا القليل وراء الأمثلة المزعومة (انظر Stich 1983؛ للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب).

ولا يبدو لي أن إجابة بتنام عن هذه المشكلات مقنعة؛ فهو يوافق على أن الكلمات لا تحيل، ويلزم عن هذا أن تصاغ الحدوس عن "مرجع الكلمات" بطريقة مختلفة. وهو يتبنى موقف بيرس الذي يرى أن "الإحالة [بمعنى "صادق عن"] علاقة ثلاثية (فيحيل الشخص "س" إلى الشيء "ص" عن طريق الإشارة "ش")، حيث الأشياء "ص" و"لغوية في العالم" (Putnam 1992: 382). يضاف إلى ذلك "حقيقة أن هناك علاقة بين كلماتنا والأشياء في العالم وهي أساسية لوجودنا؛ فالفكر الذي لا علاقة له بالأشياء في العالم فكر "فسارغ" (Putnam 1992: 383)⁽⁴⁾. لهذا تحيل كلمة ما (أي أنها: "صادقة عن") إلى شيء واقعي في العالم حين يستعمل الناس هذه الكلمة ليحيلوا، ولما كان المتكلمون يستعملون كلمة "الصينية" في الإحالة إلى اللغة التي تتكلم في بكين وهونج كونج، فهي "شيء واقعي في العالم"، وينبغي أن ينطبق الأمر نفسه على "الذهن"، و"الرجل المتوسط"، و"جو المدمن"، و"التجارة الحرة"، و"السماء"، وغيرها، وعلى الصفات والأفعال والتعبيرات العلائقية الأخرى كذلك، كما يبدو.

وإذا وضعنا جانبًا هذه النتائج التي تتجاوز النتائج التي قال بها وورف، فإن عددًا من المشكلات يبرز. وأولها أن قبولنا بهذه الصياغة يؤدي إلى سقوط الحجج الخارجية، ويشمل ذلك تجربة توعم الأرض، وحالة تقسيم العمل اللغوي⁽¹⁾، وغيرهما. تلك أنه حين يطلب توعم أوسكار، في زيارته للأرض، كأمنا من الماء، محيلًا إلى ما في الكأس على أنه "ماء"، فإننا نخلص، تبعًا لمراجعة بتنام، إلى أن كلمة "ماء" في توعم الإنجليزية صادقة عن H2O، وهو ما يعنى عودة المعانى إلى الرأس. وتُحقق الحجج الأخرى لأسباب مماثلة.

وثانيها، أن هذه المراجعة غير مفيدة، ذلك أن فرضية بيرس تتضمن مفهومًا تقنيًا جديدًا لـ "الإحالة"، وهو ما يُعيدنا مرة أخرى إلى حيث كنا، مع حدوث لا يمكن أن نمتلكها. فليست "الإحالة"، في الاستخدام العادي، علاقة ثلاثية من النوع الذي اقترحه بيرس. فهي، بدلًا عن ذلك: أن الشخص "س" يحيل إلى "ص" عن طريق التعبير "ت" تحت الظروف "ظ"، ويعنى هذا أن العلاقة رباعية، في الأقل، ثم إنه ليس ضروريًا أن تكون "ص" شيئًا واقعيًا في العالم أو ينظر إليه "س" كذلك. وعلى وجه أعم، يستعمل الشخص "س" التعبير "ت" بخصائصه الدلالية الذاتية ليتكلم عن العالم من زوايا ذاتية متشابهة، مركزًا انتباهه على بعض مظاهره المحددة، تحت الظروف "ظ"، مع "محتوى" التي توجبها (بالمعنى عند بيلجرامي)، بل ربما لا تكون لمكونات "ت" أية علاقة دلالية ذاتية بما يحيل إليه جونز، كما في حالة قوله إن الحفلة الموسيقية في قاعة جوردان رائعة، محيلًا إلى مدينة بوسطن والمقطوعة الوترية التي يُحبها.

ويكتب بتنام أنه يظن أن تشومسكي يعرف جيدًا أن هناك علاقة بين المتكلمين والكلمات والأشياء في العالم. وهذا صحيح أحيانًا فهناك علاقة، حين نجرّد من ظروف الاستخدام، بالمعنى تقريبًا الذي توجد فيه علاقة بين الناس والأيدى والحجارة، وهو ما يجعلني أستطيع استخدام يدي لالتقاط

حجر، لكن ذلك يقصر بنا كثيراً عن القول بأى شيء يشبه النتائج التي يَودُ بتنام أن يصل إليها.

وليس باستطاعتنا أن نستنج "علاقة مهمة بين كلماتنا والأشياء في العالم" بناء على تصورات "الإحالة" وأمثالها في اللغة الطبيعية والبدئية. وحين نبدأ بملء الصورة لكي نقرب من الاستخدام الفعلي والفكر، لا يعود من الممكن الاحتفاظ بالنتائج التي يراها القائلون بالمقاربة الخارجية عدا أنه سيكون لبعضها، في معمة الاستخدامات، الخصائص المرغوبة؛ إذ يمكن بالفعل، في بعض الظروف المحددة، أن نفهم "ماء" بمعنى "السائل نفسه"، حيث كلمتا "سائل"، و"نفسه" نوعان من الأفكار التي يسعى العلم لاكتشافها، وتتماشيان مع الفرضيات الخارجية الأخرى. ولا شك أن التفكير عن العالم "أساسي لوجودنا"، لكن لا يبدو هذا طريقاً جيداً لفهم هذا الأمر بشكل أفضل.

ويبدو البحث الفلسفي مؤطراً تأطيراً غريباً بمعايير أخرى كذلك؛ لهذا فكلمة "ماء" مجموع من الخصائص الصوتية والدالية والصوربة تنفذ إليها أنظمة الأداء المختلفة للنطق والإدراك والحديث عن العالم، إلخ، فإذا أنكرنا كون معناها في الرأس، فلماذا لا ننكر كذلك كون مظاهرها الصوتية في الرأس كذلك؟ ولماذا لا يقترح أحد أن "المضمون الصوتي" لكلمة "ماء" تحدده بعض أنواع حركات الجزيئات أو مواضع "النطق الملائم"؟ وينظر إلى هذه الأسئلة على أنها سخيفة أو غير مهمة. فلماذا لا يكون الأمر كذلك عن المعنى، إن؟

وتوحي الأبحاث ببعض الإجابات عن هذه المسألة. ومنها أن نتائج بتنام عن "الماء" و H_2O مدفوعة جزئياً بمشكلة المعقولية في الخطاب العلمي. وكما يشير بتنام، فنحن لا نود للقول إن بور Bohr كان يقول كلاماً سخيلاً حين استخدم مصطلح "إلكترون" في الفترة السابقة على اكتشاف النظرية الكمية، وإلا كانت أحكامه كلها زائفة. ويحتج بتنام، لكي يتجنب هذه النتائج السخيفة، بأن بور كان يحيل إلى ذرات وإلكترونات "واقعية" وهي

التي ربما يمكن لبعض الخبراء أن يُحدثونا عنها (وربما لا)، في نهاية الأمر. فإذا كان المعنى يحدّد الإحالة فالمعاني ليست في الرأس، إذن، وهو ما يُفترض أن تُبينه التجاربُ عن توعم الأرض.

وليست هذه الحجة مقنعة، وذلك لأسباب تتجاوز الأسباب التي أورناها آنفاً. فقد أشار جاي أطلس إلى أن المهندسين المتخصصين في الذرة يميزون بين "الماء الخفيف" و"الماء الثقيل"، حيث الأول فقط H_2O . فإذا أخذنا لوائك على أنهم خبراء، فهل كنا مخطئين بشأن الكلمة "ماء" حين كنا نعني الماء الخفيف حقاً؟ (ولنقاش أوسع، انظر Atlas 1989). وكان الكيميائيون قبل أفوجادرو Avogadro يستخدمون مصطلحي "الذرة" و"الجزء" الواحد مكان الآخر. فهل يجب علينا، لكي نجعل ما كانوا يقولونه معقولاً، أن نفترض أنهم كانوا يحيلون إلى ما يسمى الآن بـ "الذرات" و"الجزئيات" (أو ما تكونه "حقيقة"، وهو الذي ربما لا يعرفه أحد الآن)؟ وبعد أن توفّر نموذج بور للذرة اقترح أن تفهم الأحماض والقواعد على أنها مستقبلات أو واهبات محتملة للألكترونات، وهو ما نتج عنه ضمّ أحماض البورون وأحماض كلوريدات الألمنيوم إلى حامض الكبريت، وفتح "منطقة جديدة بأكملها في الكيمياء الفيزيائية غير العضوية"، كما يقول أحد كتب تاريخ العلم المشهورة (انظر Brock 1992: 482). فهل كان العلماء السابقون يحيلون "فعلاً" إلى البورون على أنه حامض؟ وهل يجب علينا أن نفترض ذلك لكي نجعل وجهات نظرهم معقولة؟ لنأخذ مثلاً أبسط وأكثر قرباً منا، وهو: هل يجب علينا أن نفترض أن الصوّاتيين البنيويين، قبل أربعين سنة، كانوا يحيلون إلى ما يسميه الصوّاتيون التوليديون وحدات صوتية، مع أنهم يُنكرون ذلك بشكل حاسم — وهم محقّون في ذلك؟ ومن المؤكد أن الصوارة البنيوية معقولة؛ وإذا أغفلنا افتراض وجود وحدات من النوع الذي كانت تفترضه، فيمكن أن يعاد تأويل جزء كبير من تلك النظرية في الوقت الحاضر، مع نقل كثير من نتائجها [إلى الصوارة التوليدية].

أما المطلوب في هذه الحالات كلها فدرجة معينة من البنية المشتركة، وليس في أي من هذه الحالات طريق مبنئ لتحديد القدر المشترك، أو القدر الواجب توفره من "التشابه في الاعتقاد" [بينها]، وربما يكون مفيداً أن نلاحظ التشابهات وأن نعيد صياغة الأفكار في بعض الأحيان، وهذا غير ممكن في أحيان أخرى. ويصح الشيء نفسه عن آراء بور المبكرة والتالية. ولا يشترط أكثر من هذا من أجل الحفاظ على كرامة المشروع العلمي، أو الفكرة المحترمة للتقدم نحو الفهم النظري.

ويعترض بتنام بأن التشابه البنيوي وحده "مختلف جداً عن قولنا إن أيًا من النظريتين "تصيف"، وإن كان وصفاً قاصراً، سلوكاً الظواهر السرابية فوق الذهنية التي تحيل إليها بأنها "إلكترونات" — أو "ماء خفيف"، أو "ذرات" أو "جزيئات"، أو "أحماض وقواعد"، أو "صوتيات"، إلخ. وهذا صحيح، لكنه غير مهم هنا؛ إذ يجب علينا، في الحالات كلها، ومنها النظريات الحالية، أن نصيف أي شيء يميز النظريات عن العالم عن قصص الخيال العلمي. فنحن نأخذ هذه النظريات على أنها تصف الظواهر فوق الذهنية، وإن كان وصفاً قاصراً، سواء أكانت تتصل بأبولو والشمس، أم بالنكات الأربع عند جالين والذرات عند ديموكريتس، أم بالأنابيب ذات الأرواح الحيوانية عند ديكارت، . . . وهكذا حتى نصل إلى المحاولات التي يقام بها في الوقت الحاضر. فليس هناك سبب مقنع، في أي من هذه الحالات، لأن نتبنى نظرية "للإحالة الحقيقية" من النوع الذي يؤسس على الحجج الخارجية من هذا النوع.

وإذا تركنا هذه الاعتبارات جانباً فليس للنقاش عن "الإحالة" في العلوم صلة خاصة باللغة البشرية والفهم البديهي، إلا إن أضفنا الفرضية الأخرى التي نقول إن كلمات مثل "إلكترون" و"قاعدة" و *eigenvector* و"صوتية"، إلخ، تنتمي إلى اللغة الإنجليزية واللغات الطبيعية الأخرى، وربما يكون ذلك بصحبة التعبيرات التي تظهر فيها، والصيغ والرسوم البيانية وغيرها.

ويفترض بتنام أن المعجم متجانس بهذا المعنى. لهذا يحاج، في دفاعه عن شبكية المعنى، أن نظرية المعنى يجب أن تتعامل مع "أصعب الحالات"؛ ويعطى مثالاً لذلك [المصطلح الفيزيائي] momentum "زخم"، الذي كان يُعرف في القديم بطريقة يُنظر إليها الآن على أنها تعبير عن الزيف. وبغض النظر عن الطريقة التي تؤوكه بها فلا صلة له بالبحث في اللغة، إلا إن افتراضنا أن momentum بمعناه عند عالم الفيزياء يدخل المعجم عن طريق آليات الملكة اللغوية نفسها التي تسمح لطفل أن يتنقط كلمات مثل "بيست" و"يقوم"، وأن له خصائص المداخل المعجمية التي تحددها الملكة اللغوية. ويبدو هذا أمراً مشكوكاً فيه، في الأقل.

وبتنام محق في قوله إنى "أوافق على أن هناك علاقة كـ 'الإحالة'" بالمعنى التقنى، أو أن تلك محتمل في الأقل، لكنه لم يفهم ما غنيته: وهو أن من المعقول الافتراض بأن البحث العلمى الطبيعى يهدف إلى صياغة أنظمة رمزية يقصد ببعض التعبيرات اللغوية المحددة فيها أن تسمى بعض الأشياء فى الكون^(١). ومع هذا فليس هناك سبب للاعتقاد بأن مثل هذه المساعى يمكن أن تعلمنا شيئاً مهماً عن اللغة العادية والفهم البديهي. ويبدو لى أمراً مفاجئاً أن ينساق بتنام لاتخاذ هذا الموقف، مع نقده البليغ لـ "النزعة العلماوية" . scientism

وإذا نحننا المعنى جانباً، فهل يُحدّد محتوى الفكر بعوامل خارجية؟ وليس بإمكاننا أن نسأل بصورة معقولة مثل هذه الأسئلة عن "المضمون"، سواء أكان ضيقاً أم واسعاً؛ ذلك أنهما - مرة أخرى - فكرتان تقنيتان. لكن بإمكاننا أن نسأل عن إن كان من الممكن أن نعزو أفكاراً للناس بناء على أسس لا تتوافق مع حالاتهم الداخلية. أما أننا نقوم بذلك فواضح من غير حاجة لأمثلة غريبة. فإذا أخبرنى جونز أنه فى حداد على أولئك الذين قُضوا نحبيهم فى الخنادق فى فيردون Verdun قبل خمسين سنة فربما أستطيع القول إنه يتحدث فعلاً عن الحرب العالمية الأولى (أو يفكر بها)، لا الثانية؛ أو إنه،

من وجه آخر، مخطئ بشأن الحرب العالمية الثانية، التي يتحدث عنها (أو يفكر بها). فأنا أعزو إليه، في الحالة الأولى، حالة ليست داخلية؛ ويقوم هذا العزو على اعتقاداتي أنا، لا اعتقاداته هو. وليس هناك سؤال حقيقي عن إن كان علم النفس يتعامل مع حالة جونز كما حدثت في هذه الحالة أم لا. فهو سؤال، مرة أخرى، يتعلق بالقرار؛ فهو يتعلق، في هذه الحالة، بمصطلح "علم النفس" التقني المصطنع. وبالمثل، فإذا صورّ تولستوى أنا كارنينا تشبيهاً بامرأة حقيقية، فربما كان يفكر بها، أو يتكلم عنها، أو يعتقد شيئاً بشأنها، إلخ، وكذلك بعض قرائه العارفين؛ أما في حالة سميث، الذي لا يعرف شيئاً عن هذا، فيمكن أن أقرر أنا إما يفكر به [بطريقة أو أخرى، تبعاً لاختلاف الظروف. وبغض النظر عن النتيجة فإنها لا تعلمنا شيئاً عن الموضوع "الحقيقي" الذي يهتم به علم النفس، مع أنه يمكن أن تكون هذه الأمور موضوعات معقولة للبحث الداخلي عن الكيفية التي يتحدث الناس بها عن الكون، وهو البحث الذي يسعى لكشف الحالات الداخلية التي تقود الناس إلى وصف الآخرين بطرق مختلفة، حين يؤولون الظروف بأشكال مختلفة.

وفي هذا السياق أيضاً، تبدو التجارب الذهنية التي تصمم لتأييد النتائج المضادة للمقاربة الداخلية مؤسّسة على افتراضات مشكوك فيها غالباً. خذ مثلاً مثال "الجرادة - الصرصار" الذي صاغته لين ردر بيكر، وسأبسّطه قليلاً (Baker 1988). افرض أن جونز يتكلم اللغة الإنجليزية العادية، وسميث كذلك، إلا أن الصرصار تسمى "جرادا" في المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها سميث. ثم افرض أن "ج" تعلم لغته من جونز وتعلم "س" لغته من سميث، وتعلم كلمة "جراد" من الصور نفسها، وهي صور ملتبسة بين الجراد والصراصير، بالإضافة إلى معلومات تتعلق صدفة بالجراد والصراصير معاً. ولاختلاف مقاصد المعلمين اللذين علما ["ج"، و"س"] فقد استنتج بيكر أنه يبدو من الواضح أن "ج" اكتسب اعتقاد أن الجراد خطر وأن "س" اكتسب اعتقاد أن الصراصير خطيرة (Baker 1987: 121)، مع أن "ج" و"س" في الحالة الداخلية نفسها.

وبناء على هذه المسلمات سيعمّم "ج" و"س" بالطريقة نفسها، وهو ما ينتج عنه أنه إذا قُمتَ لهما جرادة لا لبس فيها فسيسميها كلاهما "جرادة"، مع أن "س" سيكون مخطئاً لأن اعتقاداته التي يعبر عنها تتصل بـ"الصراصير"، لا بالجراد. افترض أن "س" هاجر إلى جزيرة يتكلم سكانها لغة لا صلة لها بلغته، ثم تعلّم نريته لغته تحديداً، ثم اختفت سجلات لغته والكلمات النظيرة فيها كلها، بصورة نهائية؛ والأمر نفسه مع "ج". وينتج عن هذا أنه لا يمكن التمييز الآن بين ذرية "ج" وذرية "س" من حيث لغتهم واستخدامها، كما لا يمكن بعث التاريخ وهو ما يعنى أنه لن يكون باستطاعتهم أن يتعلموا لغتهم بطريقة أخرى. ومع هذا، يجب أن يكون من الواضح أن لديهم اعتقادات مختلفة، وأن ذرية "س" يرتكبون أخطاء كثيرة في استعمالهم كلمة "جرادة"، إذ إنهم يتكلمون دائماً عن الصراصير ويفكرون بها. ومن المحتمل أن نكون نحن، حقيقةً، من نوع منحدر من ذرية "س" حيث اكتسب أجداننا في غبشة ما قبل التاريخ الكلمة التي أصبحت "جرادة" تحت الشروط التي تنطبق على "س"، حيث كان معلم أولئك الأجداد يقصد أن يحيل إلى نوع مختلف "ص"، لذلك فالاعتقادات التي نعبر عنها حين نستعمل "جرادة" هي في الحقيقة عن "ص"، وهي اعتقادات خاطئة غالباً.

ولا يبدو شيء من هذا واضحاً لي، حتى الخطوة الأولى منه. لكن ليس من الواضح كذلك السبب الذي يجعل الأمر مهماً. افترض أننا قبلنا حدوس بيكر. فما الذي يمكن أن يقوله هذا لنا عن اللغة والاعتقاد والفكر؟ إن أقصى ما يمكن أن يقوله لنا إننا ربما نعزو أحياناً بعض الاعتقادات (وغيرها) إلى "ص" في ضوء اعتقادات أناس آخرين وحدوسهم؛ لكن ذلك واضح من الحالات العادية البسيطة. ومرة أخرى، فالبحت في الطرق التي نعزو بها الاعتقادات تبعاً لاختلاف الظروف موضوع مشروع لعلم الدلالة اللغوي والعلم الإثنى، لكن دراسة الكيفية التي يحصل بها الناس للحالات الإدراكية والتفاعل وغير ذلك ستسير بحسب مسارها المختلف.

ومن الحجج النموذجية للمقاربة الخارجية أنه إن لم يحد العالم الخارجي مضمون الفكر عند شخص ما، فستكون الكيفية التي يمكن أن تتوفر بها أفكار ذلك الشخص علانية لشخص آخر لغزاً محضاً" (Bilgrami 4: 1992). ولا يحتاج علم النفس لهذه الفرضية؛ ذلك أننا لا نحتاج من أجل تفسير الطريقة التي يفهم بها سميت ما يقوله جونز أن نلجأ إلى بعض الوحدات في العالم الخارجي التي تماثل التمثيلات الصوتية في ذهنى سميت وجونز (لنقل: بعض الأنواع من حركات الجزيئات التي ترتبط بالوحدة التركيبية: "الصوت الشفطاني الوقى")؛ ثم إنه لا حاجة للأشياء الخارجية فيما يخص المعانى والأفكار. ومن المؤكد أن هناك بعض الاحتمالات الأخرى، وربما تكون صحيحة. لهذا ربما يفترض سميت أن جونز يماثله تماماً، مع بعض الاختلافات، ثم يسعى إلى اكتشاف هذه الاختلافات، وربما تكون هذه المهمة سهلة، أو صعبة، أو مستحيلة. ويعزو سميت إلى جونز، بقدر ما ينجح في ذلك، التعبير الذي يصوغه دماغه هو، ويشمل ذلك صوت التعبير ومعناه، أما التواصل فأمر تقريبي⁽⁸⁾. ثم يسعى، باستخدام أنواع أخرى من المعلومات، إلى التأكد من أفكار جونز، وربما بطريقة مشابهة.

ومن المؤكد أن هذا علم نفس، كما يفترض ألا تبرز هذه القضايا إلا في علم النفس الشعبي، عند بيلجرامى على الأقل. لكن هذه النتائج لا تبدو مؤسسة بشكل أفضل هنا. فليس هناك سبب للاعتقاد بأن مارى تؤوّل التفاعل بين سميت وجونز عن طريق افتراضها وحدات تتوفر بشكل علنى" تعمل على تثبيت الأفكار أو المعانى أو الأصوات. وليس واضحاً، إضافة إلى ذلك، احتمال أنه سيكون ببعض الغموض عن التواصل صلةً بعلم النفس الشعبي، وهو الذى ليس بحاجة إلى أن يواجه مهمة حل مثل هذه المشكلات، وهو لا يقوم بذلك فى الغالب.

وتمثل الأمثلة من نوع توعم الأرض أحد التوجهات فى النظريات الخارجية المتواضع عليها عن اللغة والفكر. ويدخل فى النوع الآخر منها

الاحتكام إلى السلطة والخبراء ومعايير المجموعة اللغوية، إلخ. ويحتج فسي هذه النظريات بأن المعاني ليست "في الرأس" لأنها تثبتت بمرور هذه الطرق. ويمكن أن تسأل، مرة أخرى، أين يُصنّف تصورُ المعنى الذي ناقشه. ومن الجلي أنه ليس جزءاً من بحثٍ علمي طبيعي ما عن اللغة واستخدامها، أو من البحث في المدخل المعجمي لكلمتي "معنى" و"لغة" في الإنجليزية. فهل هو علم إثني تأملي، أي دراسة لـ "تفسيرِ نفسي بديهي للسلوك الإنساني"، كما يصف بيلجرامي (١٩٩٢: ٣) هذا المشروع مع رفضه لهذا النوع من الحجّة (وهو رفض صحيح، كما أعتقد)؟ وربما يكون هذا هو المقصود، لكن النتائج تبدو متنوعة جداً، إن كان الأمر كذلك، تبعاً لاختلاف الشروط، على الرغم من أنه لم يتحقق قدر كبير من الوضوح.

ومهما كان موضوع البحث فهو يعتمد بصورة جوهرية على فكرة "اللغة العامة المشتركة" التي ظلت غامضة. فإذا كانت هذه الفكرة بصورتها في الخطاب العادي فهي غير مفيدة لأي شكل من أشكال التفسير التطويري. فمن المسلمات منذ زمن بعيد في الدراسة الاختيارية للغة أنه ليس هناك شيء يمكن أن تعينه كلمات كـ "الصينية"، أو "الألمانية"، أو ما هو أكثر تحديداً منها كذلك. ذلك أن تحدثَ للغة نفسها يُشبه "السكن قريباً من" أو "التشابه"؛ وهو ما يعني أنه ليس هناك مقولات يجب تثبيتها. وعدم توفير اللغة العادية وسيلة للإحالة إلى اللغة التي تتكلمها حفيدتي مقبول في الحياة العادية، أما البحث الاختباري فيتطلب تصوراً مختلفاً. فملكتهما اللغوية، في البحث الاختباري، في حالة ما وهي الحالة التي تُحدّد "لغتها" (أو ربما تكون "هي" لغتها). وتؤسّس الجماعات والثقافات وأنماط الاحتكام في حياة البشر بطرق مختلفة كثيرة جداً، مع عدم وجود علاقة خاصة لشيء من ذلك بما نسميه "لغات" في الخطاب غير المتخصص. وليس هناك إجابة مفيدة عن السؤال عن إن كان يجب على "بيرت" أن يحيل إلى الألم في فخذة على أنه التهاب مفاصل؛ أو إن كان يجب عليه استخدام كلمة disinterested "غير مبال" لتعني

unbiased "غير متحيز"، كما يقول القاموس، أو uninterested "غير مهتم"، كما يعتقد متكلمو [الإنجليزية الأمريكية] جميعهم تقريباً؛ أو إن كان يجب عليه أن ينطق للكلمات بالطريقة التي تنطق بها في يوسطن أو لندن^(١٩).

وليس هناك طريقة أبداً لإضفاء معنى على هذا التوجه في النظرية الخارجية للمعنى واللغة، كما يبدو لي، أو على أي بحث يُعالج نظرية المعنى وفلسفة اللغة اعتماداً على مثل هذه الأفكار، وهو حكم قصدت به أن يُلخص شيئاً ربما يكون واسعاً.

وباختصار، فمع أنه لا تترتب على المقاربة الطبيعية مقارنةً داخلية، فإنها لا تترك بديلاً واقعياً [لها]، كما يبدو. وتتبنى تلك المقاربة دائماً، في البحث الاختباري الفعلي، حتى حين يُنكر ذلك، وهو أمر سبق أن عالجتُه في مكان آخر؛ وكما هو معروف، فيلزم، كي نحدد ما يفعله العلماء، أن ننظر إلى ممارساتهم، لا إلى ما يقولونه عنها.

وكما لحظتُ من قبل، لا تبرز قضية مشروعية الأبحاث التي تذهب وراء حدود المقاربة الداخلية. ويجب أن يكون هذا تحصيل حاصل. لهذا، فمن الأمور المفاجئة لي دائماً أن أقرأ أُنّى وآخرين تُنكر هذا الأمر، ومن الأمثلة على ذلك أن أحد كتب المقدمات في اللسانيات الاجتماعية يتبديء بالزعم العجيب التالي: "من الأمور المسلمة في اللسانيات الحديثة عموماً أنه لا صلة بين الأنحاء والحياة الاجتماعية للمتكلمين" (Romaine 1994: vii)، وهذه فكرة تافهة، ولم يتبناها أحد، وهي التي أرجعها المؤلف إلى إصراري على "أن قضايا القوة... ليست من القضايا التي يجب على اللسانيين تناولها" (ص ١) - وهو ما يعني أنه ينبغي على ألا أشتغل بالنشاطات التي تستهلك جزءاً كبيراً من وقتي وطاقتي، مثلاً. وينتهي الكتاب بنتيجة تقول: تُنكس الاختلافات اللغوية أنواع عدم المساواة في القوة والمكانة وتعممها" (ص ٢٢٥) - فهناك، مثلاً، لهجات ذات مكانة أعلى - وهو اكتشاف يُنظر إليه على أنه ينقض ما تُنادى به من أن ما نفهمه في الوقت الحاضر عن

طبيعة اللغة لا يسهم بشيء في توضيح دراسة مثل هذه الأمور.

وهناك مزاعم مماثلة كثيرة فيما يُنشر، وغالبًا ما تُقدّم مصحوبةً بكثير من الانفعال والسخط. ويبدو أنها تستند إلى اعتقاد كنتُ عبّرت عنه بالفعل، وهو أنه ينبغي على الناس أن يقولوا الحقيقة. وينبغي عليهم، على الأخص، ألا يزعموا أنهم يمتلكون معرفةً دقيقةً خاصةً عن بعض نواحي الاهتمامات البشرية إلا إن كان ما يزعمونه صحيحًا؛ وأنه يجب عليهم ألا يكتبوا تلك المعرفة الخاصة، وهو أمر قلما يكون صعبًا. أما الادعاءات المتفخخة في مثل هذه الأمور فلا تعدو أن تكون وسيلةً للتخويف والتهميش، وهي تُعزّز "عدم المساواة في القوة والمكانة". يضاف إلى ذلك أن توضيح حدود الفهم بصورة جلية مسؤولةً جادة في ثقافةٍ كثيرًا ما يعطى فيها للخبراء الأذعياء مكانةً لا يستحقونها. فإذا استطاع البحث في جوانب الاهتمامات البشرية الأساسية أن يستفيد من الاكتشافات الحقيقية عن اللغة والإبصار أو غير ذلك، فذاك أمر جيد وحسن، لكنه أمر يجب أن يبيّن، لا أن يُزعم. وللسمانيات الاجتماعية بحثٌ مشروع تمامًا، لكنها بحثٌ خارجيٌ بالتعريف. وهي تستفيد من نتائج البحث للداخل عن بنى البشر، لكنها ليست بديلًا عنه كما يبدو، على حد ما أعلم. أما مدى كشف نتائجها لقضايا القوة والمكانة فسؤال آخر.

ولإيراد مثال آخر، فقد أوّل بتنام تعليقيّ (وهي بدائه، في الواقع) عن "اللغة العامة المشتركة" كأنها تعني أنه "إن لم نستطع تعريف الثقافات في ضوء فكرة "الجوهريّة" *essentialistically*، فيجب أن "نفض أيدينا منها ونعود إلى العمل الجاد الذي يتمثل في النمجة الحاسوبية" (Putnam 1992: 385) — ويبدو أنه يعنى للبحث العلمي الطبيعي في الملكة اللغوية التي ربما تسهم النمجة الحاسوبية فيها بشيء، وهو أمر لم أوله يومًا اهتمامًا خاصًا. لكن لا يمكن التغلب على المشكلات التي يواجهها الاعتماد غير النقدي على هذه الفكرة باللجوء إلى "الثقافة" أو "المصطنعات الثقافية"؛ كما أن معرفة الحقائق البسيطة عن اللغة الصينية واللغة الإنجليزية، وغيرهما — وعن عدم

صلة الثقافة بالأمور التي نناقشها هنا — لا توحى أبدًا بالنتيجة التي يستنتجها. ذلك أن الثقافات تخترق بطرق عدّة أي شيء يمكن أن يُطلق عليه "لغات"، كما تترك "الدراسات الثقافية" هذه المشكلات من غير حل.

ودعوى بتنام أن "اللغات والمعاني حقائق ثقافية" (ص ٣٨٥) صحيحة بمعنى واحد، وهذا ما يجعلني (كالأخرين جميعاً) أصف كيف يفهم هذان للمصطلحان في الثقافات التي نتشارك فيها تقريباً في ضوء بنى القوة والسلطة، وأنماط المرجعية، والآثار الأدبية، والأعلام والتواريخ (الأسطورية غالباً)، إلخ. فتستعمل مصطلحات كـ "لغة" بطرق مختلفة في جماعات لغوية أخرى؛ كما لا توجد لبعض المصطلحات التي نستعملها مثل "اعتقاد" belief و"معنى" meaning، إلخ، نظائر غالباً في بعض الجماعات اللغوية الأخرى. لكن هذه "الحقائق الثقافية" لا تسهم في فهم كيفية اكتساب اللغة، وفهمها، واستخدامها، وكيف تتكوّن وتتغير عبر الزمن، وكيف تتصل بالملكات الأخرى للذهن والفعل البشري عموماً. ولا تستفيد الدراسة الاختيارية للغة نفسها، ولا ما يسميه بتنام بـ "الدراسات الثقافية" (كالتاريخ والأناسة وعلم الاجتماع وبعض فروع الفلسفة) حين تتناول بصورة جادة، من مفهوم "اللغة المشتركة العامة" في الاستخدام العادي، بغض النظر عن بعض التعليقات غير المتخصصة؛ وربما تكلم المتخصص في الأناسة، في سياقات متنوعة، عن الثقافة الصينية، أو الثقافة الصينية — اليابانية، أو الفضاء الثقافي لمنطقة شرق آسيا، أو عن ثقافة العلماء الذين يتكلمون لغات مختلفة تماماً، أو ثقافة سكان الأحياء الفقيرة في نيويورك والقاهرة وريو، وغير ذلك بطرق عديدة معقدة ليس لها علاقة مهمة باللغات المتكلمة، أو ما يسمى "لغات" في الاستخدام العادي أو في ثقافتنا العالمية والثقافات الأخرى.

وهذه اللغات "مصطنعات ثقافية" غالباً، بمعنى أكثر تحديداً: فهي لغات نمونجية مصطنعة جزئياً وربما لا يتحدثها إلا عدد قليل من المتكلمين، ويمكن أن تخالف مبادئ اللغة كذلك. وتحدّد مصطلحات كـ "المعايير"

و"الاستخدام الصحيح" في ثقافات عديدة، في ضوء مثل هذه الظواهر، وهي أمور ليس لها كثير من الأهمية في "الدراسات الثقافية"، وإن لم يكن لذلك من سبب إلا أنها واضحة جدًا. وهو ما يجعلها لا تهتم بدراسة جهود المجمع اللغوي الفرنسي إلا قليلاً، مثلاً.

ونحن نقول، في الدراسات الثقافية، كما في الاستخدام العادي، وبشكل مفهوم جدًا، إن جون يتكلم اللغة نفسها التي يتكلمها بيل، وهو يشبهه، ويسكن قريباً منه. لكن هذا لا يحددنا فنعتقد أن العالم مقسم إلى مناطق موضوعية أو أماكن، أو أن هناك شكلاً يشترك فيه جون وبيل؛ أو لغة عامة يشتركان فيها. ولا تتمثل المشكلة في النسيج المفتوح أو غياب "الحدود للصارمة"، كما نعتقد بتنام، بأكثر مما يكون في حالة "منطقة" أو "فترة". والواقع أن اللغات النموذجية تُحدد تحديداً صارماً جدًا (كما يفعل المجمع اللغوي الفرنسي، مثلاً). كما تُحدد حدود "اللغة"، في الاستخدامات الأخرى كذلك، تحديداً صارماً إلى حد بعيد، بقدر ما تكون عليه هذه الأشياء، بوسائل كالألوان على الخرائط وما أشبه ذلك، لكن الاستخدام العادي لا يقم أي مفهوم لـ "اللغة العامة المشتركة" يمكن أن يقارب التوافق مع متطلبات البحث الاختباري أو التأمل الفلسفي الجاد عن اللغة واستخدامها، ولم يقترح أي مفهوم أكثر كفاءة. كما لا توجد فجوة تفسيرية يمكن أن تملأ باختراع مثل هذه الفكرة، على حد ما نعلم.

والنقطة الرئيسية في مقال [تشومسكي] الذي كان بتنام يعلق عليه أن "عدداً كبيراً من الأسئلة، ومنها الأسئلة التي ربما يُنظر إليها على أنها مهمة جداً للبشر، لا تقع ضمن البحث العلمي الطبيعي؛ لذلك نقاربها بطرق أخرى" (انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب). وليس هناك ما يلزم إفي مقال تشومسكي للمشار إليه؛ أو في أي مكان آخر لمن أبحاث تشومسكي، بوجود قصر اهتمامنا على "العمل الجاد في النمذجة للحاسوبية"، لكنه يجب علينا أن نقصر أنفسنا على "العمل الجاد" فقط، مهما كان المجال.

والسؤال الآن: هل هناك مشكلة في المقاربات للداخلية (أو الفردية) للمجالات الأخرى التي يهتم بها علم النفس؟ وهذا ما يدعيه كثير من الباحثين، لكنه ادعاء يقوم على أسباب مشكوك فيها، كما أظن. لنأخذ دراسة السمع، مثلاً. فأخذ الأسئلة المزمّنة السؤال عن الكيفية التي تحدّد بها القشرة السمعية المكان الذي ينطلق منه صوت ما. فلا يبدو أن هناك "خارطة سمعية"، شبيهة بخارطة الإبصار وخارطة الإحساس الجسدي somatosensory. وتوحى دراسة أنجزت مؤخراً أن القشرة السمعية تدرك مكان الصوت لا بالتنظيم المكاني للعصبونات، بل بنمط متزامن من إطلاق [الإشارات] بشكل يشبه "شفرة مورس" (Barinaga 1994). ويصاغ النقاش عن هذا الأمر بالمزيج المعهود من الخطاب التقني والعادي. ومن هنا ربما يضلّ من يقرأ هذا النقاش فيظن أن نظرية الإدراك الصوتي نظرية خارجية، لأنها تشير بشكل جوهري إلى "حل مشكلات" يثيرها عالم الأصوات الخارجي. لكن هذا لا يدعو أن يكون سرايا. ذلك أن النظام السمعي "لا يحل مشكلات" بأي معنى تقني لهذا المصطلح، كما يمكن للباحثين، إن عرفوا كيف يقومون بذلك، أن يختاروا حثّ المستقبلات receptors بشكل مباشر بدلاً من استخدام مكبرات الصوت - بصورة لا تبعد كثيراً عما فعلوه في نموذج الحاسوب الذي وفرّ الدليل الرئيس، حقيقة، لنظريتهم الخاصة بتحديد موضع الصوت، وهي التي ستعمل بشكل جيد عن دماغ في إناء [أي عن دماغ في مختبر منزوع من صاحبه]، كما تعمل عن بومة تكير رأسها نحو فأر في أجمة.

وتنطبق الاعتبارات نفسها على دراسة الإدراك الإبصاري في ضوء الطرق التي رادها ديفيد مار (David Marr 1982)، وهي التي تناقش بكثافة في هذا المجال. فيهتم هذا البحث بشكل يكاد يكون خالصاً بالعمليات التي تنفذها الشبكية أو، بشكل تقريبي، بتحويل خيالات الشبكية إلى القشرة الإبصارية. وتتصل المستويات الثلاثة المشهورة للتحليل التي اقترحتها مار - أي المستوى الحوسبي والمستوى الخوارزمي والمستوى التنفيذي - بالطرق

التي تفهم بها هذه التحويلات. ومرة أخرى، تطبق النظرية على دماغ في إناء بالكيفية نفسها التي تنطبق بها على شخص يرى شيئاً في حالة حركة. وقد نُرست الحالة الأخيرة بالفعل، في أبحاث شيمون أولمان، الباحث المشارك لمار (Shimon Ullman 1979). وتستخدم دراساته لتحديد البنية من خلال الحركة الأمثلة التي تُقدّم باستعمال التاكيسكوب tachistoscop التي تجعل المجرب عليه يرى مكعباً يتأرجح، مع أنه لا يوجد شيء كهذا في بيئة التجربة؛ ويُستعمل الفعل "يرى" هنا بمعناه المألوف، لا بكونه فعلاً إنجازياً. ولو كان بمقدور أولمان حثّ الشبكية مباشرة لكان قد فعل، أو لكان قد حثّ العصب البصري، ويقول أولمان إن هذه الدراسة "تهتم بطبيعة التمثيلات الداخلية التي يستعملها النظام الإبصاري وبالعمليات التي تُشَقُّ بها". وهذا تفسيرٌ داخلي خالص. فليس هناك سؤال ذو معنى عن "مضمون" التمثيلات الداخلية عند شخص يرى مكعباً تحت ظروف التجارب، أو عن إن كانت الشبكية تحثّ بمكعب متأرجح، أو بصورة متحركة لمكعب يتأرجح؛ أو عن مضمون تمثيلٍ ضفدع لـ "ذبابة" أو لنقطة تتحرك في الدراسات النموذجية لإبصار الضفادع، فليس هناك فكرة شبيهة بـ "مضمون" أو "تمثيل لـ" في النظرية، لذلك لا يُتوقع أن توجد إجابات عن طبيعتهما. والشيء نفسه صحيح حين يقول مار إنه يدرس الإبصار بوصفه "عملية تحويل من تمثيل إلى تمثيل آخر، وأنه لا شك في وجود التمثيل الأول في حالة الإبصار البشري - فهو يتألف من حزمة من قيم كثافة الخيال كما تنتبّعها المستقبلات التصويرية في الشبكية" (Marr 1982: 31) - حيث ينبغي ألا يفهم "التمثيل" بصورة علانقية، على أنه "تمثيل لـ".

وتتحدث الأبحاث التقنية عن "إخفاق" الخوارزميات في بعض الظروف، وعن إعطائها "الإجابة الصحيحة" في ظروف أخرى - حيث يمكن أن تكون "الإجابة الصحيحة"، مثلاً، المدرك القوي ثلاثي الأبعاد الذي تعطيه صورة مجسّمة لنقطة اعتباطية. وربما تتحدث كذلك عن "خطأ الإدراك" في حالة الشخص أو الضفدع في أثناء إجراء التجارب، مع أنها

ربما لا نتحدث بهذه الكيفية حين يُفعل مُدرك مصوّر في إشارة مرور بكشاف بدلاً من الشمس. كما نتحدث عن الدماغ بصفته "يحل مشكلات" وبصفته "منكئفاً مع الأوضاع العادية" حيث "يمثل" النظامُ الإبصارى فيها السمات الموضوعية للعالم الخارجى. وتتوافق هذه الاستخدامات [اللغوية] غير المتخصصة مع النقطة التى بدأ بها تايلور بيرج، وهى: "أن الافتراض القائل بأن تجربتنا الإدراكية تمثل الأشياء أو أنها عنها أو عن الخصائص، أو العلاقات التى تتصف بأنها 'موضوعية'" (Burge 1986c: 125) لافتراضٍ عن حديرٍ يظنّه رائدٌ "نصاء يعول" إنّ مذنباً يصوباً بصوِّرةً مياسترةً تحنو الأرض، موحياً بأن المذنب يتصرف فى ضوء فيزياء قصدية حية.

وتتحدث الدراسة الداخلية للغة كذلك عن "تمثيلات" من مختلف الأنواع، ومنها التمثيلات الصوتية والدالية عند "المستويات الوجيهية" مع الأنظمة الأخرى. لكننا لا نحتاج هنا كذلك إلى الانشغال بالتفكير عن ما الذى يُمثل، ساعين إلى أن نكتشف تركيبات موضوعية من الأصوات أو الأشياء؛ فالتمثيلات وحدت ذهنية مفترضة، وينبغى أن نفهم بالطريقة التى نفهم بها صورة ذهنية لمكعب يتأرجح، سواء أكان نتيجة لتمثيلات تاكيسوتوسكوبية أو كان تمثيلاً لمكعب متأرجح حقيقى، أو نتيجة لحتّ الشبكية بطرق معينة أخرى؛ أو ربما تمثيلات متخيِّلة كذلك. وتدخل التمثيلات الداخلية للغة، حين تتفد أنظمة الأداء إليها، فى التأويل والفكر والفعل، لكن ليس هناك سبب يوجب السعى لاكتشاف أية علاقة أخرى لها بالعالم، كما يوحى بذلك أحدُ التقاليد الفلسفية المشهورة، وبعضُ القياسات غير الملائمة على الاستخدام اللغوى غير المتخصص. ولا يثير خطأ الإدراك صعوبات لهذه المقاربة؛ فهو يتعلق بالكيفية التى يحدّد الناسُ بها بعضُ التأويلات للتفاعلات التى يلاحظون - أى إلى رنود فعلٍ ضفدعٍ أو شخصٍ فى أثناء تجربة، أو مدركٍ تصويرى "مخدوع"، إلخ، وهذا موضوع مشروع للبحث الداخلى فى نفسية الشخص

الذي يقرّر ماذا يمكن أن يسمى "خطأ الإدراك".

ولا يبدو أن لهذه النقاشات صلة كبيرة بعلم النفس والعلم الإثنى. افرض أن جونز عضو في جماعة عادية ما، وأن "ج" لا يمكن تمييزه عنه إلا بأن تجربته كلها مشتقة من تصميم تخيلى ما للحقيقة؛ أو افرض أن "ج" نوع لجونز في عالم نوع الأرض، وهما متماثلان من حيث التجربة التى مرا بها وسيتصرفان بطريقة واحدة (إن كان التنبؤ بالسلوك ممكنا ابتداءً)؛ ويتماثلان في الحالة الداخلية. ثم افرض أن "ج" حلّ مكان جونز في الجماعة تلك، وهو أمر لا يعرفه إلا العالم الملاحظ. ولأن أعضاء الجماعة ليسوا واعين بأى تغيير فسيتصرفون جميعًا بالطريقة التى كانوا يتصرفون بها فى السابق، فسيعاملون "ج" على أنه جونز؛ وسيستمر "ج" على الحال التى كان عليها. وسيصوغ للعالم الذى يسعى إلى اقتراح أفضل نظرية لكل هذا تفسيراً فردياً ضيقاً لجونز، و"ج"، وأفراد الجماعة الآخرين. ولا يستبعد هذا التفسير شيئاً، ومن تلك الطريقة التى يعزو بها أفراد الجماعة الحالات الذهنية (أى: الاعتقادات والمعانى والمضامين الإدراكية، إلخ)، إن كانوا يفعلون ذلك.

هب أن أحد أفراد هذه الجماعة فيلسوف يملك حدوسًا تماثل حدوس القائلين بالمقاربة الخارجية فى النقاش الذى أوردناه آنفاً. وستعزو النظرية للفيلسوف [فى هذه الحالة] الحالة الداخلية التى تماثل هذه الحدوس. وستتنبأ الآن بصورة صحيحة أن الفيلسوف سيعزو إلى "ج"، حين يأخذ "ج" على أنه جونز، الحالات الذهنية التى عزاها إلى جونز من قبل؛ وإذا كان واعياً بالتبادل بين "ج" وجونز حين حدث، فسيعزو حالات ذهنية مختلفة لـ"ج". ولأنى لا أشرك هذا الفيلسوف حدومته فلا أعرف الكيفية التى ربما يعزو بها الحالات الذهنية حين يعيش "ج" فى هذه الجماعة، أى فى عالم من الأشياء "الموضوعية" (فهل صار "ج" يشارك جونز فى اعتقاداته؟). ومهما كانت الإجابة فستتصف للنظرية حالات الفيلسوف الداخلية بناء على ذلك، وإذا كنت من أفراد هذه الجماعة كذلك فستعزو النظرية إلى حالة داخلية مختلفة، لا

تتضمن إجابات نهائية عن عزو الاعتقادات والمعاني إلى "ج" (ولا تحوى شيئاً مهماً عن المضامين، سواء كانت إدراكية أم لا؛ لأننى أخذ الابتكارات التقنية على أنها تعنى ما يقول مبتكروها إنها تعنيه)، وتعطى أحكاماً مختلفة تبعاً لتنوع الظروف.

ويتعامل هذا التعليل مع جونز، و"ج"، وأفراد الجماعة الآخرين، وأناس آخرين يمتلكون حدوساً متنوعة عن عزو الحالات الذهنية؛ وهو غير كامل لأن هذه الحدوس غير معروفة الآن، أما فيما عدا ذلك، فلا يبدو أن شيئاً مفقوداً منه، ويمكن توسيعه ليشمل الاستخدامات [اللغوية] فى اللغات والثقافات الأخرى، تبعاً لاختلافها. ويمكن تحويله ببساطة إلى نظرية غير فردية، وهى نظرية أكثر صعوبة ولا تسهم بفهم جديد. ولن تكون تلك الخطوة ملائمة للبحث العلمى الطبيعى، وليس من الواضح الهدف الآخر الذى يمكن أن يكون لها.

وينبغى أن يفهم الكلام عن كون الأعضاء أو العضويات "تحلُ مشكلات"، أو كونها متكيفةً للوظائف التى تقوم بها، بالكيفية نفسها: أى أنه استعارة يقصد بها الاختصار؛ فليس هناك سؤال عن إن كانت أجنحة الفراشة صممت لـ "حل مشكلة" الطيران أم لا؛ فقد تطورت على أنها منظّمات للحرارة، وما تزال تُخدم هذا الغرض. ولو حدث أن اكتشفنا أنها وصلت إلى حالتها الحاضرة قبل أن تُستخدم للطيران، فستظل لها الآن وظيفة الطيران وستُستخدم لذلك الغرض كذلك، وقد تكيف نظام الإبصار عند البشر بصورة ضعيفة للرؤية فى الظلام، لكنه لا يمثّل إخفاقاً، بسبب ذلك. والسلسلة الفكرية عند الفقريات الضخمة مصممة بشكل هندسى سيئ، ويعرف أكثر الناس هذا من تجاربهم الخاصة؛ لكن هذا لا يمثّل نجاحاً أو إخفاقاً. ولا تصلح اللغات البشرية للاستخدام جزئياً، لكن هذا لا يجعلها سيئة جداً؛ ذلك أن الناس يستعملون الأجزاء القابلة للاستخدام منها. وقد اكتُشف حديثاً جداً أنه فى حين أن الحشرات تبدو متكيفة بشكل أخاذ مع أنواع محددة من النباتات المزهرة،

وقد أنجزت تتوُّعها الحاضر وبنيتها بشكل يكاد يكون كلياً قبل ملايين السنين من وجود النباتات المزهرة. ويلاحظ ريتشارد ليونتين أنه حين ظهرت الحشرات كان هناك عدد ضخم متنوع من الحلول تنتظر ظهور المشكلات لتحلها" وكان ذلك في سياق تأكيده أن هذه المقولات الحدسية لا معنى لها في علم الأحياء (Richard Lewontin 1990). فمن القراءة الخاطئة للنقاش غير المتخصص، إذن، أن يُستنتج أن نظرية مار عن الإبصار تعزو حالات قصدية تمثل خصائص موضوعية فيزيائية لأنه ليس هناك طريق آخر للنظر إلى النظام الإبصاري كأنه يحل المشكلة التي ترى للنظرية أنه يحلها" (Burge 1986a: 28-29). أما النظرية نفسها فلا تعين مكاناً للتصورات التي تدخل في التقديم غير المتخصص informal presentation، الذي يقصد به أن يكون دافعاً عاماً. أما قول "إن الفكرة التي ترى أننا نصنف ظواهرية الإدراك لدينا من غير أن نحدد الخصائص الموضوعية التي توجبها بعيدة جداً عن النظريات الاختبارية الفعلية للإدراك وعن البديهية كذلك" (ص 38) فصحيح عن البديهية في بعض الظروف، لكنه مضلل فيما يخص النظريات الاختبارية عن الإدراك، التي تهتم بالكيفية التي تعمل بها الأشياء ولا تهتم بالتقارير الإدراكية والتصنيفات الحدسية إلا بوصفها دليلاً له صلة بهذا الأمر وحسب⁽¹⁾. (انظر أيضاً Burge 1986a; Labandeira and Sepkoski 1993).

ويأخذ عالم الأحياء في الحسبان بشكل طبيعي، في دراسته لأي نظام عضوي، التفاعلات البيئية والقانون الفيزيائي الذي ربما أثر في الطفرات، ونجاح التكاثر، ومسار التطور. أما فيما يخص الدافعية والتوجيه الحدسي فربما يتكلم عالم الأحياء عن الأنظمة بوصفها تطورت لحل بعض المشكلات المعينة التي فرضتها البيئة عليها، حيث تُحدث الأنواع [الأحيائية] المختلفة مشكلات مختلفة وتحلها بأشكال مختلفة" (Burge 1986a: 28). لكن هذا حديث عام غير متخصص، ولو اكتشف أن مسار العملية التطورية لم يكن على الصورة التي يُظن أنه عليها، كما في حال الحشرات والأزهار، فلا يترتب

على هذا تعديل للنظرية الفعلية للتحليل الإحساسى والأنظمة الأخرى، بما يصحب ذلك من أنواع مختلفة من العزو والتفريد، وبعض الأوصاف المعتلة للمضمون القصدى، والأخطاء، والوظائف، والأهداف، والمشكلات التى حلت، إلخ. افترض، بالمثل، أنه اكتشف أن أسلافنا صُمموا فى معمل خارج الأرض ثم أرسلوا إليها بمركبة فضائية قبل ثلاثين ألف سنة، وهو ما يعنى أنه لم يكن لمبدأ الانتقاء الطبيعى دور فى تكوين الكلية، أو النظام الإبصارى، أو القدرة الحسائية، أو أى شىء آخر. ولن ينتج عن هذا تعديل للأقسام التقنية الخاصة بالكلية فى كتب المقدمات العامة لعلم وظائف الأعضاء، ولن تعدل كذلك النظرية الفعلية للوظائف التى تحوسبها الشبكية أو للمظاهر الأخرى للنظام الإبصارى عند البشر أو الأنظمة الأخرى.

ولا يكتسب نقد المقاربة الداخلية (الفردية) مزيداً من القوة من الملاحظة التى مفادها أن العمليات الداخلية، فى البيئات العادية، ترتبط بصورة نقيضة بالخصائص الحديثة (كحدود الأشياء، إلخ). ذاك أن هذه العمليات ترتبط فى بيئات أخرى بخصائص مختلفة، وربما تكون هذه خصائص حديثة أو حثاً مباشراً للشبكية (أو حثاً داخلياً أكثر عمقاً لها). ويمكننا أن نقول، إن أحببنا، إنه "إذا لم ترض القيود التى تمكن فى العادة عضوية معينة من حوسبة وظيفية إدراكية ما، فستخفق [العضوية] فى تمثيل بيئتها" (Egan ، د.ت)؛ لكن ذلك "الإخفاق" هو الوسيلة التى نستخدمها لوصف بعض الغايات البشرية التى نفرضها لأسباب لا علاقة لها بالبحث العلمى الطبيعى، وهو ما يشبه حالة إخفاق مذنب فى الاصطدام بكوكب المشتري، كما كنا نأمل. وليس مهماً أن تسمح لنا اعتبارات "التمثيل" فى البيئات العادية بالربط بين النظام الذى نعمل بتحليله ووظيفة الإبصار الإدراكية التى وُصفت بطريقة غير متخصصة. فليس من أهداف العلم أن يتوافق مع المقولات الحدسية، أو أن تقرّر إن كان ما يزال "بصراً" فى بيئات غير عادية، أو إن كانت بعض أجزاء الدماغ التى تستخدم عادة لأغراض

أخرى تقوم بتحليل بعض الصور الإبصارية، كما تفعل ذلك أحياناً. وتبدأ دراسة الإدراك بصورة طبيعية ببعض "المهام الإدراكية" التي تقم بصورة غير متخصصة، لكنها لا تعنى إلا قليلاً بما إن كان شيء شبيه بهذه المهام يُكتشف في أثناء عملها.

ويستفيد نقاش العمليات التطورية غير المتخصصة من عبارات مثل "حل المشكلات"، لكن يجب ألا يؤخذ هذا، مرة أخرى، بشكل جاد جداً. تلك أن القانون الطبيعي يوفر قنوات ضيقة يمكن فيها أن تتنوع العضويات المعقدة، ولا شك أن مبدأ الانتقاء الطبيعي عامل من العوامل التي تحدد توزيع الصفات والخصائص داخل هذه القيود، لكنه "أحد" للعوامل، لا العامل [الوحيد]، إن اتبعنا، في الأقل، القيود المعقولة التي اقترحها داروين. فينفي داروين بشكل حاسم، لخوفه من الخطأ في تأويل أفكاره، أنه عزا "التعديلات التي تحدث للأصواع إلى مبدأ الانتقاء الطبيعي وحده"، حيث يؤكد في آخر طبعات كتابه "أصل الأنواع": "أني وضعت في الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وفي الطبعات اللاحقة، وفي أكثر المواضع وضوحاً — أي قريباً من نهاية المقدمة — الكلمات التالية: 'إني على يقين أن الانتقاء الطبيعي كان وما يزال الوسيلة الرئيسة للتعديل، لكنه لم يكن الوسيلة الوحيدة'. لكن أحداً لم يأبه بهذا. فما أعظم قوة استمرار الخطأ في تمثيل [الأفكار]". (كما أورد ذلك Gould 1982: 45). وأشار دارون بشكل لا لبس فيه إلى مدى واسع من الاحتمالات، ومنها تعديلات لم تكن نتيجة للتكيف ووظائف لم تتق ولم تحدثها البنية.

ولا يمكننا أن نقتر بشكل معقول الوزن الذي سيعطى للانتقاء الطبيعي بوصفه آلية للتطور في الوقت الذي يتزايد فيه ما نتعلمه عن الأنظمة المعقدة، والطريقة التي يعمل بها القانون الفيزيائي، والعوامل التي تعمل في التنظيم الذاتي في الأنظمة الحية والأنظمة الطبيعية الأخرى، إلخ (انظر Waldrop 1994; Bradley 1990).⁽¹⁾ ولا تؤثر مثل هذه الاعتبارات على المكانة التي

تتمتع بها المقاربات الداخلية، سواء كنا نفكر في النمل أو الكلبة أو اللغة والذهن.

ويدخل في أي مظهر من مظاهر دراسة اللغة والذهن تقريبًا افتراضات غير مسوّغة لا تنتمي إلى البحث العلمي الطبيعي، كما يبدو. (للاطلاع على نقاش مفصّل، انظر الفصل الرابع). وإذا كان هذا للنقاش على جادة الصواب، فربما نرغب في أن نسأل عن السبب الذي يجعل مثل تلك الأفكار تبدو مقنعة جدًا. وربما تكمن الإجابة عن ذلك في أن الصورة البديهية التي لدينا عن العالم ثنائية بشكل عميق، لا يمكن نقضه، وتُشبه تمامًا عدم قدرتنا على ألا نرى غروب الشمس، أو مشاركة نيوتن في اعتقاده بـ "الفلسفة الآلية" التي زعزعها هو نفسه، أو النظر إلى الموجة التي تهرب من المكان الذي خلقت فيه"، بعبارة ليوناردو، باستقلال عما يمكن أن نعرفه في زلوية أخرى من زوليا عقولنا. وإذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت للثنائية الغيبية قد زُعزعت، فلم يبق إلا نوع من الثنائية المنهجية، وهي بقية غير مشروعة من البديهية، يجب ألا يُسمح لها بتنغيص الجهود التي تتغيا فهم النوع الذي ننتمي إليه من المخلوقات.

هوامش الفصل السادس

- (١) وليس واضحًا تمامًا إن كان بتنام وديفيدسون يختلفان؛ ذلك أن بتنام لا يبين ما يقصده بـ "لغة" أما ديفيدسون فيفصل فكرة مصوغة على نموذج اللغة الصورية وهي تختلف بالتأكيد عن فكرة بتنام؛ ويبدو كأن النتيجة التي انتهى إليها ديفيدسون تتفى أى شيء مقصود، وربما تتفى اللسانيات الداخلية أيضًا إلا إن فهمنا مصطلح "الناس" على أنه يشمل ملكاتهم، وحالاتهم، إلخ.
- (٢) يصف بيرج هنا ما يأخذه على أنه "علم النفس كما هو"، لكن السياق يوحي أنه يعنى أكثر من ذلك. انظر عن هذه الفرضية ما يأتي في هذا الفصل.
- (٣) التداعى priming . يفترض أن التصورات التي تكون على علاقة بعضها ببعض تترايط في شبكة عقلية ما. لذلك، فإذا أثير تصور ما فإن التصورات المربوطة به تتار كذلك (المترجم).
- (٤) وتكمن هذه البواعث وراء بحث بتنام للمهم (١٩٧٥)، كما يكرر ذلك في بحثه الآخر (١٩٩٢).
- (٥) وقد حذف من قوله هذا هامشا. ويبدو الحكم المتعلق بفراغ الفكر قويًا جدًا، لكن دعنا نتجاهل هذه المسألة.
- (٦) وهذا مصطلح مشكوك فيه؛ إذ يبدو أن بتنام قد تخلى عن المتطلب الضمني الذي مفاده أن "الخبراء" الذين نحتكم إلى آرائهم يتحدثون اللغة التي نتكلمها؛ لذلك يختفى المظهر الاجتماعي، وهو ما يعيدنا إلى اعتبارات "الجوهر نفسه".
- (٧) ومما ليس له صلة هنا، أن هذا ربما يوجب لزوم إدخال الفكرة التقنية لـ 'الإحالة' في دراسة تركيب التمثيلات الذهنية، بصورة لا تبعد كثيرًا عن إدخال العلاقات التي تقوم بين السمات الصوتية في الصوالة.

(٨) ولا يترتب على هذا أن التشابه في المعنى عندنا إنما يعني، إن عني شيئاً، أننا نتواصل بنجاح" (كما يقول كوين، نقلاً عن دريبان Dreban 305: 1992). وبالمثل، فلا يعني التشابه في الصوت أننا نتواصل بنجاح. ذلك أن هناك، في الحالتين كليهما، الكثير مما يمكن أن يقال عن ماهية "التشابه" في ضوء الخصائص المشتركة للغة والذهن، حين نتخلى عن قيود كوين السلوكية المضادة للمقاربة الداخلية.

(٩) وينبغي أن تميّز هذه الملحوظات، المألوفة في دراسة اللغة، عن النتيجة التي انتهى إليها ديفيدسون وهي أنه ليس هناك شيء يمكن أن يؤخذ على أنه لغة بالمعنى الذي يفترضه "الفلاسفة واللسانيون" عموماً، وليس هناك شيء لتعلمه، أو نجده، أو تولّده" (Davidson 1986b: 446). ومع هذا فلدی ديفيدسون فكرة مختلفة جداً للغة؛ ومع أنه محق، بالتأكيد، في ظنه أنه ليس هناك شيء مثل هذا، إلا أن حجته التي يعزز بها تلك النتيجة أو يعزز بها أفكاره عن الدراسة الاختبارية للغة ليست قوية. فهو محق في ملاحظته أن للتأملات كلها تستعمل، في أثناء التواصل الفعلي، في النظرية العابرة، وهي خصيصة نفسية محددة. لكن لا يترتب على هذا أنه لا فائدة لـ "تصور لغة ما" لـ "آلة تأويلية" محمولة مصممة لاعتصار المعنى الموجود في قول اعتباري، إلخ (Davidson 1986b: 445). وربما كان هذا شبيهاً بالاحتجاج على عدم وجود تيار نفاث، نتيجة للعناصر الفوضوية في أنماط الطقس. للاطلاع على بعض التعليقات، انظر الفصل الثاني في هذا الكتاب.

(١٠) والنقاش الذي تتضمنه الأبحاث عن "ما عناه مار" غريب شيئاً ما؛ ذلك أن المهم هو ما يعمله العالم، لا ما يمكن أن يكون في ذهنه. للاطلاع على ما يبدو لي أنه تفسير كافٍ للنظرية الفعلية لمار، انظر Egan (د. ت.).

(١١) والاقتراحات التي أوردها برانلي (Bradley 1994) ما زالت مهتدة، لكن المشكلة ظلت في تفسير عدم التناظر البين بين "الوفرة الجزئية" للأحماض الأمينية و "د.ن.أ" عبر موضع الأعضاء وصفاتها.

الفصل السابع البحث الداخلي

تَدلُّهُمُ السَّمَاءُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَكْتَبَ فِيهِ الْآنَ، وَيُحَدِّثُ الْمُنْبِإِغَ مِنْ اقْتِرَابِ عَاصِفَةٍ نَحْوِ [مَدِينَةٍ] بَوسَطِنَ، وَيُتَوَقَّعُ أَنْ تَصْحَبَهَا أَمْطَارٌ غَزِيرَةٌ وَرِيَّاحٌ قَوِيَّةٌ سَتُؤَدِي إِلَى فَيْضَانِ الْأَنْهَارِ وَالْمَنَاطِقِ السَّاحِلِيَّةِ، وَإِلَى أَضْرَارِ الْأَشْجَارِ وَالْبَيْوتِ، وَانْقِطَاعِ الْكَهْرِبَاءِ. وَيَتَحَقَّقُ الْخَيْرُ السَّابِقُ، وَنَسْمُهُ "خ" (وَلِنْتَظَاهِرِ بِأَنَّهُ قِيلَ)، فِي وَسِيطِ خَارِجِي وَيَفْهَمُهُ الْمَتَحَدِّثُ وَالْمَسَامِعُ بِطَرِيقٍ مُتَعَدِّدَةٍ. وَنَحْنُ نَقُولُ، بِشَكْلِ عَامٍ، إِنَّ لِهَذَا الْقَوْلِ صَوْتًا وَمَعْنَى. وَيَتَّصِلُ "خ" كَذَلِكَ بِالْحَالَاتِ الدَّخْلِيَّةِ لِلْمَتَحَدِّثِ وَالْمَسَامِعِينَ، وَهِيَ الَّتِي تَدْخُلُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي يُؤَوَّلُ بِهَا. وَيَعْتَمِدُ التَّوَالُصُ عَلَى التَّشَابُهِ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَاتِ. وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقُ الَّتِي تَتَعَامَلُ بِهَا اللُّغَةُ مَعَ الْعَالَمِ.

وَقَدْ تُرْسِمَتْ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتُ لِآلَافِ السَّنِينَ مِنْ زَوَايَا نَظَرٍ كَثِيرَةٍ، وَهِيَ مَحَطُّ الْإِهْتِمَامِ فِي الْحَيَاةِ الْعَادِيَّةِ كَذَلِكَ، وَتَتَعَلَّقُ بِهَا مِمَارَسَاتُ تَقَافِيَّةٍ وَلُغَوِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَتَسْمَى هَذِهِ لِلْمِمَارَسَاتِ أحيانًا بِـ "الْبَدِيهَةِ" أَوْ "الْعِلْمِ الشَّعْبِيِّ". وَمِنْ الْجَلِيِّ أَنْ دَرَسَةَ هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتُ نَفْسَهَا لَيْسَتْ دَرَسَةً لِهَذِهِ الْمِمَارَسَاتِ. فَلَا تَتَقَيَّدُ عِلْمُ الْأَرْضِ بِالْأَفْكَارِ وَالتَّوَجُّهَاتِ الَّتِي يَعْبُرُ عَنْهَا فِي "خ"، وَالشَّيْءُ نَفْسَهُ صَحِيحٌ فِي "عِلْمِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ" عِنْدَ هَيُومِ، الَّذِي يَسْعَى إِلَى اكْتِشَافِ "الْمَنَابِعِ وَالْمَبَادِي السَّرِّيَّةِ الَّتِي تَحْفَظُ الذَّهْنَ الْبَشَرِيَّ فِي تَتْفِيذِهِ لِلْعَمَلِيَّاتِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا" (Hume 1748/1975: 14, Section 9).

وَمَعَ أَنَّ الْقَضَايَا وَاضِحَةٌ بِمَا يَكْفِي فِيهَا يَخْصُ عِلْمُ الْأَرْضِ، فَإِنَّهَا أَكْثَرَ التَّوَاءِ حِينَ نَوَجُّهُ النَّظَرَ إِلَى عِلْمِ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّذِي يَعْذُ مِنْ بَيْنِ إِهْتِمَامَاتِهِ الْبَحْثُ فِي الْبَدِيهَةِ (الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ نَسْمِيَهَا بِـ "الْعِلْمِ الْإِثْنِيِّ"). إِلَّا أَنَّ عِلْمَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ يَسِيرُ فِي مَسَارِهِ الْخَاصِّ بِهِ. وَرَبْمَا يَبْدَأُ الْبَحْثُ بِالْأَفْكَارِ

العادية لـ "اللغة"، و"الصوت" و"المعنى"، و"الريح"، و"النهر"، إلخ، لكن من غير أن نتوقع أن تكون قائداً موثقاً به وراء المستوى السطحي.

وأنا لؤول "علم الطبيعة البشرية" عند هيوم بأنه علم فردي وداخلي. وهو بعيد جداً عن الإحاطة بدراسة كيف يؤدي البشر وظائفهم في المجالين الاجتماعي والمادي. وتفترض الأبحاث الأكثر توسعاً، وإن ضمنيًا في الأقل، بعض الأفكار عن الحالات الداخلية التي تدخل في الفكر والفعل، وعادة ما تستعين بقدر ما يمكنها من الدراسة الداخلية لأنظمة الذهن/الدماغ، وينطلق التبادل في اتجاهات أخرى كذلك، كما هي الحال في دراسة العضويات الأخرى. وربما نجد أقرب المشابهات، في حالة اللغة البشرية، عند الحشرات (انظر Griffin 1994; Austad 1994). فستهتم دراسة بعض الخصائص كـ "الإحالة المزاحة" في تواصل النحل بالنظر في الطبيعة (الداخلية) للنحل، وتنظيماتها الاجتماعية، وبيئتها المادية، وهي أبحاث يعزز بعضها بعضاً.

وينبغي أن تحلّ التعارضات الظاهرية عن طريق اللوضوح بشأن المشروع المشتغل به. خذ، نقاش المضمون الواسع والمضمون الضيق، مثلاً، أو نقاش تحديد التمثيلات الذهنية، أو تفريد الفكر والاعتقاد. فنحن نسأل، إن كان البحث يقع في إطار العلم الإثنى، عن كيف يفكر الناس وكيف يتحدثون عن مثل هذه الأمور — مع إدراكنا أنه لا يمكن إثارة هذا السؤال مباشرة عن "المضمون" و"التمثيل الذهني"، اللذين يُستخدمان هنا بمعنىين تقنيين؛ وعن كون كلمتي thought "فكر" و belief "اعتقاد" كلمتين إنجليزييتين لا نظائرا قريبة لهما حتى في اللغات الشبيهة بالإنجليزية، بغض النظر عن أهمية هذا (لبعض التعليقات، انظر Rhum 1993)؛ وأنه يجب ألا تفهم التعليقات البيهية لما يفعله الناس على أنها شكل من التعليل النظري. ونجد أنفسنا هنا في مجال لما يكتشف تقريبا. أما في علم الطبيعة البشرية فتبرز أسئلة مختلفة. فنحن نتقصى الإطار النظري الذي تصاغ في داخله أفكار مثل "مضمون"، و"فكر" ثم نختبر كفايته الوصفية وقوته التفسيرية. وليس مفاجئاً ألا تكون الأفكار

البدئية مفيدة جدًا لنا [هنا]، وأن تبقى نتائجها ضئيلة.

لذلك ينبغي الحذر من إعطاء وزن كبير للكيفية التي يتوسل بها علم المعرفة بمعنى التمثيلات الذهنية" للتعبير عن تعميمات تتعلق بالعمليات المعرفية والفعل، و"الاستعانة بها في تفسير هذه التعميمات". وربما لا يكون التحول من "علم الدلالة اللسانية" إلى "علم الدلالة النفسية" انطلاقاً من أن "الأنواع الطبيعية النفسية" ربما تكون أكثر ملاءمة في تحقيق أهداف التفسير النفسى" (Lormand 1996: 52, 53) مهماً إلا بقدر المدى الذي يصل إليه التفسير النفسى. وهو يصل إلى مدى بعيد جداً في بعض المجالات (كما في حال الإدراك الإبصارى، مثلاً)، لكنه قلما يذهب بعيداً في دراسة السلوك.

ويُطلق مصطلح "علم المعرفة" cognitive science أحياناً على الدراسة الاختبارية للقدرات المعرفية (كالإبصار، واللغة، والتعليل، إلخ؛ وهى مكونات لعلم الطبيعة البشرية ربما لا تكون تخصصاً موحداً)؛ ويُطلق فى أحيان أخرى على التأمل فى طبيعة للذهن. وربما يكون معقولاً، بالمعنى الثانى، أن نقول إن "الابتكار المنهجى الرئيس لديكارت، أى منهج الحجة الغيبية، صار منهجاً غائباً، بل ربما المنهج الأغلب، فى علم المعرفة" (Brook 1994: 12)؛ لكن ليس بالمعنى الأول. وفى الحالتين كليهما فـ "القانون الأول لعدم وجود علم للمعرفة" عند جيرى فودر (Jerry Fodor) (1987: 107) ذو صلة، لكن لأسباب مختلفة.

كما تأتى التعميمات النفسية بأشكال متعددة. انظر، مثلاً، إلى الاكتشافات عن "ما الذى يعرفه الرضيع": فهم يعرفون ما يكفى ليميزوا اللغة الأم من لغة أخرى بعد أيام من ولادتهم؛ ويفرّدون الأشياء المادية فى ضوء مآلها المشترك وخصائص أخرى معقدة بعد شهور قليلة؛ وكثير غير ذلك (انظر Mehler and Dupoux 1994; Spelke 1990). ويُحاول علم الطبيعة البشرية تعليل هذه الإنجازات فى ضوء الحالات الداخلية، مميّزاً بين العوامل الداخلية والعوامل البيئية، صائغاً نظرية تفسيرية فى أى مستوى ملائم. وما

لدينا هنا برامجُ بحثٍ جوهريةٌ تعنى بكائن عضوي أحيائي محدّد، ولنسم هذه
الفصيلة من التعميمات بـ "التعميم النفسي ١".

انظر الآن إلى "التعميم النفسي ٢": فإذا رغب بيتر في "س"، وكان
يفكر بأن الحصول على "س" يُوجب عمل "ص"، وهو قادر ببساطة على أن
يقوم بـ "ص"، فسيقوم كالعادة بـ "ص". ويختلف "التعميم النفسي ٢" عن
"التعميم النفسي ١" بطرق عدّة. فهو يزعم بأنه يفسّر السلوك؛ أما تعميمات
"التعميم النفسي ١" فلا، ومن السهل اكتشاف المضمون الاختباري لـ "التعميم
النفسي ١"، بخلاف "التعميم النفسي ٢" الذي يصحّ عن أي كائن عضوي تختار
وصفه بمثل هذه الطرق. ويقوم "التعميم النفسي ٢"، بخلاف "التعميم النفسي ١"،
بالتأمل، لا بالبحث الاختباري، ولا يؤسّس لبرامج بحثية — إلا، ربما، البحث
في الاستخدام العادي للمصطلحات العقلانية وتصوراتها. ويدخل "التعميم
النفسي ١" تحت علم الطبيعة البشرية، أما "التعميم النفسي ٢" فدخوله فيه أقل
وضوحاً. كما أن فكرة أن "علم المعرفة" يحاول أن يعبر عن "التعميم
النفسي ٢" ويفسّره فكرةً غامضةً بالمثل، وهو ما ينطبق على الجهود التي
تحاول تأسيس هذه "القوانين القصديّة" على الآليات الحوسبية أو آليات أخرى
وتقصّي تحققاتها بها.

وتدخل دراسة "التعميم النفسي ١" ضمن فروع العلم الأخرى. وكما
أوصى الكيميائي البريطاني جوزيف بلاك في القرن الثامن عشر: "دعنا ننظر
إلى الإلتواء الكيميائي على أنه مبدأ أول، وهو الذي لا يمكننا تعليقه إلا بقدر
ما يستطيع نيوتن تحليل الجاذبية، ثم دعنا نوجّل تفسير قوانين الإلتواء إلى أن
نؤسّس رصيّدًا من المبادئ يماثل ما أسّسه عن قوانين الجاذبية" (كما أورد ذلك
Schofield 1970: 226). وقد أُجّل توحيد الكيمياء مع علم الفيزياء الأساسي
إلى القرن العشرين، في حين مضت الكيمياء في جهودها لتؤسّس رصيّدًا
غنيًا من المبادئ، ولم تُبنَ نجاحاتها على أي أساس اختزالي لكنها أنجزت
بدلاً من ذلك، بمعزل عن علم الفيزياء الوليد" (Thackray 1970: 279).

وربما يكون مسارٌ مماثلٌ معقولاً فيما يخص "التعميم النفسي"^(١). أما "التعميم النفسي"^(٢) فلا يوحى إلا بعدد محدود من الطرق للسير نحو تكوين رصيد من المبادئ، ومن ثمَّ إلى التوحيد في نهاية الأمر.

الواقعية الذهنية والواقعية الفيزيائية:

ولمَّا حَقَّقَت الكيمياء "رصيداً [كافياً] من المبادئ" صار من الممكن أن يوصف ما صاغته بـ "فيزيائي" physical (وإن لم يفعل ذلك بعض العلماء البارزين)؛ بل صار ذلك أكثر ملاءمة بعد أن تغيَّرت الفيزياء بما يكفي لتسمح بالتوحيد، متباعدةً بصورة أكثر جزئيةً عن الأفكار البديهية عما يكون "فيزيائياً" لكي "تحرر نفسها" من "الصور الحدسية" وتتخلى تماماً عن إمكان تمثيلها مادياً "visualizability"، بعبارة هاينز بيرج (كما أوردها Holton 1996). وتتنطبق هذه الدروس على المظاهر الذهنية للعالم، ويشمل ذلك التمثيلات الذهنية والعمليات التي ربما يفترضها علم الطبيعة البشرية.

وأثارت الثنائية الديكارتية بعض القضايا الجوهرية؛ فقد اقترح تصورٌ إلى "لفيزيائي" وقُدِّمت بعض الحجج على أن هذا التصور غير كامل. وقد اختفت تلك القضايا مع انهيار النزعة الآلية – وإن لم تندثر المشكلات التي كانت سبباً في إثارتها – ثم "عودنا أنفسنا على الفكرة التجريدية عن القوى، أو بدلاً من ذلك على فكرة تنقلب في غموضٍ مُلغزٍ بين التجريد والفهم الحسي"، كما يلخص فريدريك لانج، في دراسته العلمية الكلاسيكية، نقطة التحوُّل "هذه في تاريخ النزعة المادية، التي سلبت هذا المذهب قدراً كبيراً من الأهمية" (Friedrich Lange 1925: 308). وكان هيوم، قبل ذلك بقرن، أكثر تشاؤماً حين أبان أن إسحق نيوتن بتبينه "عدم كمال الفلسفة الآلية أعاد الأسرار القصوى للطبيعة إلى ذلك الغموض الذي ظلت تقبع فيه منذ الأزل وسوف تبقى فيه إلى الأبد" (Hume 1841 vol. 6: 341). وقادت الجهود التي سعت إلى مكابدة البحث في عنصر الغموض الذي يسمى "ذهنياً" بعض

الباحثين إلى استنتاج أن "التنظيم الذي صيغ به النظام العصبى نفسه هو الذى يُشغل، بصورة حرة فى حال الصحة، خصائص" الذهن كلها (La Mettrie، كما أورده 147: 1992 Wellman). لكن المشكلات التى أُرقت الديكارتيين لم تُناقش قط، ولم يُطور أى رصيد مهم من المبادئ. (للاطلاع على نقاش لهذه القضايا، انظر (1968); (1966) Chomsky والأبحاث التى نشرت بعد ذلك، ومنها (1995a) Chomsky؛ وانظر عن جهود نيوتن فيما يخص المسألة الأساسية (Dobbs and Jacob 1995).

وبغض النظر عن الإطار الدينى لاقتراح جون لوك القاضى بأن الله ربما اختار أن يُضيف إلى المادة قدرة على التفكير "مثلما الخلق الآثار بالحركة، وهى التى لا يمكن بحال أن نتصور الحركة قادرة على إنتاجها"، لم يُقترح، منذ نيوتن، بديل معقول لهذا الاقتراح (John Locke 1975: book IV, Chapter 3, Section 6, P. 541)، وكما فصل جوزيف بريستلى ذلك فيما بعد، مستخلصاً "النتيجة الواضحة للنقاش عن المادة المفكرة" (Yolton 1983: Chapter 1, VI, especially p. 113)، فإننا نأخذ تلك الخصائص "التي سميت ذهنية" على أنها ناتجة عن بُنية عضوية كبنية الدماغ. أُضيفت إلى خصائص أخرى، وربما لا يمكن لأى منها أن يكون مفهوماً بالمعنى الذى سعى إليه العلم المبكر. تلك فى حين أخذت النزعة المادية الأوروبية مساراً مختلفاً يحتل المركز فيه "الزعم، الذى أسس على قراءة معينة لفيزياء نيوتن، بأن الحركة كامنة فى المادة، وأن للطبيعة كلها حياة، وأن الروح والجسد شىء واحد، وكل شىء مادي، وأن تلك كله جميعاً ينتمى إلى هذا العالم" (M. Jacob 1991: 200; Chomsky 1995a).

وبالتخلى عن فكرة "الفيزيائى"، التى لم يُقترح بديل آخر عنها قط، لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من السؤال عن إن كانت المظاهر الذهنية للعالم، لو مظاهره الأخرى، يُمكن دمجها فى إطار التفسير الفيزيائى، كما يُتصور فى الوقت الحاضر، لأننا:

وانقون إلى حد بعيد أنه سيوجد تفسير فيزيائي لهذه الظواهر، إن كان من الممكن تفسيرها بحال، وذلك لسبب اصطلاحى غير مهم، وهو أن تصور "التفسير الفيزيائي" سيوسع، يقيناً، ليشمل أى شيء مما يُكتشف فى هذا المجال، بالطريقة نفسها تماماً التى استطاع بها ضمّ . . . عدد كبير من الوحدات والعمليات التى ربما كانت مضادةً للبدئية فى الأجيال المبكرة (Chomsky 1968: 98).

وتحاول دراسة اللغة تنميةً رصيدةً من المبادئ متطلعةً إلى التوحيد فى نهاية الأمر. ويمكن لنظرياتها ومبادئها أن تسمى "ذهنية" بشكل ملائم، وأن يُفترض أنها "تأتج عن بنية عضوية" — أما كيفية ذلك، فتتظّر الاكتشاف. وليس هناك ما يمكن أن يقال أكثر من هذا عن هذه المظاهر للطريقة التى تتعامل بها اللغة مع العالم^(٢).

الملكة اللغوية:

هناك ما يُسوّغ الاعتقاد بأن لدى البشر "عضواً" مخصوصاً مقصوراً على استخدام اللغة وتأويلها، لنسمه بـ "الملكة اللغوية". ويمكن أن نأخذ "الملكة اللغوية" على أنها مشتركة بين أفراد النوع، وتتخذ حالاتٍ تتنوع بطرق محدودة تبعاً لتنوع التجربة. وتسهم هذه الحالات، بتفاعلها مع أنظمة أخرى (معرفية، وإحساسية حركية)، فى تحديد صوت التعبيرات اللغوية ومعناها. وربما لا تستطيع دراسة هذه الموضوعات تفسير الأفكار البديهية عن الصوت والمعنى، والنمائل فى المعنى، والتكرار، إلخ؛ وليس من الواضح كذلك إن كان يمكن عدّ [هذه الأفكار البديهية] نظرياتٍ عن الصوت والمعنى، كالحال فيما يخص الحركة، والأنهار، والحياة، إلخ.

ولإيضاح هذه المسائل بصورة محسوسة، انظر إلى التعبيرات التالية

فى (١):

John was (too) clever to catch. ١- أ:

"كان جون ذكياً (جدا) مما يجعل القبض عليه مستحيلاً".

John was (too) clever to be caught ١- ب:

"كان جون ذكياً (جدا) أن يُقبض عليه".

John was (too) easy to catch ١- ج:

"كان جون سهلاً (جدا) على القبض".

John was (too) easy to be caught ١- د:

"كان جون سهلاً (جدا) أن يقبض عليه".

فيعرف بيتر، حين تحصل ملكته اللغوية الحالة الملائمة، أنه باستخدام too تكون (أ) و (ب) صادقتين إن كان جون ذكياً جداً مما يجعل القبض عليه مستحيلاً، وأنه بحذف too ستكون (أ) "شاذة"، إذ تتطلب تأويلاً غير نمونجي (مع تأويل (ب) بشكل مختلف). ويعرف كذلك أن (ج) صادقة إن كان من السهل (جداً) القبض على جون (الذي لم يكن "سهلاً")؛ وأنه بوجود too أو عدم وجودها تخفق القياسات الواضحة في حالة (د)، وهي شاذة كذلك. وتسعى دراسة الملكة اللغوية لجمع هذه الملحوظات تحت التعميمات الأوسع لمقولة "التعميم النفسي" وأن تكتشف المبادئ والبنى التي تقوم عليها. ومع أن عناصر الحالات الداخلية هذه لا تفسر سلوك بيتر فإنه ينبغي أن تسهم في تفسير الطرق التي يفكر بها ويتصرف، بقدر ما يكون هناك تفسير ممكن. وهناك نظرية ناجحة إلى حد معقول تتناول هذه الحالات انطلاقاً من الافتراض بأن الملكة اللغوية نظام حوسبي ذو مبادئ غير متغيرة إلى حد بعيد. وبتبنيها لهذه النظرية مرحلياً نعزو إلى جون حالات ذهنية، وتمثيلات، وعمليات تتوافق معها (ولا يملك نفاذاً شعورياً إليها)^(٣).

افترض أن ملكة بيتر اللغوية في الحالة "ل". ويمكننا عندها أن نقول إنه يمتلك (يتكلم، يفهم، . . .) اللغة "ل". ويُستخدم مصطلح "لغة" هنا بمعنى تقني، ولتسم "ل" لغة "د" - حيث توحى "د" بأنها: داخلية، وفردية، ومفهومية كذلك، بمعنى أن "ل" إجراء محدد يولد تعبيرات كثيرة غير نهائية في "ل". ويدخل أحد مظاهر "اللغة - د" عند بيتر، ولتسمه "تأويل بيتر للبيان الإذاعي"، في تحديد الكيفية التي ربما أوّل بها بيتر البيان الإذاعي في الخبر "خ" الذي أوردناه آنفاً. ويُشابه "تأويل بيتر للبيان الإذاعي" التعبيرات التي ولدها ذهن المذيع وعقول المستمعين الآخرين، إن كانوا يفهمون البيان كما يفهمه بيتر تقريباً. ويمكن أن نسمي فرع علم الطبيعة البشرية الذي يُعنى بالملكة اللغوية، والحالات التي تتمثل بها، والتعبيرات التي تولدها "اللغات - د" بـ "اللسانيات - د".

وتتمثل فكرة "اللغة - د"، كما يبدو، أقرب نقطة تصلها "اللسانيات - د" من الأفكار البديهية المختلفة للغة. ومع أن [الأفكار البديهية] لا تمثل مشكلة في الحياة العادية فإنها معقدة وغامضة. فتعدّ إحدى الدراسات الوصفية للاستخدام الإنجليزي العادي، وهي من أجود الدراسات الوصفية التي أعرفها لهذا الموضوع، اللغة "موضوعاً (قصدياً) للاعتقاد (المشترك)"، ويمكن دراستها بشكل استكشافي ملائم في إطار علم الاجتماع اللغوي" (Pateman 73: 1987)؛ مع أنه ربما لا تكون هذه الفكرة أكثر نفعاً لللسانيات الاجتماعية، إذا تجاوزنا الظاهر من نفع العبارات في الخبر "خ" لعلموم الأرض، مثل مصطلح "المنطقة الساحلية"، مثلاً، الذي يشبه من حيث المكانة مصطلح "لغة"، باستثناء كون المصطلح الأخير أقل تماثلاً مع ما يُطلق عليه، ويتصف بالتحول، والارتباط القيمي المتعدد الأبعاد. وتستخدم المصطلحات العادية غالباً بوصفها اختراعات، كما رأينا في مناقشة الخصائص العامة للغة الصينية مقابل الإيطالية (اللتين لا يتوفر لأي منهما نصيب كبير من الاعتقاد المشترك). كما أننا نقول إن بيتر يتكلم أو لا يتكلم اللغة نفسها التي

أنتكلمها أنا، أو يسكن في المكان نفسه [الذي أسكن فيه] أو لا يسكن. لكن العالم لا يتألف من مناطق أو لغات كهذه بأي معنى مهم لعلوم الأرض أو اللسانيات - د".

بل لا يعدو الحديث عن أن بيتر يمتلك "اللغة - د" ل أن يكون تبسيطاً شديداً؛ ذلك أن حالة الملكة اللغوية عند أي فرد خليطٌ من الأنظمة التي ربما لا تؤدي إلى فهم نظري أكثر مما تؤدي إليه الظواهر المعقدة الأخرى في العالم الطبيعي. فنحن نقول عن بيتر إنه متعدد اللغات حين نحنت أن تكون الاختلافات بين اللغات التي يعرفها مهمة لنا لسبب أو لآخر، ومن جهة أخرى، فكل منكم متعدد اللغات بشكل متعدد.

ويسمى امتلاك لغة معينة، في اللغة الإنجليزية، "معرفة لغة"، وهو ما أدى إلى بعض المحاولات لفرض تصورات متعددة من تصورات طبيعسة المعرفة، ولتحديد ما الوحدة التي يكون بيتر على علاقة معرفية معها حين يمتلك "ل". ولأسباب ناقشتها في غير هذا المكان، أظن أن هذه المسائل كانت ضحية لسوء في التصور، مع أن بعض المسائل الأخرى تستحق الاستقصاء. لهذا فحين يمتلك بيتر "ل" فهو يعرف أشياء كثيرة، ومنها، مثلاً: أن كلمة chase "يُطرد" تسجع مع lase "الخيوط الذي تربط به الحذاء"، وتقتضي follow "يتبع". وتفصيل هذه المسائل كلها مشروع مهم يستحق الاستقصاء؛ وهناك مسائل أخرى تتعلق بطبيعة معرفة "س" عموماً، والمضمون المعرفي لمعرفة الكيفية، وعلاقات المعرفة بالقدرة، إلخ. (للاطلاع على مناقشة هذه القضايا انظر Chomsky 1975; 1986).

وتبنى تعبيرات "ل" من وحدات معجمية يتألف كل منها من مجموع من الخصائص؛ وتمثل الكلمات البسيطة في الخبر "خ" أقرب مثال لذلك. ونحن نتكلم بصورة عامة عن صوت كلمة معينة ومعناها، أي الطريقة التي تُتلق بها، والمعنى الذي تؤديه. وتحيل أقرب صياغة بديلة في إطار اللسانيات - د" إلى خصائص في وحدة معجمية معينة تتصل بالصوت والمعنى، أي:

سماتها الصوتية والدلالية (ولنسمها بـ "الصوت - د" و"المعنى - د" لها، على الترتيب). وتتألف الوحدة المعجمية من هذه السمات، إضافة إلى بعض السمات الصورية (التي ربما لا تكون متميزة عنها) وتدخل في العمليات الحوسبية التي تكون بنى أكبر. وربما تكون لها بنية داخلية أكثر تعقيداً. وليس هناك طبقة تحتية منفصلة، أي الكلمة، يمكن أن تورث الخصائص فيها، كما ينتج عن أي تغيير في أية سمة وحدة معجمية مختلفة. وإذا وضعنا جانباً كثيراً من القضايا المهمة، دعنا نفترض أن اللغة تشمل على معجم يمثل مجموعة من الوحدات المعجمية، وأن المعجم يُنفذ إليه عن طريق الإجراءات الحوسبية التي تكون التعبيرات⁽⁴⁾.

وقد أثار معنى الكلمات قدرًا كبيراً من الانتباه والخلاف، بل إن هناك من ينكر الآن أي وجود لـ "المعنى - د" (أي: "التمثيل الدلالي"، المضمون الضيق) عموماً. ولا تثار أسئلة مماثلة عن "الصوت - د" إلا قليلاً. ويبدو لي أن التخصصات الاختبارية تدرس الأمرين بطريقة واحدة تقريباً: فهي تفترض على الأخص أنهما يشتملان على سمات كلية غير متغيرة تصاغ منها الوحدات المعجمية (ومن هنا فهي ليست "شبكة" holistic بصورة جذرية). وسأسلم مؤقتاً بأن افتراض وجود "الصوت - د" و"المعنى - د" مشروع، وسأعود فيما بعد إلى مناقشة أسباب إنكار هذا الافتراض.

وتحصل الملكة اللغوية حالة "ل" تحت تأثير قدر ضئيل من التوجيه والتدريب أو القرار، إن كان هناك أثر لمثل هذه ابتداءً، وتمرُّ بحالات ذات خصائص معينة وتثبت جزئياً عند مراحل عمرية محدّدة. وتسير عمليات الذهن، إذا استعرنا عبارة هيوم، في ضوء طرق انتقال طبيعي، يسبق التأمل، ولا يمكن [للتأمل] أن يمنع⁽⁵⁾ (Hume 1740/1948: 147, Book I, Part III, Section 13). وتبدو الملكة اللغوية، بهذه المعايير كذلك، شبيهة بالأعضاء الجسدية الأخرى. ويستمر المعجم في التغيير بطرق معينة، ويتعرض لدرجة من الاختيار الشعوري (كما يحدث للأجزاء الأخرى من

اللغة، بصورة هامشية). لهذا يحوي مُعجمي الكلمة *dour* قاسم* التي تسجع مع الكلمة الأخيرة في الخبر "خ"، أي: *power*. وربما تحوي لغة بيتر كلمة مختلفة بالمعنى نفسه لكنها تسجع مع كلمة *poor* فقير*. ويمكنني أن أتخلى عن الكلمة التي أستخدمها، لأستخدم الكلمة التي يستعملها بيتر، أو ربما أعطيها معنى مختلفاً شيئاً ما مع الإبقاء على "صوتها - د" ثابتاً؛ وربما يكون ذلك بقرار واع، أو من غير وعي. وتقع مثل هذه الأحداث في نطاق ما يسميه تايلور بيرج بـ "الشبكة الواسعة الوعرة للاعتمادات المتبادلة، التي تقوم على أنماط الاستئناس برأي الخبراء التي تعيدنا مرة أخرى إلى أناس يسعون إلى التوافق مع الآخرين" (Tyler Burge 1986b: 702, 703)، كما أنها التي تؤسس، مع العلاقات المختلفة للقوة والتنظيمات الاجتماعية والعوامل الشخصية وعوامل أخرى، "معياراً للتفاهم اللغوي المتواضع عليه"، كما يفهم بصورة عامة. أما إن كانت [هذه العوامل] توفر معنى لغوياً كذلك، كما يقترح بيرج، فيبدو لي أمراً من أمور الاصطلاح، لا الحقيقة. كما لا يبدو لي واضحاً كيف يمكن أن يتعلم شخص شيئاً عن مثل هذا التعقيد المتنوع من غير أن يحصر دراسته بالأجزاء التي يمكن أن تخضع للدراسة الدقيقة. ولا تذهب اللسانيات - د، بأية حال، أبعد من القول بأنني، في الحالة التي بين أيدينا، أضفت وحدة جديدة إلى معجمي، مع التخلي، ربما، عن استخدام وحدة أقدم منها؛ وهي لا تسعى، بصورة أعم، إلا إلى تحديد بعض العوامل المعينة، وهي عوامل جوهرية فيما يبدو، مما يدخل ضمن التعقيد الباهر للشئون البشرية.

وكثيراً ما يُعتقد أن "أحكام الناس [اللغوية] الفورية، أو حدوسهم، كما يسميها الفلاسفة، تكون للموضوع الذي تهتم به اللسانيات ونظرية الإحالة، اللتان تسعيان إلى تحديد "الحدوس النحوية" و"الحدوس الإحالية" بطريقة منهجية^(٥). ويمكن للمرء أن يعرف المشاريع [العلمية] بالصورة التي يريد، لكن من الصعب أن نرى أهمية لتحديد بعض المقولات المعينة لأحكام [المتكلمين]، أو لأنواع المادة الأولية الأخرى المختارة.

خذ دراسة الإحالة، في مظهرها، أي: دراسة كيف يستخدم الناس اللغة للحديث عن الأشياء ودراسة أفكارهم عن مثل هذه الأمور. وربما أمكن لأحكام [المتكلمين] أن توفر أدلة، لهذين النوعين من الدراسة، وربما يصح الاعتمادُ عليها أو ربما تكون مفيدة، وربما لا تكون. وربما أمكن لبحث جاد في دراسة هذين الموضوعين أن يتقصى التشابهات عبر الثقافات، واعتبارات فقر المنية، والتجارب النفسية اللسانية، والتصوير الآلي للدماغ، أو أي شيء آخر يمكن أن يقترح. لكن هذين المسارين البحثيين كليهما ليسا دراسة لأحكام [المتكلمين]، وإن أمكن النظر إليهما على أنهما دراستان للحدوس بمعنى مختلف: أي دراسة لحقيقة ماهيتها، وهو موضوع تصلح الأحكام الحدسية فيه أن تكون مصدرًا للمعلومات، في أحسن الأحوال. (وينظر منك إلى هذا الأمر من زاوية مختلفة شيئًا ما Stich 1996).

ولا تعدو الأحكام الحدسية أن تكون مادة أولية؛ ويمكن أن تصير دليلًا في إطار نظرية تفسيرية ما. فقد استخدمت الأحكام التي أوردناها عند الكلام عن الأمثلة في (١) أدلة لتأييد النتيجة التي مفادها أن تابع الصفة "مكون مركبي" يتضمن ثلاث مقولات خالية، هي: الفاعل الصقر، والمتغير الخالي O، وأثر O، وهي أفكار تفسر في إطار النظرية، وتتموَّع بصورة مستقلة إن كان للتفسير الذي أعطى للمثال (١) من قوة. ولا يملك المتكلمون أحكامًا حدسية، عن هذه الأمور، أكثر مما يملكونه من أحكام حدسية عن "العضلات الشاذة" tensors أو عن فكرة "اللابقين" undecidability .

ويجب النظر بقدر من الحذر إلى الأحكام الحدسية التي يُحدثُ المتكلمون على إعطائها مع حذف التوقعات العادية منها. افرض أننا سألنا بيتر: هل يتحدث رجلٌ مريخي اللغة التي يتحدثها هو إن كان [هذا الرجل] يشترك معه في أحكامه عن المثال (١) وتعبيرات أخرى لكنه يستخدم مبادئ مختلفة أو كان تركيبه الأحيائي الكيميائي مختلفًا؛ أو إن كان يمكن لنسخة شبيهة ببيتر خلقت للتو أن تتحدث عن الأنهار أو الماء، وتصبح الأحكام [في هاتين

الحالين] غير واضحة، وتتضاعل باتجاه عدم الأهمية؛ لأن التجارب الذهنية تحذف الاعتقادات المسبقة التي تُفترض في الاستخدام العادي للغة، وهو ما يجعلها تتحول إلى مجالات توعم الأرض ورجال المستنقعات، والعالم الأخرى الغريبة (انظر Stich 1983: 62; Fodor 1994: Appendix B)^(٦).

افرض أنا تبنينا مشهداً متخيلاً للعالم الغريبة" لاستقصاء ما يدخل في تصورات بيتر: فهل يشمل تصور "الماء" عنده "س ص ع" في توعم الأرض، مثلاً؟ وهل يمكن أن يقول – أو يكون صحيحاً منه أن يقول – إن "الماء" في توعم الأرض هو "س ص ع"، بخلاف الأمر هنا؟ أو: ليس في توعم الأرض "ماء"، بل "س ص ع" فقط؟ أو لا واحد منهما، تبعاً لتغير شروط التجربة الذهنية؟ أو ربما ليس فيها شيء يمكن فهمه؟ ويمكن للإجابات أن توفر أدلة لتفسير معين لحالات بيتر اللغوية وممارساته، وطرق تفكيره، وربما كان لهذا التفسير صلة بالسؤال الأول عن التصورات إن كانت الفكرة التقنية إ توعم الأرض] تدخل في التعليل النظري. أما خارج السياق فربما لا تبين الأحكام إلا القليل حتى إن كانت ثابتة في حين تتنوع شروط التجربة الذهنية، وهو ما يبدو- الأمور بخلافه.

وينبغي ألا تُمارع دراسة الدلالة الشعبية إلى الافتراض بأن الممارسات والمواضع في تقليد ثقافي معين دليل جيد على الفهم البيهي، سواء أكان فهم الباحث أو فهم غيره^(٧). فينبغي عليها في الأقل أن تحاول اكتشاف المشابهات للملكة اللغوية و"اللغة – د" في هذا المجال، ساعية نحو تحديد المكوّن الفطري.

افرض أن بيتر يقول إن "جو المنمن" صوت لصالح مشروع الحد الأدنى للأجور، لأنه مشغول بصحة ابنه، فهل يلزم أن نستنتج أن بيتر يعتقد أن العالم مكوّن من وحدات مثل: جو المنمن، والحمد الأدنى للأجور، والصحة، وعلاقات مثل "صوت لصالح" و"الانشغال بـ" التي تربط بينها؟ وهل يكون الاستنتاج الموازي مسوّغاً حين يقول بيتر إن توم زار بوسطن؟

وإذا قال بيتر إن البنك انتقل إلى الجهة المقابلة من الشارع بعد أن دُمّر حريق، فهل يعتقد أنّ من بين الأشياء في الكون هناك أشياء يمكن أن تدمر لكن ما يزال من الممكن أن تبقى، وهو ما يجعلها تنتقل؟ ويمكن أن تثار أسئلة مماثلة عن الكلمات التي في "خ". ويهتم العلم الإثنى بالتصورات العلمية الشعبية عن هذه الأمور. أما علم الطبيعة البشرية فيحاول أن يكتشف ما يحدث فعلاً، وأن يكتشف تعقيدات "التصميم التشريحي للعقل"، بتعبير هوم، والطرق التي تتدخل بها بناء وعملياته في التفكير والفعل. وهذان النوعان من البحث مختلفان، مع أنهما ربما يستخدمان مواد أولية متشابهة (وربما تكون أحكاماً حدسية).

وربما يهتم بحثُ معنى كلمة meaning "معنى" أو كلمة sound "صوت" باكتشاف:

١- السمات الدلالية ("المعنى - د") للوحدتين المعجميتين: "معنى" و"صوت" في إحدى لهجات اللغة الإنجليزية.

٢- الأفكار التي لدى الناس عن المجال العام للمعنى والصوت.

أو:

٣- أفضل نظرية عن اللغة واستخدامها.

والسؤال (١) سؤال عن كلمات إنجليزية (ذات خصائص غريبة نوعاً ما)؛ ويدخل (٢) في إطار العلم الإثنى؛ أما (٣) فيدخل في إطار علم الطبيعة البشرية. ويثير (١) و(٢) أسئلة جادة مشروعة إلى حد بعيد. لهذا نجد، حين نستقصي (١) أنه ليس للأسماء معانٍ؛ فليس للسؤال: "ماذا يعني 'ستالين'؟" معنى، إلا إن كنا نسأل عن الأصل الاشتقاقي لهذا الاسم. ونجد كذلك أنّ السؤال: "ماذا يعني التعبير 'ت'؟" يشترك في الخصائص مع السؤال: "كم يزن جون؟" و: "بم يشعر جون؟" بدلاً من اشتراكه مع السؤال: "ماذا أكل جون (أو قال) أو 'عنى'؟"، مما يوحي بأن ما يعنيه 'ت' ربما

يكون نوعاً من النوعية الظرفية. وليس لدراسة (١) و(٢) إلا قدر ضئيل من الأهمية الواضحة للسؤال (٣). ويصحُّ هذا تقريباً في دراسة التفكير والاعتقاد والتصورات، إلخ.

تأويل المستويات الوجيهية:

دعنا نلتفت إلى بعض المسائل التي تقع في إطار (٣) أعلاه: أي المسائل التي تتعلق بالملكة اللغوية والحالات التي نتخذها، والكيفية التي تُكمج بها مع المكونات الأخرى للذهن/الدماغ في استخدام اللغة.

وإحدى المسلمات النموذجية المعقولة إلى حد بعيد، وهي استخدام أفكار تقليدية، أن التعبير "ت" في "ل" يتألف من زوجين: "صو، دلا"، حيث يمثل "صو (ت)" المعلومات التي تتصل بصوت "ت" وتمثل "دلا (ت)" المعلومات التي تتصل بمعناه. وتُصاغ "صو" و"دلا" بالعمليات الحوسبية التي تعمل على الوحدات المعجمية. افترض أن "ت" كلمة معزولة. و"صو (ت)" متمايز عموماً عن "صوتها - د" نتيجة للعمليات الصوتية، أما "دلا (ت)" فربما تتماثل مع "المعنى - د" لـ "ت"، تبعاً للحقائق عن تحليل العناصر المعجمية، وما يُمثِّبها. و"صو (ت)" و"دلا (ت)" عنصران عند "المستوى الصوتي" و"المستويات الدلالية"، على الترتيب؛ أي أنهما تمثيلان "الأول صوتي والثاني دلالي". ولهذه المصطلحات معانيها التقنية المعينة؛ فليس هناك شيء "مُمثِّل" بالمعنى الذي في النظريات التمثيلية للأفكار، مثلاً (٨). وهذان المستويان "وجيهتان" بين الملكة اللغوية والأنظمة الأخرى، ويوفران المعلومات التي تُستخدمها الأجهزة الحركية الحسية والأنظمة الأخرى لاستخدام اللغة.

وقد أُنجزت أبحاث كثيرة رائدة عن هذه التمثيلات والكيفية التي تصوغها بها عمليات "اللغة - د" (عن الجانب الدلالي، انظر *inter alia* Larson and Segal (1995), Pustejovsky (1995) والمراجع المذكورة

هناك). ويمكن أن يُنظر إلى هذه الأبحاث على أنها "تركيب" بالمعنى التقني؛ فهي تدرس خصائص الموضوعات الرمزية وتنظيماتها. وتسمى هذه الأبحاث أحياناً بعلم الأصوات، على الجانب الصوتي، لكن مع فهم أن دراسة السمات الصوتية، والبنى المقطعية والعروضية، وغيرها، لا تسهم إلا في الدراسة الأكثر عموماً للكيفية التي تستخدم بها الأنظمة الحركية الحسية المعلومات التي توفرها "اللغة - د"، والكيفية التي يتصل بها هذه الكم المعقد كُله ببعض الأحداث الخارجية. وهذه قضايا يعنى بها علم الأصوات الفيزيائي وعلم الأصوات النطقي، وتذهب بعيداً وراء "اللغة - د". وربما تكسون الممارسة نفسها ملائمة، كما أظن، في مجال الأبحاث التي تسمى غالباً بـ "علم دلالة اللغة الطبيعية" و"علم الدلالة المعجمية". فيمكن للنظر إلى هذه الأبحاث على أنها جزء من "التركيب"، لكنها موجهة لمستوى وجيهي مختلف، ولمظاهر مختلفة أخرى من استخدام اللغة، وبقدر ما تقوم علاقة السجع بين chase "يطرد" و lace "الخيوط الذي تربط به الحذاء"، على خصائص "الصوت - د"، وتقوم علاقة الاقتضاء بين chase و follow على خصائص "المعنى - د"، فهما تتضويان تحت "التركيب"، بمعنى تقليدي.

وتتصل الأبحاث كلها تقريباً في مجال "التركيب" بمعناه الأضيق اتصالاً وثيقاً بمسائل للتأويل الدلالي (والتأويل الصوتي، بالطبع)، وهو يسوغ يمثل هذه المسائل. وقد أسىء فهم هذه الحقيقة في أحيان كثيرة لأن كثيراً من الباحثين اختاروا أن يسموا هذه الأبحاث "تركيباً"، محتفظين بمصطلح "دلالة" ليطلقوه على علاقات التعبيرات بأشياء غير لغوية^(٩)، وكانت الأبحاث المعاصرة المبكرة في "اللسانيات - د" (أي النحو التوليدي) تُعنى بمعاني تعبيرات كالتي في (١) (ص ٣١٤)، وهو إحياء لبعض اهتمامات النحو التقليدي، وربما كان مفيداً أن نميز مظاهر "اللغة - د" الألسق بالصوت أو الألسق بالمعنى؛ لكن علمي الأصوات والدلالة، بمعنى الكيفية التي تتعامل بها اللغة مع العالم، يقعان وراء ذلك.

وتبرز أسئلة أكثر خطراً عن الصورة العامة [لهذا النوع من البحث] عند كل منعطف، بدءاً من البنية المفترضة للذهن وانتهاءً بتفاصيل التنفيذ. فتتصل فصيلة من الأسئلة بموضع المستوى الوجيهي. فيجب، على الجانب الصوتي، أن يُحدّد هل الأنظمة الحركية الحسية خاصةً باللغة جزئياً، فتكون ضمن الملكة اللغوية، إذن، وهو ما يعنى أنه يجب أن يكون المستوى الوجيهي "وراء" ما يُعدّ عادةً تمثيلاً صوتياً؛ وهناك خلاف كبير في هذا الأمر، أما على الجانب الدلالي فتتعلق الأسئلة بالعلاقات بين الملكة اللغوية والأنظمة المعرفية الأخرى، ولا يمكن أن يُقدّم، على أي من المستويين، إلا بعض التخرصات المعقولة التي لا تعدو أن تكون مقاربات أولية.

وقد درست أسئلة العلاقة بين اللغة والعالم على المستوى الوجيهي الصوتي بصورة معمّقة باستخدام تقنيات عالية التعقيد، لكن المشكلات عصبية، وما يزال فهمها محدوداً، والأسئلة عن الأمور التي تُستخدم التمثيلات الدلالية لها أكثر من ذلك غموضاً، ولا يُعرف إلا قدر ضئيل جداً عن الأنظمة الخارجية للغة؛ ويرتبط قدرٌ كبير من الأدلة عن هذه الأنظمة ارتباطاً وثيقاً باللغة مما يجعل تحديد متى تتصل باللغة، ومتى تتصل بالأنظمة الأخرى (بقدر ما تتمايز) صعباً جداً. يضاف إلى ذلك، أن التقصي المباشر الملائم الممكن للأنظمة الإدراكية الحسية ما يزال في بداياته. ومع هذا، فهناك كمٌّ ضخم من المادة الأولية التي تتصل بالكيفية التي تُستخدم بها التعبيرات وتُفهم في ظروف معينة، وهي كافية إلى حدٍ صار عنده علمٌ دلالة اللغة الطبيعية أحد أكثر جوانب دراسة اللغة حيوية، وإن كانت الأسئلة التي تتعلق باستخدام اللغة ما تزال سرايا.

الوحدات المعجمية:

اقترحتُ أنفاً أن التعبير يتألف من زوج: **حسوس، دلال** يصاغ من وحدات معجمية، كل منها مجموعٌ معقد من الخصائص، ومنها "الصوت" —

د" و"المعنى - د". وتؤوّل "صو" و"دلا" عن طريق الأنظمة الخارجية للغة. ومن المحتمل ألا يوجد، عند هذين المستويين الوجيهين، وحدة فرعية تتماثل مع الوحدة المعجمية. وليس هناك خلاف في هذه النقطة في المستوى الوجيهي الصوتي. ويفترض عدد كبير من الأبحاث التركيبية/الدالية أن من الممكن أن تحلّل الوحدات المعجمية إلى الخصائص التي تتألف منها ثم يعاد تأليفها في أثناء حوسبة "دلا". فربما ينتج عن وحدات مثل who أو nobody، مثلاً، تراكيب تتألف من "عامل - محدد - متغير" عند مستوى "دلا"، مثل:

{John saw x} [QUx, x a person]

([أداة استفهام "س"، "س" شخص] [جون رأى "س"])

وربما تكون هناك طرق أخرى يمكن بها تعديل خصائص الوحدات المعجمية الدالية أو توزيعها. ومع هذا نستطيع، في الكلمات البسيطة عموماً، أن نفترض أن "دلا" تساوي "المعنى - د" (وربما يكون هذا تعبيراً عن جهلنا).

وهناك بدائل شائعة لهذه الصورة فيما يخص المكوّن الدالي للوحدات المعجمية، كما تتحو بعض الدراسات الأكثر اتصافاً بالاختبارية والنقاشات التصورية عن طبيعة المعنى والإحالة إلى تناول هذه المسائل بطرق مختلفة شيئاً ما. فننظر النقاشات التصورية عادةً إلى الكلمات والتعبيرات الأخرى على أنها وحدات صوتية (أو هجائية)، أو أنها معزولة إما عن الصوت أو عن المعنى؛ فيمكن لكلمة ما تبعاً لذلك أن تغير معناها، بل ربما صوتها ومعناها معاً، وتظل، مع هذا، الكلمة نفسها. ولا يبدو أن لهذه المواضع معنى؛ إذ يجب أن تُفسّر وتوسّع، في الأقل، والدعوى الأبسط أنه ليس لتعبير ما وجوداً بمعزل عن خصائصه عند المستويين الوجيهين، "صو (ت)" و"دلا (ت)" (إن كان هناك مثل هذين المستويين).

وربما كانت عملية استكشافية مفيدة، في ظني، أن نتقصى التشابهات بين جانبي الصوت والمعنى إلى أبعد حد يمكن أن نذهب إليه. فيمكن أن

نسأل، تحديداً، إن كان من الممكن إلقاء الضوء على القضايا الدلالية عن طريق النظر في مشابهاتها الصوتية، وهي التي كثيراً ما تبدو أقل إثارة للخلاف.

انظر الآن إلى "اللغة الذهنية" بديلاً للصورة التي أوضحناها إلى الآن. بدلاً من أخذ الوحدة المعجمية على أنها تتضمن "الصوت - د" و"المعنى - د"، دعنا نفترض أن أحدهما مفقود، أو ربما الاثنين معاً. وتبعاً لهذا، إما أن يكون "دلاً" مفقوداً أو "صو" مفقوداً، أو كلاهما مفقودين عند المستويين الوجيهين. فيعنى أن نتعلم لغة ما أن تكتسب قواعد تحول الوحدة المعجمية إلى نظام آخر من أنظمة الذهن، أي "اللغة الذهنية"، التي تُحوّل لتنتج (مظاهر) الصوت والمعنى. فإذا كان "الصوت - د" مفقوداً، تحول الوحدة المعجمية إلى "ص - اللغة الذهنية". وإذا كان "المعنى - د" مفقوداً تحول الوحدة المعجمية إلى "د - اللغة الذهنية". أو إليهما معاً. أما اللغة نفسها فليس لها صواتة/أصوات، ولا دلالة، ولا الاثنان معاً. هذه هي خصائص اللغة الذهنية.

ولا توجد مثل هذه الاقتراحات في الجانب الصوتي - على حد ما أعلم - أما في الجانب الدلالي فهي شائعة. والسؤال هو: ما المضمون الجوهرى لهما، على أي الجانبين؟

وللتمثيل لهذا الأمر بأمتة فعلية، انظر مرة أخرى، إلى كلمات المثال (٢)، أو كلمات: persuade "يُحض"، و force "يرغم"، و remind "يذكر" في مكان x "س" في المثال (٣):

—٢ chase, lace, follow

—٣ John X-ed Mary to take her medicine.

• "جون" "س" [فعل في حالة الماضي] "ماري لتتناول دواءها"

افرض أنه ليس للوحدات المعجمية المقابلة لـ X "صوت" - د" وأن بيتر تعلم كيف يحولها إلى مناطق "ص - اللغة الذهنية" التي لها تأويل صوتي. ويعرف بيتر أشياء كثيرة عن هذه المناطق وتأويلاتها. فهو يعرف أن chase تسجع مع lace؛ وأن persuade و force تبدآن بضم الشفتين، وأن بطريقتين مختلفتين، أما remind "يذكر" فلا؛ إلخ. وتغزو المقاربات النموذجية هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية، وترى أنها ممثلة في "صو". ويضيف البديل "ص - اللغة الذهنية" طبقة أخرى من التعقيد، ويثير مشكلات جديدة، ومنها مثلاً: ما مكون الوحدة المعجمية الذي يبين المنطقة التي تحول إليها في "ص - اللغة الذهنية"، إن لم يكن [نلك المكون] هو "الصوت - د" (كما يفترض في النظريات المألوفة)؟ وما النقطة التي يتجز عنها تحويله إلى "ص - اللغة الذهنية" في أثناء حوسبة تعبير ما؟ وكيف يعبر عن الخصائص الكليّة والخاصة للصوت عند تأويل "ص - اللغة الذهنية"؟ ولم تنر مثل هذه الأسئلة من قبل، لأسباب وجيهة، وهو ما يبيح لنا أن نسقط هذا الأمر تماماً.

انظر الآن إلى النظرير الدلالي. فنفترض الآن أن الوحدات المعجمية لا تتضمن إلا "الصوت - د" وخصائص صورية غير مؤولة، وأن بيتر تعلم كيفية تحويلها إلى مناطق "د - اللغة الذهنية"، التي لها لا تأويل دلالي. (للاطلاع على صور متعددة من وجهات النظر هذه، انظر: Fodor 1990: Chapter 7، وهو مراجعة لكتاب Schiffer 1987). ويعرف بيتر أشياء كثيرة عن هذه المناطق/ التأويلات كذلك. لهذا، فإذا طرد نوم بيل فقد تبع نوم بيل بقصد معين، لا العكس؛ وإذا كانت X "س" = "يحض" persuade في المثال (3)، فإن جهود جون نجحت جزئياً (إذ صارت ماري تقصد أن تتناول دواءها، لكنها ربما لم تفعل)؛ وإذا كانت X "س" = force "أرغم" فإن جون نجح، لكن بطريقة مختلفة (فقد تناولت ماري الدواء، سواء أكانت تقصد أم لا)؛ وإذا كانت X "س" = remind "يذكر" فإن جون ربما أخفق (إذ إنها ربما لم نعهه اهتماماً)، أما إن نجح، فإن ماري صارت تتنكر أن تتناول دواءها.

وتعزو المقاربات المبكرة هذه الخصائص إلى الملكة اللغوية، وتأخذها على أنها تظهر في "دلا" نتيجة لعمليات الوحدات المعجمية والتركيبات التي تظهر فيها. ويضيف البديل "د" - اللغة الذهنية" طبقة أخرى من التعقيد ويثير أسئلة جديدة إضافة إلى الأسئلة التي أثرت في النظير الصوتي. فإذا أخذنا الوحدات المعجمية على أنها ليس لها "صوت" - "د" ولا "معنى" - "د" فكل النوعين من المشكلات يبرز.

وربما نُضَلِّلنا بعض الأمثلة البسيطة مثل:

Snow is white.

"الثلج أبيض".

أو الجُمْل الوصفية في "خ"، مثل:

the sky is dark.

"السماء مظلمة".

إلخ. لكن المشكلات تتضاعف حتى مع أبسط توسيع للنمط. انظر إلى:

the rain looks heavy.

"يبدو المطر غزيراً".

و:

The wind feels strong.

"تُشعرُ الرِيحُ بأنها قوية" [يُشعر بأن الرِيح قوية].

وغيرها؛ والمثال (٤)، عموماً:

X (is, looks, tastes, sounds, feels, smells, . . .) Y —٤

س (يكون، يبدو، يُتَنَوَّق، يُسْمَع، يُشعر، يُشَم، . . .) ص

بل إن جملاً بسيطة كهذه تثير بعض مشكلات الترجمة، حتى في اللغات المتشابهة. فكيف ينبغي أن تترجم إلى "اللغة الذهنية" الكلية؟^(١٠)

وربما يترتب على بعض الإجابات عن مثل هذه الأسئلة بعض المقتضيات الاختبارية في إطار نظريات أكثر تفصيلاً للغة و"اللغة الذهنية"، وربما يسوّغ تلك التعقيدات الإضافية، أما حين تكون هذه المقترحات معزولةً فربما يصعب تقويمها.

افرض أننا طورنا نظريات إحصائية للتأويل، إما للتعبيرات اللغوية مباشرة، أو إلى ترجماتها في "اللغة الذهنية". وإحدى الفرضيات النموذجية، فيما يخص الصوت، أن الأنظمة الحسية الحركية تتفد إلى "صوت (ت)"، عند إنتاج التعبير أو إدراكه. دعنا الآن نفترض، بدلاً عن هذا، أنه ليس للوحدة المعجمية "صوت - د" لكنها تحيل صوتياً إلى شيء ما خارج الشخص؛ ولنسمه بـ "القيمة الصوتية" للوحدة المعجمية (أو بدلاً عن ذلك، لصورتها الصوتية في "اللغة الذهنية")، ثم نفترض أنه ينشأ عن حوسبة "القيم الصوتية" المكوّن اللغوي لصوت "ت"، أي "القيمة الصوتية لـ (ت)". وربما تكون "القيمة الصوتية" شيئاً يتعلق بالوضوء التي تتصل بالمنطوقات (أو بالمنطوقات الممكنة) لـ "ت" تبعاً لاختلاف الظروف (وربما تبعاً لاختلاف المتكلمين، بقدر ما يكونون متشابهين تقريباً)؛ أو ربما تكون تركيباً مصوغاً من حركات الجزينات. ويمكن أن يطور هذا الاقتراح بالنظر إلى "القيمة الصوتية" على أنها محددة ببعض العوامل الاجتماعية والفيزيائية المتنوعة. وربما استطعنا أن نمضي في تفسير التواصل والترجمة والاكتماب والعمليات الأخرى بهذه الطرق؛ لهذا يستطيع بيتر أن يتواصل مع توم؛ لأن تعبيراتهما في اللغة التي يشتركان فيها (وإن كانا لا يعرفانها إلا معرفة جزئية) تحيل صوتياً إلى "القيمة الصوتية" نفسها.

ويترك هذا الاقتراح المشكلات كلها حيث كانت، مضيفاً إليها عدداً من المشكلات الجديدة. فلا يتجاوز ما نفهمه الآن ما كنا نفهمه من قبل عن علاقة

"ت" بتحقیقاتها الخارجية. أما تعليل التواصل والعمليات الأخرى فلا قيمة له. وليس هناك سبب للافتراض بأن لمدل هذه "القيم الصوتية" مكاناً في العملية التي يصوغ بها ذهن إنسان معين نسخة مما يقوله شخص آخر. ولهذه الأسباب، لم يأت أحدٌ باقتراح يمكن أن يتماشى مع هذه الطرق.

انظر إلى النظير الدلالي⁽¹¹⁾. فنفترض الآن أنه ليس للوحدة المعجمية "معنى - د" لكنها (أو صورتها الدلالية في "اللغة الذهنية"، وربما تكون هذه "فكرة" أو "تصوراً") تعين دلاليًا S-denotes "قيمة دلالية" للوحدة المعجمية خارج الشخص، أي مركباً معيناً مما يتحدث عنه حين يُنطق "ت" (مع اختلاف المتكلمين والظروف)، وربما تحدده جزئياً بعض الخصائص الاجتماعية والفيزيائية. ويمكن مرة أخرى إعطاء تعليل ما للتواصل والترجمة والاكتماب، والعمليات الأخرى في ضوء هذه الطرق؛ لهذا يستطيع بيتر أن يتواصل مع جون؛ لأن تعبيراتهما تعين دلاليًا S-denote للقيم الدلالية نفسها في اللغة المشتركة التي يعرفانها بصورة جزئية.

ونأخذ الآن "القيم الدلالية" لـ "جو المدمن"، و"الحد الأدنى للأجور"، و chase، و persuade، و look، والكلمات في "خ"، إلخ (أو تصورها الدلالية في "اللغة الذهنية") على أنها جو المدمن، والحد الأدنى للأجور، والطرْد، والحض، والنظر، والسماء، وبوسطن، والأنهار، والخراب، والخسارة، والقوة، . . . إلخ، مع إضافة بعض الأشياء عن "من"، و"لا أخذ"، إلخ. ولكي نعلل الخصائص الدلالية لـ "ت" في:

Chinese is the language of Beijing and Hong Kong.

"اللغة الصينية لغة بكين وهونج كونج".

نأخذ "القيم الدلالية" على أنها: للصينية، لغة، بكين، إلخ. وربما نسأل عن إن كانت للقيمة الدلالية للشئ الخارجي: (the fate of the Earth) "مصير الأرض" = "القيمة الدلالية" لـ (the Earth's fate) "مصير الأرض".

في اللغة المشتركة (أو عند شخص يمكن أن يقال عنه "إنه يعرفها") أو الفرق بين الجملتين ليس واضحاً في الترجمة العربية؛ ذلك أن الإضافة في اللغة الإنجليزية تتحقق بالطريقتين اللتين تبيينهما الجملتان، أما في العربية فبالإضافة صورة واحدة]. ويمكن أن نستمر في تقصي الأحكام الحسية، بغض النظر عما يعنيه ذلك في إطار هذه التنوعات الشبيهة بالتقنية.

ولم يسهم هذا، إلى الآن في الأقل، في أي تقدم للمشروع الأصلي، إذ لا يعدو أن يكون إعادة صياغة له، مع كثير من المشكلات الجديدة، ولم نتعلم شيئاً أكثر مما كنا نعرفه عن الكيفية التي تستعمل بها التعبيرات اللغوية أو تؤوّل. وسواء تبيننا هذا الاقتراح أو ذلك، فما يزال يجب علينا أن نعلل خصائص التعبيرات: أي خصائص الأمثلة في (١) - (٤)، مثلاً. وليست الحالات الصوتية والدلالية متماثلة، بالطبع؛ فهي متشابهة وحسب، لكنها تتشابه بطرق ربما تكون دالة.

فترض أننا سلطنا مساراً مختلفاً، قائلين إن خصائص السجع وأنماط الاستدلال، وغيرها، لا تتصل باللغة (أو بصورها في "اللغة الذهنية")، بل باعتقاداتنا عن "القيم": أي الأشياء الخارجية، بغض النظر عن ماهيتها. فنقول، في الجانب الصوتي، إن الاعتقاد بيتر بأن "القيمة الصوتية" لـ chase تسجع مع "القيمة الصوتية" لـ lace مكانة مختلفة عن اعتقاداته الأخرى عن القيم الصوتية (نحو قيم نسبية تكرارها، مثلاً). ويصح الشيء نفسه عن الخصائص الأخرى. لكن أحداً لم يثبت مثل هذا الاقتراح من قبل، ويمكن لنا مرة أخرى أن نسقطه من حسابنا.

وربما يكون النظر لهذا على الجانب للدلالي أن نقول إن خصائص الأمثلة (١) - (٤) تعلل في ضوء اعتقادات بيتر عن العالم؛ وربما في ضوء قوة الاعتقاد، بمصطلحات كوين. وهذه الاقتراحات مألوفة، بل أقرب ما تكون إلى التقاليد المحافظة. ويجب علينا لكي نقوم هذه الاقتراحات أن نكتشف المزيد عن كيف تثبت الاعتقادات بهذه الطرق المعقدة جداً والموحدة إلى حد

بعيد في اللغات وعبرها، من بين مسائل أخرى، وليس لهذه الافتراضات مضمون تقريباً إلا بعد أن تُبحث هذه المشكلات.

ويبدو من المعقول، عند هذه النقطة، أن تستنتج أن الوضع هنا يشبه تقريباً الوضع على الجانب الصوتي: أي أن الخصائص الدلالية للكلمات والمركبات تحدّد بالطرق التي تُكوّن بها، مع إسهام فطري غني. والمشكلة الآن أن نكتشف خصائص "الصوت - د" و"المعنى - د" (للوحدات المعجمية، أو لتظيرتها "د - اللغة الذهنية")، والطرق التي يمكن أن تُؤلف بها، والحوسبات التي تنتج التمثيلات الوحيية وكيف تُؤوّلها الأنظمة الخارجية للغة. وهناك، في المجالين كليهما، عدد كبير من المشكلات التي لم تحل، لكن قدرًا كبيرًا من التقدم الجوهرى قد تحقق كذلك.

انظر إلى مقارنة أخرى مختلفة: ويختزل فيها صوت تعبير معين ومعناه جزئيًا إلى علاقات من النوع الذي رأيناه في نقاش المثالين (٢) و(٣). فلوحدة المعجمية نمط (متناه) من العلاقات بالتعبيرات الأخرى، وتتمثل هذه بالعلاقات الصوتية والعلاقات الدلالية، وقد تُضاف إليها الخصائص الإحالية الصوتية والدلالية، ويصح الشيء نفسه في التعبيرات الأكثر تعقيدًا. فتتألف العلاقات الصوتية لـ chase من الخصائص التالية: أنها تسجع مع lase، وتبدأ [صوتيًا] بالطريقة نفسها التي تبدأ بها كلمة child، وتتضمن العدد نفسه من المقاطع في pin، إلخ؛ وتتألف علاقاتها الدلالية من علاقاتها مع follow "يتبع"، و intend "يقصد"، إلخ، إضافة إلى بعض الأدوار التصورية والاستدلالية الأخرى.

وليس لهذه المقارنة، مرة أخرى، قيمة على الجانب الصوتي، كما يبدو؛ فالمقارنة النموذجية التي تقوم على "تأليف السمات" كافية للتعبير عن العلاقات الصوتية إضافة إلى الظواهر الأخرى، مثل: علاقة مكونات chase بالإشارات النطقية والضوضاء، وخصائصها التوزيعية (كالتفاعل بين الصوامت والصوائت، مثلًا)، إلخ. كما تشترك العلاقات الصوتية لـ chase

مع العلاقات الصوتية (الكلمة) في كلمات أخرى. ويمكن أن يعبر عن عدد كبير من الحقائق المشابهة في إطار وجهة النظر النموذجية التي مفادها أن الوحدة المعجمية مكونة من خصائصها، وهي التي تدخل في تحديد علاقاتها الصوتية بالتعبيرات الأخرى وغير ذلك. لهذه الأسباب لم يلتفت أحد إلى مثل هذا الاقتراح قط^(١٢).

وهناك اقتراحات مشابهة - مرة أخرى - على الجانب الدلالي، وتبرز أسئلة مماثلة. فتشارك persuade "يُحضر" في العلاقات الدلالية مع الخصائص الدلالية لـ raise "يرفع": أي في خصائص "السببية"، التي تُرست باستقصاء في لغات كثيرة، مع نتائج غير تافهة. وينبغي أن تبين صورة معقولة للوحدة المعجمية هذه الحقائق. كما ينبغي أن تبين الخصائص التوزيعية التي لم تبين (بطريقة مقنعة) في ضوء الأدوار الاستدلالية والتصورية؛ ومن ذلك مثلا، أن deny "ينكر"، و doubt "يشك"، و refuse "يرفض"، وغيرها، تظهر مع الأنواع الحدية polarity items (مثل: any, ever, "أبداً"، "إطلاقاً"، إلخ) بطرق لا تظهر بها كلمات مثل assert "يقرر"، و believe "يعتقد"، و accept "يقبل"، وأن الكلمات من النوع الأول، بهذه المعايير، تُشبه "لا"، و"قليل" (في مقابل "كثير"). وتسعى المقاربات النموذجية إلى اكتشاف خصائص "المعنى - د" و"دلا" التي يمكن في ضوءها أن يعبر عن حقائق كثيرة وأن تفسر، ويشمل ذلك الاستدلالات وخصائصها المشتركة والمختلفة.

والتأويلان الدلالي والصوتي متشابهان تقريبا، إن نظرنا إليهما بهذه الكيفية؛ فيتألف "ت" من التمثيلين الوجيهين "صو (ت)" و"دلا (ت)"، المحوسبتين من الوحدات المعجمية. فيوفر "صو (ت)" المعلومات التي تستعملها الأنظمة الحسية الحركية للنطق والإدراك؛ وتوفر "دلا (ت)" المعلومات التي تستعملها الأنظمة التصورية - القصدية للتفاعل مع العالم بطرق مختلفة حين يفكر مستعمل اللغة ويتكلم في ضوء المنظورات التي وفرتها مواردُ الذهن.

ويمكن أن يتعامل الاستعمال الإحالي للغة مع العناصر المكونية لـ
 "المعنى - د" و"دلا" بطرق متعددة. فتثير عملية التفريد عموماً بعض العوامل
 كال تصميم والاستخدام المقصود والمألوف، والدور المؤسسي، إلخ. فإذا بدا
 شيء لي كأنه كتاب لكني عرفت أنه صمم ليكون كماً من الورق يُستخدم
 للوزن وأنه يُستخدم لذلك عادة، فربما أقبّل عدّه كماً من الورق يُستخدم في
 الوزن، لا كتاباً. افترض أن مكتبة تحوي نسختين متماثلتين من مسرحية
 "ميدل مارش" [شكسبير]، وأن بيتر أخذ إحداها وأخذ توم الأخرى. فإذا
 وجّهنا اهتمامنا إلى المكوّن المادي للوحدة المعجمية فقد أخذنا كتابين مختلفين؛
 أما إن ركزنا على المكوّن المجرد للكتاب فقد أخذنا للكتاب نفسه. ويمكن أن
 نوجه اهتمامنا لكلا الأمرين بشكل متزامن، مستخدمين الكلمات بهيئتهما
 المجردة/المادية، كما في التعبيرين:

The book that he is planning will weigh at least five pounds if he ever
 writes it.

"سيكون وزن الكتاب الذي يخطط لتأليفه خمسة أرطال في الأقل إن
 أُتيح له أن يكتبه أصلاً".
 أو:

His book is in every store in the country.

"يوجد كتابه في كل متجر من متاجر بيع الكتب في البلاد".
 كما يمكن أن نصبغ الباب باللون الأبيض ونعبر من خلاله. أو انظر
 إلى الكلمة bank (التي تعني "المصرف" و"ضفة النهر"). فنحن نستطيع أن
 نقول:

The bank burned down and then it moved across the street. -1

"احترق المصرف ثم انتقل إلى مكان آخر في الجانب المقابل من الشارع".

٢- The bank, which had raised the interest rate, was destroyed by fire;

"نمر الحريق المصرف الذي رفع سعر الفائدة".

٣- The bank lowered the interest rate to keep from being blown up.

"خفض المصرف سعر الفائدة خوفاً من أن يُفجّر".

ويُحافظ على الاعتماد الإحالي عبر التمييز: مجرد/حصى. لهذا تعنى الجملة فى (١) أن المبنى احترق ثم انتقلت المؤسسة، وكذلك فى (٢) و(٣). لكننا لا نستطيع أن نقول:

٤- The bank burned down and then it eroded;

"احترق المصرف ثم تآكل".

أو:

٥- The bank, which had raised the interest rate, was eroding fast;

"كان المصرف الذى رفع سعر الفائدة يتآكل بسرعة".

أو:

٦- The bank raised the interest rate without eroding.

"رفع المصرف للفائدة من غير أن يتآكل".

ولا تعنى الجملة (٤) أن المصرف احترق ثم تآكلت ضفتا النهر.

وهذه الحقائق واضحة فى الغالب، لكنها ليست تافهة. لهذا تحترم العناصر التى تعتمد على غيرها إحصائياً، حتى المحددة تحديداً دقيقاً جداً منها، بعض التمايزات لكنها تتجاهل بعض التمايزات الأخرى (كالضمائر وأسماء

الصلة و"المقولة الفارغة"، وهي الفاعل في العبارة *being blown up* "قُجِر"، و *eroding* "يتآكل". والنتيجة الطبيعية في حالة *bank* أن هناك وحدتين معجميتين تشتركان صُدفة في "الصوت - د" (أي أنهما من "المشترك اللفظي")، وأن إحداهما - أي: "المصرف"، "متعددة الدلالات"، شأنها شأن كتاب: فهي توفر طريقاً للنظر إلى العالم يوحد الخصائص المجردة والحسية، ويسمح بالاعتماد الإحالي عبر هذه المنظورات. (للاطلاع على بعض المشكلات التقليدية، التي تتصف غالباً بالغموض والتعقيد، انظر Lyons 1977: Section 13. 4). ويمكن أن تُدرس هذه الخصائص بطرق عدة، كإكتساب اللغة، والشيوع بين اللغات، والوحدات المشابهة في اللغة الواحدة، والكلمات المصطنعة، والتخنية *zeugma*، إلخ. ويمثل ذلك، إن استمرت التشابهات والاختلافات المطردة، تأييداً للنتائج عن البنية المعجمية. وليس هناك ما يلزم بأن نتوقع أن تكون مثل هذه الخصائص موجودة في اللغة؛ أما لغة الرجل المريخي فربما تكون مختلفة.

وليس هناك من معنى واضح للسؤال: "ما الذي تحيل إليه الكلمة 'س'؟" سواء أكان السؤال عن بيتز، أو (بصورة أكثر غموضاً) عن لغة عامة ما. فلا تحيل كلمة ما عموماً، حتى أبسط الأنواع منها، إلى شيء في العالم، أو في "حيزنا الاعتقادي" - ولا يعني هذا، بالطبع، أننا ننكر أن هناك مصارف [وضيافاً]، أو ننكر أننا نتحدث عن شيء ما (بل شيء معين) إن كنا نناقش مصير الأرض *the fate of the Earth* أو *(the earth's fate)* فنستنتج أنه "كالحج؛ إذ لا يعني هذا إلا أنه ينبغي ألا ننتهي إلى نتائج غير مسوغة اعتماداً على الاستخدام اللغوي العام، وتتوسع هذه الملحوظات لتشمل أبسط العناصر المحيلة والمعتمدة إحالياً (كالضمائر، و *same* "مماثل"، و *re(build)* "يعيد بناء"، إلخ)، أو أسماء الأعلام، التي لها خصائص دلالية - تصويرية غنية مشتقة إلى حد بعيد من طبيعتنا، مع بعض التفصيلات المستمدة من التجربة. فيسمى شيء ما بأنه شخص، أو نهر أو مدينة، مع الفهم المعقد الذي

يصحب هذه المقولات. وليس في اللغة أسماء أعلام منطقية، إذا جردناها من هذه الخصائص؛ ويجب أن نكون حذرين مما سماه بيتر سنرلوسون "خرافة اسم العلم المنطقي" (Strawson 1952: 216) في اللغة الطبيعية، والأساطير المماثلة عن الإشارات indexicals والضمائر. ويمكن أن ننظر إلى التسمية على أنها نوع من "الخلق للعالم"، بمعنى شبيه بالمعنى عند نيلسون جوممان (1978)، لكن العوالم التي نخلقها غنية ومنداخلة ومشاركة إلى حد بعيد بسبب طبيعتنا المعقدة المشتركة. بل إن مثل هذه الخصائص توجه حتى الجهود الواعية للعلوم والفنون – لحسن الحظ، أما لو كان الأمر بخلاف ذلك فلن نتجز شيئاً ألبتة. (للاطلاع على مزيد من النقاش، انظر Chomsky 1975; 1995a).

ولمقاربة التأويل الدلالي في ضوء هذه الطريقة طعم تقليدي. فقد كان علم النفس العقلاني في القرن التاسع عشر يرى أن "القوى المعرفية" cognitive الفطرية تُعين الناس على "أن يفهموا أو يحكموا على ما يدركونه عن طريق الحس"، وهو الذي لا يتجاوز دوره إعطاء "فرصة [للذهن] ليُمارس نشاطه الخاص" ليصوغ "بعض الأفكار والتصورات الواضحة عن الأشياء من داخله هو" بوصفها "قواعد"، و"أنماطاً" و"أمثلة" و"توقعات" توفر [كلها] علاقات سببية والتأثير، والكل والجزء، والتناظر والتناسب، والاستخدام المعهود (للأشياء المصطنعة" أو "الأشياء الطبيعية المؤلفة" جميعها)، ووحدة الأشياء والخصائص الجشتالية الأخرى، وهي فكرة شاملة لكل، "عموماً"^(١٦). ويرى هوبز أنها تعني أن الأسماء علامات لا على الأشياء بل على أفكارنا، "تصوراتنا" "cogitations" (Hobbes 1889: 16f)؛ لذلك فالأفضل أن نفهم المفهوم التقني ("علامة" "س") التي تصدق على الكلمات، بهذه الطريقة نفسها. وقد تكون هذه "التصورات" معقدة، كما تبين تلك الطريقة التي نَفرِدُ بها [الأشياء] بناءً على التكوين والشكل والأصل وخصائص أخرى. فالرجل:

سيظل الرجل نفسه دائماً، ذلك الذي تتطلق أفعاله وأفكاره جميعها من نقطة البداية نفسها للحركة، أي تلك التي كانت في جيله؛ وأن النهر سيكون النهر نفسه الذي ينبع من المنبع نفسه، سواء أكان للماء نفسه، أو ماءً آخر، أو شيء آخر غير الماء، هو الذي ينبع من ثم لويضيف هوبز: كما في الحالة الكلاسيكية لسفينة تيسوس؛ كما ستكون المدينة هي المدينة نفسها، وهي التي تتبع أعمالها باستمرار من المؤسسة نفسها" (p. 16f).

وكان البحث في الهوية الشخصية من لوك حتى هيوم يهتم بالوحدة العضوية، وهي فكرة أوسع، فيلاحظ لوك أن الشجرة تختلف عن كتلة من المادة، وكذلك الحيوان، بسبب "انتظام أجزائها في جسد واحد متجانس، واشتراكها في حياة واحدة" تتصف بـ "تنظيم مستمر" ينبع من داخلها، بعكس الأشياء المصنوعة. ويضيف شافتمبري أن "هوية شجرة من البلوط تحل في تعاطف أجزائها" الذي يسهم في بلوغها "غاية واحدة مشتركة"، تتمثل في دعم [الشكل] وتغذيته وتنميته، ويتفق هيوم مع ذلك إلى حد بعيد، لكنه ينظر إلى "الهوية التي نعزوها إلى أنمعة البشر"، و"الأشياء الأخرى المماثلة. . . التي نعزوها إلى الخضر وأجساد الحيوانات"، على أنها ليست إلا هوية خرافية من صنع الخيال، لا من "الطبيعة الخاصة التي تنتمي إلى الشكل" كما يقول شافتمبري. ويحاج جون يولتون بأن التيار الرئيس لنظرية الأفكار من ديكارث إلى ريد كان ينظر إلى الأفكار على أنها ليست أشياء، بل طرقاً للمعرفة، "وليس علامات للبنية المادية، بل علامات نستخدمها لتعرف في ضوءها التجربة أو نتألف معها"، وهو ما يجعل "العالم كما نعرفه عالماً من الأفكار، والمحتوى المهم" (Yolton 1984: 213ff) والاستشهادات الأخرى التي سنوردها هنا وفيما بعد مأخوذة من (Mijuskovic 1974: 97-113).

وتكتسب النتيجة التي انتهى إليها هيوم مزيداً من القوة، حين ننظر بدقة إلى تعقيد التصورات ونشابكها. فيلاحظ لوك أن "الشخص" مصطلح

تشريحي يشتمل على الأحداث وأهميتها؛ لهذا لا ينتمى إلا إلى فاعلين أنكياء، قادرين على أن يشرعوا للقوانين، وأن يكونوا سعداء أو تعساء، إضافة إلى القدرة على تحمل المسؤولية عن أفعالهم، إلى جانب أشياء كثيرة. ويدخل في أفراد الأنهار والمدن عوامل كثيرة جدًا وراء الأصول التي نشأت منها. فيمكن لنهر أن يُعكس مجراه، أو ربما يمكن تحويله إلى مسار مختلف، بل أن يُفرَّع إلى قنوات ربما تتلاقى فيما بعد، أو يُغيَّر بطرق متنوعة كثيرة، لكنه يظل النهر نفسه، تحت بعض الظروف الملائمة. وتورد التقارير الصحفية بوضوح أن العلماء "اكتشفوا منبع الأمازون" في مكان غير متوقع، وهو المصدر الوحيد الذي يأتي منه، مع أن "الأنهار تبدأ [غالبًا] على صورة قنوات صغيرة كثيرة جدًا". ويلاحظ لوك أن شجرة بلوط تظل هي نفسها حين يُقطع فرع منها، لنفرض أن شجرة بلوط اقتلعت وزُرعت في مكان آخر وحل مكانها الأصلي فرع منها، ثم نما ليكون بديلًا مماثلًا لها في حين تتحلل شجرة البلوط التي نقلت وتموت — ومع هذا تظل هي الشجرة الأصلية نفسها، بحسب الهوية الخرافية التي تؤسسها القوى المعرفية الفطرية. ولا يزيد هذا عن كونه تناولًا أوليًا لمظاهر الأمر، أما إذا ذهبنا إلى أبعد من ذلك فس نجد هذه القوى تفرض إطارًا غنيًا من التأويل والفهم، وهو الذي نتوقع ألا تؤثر فيه التجربة إلا هامشيًا، كما هي الحال في البنى العضوية المعقدة الأخرى.

والخطوة قصيرة بين هذه الأفكار عن طرق الإدراك المولدة داخليًا التي تتوافق التجربة معها والوصول إلى تحليل في ضوء السمات الدلالية، أو إلى ما يسميه جوليو مورافيك "العوامل (التوليدية)" للبنية المعجمية (Moravicsk 1975; 1990)⁽¹⁾. وإذا أعدنا صياغة هذا المشروع في ضوء هذه الأطر فإننا نحاول أن نكتشف التفاصيل التشريحية للدماغ، ومنها الملكة اللغوية والأنظمة عند المستوى الوجيهي، وأن نكتشف كيف تشكل التجربة والتفاعل الاجتماعي في ضوء هذه المصادر الداخلية.

بعض الأسئلة عن المشروعية:

يُعتقد عموماً أن هذا الوجه من علم الطبيعة البشرية معقدٌ من غير داع، أو أنه توجّه خاطئٌ من حيث المبدأ. فترى إحدى وجهات النظر أن الأدلة التي تُستخدم في التدليل على مبادئ الملكة اللغوية يمكن أن تُعلل بشكل أكثر بساطة بـ... . الفرضية التي تقول إن "الملكة اللغوية فطريةٌ في الأدمغة البشرية" حقاً لكن هذا لا يدعو إلى أكثر من القول بوجود "مستوى عضوي للتفسير في ضوء بنية الجهاز" و"مستوى وظيفي للتفسير يصف أنواع اللغات التي يمكن اكتسابها" (Searle 1992: 244). أو أنه يلزم أن نتخلى عن الملكة اللغوية بشكل تام لصالح "الفرضية المنافسة" التي تقول إن "الوظيفة الأصلية لبنى الدماغ الفطرية كانت وما تزال تنظيم التجربة الإدراكية، أما تنظيم المقولات اللغوية فوظيفة إضافية مكتسبة لم تتلاءم العملية التطورية معها إلا صدفة" وهو ما يؤدي إلى التغلب على مشكلة تعليل تطور اللغة، من بين "مزايا أخرى" (Paul Churchland 1981: 86)⁽¹⁾.

أما أن هناك "مستوى عضويًا" فأمر لا خلاف عليه، إن قصد بذلك احتمال أن الثورات والخلايا، وغيرها تدخل، احتمالاً، في "بنية جهاز" الملكة اللغوية التي تتصف بأنها "فطرية في الأدمغة البشرية". لكن لا يسعنا الآن إلا اتباع نصيحة جوزيف بلاك الممتازة فنصوغ "رصيداً من المبادئ" عن الملكة اللغوية؛ وربما أمكن أن نقول المزيد مع النقّم نحو التوحيد – وربما تكون الاقتراضات الحالية عن "العضو" خاطئة تصورياً، كما كانت حال الكيمياء. ويهتم "رصيد المبادئ" بالسؤال عن "ما أنواع اللغات التي يمكن أن تُكتسب" وما خصائصها، وتفاعلاتها مع الأنظمة الأخرى، والطريقة التي تُكتسب بها وتستخدم، وبمشكلات التوحيد، وأي شيء آخر يصلح أن يكون موضوعاً لبحث مفيد. ويبدو أن عملنا في تفصيل هذه القضايا يُعِيننا إلى "القواعد العميقة غير الشعورية" التي يرى سيرل إمكان الاستغناء عنها. وسيرل محق في قوله "إنه لا يضيف شيئاً من القوة التنبؤية أو التفسيرية أن نقول إن هناك

مستوى آخر للقواعد العميقة غير الشعورية" (Searle 1992: 244-245) للملكة اللغوية، "إضافة إلى [المستويين العضوي والوظيفي]". أما ما اقترح [وهو اقتراح تشومسكي] فمختلف إلى حد بعيد [عن هذا]؛ فهو بنى ومبادئ محدّدة للملكة اللغوية، تعود في الأقل إلى تحليل جزئي لخصائص اللغة. ولن تكون الكيمياء، بالمثل، شيئاً مهماً لو اكتفت بالقول بأن هناك خصائص بنيوية عميقة للمادة، إذ لم يطور شيء عن هذه الخصائص إلا بوصفه رصيذاً من المبادئ. ويُذكر هذا النقاش، في أفضل أحواله، بالخلاف القديم عن إن كان يجب عزو الخصائص الكيميائية، والبنى الجزئية، وغيرها، إلى المادة أو أن يُنظر إليها ببساطة على أنها وسائل حسابية؛ وليس لذلك كله من فائدة، كما يُجمع [مؤرخو علم الكيمياء] حين يُرجعون النظر الآن فيما حدث، ويقع ذلك كله في إطار ملحوظة بيرج العميقة عن أن الأسئلة الوجودية ontology وما يشبهها تالية معرفياً للأسئلة عن نجاح الممارسات التفسيرية والوصفية" (Burge 1986a: 18؛ وانظر أيضاً: Chomsky 1986: 250f; 1995a; note 2)^(١١).

وربما صار اقتراح بول تشيرشلاند "فرضية مناهضة" إن فصلت تفصيلاً كافياً ليتعامل مع أكثر خصائص اللغة أولية (كـ "اللانهائية للمتمايزة"، و"اعتماد البنية"، إلخ)، ومع خصائص المثال (١) والأمثلة الأخرى الشبيهة، من ثم^(١٢). وربما يكون ضرورياً التعامل مع حقيقة أننا لا نجد، كما يتنبأ فيما يبدو، تماثلاً في التطور المعرفي والبنى المحصّلة عبر المجالات، والتشابه في استخدام اللغة عند أفراد نوع يتماثلون في طرق تنظيم التجربة الإدراكية، وعدم الانفصال الوظيفي نتيجة للإعاقات، والتجانس بين بنى الدماغ، إلخ.

وقد قدّم هيلاري بتنام تحدياً أكثر جوهرية في مقاله الذي ينتقد فيه: "الفرقة الذهنية [عند الباحثين الذين ينتمون لجامعة] إم. آي. تسي"، وهي جزئياً وجهة النظر التي بينت خطوطها العامة إلى الآن (وهي التي عزّاهما لي ولفورد؛ Putnam 1986a; 1986b)^(١٣)، وكان يهدف من ذلك أن يُزِيل "نظرية التمثيلات الدلالية الفطرية"، التي تؤكد:

أ - "أن هناك تمثيلات دلالية" في الذهن/الدماغ".

ب - "أن هذه التمثيلات فطرية وكلية".

ج - "أنه يمكن أن تحلُّ تصوراتنا كلها إلى هذه التمثيلات الدلالية"

(Putnam 1986b: 18)

وترى "نظرية التمثيلات الدلالية" كذلك أن الذهن "مشفّر للرسائل المعمّاة": أي أن "الذهن يفكر أفكاره بـ"اللغة الذهنية" *lingua mentis* ، ويشفّر هذه الأفكار باللغة الطبيعية المحلية، ثم يؤديها" إلى سامعٍ يحوى رأسه، بالطبع، مشفّراً للرسائل المعمّاة كذلك، وهو الذي يقوم من ثمّ بفك رموز "الرسالة" (Putnam 1986b: 20) التي صيغت باللغة الذهنية.

وتذهب "نظرية التمثيلات الدلالية" بعيداً جداً وراء "اللسانيات - د". والقول بأن التمثيلات التي تولدها "اللغة - د" تحول إلى "لغة ذهنية" فرضية مختلفة. كما يذهب الحكم (ج) إلى ما وراء دراسة اللغة، التي تعنى بالملكة اللغوية، لا بالأنظمة المعرفية الأخرى، وهي أنظمة قد تكون (وأفترض أنها كذلك) مختلفة في طبيعتها. ويتطلب الحكم (ب) شيئاً من التوضيح. إذ إن العناصر التي تصاغ منها التمثيلات وحدها هي ما يُعدُّ فطرياً (ومن هنا فهي كلية، وتتوفر بصورة عامة مع أنها ربما لا تتحقق). ومن هنا ربما تكون مكونات التمثيل الصوتي والطريقة التي تولف بها فطرية، أما التمثيلات نفسها فلا؛ فهي تختلف في الإنجليزية عنها في اليابانية، بل تختلف حتى بين الأخوة. والشيء نفسه صحيح عن أي شيء يدخل في تثبيت المعنى - سواء أكان "التمثيلات الدلالية"، أم أي شيء آخر. فتختلف اللغات بعضها عن بعض بهذا المعيار، وهذه مشكلة من مشكلات كثيرة تورق المترجمين. وليس هناك خلاف بخصوص هذا الشأن، وليس هناك خلاف، احتمالاً، في شأن الدعوى التي تقول إن عناصر أية شيء مما يدخل في تثبيت المعنى فطرية. ومن الصعب أن نتخيل أي دعوى بديلة.

وهناك أسسٌ اختبارية للاعتقاد بأنَّ التنوع أقلُّ في المظاهر الدلالية للغة منه في مظاهرها الصوتية. ذلك أنَّ المادة للصوتية الأولية تتوفر للطفل بغزارة، كما يبدو أن الفجوة بين الهدف الذي يحققه الطفل والمادة الأولية [الصوتية] المتوفرة أضيق من الفجوة بين الهدف المحصل والمادة الأولية في الأنظمة الدلالية الفرعية، وإذا كان الأمر كذلك فالتسامح مع التنوع إفي الأنظمة الصوتية] أسهل، أما دراسة المعنى فيجب أن تواجه حقيقة أن التعرُّض المحدود جدًا في ظروف متنسبة جدًا كافٍ ليتمكن الأطفال من فهم معاني الكلمات والتعبيرات الأخرى المعقدة تعقيدًا بالغًا إلى حدة يتجاوز أي شيء مما بدأت أكثر المعاجم وكتب النحو ثمولاً في تبينه، وهي معانٍ تتصف بقدر عالٍ من الدقة والتشابه لم يفهم إلا فهمًا أوليًا جدًا. ولهذه الأسباب سعى البحث الاختباري نحو اكتشاف الخصائص الدلالية الفطرية والكلية.

وتجب مواجهة هذه المشكلات سواء تبيننا إطار "اللسانيات - د" (أو بشكل أوسع، "نظرية التمثيلات الدلالية") أو أي إطار آخر. ويبدو كأن يتنام يرى أن آليات الذكاء العام تكفي. ويوجب هذا أن يكون لهذه الآليات البنية الفطرية اللازمة التي تمكنها من حمل الذهن من المادة الأولية المتوفرة إلى الأنظمة المعرفية المحصلة. [ويغني هذا] أن المشكلة نُقلت الآن، فيما يخص اللغة، من الملكة اللغوية إلى الذكاء العام. وتواجهنا الآن المشكلات التي تواجه "الفرضية المنافسة"، وهي أن كل شيء يُختزل بشكل ما إلى التنظيم الإدراكي. وتبدو النتائج غير مشجعة كما في السابق، لكن ليس هناك ما يمكن أن يناقش إلا أن يُقترح شيء محدد.

وتُختزل الدعوى التي يقصد بتنام زلزلتها، فيما يخص اللغة، الآن، إلى (٦):

أ٦ - هناك تمثيلات دلالية في الذهن/الدماغ.

ب٦ - تصاغ هذه التمثيلات من عناصر فطرية.

والحكم (٦ب) غير ضار إن صحَّ الحكم (٦أ). لكن الحكم (٦أ) ليس مقصوداً على "النزعة الذهنية [عند الباحثين في] جامعة إم. آي. تي"؛ إذ يفترض علمُ الدلالة الاختباري عموماً شيئاً شبيهاً بها. افترض، مع هذا، أن الحكم (٦أ) زائف. لهذا لا تحوى الملكة اللغوية أو أي نظام آخر من أنظمة الذهن/الدماغ تمثيلات دلالية. إلا أن هناك حالة داخلية ما تدخل في الكيفية التي نفهم بها الجمل، كالتي في "خ" أو الأمثلة في (١)، مثلاً. فيرى بديل الحكم (٦) - إنن - أن مثل هذه الحالات لا تحوى تمثيلات دلالية. ويبدو كأن البديل المقصود يُبقى على المسلّمات عن حالات الذهن/الدماغ التي تتصل بالصوت، وربما تلك التي تتصل بالخصائص البيوية للملكة اللغوية التي تدخل في تأسيس معنى التعبيرات، لكن ليس "التمثيلات الدلالية"، فتمثّل المعرفة المعقدة المحددة التي اكتسبها الطفل، ويستخدمها، في الذهن/الدماغ بطريقة ما، لكن ليس بالطريقة التي طوّرت في دراسات علم دلالة اللغة الطبيعية، التي حققت نجاحاً واسعاً الآن، وربما يكون هذا محتملاً، وربما تكون النظرية الصوتية الحالية بعيدة عن إصابة الهدف، كذلك. لكن التحليق، مرة أخرى، غير ممكن.

وإذا نحننا هذا جانباً، دعنا ننظر في نقد بتنام للحكم (٦أ). ويأتى هذا النقد على صور شتى. وإحداها أن "المعنى شبكي" holistic. فتقابل الجمل، في المعادلة التي اقترحها كوين، اختبار التجربة بصفقتها جسمًا تضامنيًا واحداً، ويمكن للمراجعة أن تحدث عند أي مفصل فيها. وتبدو هذه الصيغة معقولة في العلوم إلى حد ما، ويبدو كأن رودولف كارناب يتفق مع هذه النظرة، وإن كان يفضل صياغتها بشكل مختلف (انظر Uebel and Hookway 1995). لكن المسائل هنا تتعلق باللغة الإنسانية، وهي موضوع أحيائي، لا بالعلوم التي يصوغها البشر، مستخدمين ملكات ذهنية مختلفة، كما يبدو.

ويرى بتنام، مع ذلك، أن "لغة الحياة اليومية" الخصائص الشبكية

holistic نفسها التي في العلوم. ذلك أن الخطاب اليومي يعتمد على مسلمات غير معلنة، لذلك فـ "إذا كانت اللغة تصف التجربة فهي تفعل ذلك بوصفها شبكة، لا بالنظر إلى الجمل جملةً فجملةً" (Putnam 1986b: 23). لكن اللغة لا تصف التجربة، وإن أمكن استخدامها لوصفها أو الخطأ في وصفها، أو استخدامها بطرق أخرى لا حصر لها، ولا يبين لنا كون المسلمات غير المعلنة تدخل في استخدام اللغة شيئاً ذا صلة بما نحن فيه هنا.

وثلثت إحدى صور نقد بتنام إلى الممارسة العلمية. لكن ليس لهذه الحجج، سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، صلة باللغة البشرية، أو بالمظاهر الأخرى للتفكير البشري، إلا انطلاقاً من بعض المسلمات عن وحدة الذهن التي يلزم بكل تأكيد أن تسوّغ، وهو ما لا يتوفر الآن، وتعتمد أجزاء أخرى من حجته على بعض النتائج عن "اللغة الذهنية" و"اللغة العامة"، والحدوس عن الترادف والترجمة وأمور أخرى، وهي أمور لا يبدو أن لشيء منها صلة هنا حتى إن كانت ممكنة (وهو ما أشك فيه دائماً، انظر Chomsky 1995a).

ويتصل ما بقي من حجته بـ"فرضية تشومسكي الفطرية". ولم يسبق لي قط أن فهمت ما يفترض أن تعنيه هذه، وتحدّض هذه الفرضية دائماً، لكن لم يسبق لأحد أن صاغها أو دافع عنها، على حد ما أعلم. ويحتمل أن تكون الملكات المعرفية، شأنها شأن الملكات الأخرى كلها، مغروسة في الإعداد الأحيائي، وأن تكون الملكة اللغوية (على افتراض وجودها) نوعاً من التعبير عن المورثات. أما وراء ذلك، فلا أعرف أن هناك فرضية فطرية، وإن كان هناك بعض الفرضيات المحددة عن ما الذي يكون فطرياً على وجه التحديد.

ويبدو أن بتنام يماهى بين "الفرضية الفطرية" و:

١- فرضية أن "اللغة الذهنية" فطرية؛

٢- فرضية أن "المفردات الذهنية" فطرية.

ولا تقيد "اللسانيات" - د" نفسها بـ (١) أو (٢) - على حد ما نفهم هاتين الفرضيتين، في الأقل؛ وأعترف أن فهمي لا يذهب بعيداً. يضاف إلى ذلك، أن الفرضيتين أيًا كان مضمونهما متميزتان احتمالاً؛ فليست "اللغة الذهنية" هي المعجم الذهني، مثلما أن اللغة الإنجليزية ليست مفردات هذا المعجم.

ثم يلتفت بنتام، من ثم، إلى الحجج التي يُزعم بشكل واسع أنها لا تهدد "النزعة الذهنية [عند الباحثين في] جامعة إم. آي. تي" فحسب، بل تهدد كذلك إحدى دراسات المعنى والإحالة منذ أرسطو حتى ميل ورامسل وفريجه وكارناب، أي التقليد الذي يتبنى (٧) و(٧ب):

١٧ - "حين نفهم كلمة ما أو أية "علامة" أخرى، نربط تلك الكلمة بـ "تصور" ما.

٧ب - يحدد هذا التصور مرجع الكلمة (أو "العلامة").

ويرى بنتام أن (٧) نُحضت بكون المرجع يحدد جزئياً عن طريق "تقسيم العمل اللغوي" و"ما تسهم به البيئة".

ولا تقيد "اللسانيات" - د" نفسها بـ (٧)؛ ولا يمكنها ذلك، إذا لم تُفسر المفاهيم التقنية بشكل ما. فأقصى ما تتقيد به "اللسانيات" - د" هو (٨):

١٨ - حين نفهم "س" الكلمة "ك"، فإن "س" يستخدم خصائصها.

١٨ب - يمكن أن تتضمن هذه الخصائص على "الصوت" - د" و"المعنى" - د"، وإذا كان ذلك كذلك، فـ "المعنى" - د" يؤدي دوراً في تحديد ما يحيل إليه "س" حين يستخدم "ك".

وليس وراء ذلك شيء يمكن تحديده بدقة.

ولا يبدو أن لنقد (٧) صلة بمكون "اللغة" - د" في "النزعة الذهنية [في] جامعة إم. آي. تي"، في الأقل، لكن دعنا نتخصصها على أية حال. فينظر

بتنام، في توضيحه لتقسيم العمل اللغوي، إلى الكلمة robin [طائر صغير يسمى "أبو الحناء"] في الإنجليزية البريطانية والإنجليزية الأمريكية. افترض أن بيتر البريطاني الذي يعيش في بريطانيا وبيتر الأمريكي الذي يعيش في أمريكا متماثلان من حيث المعايير ذات الصلة، لكنهما ليسا واعيّن بأن:

٩- "لا تحيل للكلمة robin إلى النوع نفسه من الطيور في بريطانيا والولايات المتحدة"

فلدى بيتر البريطاني وبيتر الأمريكي الكلمة نفسها في لغتيهما - د، لكنها تحيل إلى شيئين مختلفين لأن "الإحالة ظاهرة اجتماعية" تتضمن الرجوع إلى الخبراء. لهذا يجب أن نهجر الفرضية التقليدية (٧).

وإذا أخذنا الجملة في (٩) على أنها حكمٌ عن حقيقة علاقات اللغة بالعالم، فإننا نرغب في التحقق من كونها صحيحة أم لا، فيجب علينا أولاً أن نفهم الكلمات فيها: وعلى وجه التحديد، "الكلمة: robin" والفعل: "تحيل"، وهي علاقة يُزعم أنها موجودة بين "الكلمة robin" ونوع أحيائي ما. دعنا نسلّم (بقدر كبير من الاستعجال) بأننا نفهم ما يكفي عن المقصود حين نتكلم عن "الكلمة robin"، بوصفها وحدة في لغة عامة (كما هو المقصود). فماذا عن الكلمة "يحيل"؟ ويستخدم الناس الكلمات ليحيلوا إلى الأشياء بطرق مختلفة، لكن اللغة الإنجليزية لا تتضمن كلمة "يحيل" أو "إحالة" بالمعنى الذي في (٩)؛ وكذلك اللغات المماثلة، وهو للسبب الذي أُلجأ فريجه إلى أن يخترع مصطلحين تقنيين والسبب كذلك في التنوعات الكثيرة للكيفية التي تترجمان بها، وقد جعل ذلك بعض الباحثين يفضل الكلمات اللاتينية التي توضح مكانتهما التقنية. لذلك يجب أن نقوم بعمل ما لنجعل تقويم (٩) ممكناً بوصفه زعماً اختبارياً.

ويوحى السياق (كاللجوء إلى التجارب الذهنية، إلخ) بأنه ينبغي أن يفهم الحكم (٩) في إطار دراسة النظريات الشعبية، وإذا كان الأمر كذلك فلا يبدو أن هذه النتائج مهمة لـ "اللسانيات - د"؛ أو حتى للدراسات التقليدية احتمالاً،

إن فهمت على أنها تقم نوعاً من التأسيس المنهجي. ومع ذلك دعنا نسأل إن كان الحكم (٩) مؤسساً تأسيساً قوياً في إطار دراسة النظرية الشعبية، ولكي نتجنب المصطلحات التقنية (التي لم نقر بعد)، دعنا نختر جملاً إنجليزية مناظرة لها، وربما تلك المصطلحات التي في (١٠):

Petrus uses the word robin to refer to one species of bird, and
PeterGB to refer to different species.

"يستخدم بيتر الأمريكي الكلمة robin ليحيل إلى نوع من الطيور،
ويستخدمها بيتر البريطاني ليحيل إلى نوع مختلف".

فهل (١٠) صحيحة؟ إن الطيور التي يسميها بيتر الأمريكي robins
مختلفة بطرق مختلفة كثيرة عن الطيور التي يسميها بيتر البريطاني
robins، لكن هذا صحيح أيضاً في حالة بيتر الأمريكي وصديقه تشارلز،
اللذين عاشا جارين طوال حياتهما. لذلك يجب أن نعرف أشياء كثيرة لكي
نقوم (١٠).

افرض أننا سألنا عن ما الذي يمكن أن يقوله بيتر الأمريكي إن ذهب
إلى بريطانيا ورأى تلك الأشياء ذات الصدور الحمراء هناك؟ ربما يسميها،
افتراضاً، بـ robins لذلك لن يفيدنا هذا شيئاً. افرض أن جونز سيقول إن
بيتر الأمريكي مخطئ حين يسمي هذه الطيور في بريطانيا بـ robins (أما
أنا فربما لا أفعل). ويعني هذا أننا نتعلم الآن شيئاً عن جونز لا صلة له بما
نحن فيه هنا.

وربما كان جونز يقترض شيئاً شبيهاً بالدعوى (٩). فربما كان يعتقد
أن "التصور" robin عند بيتر الأمريكي لا يشمل النوع كله في بريطانيا؛ وأن
"تصور" ماء عند أوسكار الأرضي لا يشمل المس ص ع في تسووم
الأرض. لكن هذا يعيدنا الآن مرة أخرى إلى السؤال الأصلي، أي: كيف لنا
أن نتحقق إن كانت مزاعم جونز صحيحة؟

افرض أن بيل ابن عم بيتز الأمريكى يعيش فى منطقة من الولايات المتحدة تنتمى فيها الطيور التى تسمى robins إلى نوع فرعى مختلف. فإذا زار بيتز الأمريكى بيل وسمى الشيء الذى فى حديقة منزله بـ robin، فهل يكون مخطئاً؟ وهل يمكن أن يفهم كلام بيل عن الـ robins؟ افرض أن مارى (زوج بيتز الأمريكى) نشأت فى المنطقة التى نشأ فيها، لكنها قُضت جزءاً من طفولتها فى بريطانيا. فما الذى تحيل إليه مارى حين تتكلم عن الـ robins؟ وتختلف الأحكام تبعاً لاختلاف الحالات، بطرق متعددة كثيرة، وهى أحكام فى الغالب الأعم غير واضحة إلى حد بعيد جداً.

ولا تبدو هذه الحالة معضلة فى "النزعة الذهنية [عند الباحثين فى] جامعة إم. آى. سى"؛ تلك أن الأشخاص المذكورين، الذين يتشابهون من حيث بعض المعايير ذات الصلة، سيصدرون الأحكام نفسها، افتراضاً، عما يكون robin. وتثير النتائج الأخرى عن إن كانوا مُصيّبين أم مخطئين، أو كيف تُستخدم "الكلمة robin" لتحيل فى "اللغات العامة"، أو للتعبير عن اعتقاداتهم، مسائل أخرى ربما تستحق الاستقصاء، أو ربما لا تستحقه حين تصاغ بشكل ملائم واضح. وليس هناك شيء وراء هذا يستحق الحديث عنه، فيما يبدو.

ويستشهد بتنام، فى توضيح "ما تسهم به البيئة" بحجة توهم الأرض وحجج أخرى، وتقوم كلها على افتراضات عن "ما يمكن لشخص متوسط أن يقوله" فى ظروف مختلفة. ومرة أخرى، ليست هذه الحجج مهمة بشكل مباشر لنظرية عن اللغة تتبنى الدعوى (٨). فأقصى ما يمكن أن تبينه هذه الحجج أن النظرية أو "نظرية التمثيل الفطرى" لا تقدم تفسيراً كاملاً للسلوك اللغوى، أو أنها لا تحيط بالاستخدام العادى، وهذا أمر واضح منذ البداية.

وتقوم الحجج (عن "ماء") على فرضية أن "الماء" هو H₂O. ويجب علينا، لكى نقوم مكانة هذا الحكم، أن نعرف ما اللغة التى ينتمى إليها. وهو لا ينتمى إلى اللغة الإنجليزية؛ إذ ليس فيها كلمة H₂O. ولا ينتمى إلى الكيمياء، التى ليس فيها كلمة "ماء" (مع أن الكيميائيين يستخدمون هذه الكلمة

في حديثهم للعام). ويمكن اقتراح أن الكيمياء والإنجليزية تنتميان إلى لغة عليا، لكن يبقى أن نفسر ما يعنيه هذا (انظر Bromberger 1996).

وإذا ما وضعنا مثل هذه المماحيكات جانباً، فهل صحيح أن المتكلم المتوسط يعتمد على "المكونات" حين يقرر إن كان شيء "ماء"؟ افترض أن كأسين G و G' وضعوا فوق الطاولة، وقد ملئ الكأس G من الصنبور وملئ G' من بئر. افترض أن كيساً من الشاي غمس في G. ويمكن أن يكون محتوى G و G' متماثلاً كيميائياً؛ إذ ربما جاء ماء الصنبور من مصدر ماء يستخدم "مصفأة من الشاي" لإزالة الشوائب. وعلى الرغم من معرفتي بأن محتوى الكأسين متماثل فربما أقول إن ما في G "ماء"، لا شاي؛ وأن ما في G' شاي، لا ماء. ويبدو لي أن هذا أمر مألوف. فالمكونات من العوامل التي تساعد في تقرير إن كان شيء ما "ماء"، لكنها ليست العامل الوحيد^(٨).

ويذكر هذا الوضع بحالة الكلمة "كتاب" والأشياء الأخرى الشبيهة. فبإمكاننا هنا كذلك أن نرتب الظروف مما يجعلنا نوجه اهتمامنا إلى التكوين، لا إلى العوامل الأخرى، في تقرير ما نتحدث عنه، وربما صحح لنا، في مثل هذه الظروف، أن نسمى ما يحويه G و G' كلاهما "ماء"، وربما تستطيع الدراسة الاختبارية تبين أن التكوين من العوامل الأكثر جوهرية لـ "ماء" منها لـ "كتاب"؛ وربما كان ذلك كذلك، لكن ذلك ما يزال غير ذي صلة بـ (٨)، وليس هناك إجابات، في الحالات العادية، إلا في ضوء ظروف واهتمامات معقدة متنوعة تؤدي إلى ما أسماه أكييل بيلجرامسي (1992) بـ "محلية المضمون". فإذا اعتقدت ماري أن هناك ماء في المريخ، مثلاً، وأن شيئاً اكتشف هناك وتعدّه "ماء" مع أن تكوينه الداخلي هو التكوين الداخلي للماء الثقيل أو لـ "س ص ع"، فليس هناك إجابة عامة عن إن كان اعتقادها صحيحاً أم خطأ.

ويضيف الاحتكام إلى استخدام الخبر مازق جديدة، ومن ذلك أن مقالاً علمياً نشر مؤخراً يفتتح بالقول إن "الزجاج، في التصور للعام والصحيح

أساسًا، سائلٌ فقد قدرته على الجزيان، ثم يستمر ليستنتج أن معظم الماء في الكون موجود في حالة الزجاجية (كما في المذنبات، إلخ)، بصفته ماء مُترَجِّجا يظهر بصورة طبيعية" (Angell 1995: 1924). افترض أن مَسْهَد الشاي — الماء الذي وصفناه آنفا حدث في نوع الأرض، حيث يصنع سكانها كؤوسهم من أنساب المذنبات التابعة للأرض. ثم افترض أن أوسكار الأرضى هبط على نوع الأرض وطلب ماء، مشيرًا إلى G. فهل هو محق إن كان يُحيل إلى الكأس ومخطئ إن كان يحيل إلى محتوياته؟ وأحكامى [عن هذا الأمر] واضحة إلى حد معقول، وأظن أنها نمطية.

لننظر إلى هذه القضايا من زاوية مختلفة، ولتأخذ ألبرت وبييل على أنهما متماثلان نسبيًا، وأن "أ" و"ب" تفاعلتان متماثلتان تمامًا، و"أ" شيء فى تجربة ألبرت، و"ب" شيء فى تجربة بييل. ويفكر كل واحد منهما بتفاعله، وينظر إليها، ويقضم منها قضمًا، وهو ما يؤدي إلى تغيرات شاملة متماثلة للحالة، فهل سنقول إن تفكيريهما وخياليهما البصريين ونوحيهما وتغير وزنى التفاعلتين وغير ذلك متماثلة عند ألبرت وبييل لكنها "موجهة" إلى شيئين مختلفين؟ أم أنها مختلفة عندهما، حيث الشيطان الخارجيان "أ" و"ب" "جزءان" من تفكيريهما، إلخ؟ وإذا سمع ألبرت وبييل أدامين متماثلين لـ "خ"، فهل يمتلكان تجربتين متماثلتين سمعا وفهما موجهتين نحو أشياء مختلفة، أم يمتلكان تجربتين مختلفتين تتضمنان تلك الأشياء؟ ويمكن أن يتعامل الاستخدام اللغوى فى الإنجليزية العادية مع المقاربة "الخارجية" بخصوص الفكر والفهم أكثر من تعامله فيما يخص تغيرات الوزن، لكن ليس من الواضح ما الذى يمكن أن نتعلمه من هذا، وعلم الطبيعة البشرية متخلف جدًا إلى درجة لا تسمح له بإثارة هذا السؤال، وتبدو الصورة التى تقترحها المقاربة الداخلية ملائمة، وإن كانت غير كاملة بالمعنى غير المهم الذى تأخذ فيه دراسة ألبرت وبييل فى بيئتهما البيئية فى الاعتبار.

وغالبًا ما تكون الأمثلة العادية أكثر تعقيدًا. انظر مثلاً إلى أحد أوجه

الاختبار المحير عند سول كرييك. افرض أن بيتر قال:

I used to think that Constantinople and Istanbul were different cities,
but now I know they are the same.

كنت أظن أن للقسطنطينية وإسطنبول مدينتان مختلفتان، لكنى أعرف
الآن أنهما شيء واحد.

ثم يضيف:

But Istanbul will have to be moved somewhere else, so that
Constantinople won't have an Islamic character.

لكن يجب أن تنقل إسطنبول إلى مكان آخر، حتى لا يكون
للقسطنطينية طابع إسلامي.

(للاطلاع على أمثلة حقيقية من هذا النوع انظر Chomsky 1995a)،
فهل يعنى هذا أن بيتر تبني وحدات معجمية جديدة؟ أو اعتقادات جديدة؟ أو
أشياء مختلفة؟ وإذا قال، محيلاً إلى إسطنبول:

It will have to be moved and rebuilt elsewhere.

"إنه يجب نقلها وإعادة بنائها في مكان ما".

[ياستخدام الضمير it الذى يعنى الإشارة الآن إلى شيء معلوم لأنه
سبق الحديث عنه، واستخدم السابقة الفعلية re التى تدل على إعادة بناء
المدينة]

(فى حين تظل المدينة نفسها)، فكيف يمكن لنا أن نؤول الوجدتين
المكتوبتين بالخط المائل [فى الجملة الإنجليزية] – وهما اللتان تتصرفان
بأشكال مختلفة بطرق غريبة تبعاً لتنوع الأمثلة؟ (انظر Chomsky 1995a؛
وانظر أيضاً الفصل الخامس فى هذا الكتاب). وليس بإمكاننا، كما يبدو، أن

نقوم بحملنا إلا بطريقة معقولة كما أوضحنا من قبل.

انظر إلى قضية احتمال الوقوع في الخطأ؛ فمن الواضح أننا نود أن يكون باستطاعتنا أن نقول إن بيتر ربما يكون مخطئاً في تسمية شيء ما بـ "س". لهذا ربما يكون مخطئاً في وصفه محتوي G بأنه "ماء"، حين لا يعرف أنه "ماء"، لا "ماء"، أو ربما يخطئ في أخذه رزمة من الورق تستعمل مقياساً للوزن على أنها كتاب. وربما يكون مخطئاً بسبب غفلته؛ ذلك أنه ربما لن يسميه "س" لو كان واعياً بالحقائق، أو ربما كنا نتبنى وجهة نظر تعتمد على التكوين في تقريرنا إن كان مخطئاً أم مصيباً، لهذا ربما كان ما يأخذه بيتر على أنه "ماء" شيئاً مختلفاً، كأن يكون "ماء ثقيل" أو "س ص ع"، وهذه المحاولات نموذجية في العلوم، أما كونها ملائمة عن اللغة الطبيعية، وبأى معيار إن كانت كذلك، فأمر ينتظر أن يوضح. وربما يكون ضرورياً أن نبيّن الإطار النظري الذي أثرت فيه هذه الأسئلة، وإذا كان هذا الإطار يستعمل أفكاراً مثل "تصور"، فمن الضروري أن تحدّد هذه للتصورات بطرق واضحة؛ لا بافتراض أنها تحدّد بالنظر إلى تكوينها الداخلي، مثلاً. وليس هناك سؤال واضح، ومن هنا فليس هناك إجابات واضحة.

افرض أن للفتى تشارلي تجارب فادته إلى أن يعرف أن استخدمه [اللغوي] يختلف عن استخدام البالغين في مجموعته [اللغوية]^(٢١). افرض أنه كان يحيل في الطور (١) [من أطوار اكتسابه اللغة] إلى الحيوانات المائية المعهودة على أنها "أسماك" وإلى الحيوانات المائية الكبيرة على أنها "حيتان"، وإذا ما وجد أن البالغين يتكبنون استخداماً مختلفاً في تسمية أقرب الحيوانات النظيرة (وينطقون أسماءها بأشكال مختلفة أيضاً) انتقل إلى الطور (٢)، مكيفاً نفسه مع استخدام البالغين، سواء بوعي أم بغير وعي. فكيف نصيف ما حدث؟

وربما يميل بعض الملاحظين إلى القول بأن تفكير تشارلي عن الحيتان والأسماك في الطور (١)، والطريقة التي استخدم بها الكلمات ونطقها بها

خطأ. وأنه استطاع تصحيح خطئه حين وصل إلى الطور (٢)، ويشهد هذا بأنه يُحسن من معرفته بالإنجليزية، وهي لغة المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها (ولا يقمُ الاستخدَامُ العادي للغة طريقة للإحالة إلى نظامه اللغوي في الطور (١))، ويمكن للبحث عن فهم أوفى أن يتبع المسارين المألوفين. فيمكن أن نسعى لتعلم المزيد عن كيف يتكلم الناس ويفكرون عن مثل هذه الأمور، أو لتعلم المزيد عما يحدث بالفعل.

والتفسيرُ في ضوء "اللسانيات - د" واضح، وإن لم يكن كاملاً، ويعود ذلك إلى المدى الذي يصل إليه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إلى نقص الفهم داخل هذا المدى. فيملك شارلي، في الطور (١)، "اللغة - د ل ١" التي تتضمن للوحدتين المعجميتين "سمك ١" و"حوت ١". أما في الطور (٢)، فتحتوي "لغته - د ل ٢": "سمك ٢" و"حوت ٢"، اللتين تختلفان من حيث الخصائص شيئاً ما. والسمات الصوتية [لهذه الكلمات] مختلفة (افتراضاً)؛ لكن وضع السمات الدلالية غير واضح، فهل للوحدتين المعجميتين الجديدتين سمات مختلفة، تتضمن المعايير الجديدة للإحالة إلى الحيوانات المائية؟ وهل تنتقيان مناطق مختلفة في "اللغة الذهنية"، أو للحيز التصوري، أو النظام الاعتقادي؟ أو أي شيء آخر؟ وسوف يتغير ما يسميه شارلي أمثاء بطرق شتى، في ضوء الحقائق العارضة، نحو: هل تنتمي الحيوانات المائية الكبيرة التي كان يعرفها في الطور (١) إلى الفقريات أم إلى سمك التونة. ويمكن لنا أن نبحث عن بعض المبادئ التي تتصل بما يمكن أن يكون قد حدث، ثم نسأل إلى أي مدى يمكن لما حدث أن يتبع مساراً آخر لو اختلفت الظروف. ولا يُعرف إلا القليل عن هذه المواضيع مما يجعلنا نكتفي بالافتراض بشأنها، لكن لا ينشأ عن هذا مشكلات مبدئية واضحة. وربما لن يتقدم مشروع البحث باللجوء إلى فكرة "تعيين المعنى" "الإحالة" (denotation) للكلمات في لغة عامة" يعرفها المتكلمون جزئياً ويشتركون فيها، أو إلى "الذهن الجمعي" أو إلى "الكلمات" التي تظل ثابتة في حين يتنوع النطق والاستخدام، وغير ذلك من الأفكار المماثلة التي ظلت غامضة.

افرض أننا قاربنا هذا الأمر في ضوء فكرة للإحالة في لغة عامة، وربما في ضوء نظرية سببية. ويجب علينا حينئذ أن نحدد هل ظلت الإحالتان لـ "حوت" و"سمك" ثابتتين في الوقت الذي غير فيه تشارلي ما يسميه أشياء (ومن ذلك الأشياء في تجربته السابقة)، وكذلك ما حدث لمضمون أفكاره. وحين تبين الأفكار التقنية ربما تسهل صياغة الأسئلة الاختبارية المهمة عن، كيفية تفكير الناس في هذه الأمور في هذه الثقافة أو تلك، وفي هذا السياق اللغوي أو ذلك، أما في علم الطبيعة البشرية فلا يبدو لي هذا المسار واعدًا.

انظر أخيرًا إلى حالة ناقشها بيرج (Burge 1986b)، وتبين نوعًا من البحث لافتًا للنظر، افرض أن "أ" يشارك متكلمى الإنجليزية الآخرين في الكلمة sofa "أريكة"، وفي التجارب ذات الصلة بالأشياء التي يسمونها sofas "أرائك". لكنه صار يعتقد أن "الأرائك" sofas "لا تُستخدم أثنًا يجلس عليه، بل أعمالاً فنية أو مصنوعات لها وظائف دينية"، وليس الجلوس عليها وظيفة أصلية لها. فيتفق "أ" مع الآخرين على ما يمكن أن يعدّ أرائك من بين الأشياء الموجودة في تجربتهم المشتركة، لكنه يختلف عنهم في وظيفة الأرائك؛ وربما يختلف معهم أيضًا فيما إن كانت الأرائك تُستعمل فعلاً للجلوس، (ويظن "أ" أن الآخرين مخدوعون في هذه المسألة)، ويستنتج بيرج أنه إذا وُجد أن شكوك "أ" تقوم على أسباب قوية، فربما يجب أن يتغير المعنى المتواضع عليه لـ sofa، لكن ربما يظل من الملائم. . . أن نعزو بعض التوجهات الافتراضية التي تشمل على فكرة الأريكة" (Burge 1986b: 715)، كما وصفناه آنفاً.

والسؤال الآن: كيف يمكن وصف هذه الأحداث في إطار المقاربة الداخلية، التي نوسعها الآن لتشمل الافتراض بأن هناك نظام تصور - د' ونظام اعتقاد - د' إلى جانب اللغة - د'؟

فيمتلك "أ" والآخرين، في البداية، الوحدة المعجمية sofa، و"التصور - د' sofa نفسه، و"الاعتقادات - د' نفسها عن الأرائك، ولنسم هذا كله بالوحدة

المشتركة المعقدة "أريكة" SOFA. ويُنظر إلى الأرائك، في داخل هذه الوحدة المعقدة، على أنها مصنوعات لها بعض الخصائص المادية والوظائف المعينة، وتتغير "الوحدة المشتركة المعقدة لأريكة" SOFA، عند "أ" إلى وحدة أخرى هي 'SOFA' ويصحب هذا التغير تحول في اعتقاداته عن وظيفة الأرائك، ويمكن لشخص آخر، ونسمة "ب"، أن يغير من معتقاداته عما تتكون منه الأرائك، مستخلصاً أن الأرائك في العادة مستوية السطح ولها أذرع حديدية، لكنها ما تزال تُستعمل للجلوس عليها؛ وتتحول SOFA، عند "ب" إلى وحدة من نوع آخر: "SOFA"، ويتفق الجميع على ما يعدُّ أرائك من بين الأشياء التي تحيط بهم، لكن "أ" يختلف عن الآخرين في وظيفة الفصيلة التي تنتمي إليها هذه الأشياء، ويختلف "ب" عنهم في مكوناتها.

وبلى هنا، ليس هناك صعوبة في وصف الأحداث والحالات الذهنية - (د) عند المشاركين. ولم نقل شيئاً بعدُ عما حدث للمعنى المتواضع عليه، والأفكار والاعتقادات في أثناء تطوُّر معالم هذه القصة؛ أو عن أين حدثت هذه التغيرات في "الأريكة".

ولا يمكن أن نتناول السؤال الأول إلا بعد أن توضَّح هذه الأفكار. أما السؤال الثاني فربما يكون ذا صلة هنا، لكن الإجابة عنه ما تزال غير ممكنة. وتحدث التغيرات، افتراضاً، في مكوّن "الاعتقاد - د" للأريكة [بمعناها العام المعقد] SOFA، لكن هذا لا يجيب عن السؤال عن إن كان "أ" و"ب" قد غيرا الوحدات المعجمية في لغتيهما - د، أم أنهما غيرا مظهرًا آخر من مظاهر الوحدة المعقدة "أريكة" SOFA، ومهما كانت الإجابة فيبدو أن هناك تفسيرًا مطردًا لها.

ويحاجُّ بيج أنه ربما يكون من "السطحي غير المقبول" القول بأن "أ" غير لغته حين شعر ببعض الشكوك، ذلك "أنه ليس صعباً أن نفهم أنه يثير بعض الأسئلة عن حقيقة الأرائك" وأن نعرف كيف نقارب هذه الأسئلة، وإذا سلمنا بكل ما تقدم فما يزال - مع ذلك - تجهل إن كان "أ" قد غير لغته - د،

مستبدلاً بوحدة معجمية أخرى غيرها. فإذا ظلت "لغته" - د" ثابتة، فربما يقول الآن إن ما كان يظنه الناس عن الأرائك خطأ؛ أما إذا تغيرت بالطريقة التي وصفناها، فربما يقول الآن إن الناس مخطئون في تسميتهم هذه الأشياء "أرائك" - تلك أنها في الواقع أشياء أخرى، ومهما كان الأمر، فنحن نستطيع فهم أسئلته ونعرف كيف نتقصاها. وهناك أسئلة اختبارية ثاوية قريباً من السطح، وربما يمكن الكشف عنها، ومع ذلك فليس من الواضح إن كان هناك شيء أكثر من هذا أهمية هنا.

وتنشأ أسئلة مماثلة عن الحيتان والأسماك، افرض أنه يُنظر إلى الحيتان على أنها أسماك في المجموعة اللغوية التي ينتمي إليها بيتر، لكنه قرر أن تصنيفاً آخر ربما يكون أكثر ملاءمة، لذلك عدل من استخدامه. ومرة أخرى، ليس صعباً أن نفهم أنه يثير أسئلة عن الحيتان والأسماك (وربما عن "ماهيئتها" حقيقة، وإن لم يكن من الواضح إن كانت هذه أوضح طريقة للكلام عنها)، ونحن نعرف كيف نتقصى هذه الأسئلة.

ويبدو أن البحث في هذه الحالات في تنوعها الأخاذ يقود إلى إجابات تتنوع تنوعاً واسعاً حين نغير الظروف المفترضة تغييراً قليلاً، ويثير بعض الشكوك عن مدى ما يمكن أن نتعلمه بمقاربة هذه الأمور بهذه الطريقة. لكن لا يبدو لي - بغض النظر عن أي شيء - أن لهذه الظواهر أثراً على صحة المقاربات الداخلية للمظاهر اللغوية والمظاهر الذهنية الأخرى للحياة البشرية، إلى الحد الذي يمكن أن تصل إليه، أو أنها توحى ببديل مفضل آخر.

هوامش الفصل السابع

- (١) للاطلاع على بعض الأمثلة المشابهة، وعدد من القضايا التي تجاوزناها هنا بدرجة كبيرة من العجلة (انظر Chomsky 1995a).
- (٢) وقد تحاورنا أنا وجون سيرل عن هذه القضايا لسنين عدة. ومن الواضح أننا نتفق على عدم تمالك النزعة الأحادية monism والنزعة الثنائية والنزعة المادية، إلخ (انظر Searle 1992: 25; Chomsky 1968: 98)، وعلى الوضوح الأساسي لتصورات القرن الثامن عشر للذهن – الجسد من النوع الذي نكرته أنفا. لكننا لم نتفق على الكيفية التي تفسر بها خصائص اللغة؛ انظر أدناه.
- (٣) لاحظ أنني لا أوافق على أن الاختيار يقع بين تأويل "الإحاطة grasp والفهم understanding بصفتها حالتين شعوريتين"، أو أنهما "مجرد نمطين لردود الفعل الناتجة عن التدريب" (انظر Gaifman 1996: 387، حيث يتبنى وجهة نظر يعزوها إلى مايكل دوميست). ويبدو أن فهم (الجمل التي في (١)، أو الخبر (خ)، إلخ) يتضمن حالات وعمليات لا تقع تحت أي من المقولتين.
- (٤) وهناك عدد من الأفكار المختلفة عن كيفية النفاذ إليها. للاطلاع على نقاش نقدي لبعض هذه الأفكار وعن بديل "الإدخال المتأخر"، انظر (Halle and Marantz 1993). وسأعرض عن هذه الأمور جميعها هنا.
- (٥) ويورد ستك (Stich 1996: 38f) الصياغات النموذجية – لكنه لا يتبناها، وهو يميزها عن "اللسانيات – (د)" و "ما قبل – العلم" بخصوص الإحالة.
- (٦) لاحظ أنه ليس هناك تعارض بين قبول ملحوظات فتجينشتاين الحنرة

عن هذه الأمور والنتائج القوية - شيئاً ما - عن خصيصة عدم التغير في الصوت والمعنى.

(٧) ويُعدُّ توماس ريد Thomas Reid أشهرَ للذين يحتاجون متبَعين طريقةَ فلسفة اللغة العادية الحديثة التي مفادها أن تصورَ فكرةٍ ما على أنها "الموضوع الذي يتأملُه الذهن" يقوم على خطأ في تأويل النحو السطحي، ويمكن توسيع حجته لتشمل الفكر والاعتقاد وحالات أخرى. وللتوسع في قضية النظر إلى الأفكار على أنها موضوعات للفكر أو حالات للذهن في فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر، انظر (Yolton 1984) الذي يحتاج بأن ريد والشراح الآخرين قرعوا تقاليد ذينك القرنين قراءة خاطئة، ولنظر أُنهاء.

(٨) كان يُفترض في الأبحاث المبكرة جداً من النوع الذي ناقشهُ هنا أن "اللغة - د" تولد "سامات" في مستويات لغوية متعددة (أي المستوى الصوتي، ومستوى الكلمة، ومستوى بنية المركبات، إلخ)، وكل واحدة من هذه "تمثل" صوت (ت) بوصفه محصولاً صحيحاً عنه. لهذا فد "صو (ت)" هو . . . ، حيث تمثل النقاط "لتمثيل" الصوتي (أو تمثيل الكلمة، أو تمثيل البنية المركبية، إلخ) (للاطلاع على بعض التفاصيل انظر Chomsky 1955/1975). ويمكن أن يؤخذ "صو (ت)" (ومن هنا، الوسمُ على المستويات كلها) على أنه "يمثل" المنطوقات بطريقة مماثلة؛ ولأن المنطوقات ترتبط بحالات المتكلمين، يمكن أن يُفهم الحَمَل على أنه صحيح عنها، وهو المسار الذي اتبعه برومبيرجر وهاله (Bromberger and Halle 1996)، في مناقشتها للمستويات الصوتية في ضوء مقاصد المتكلمين (وهي التي تُفهم على أنها تزداد على حالات الذهن)، وكان مقصدهما للمقارنة بين النظريات المتنافسة، وهو سبب جيد من أجل البحث التأسيسي المفيد، وهو الذي قلما يقام به.

(٩) ولأسباب مماثلة، فعلى الرغم من أن فرضية "استقلال التركيب" رُفضت

بشدة فإنَّ أحدًا لم يدافع عنها إطلاقًا - على حد ما أعلم - كما أن القائلين بها لم يصوغوها بأية طريقة مفهومة.

(١٠) ولأسباب مماثلة تواجه النظرية عن "الجمل المترجمة" T-sentences بعض المشكلات حين يختلف الموضوع واللغة الواصفة، لذلك لا توفر الحصيلة المعلوماتية للجمل المترجمة غير المجانسة أسسًا جيدة لتسوية المقاربة. ومهما كانت قيمتها، وهي حقيقية، فهي لا تلامس السؤال عن الكيفية التي تفاعل بها اللغة مع العالم، وهي التي تمثل قلب النظرية التقليدية عن المعنى. انظر أيضا (Fodor 1990).

(١١) ينبغي ألا يلتبس به افتراض أن "القيم الدلالية (أو الصوتية)" وحدات ذهنية، بعلاقات (وحدة معجمية، قيمة) نوات خصائص صورية لـ "تحيل" و"يُعين" بمعنييهما التقنيين. فيجب أن يُنظر في هذه المسألة بشكل مواز للافتراضات المتعلقة بالموضوعات التركيبية الأخرى. ويبدو لي أن من الملائم (وإن لم يكن متواضعًا عليه) أن نفهم كثيرًا من الأبحاث في دلالة اللغة الطبيعية في ضوء هذه الطرق.

(١٢) وربما أمكن أن نفهم بعض افتراضات البنيويين في ضوء هذا التحليل، لكن ذلك ربما يكون تأويلًا مشكوكًا فيه، كما أظن.

(١٣) وهذه الاستشهادات مأخوذة من (Cudworth 1838: 425)، لكن وجهة النظر هذه عامة؛ وكانت مؤثرة في الشكل الذي اقترحه "كانط" لهذه الفكرة كذلك؛ (انظر 67-68: Chomsky 1966).

(١٤) ويأخذ مورافيك (Moravcsik 1975; 1990) متبنيًا أفكارًا أرسطية وتطبيقاتها بشكل عام على الدلالة للمعجمية هذه العوامل على أنها "المكونات، والبنية، والوظيفة، والفاعلية". للاطلاع على بعض التعليقات انظر Chomsky 1975؛ وعلى تفصيلات بعض الأفكار المماثلة (انظر Pustejovsky 1995).

(١٥) وأنا لا أتوقف هنا عند الاختلافات الاصطلاحية غير ذات الصلة.

(١٦) ويحاجُّ سيرل أيضًا بأن افترض بعض القواعد غير الشعورية ليس مشروعًا، لكنه يقدِّم هذه الحجة اعتمادًا على ما يبدو لي كأنه أسباب غير مهمة؛ انظر (Chomsky 1990). وطريقته الاختزالية التي استعمل فيها القياس على "ملكة الإبصار" لا صلة لها هنا لأن المبدأ الذي كان محققًا في رفضه إياه يقتصر إلى أية قوة تفسيرية.

(١٧) وهناك بعض الأبحاث الجادة تتصف بطعم يكاد يكون قريبًا من هذه الفرضية، سواء في القديم أو الحديث. (انظر: Jackendoff 1994: Chapter 14 والمراجع المذكورة هناك).

(١٨) وإن أتوقف عند الأسئلة التي تتعلق بدقة العزو حين لا يكون ذلك ضروريًا.

(١٩) وهذه الملحوظة مألوفة؛ انظر مثلًا (Strawson 1952: 189).

(٢٠) للاطلاع على بعض الأبحاث الاختبارية التي تخلص إلى أن H₂O لا يتماشى إلا بشكل ضعيف مع الأحكام عما يكون "ماء"، أو حتى ما يمكن أن يعدَّ نموذجًا للماء، انظر Malt 1994؛ وراجع Braisby et al. 1996 عددًا من الأفكار والأبحاث الاختبارية عن مثل هذه الأمور، ويقدمون بعض النتائج التي وصلوا إليها هم أنفسهم ويحاجُّون بأنها "تبيِّن أن مصطلحات الأنواع الطبيعية لا تستخدم بطريقة "ماهوية" essentialist".

(٢١) وهناك عدد من الآراء اللاحقة عن مثل هذه الحالات في أبحاث تايلر بيرج، ومنها بحثاه اللذان نشرهما في 1989؛ 1986b. وليس من الواضح تمامًا لي إن كنا أنا وهو نختلف اختلافًا كبيرًا في هذه القضايا، وإذا كنا نختلف أين يقع هذا الاختلاف. للاطلاع على أحد التأويلات، انظر Mercier 1992.



المصطلحات الواردة في الكتاب

cognitive revolution	الثورة المعرفية
generative Grammar	النحو التحويلي
body - mind problem	مشكلة الذهن - الجسد
unification of science	توحيد العلم
internalist	البحث الداخلي
Gordian knot	عقدة جور د
referential semantics	علم الدلالة الإحالي
individualistic	فردية
I-language	"اللغة - د"
reduction	اختزال
Naturalism	المقاربة الطبيعية
dualist demands	الاشتراطات الثنائية
empirical	اختباري
naturalistic	الطبيعية
contact michanics	آليات التماس
cells	الخلايا
neurons	العصبونات
electrophysiological	الكهربائية العضوية
science forming faculty	ملكة صياغة العلم
free will	حرية الإرادة
consciousness	الشعور
competence	الكفاءة اللغوية (المعرفة اللغوية)
performance	الأداء (الإنجاز)
perception	الإدراك

utterances	المنطوقات
genetically determined	محدد وراثياً
innate	فطري
initial state	الحالة الأولى
principles and parameters	المبادئ والوسائط
minimalism	نظرية الحد الأدنى
transformations	التحويلات
deep structure	البنية العميقة
surface structure	البنية السطحية
head-first	الرأس - أولاً
head-last	الرأس - آخر
antigens	المحفزات
representations	تمثيلات
phonetic form	الصورة الصوتية
logical form	الصورة المنطقية
optimal	مُنْثَى
optimality	المنثوية
perfect	مُحْكَمَة
legibility conditions	شروط المقرئية
displacement	الإزاحة
features	سمات
syntax	تركيب
poverty of stimulus	فقر المنبه
computation	الحوسبة
thesis	الدعوى
analysis	التحليل
synthetic	التركيب (التأليف)

folk science العلم الشعبي
 ethnoscience العلم الإثنى
 accessibility to consciousness إمكان النفاذ إلى الشعور
 biolinguistics اللسانيات الأحيائية
 faculty of language الملكة اللغوية
 reconstruction للترسيم
 discret infinity اللانهائية المتمايضة
 language acquisition device جهاز اكتساب اللغة
 input دخل
 output خرُج
 anthropological linguistics الأناسة اللغوية
 descriptive adequacy كفاية الوصف
 explanatory adequacy كفاية التفسير
 boundary conditions شروط الحدود
 interface المستوى الوجيهي
 projection principle مبدأ الإسقاط
 binding theory نظرية الربط
 case theory نظرية الحالة الإعرابية
 chain condition شرط السلسلة
 indices إشارات
 bar level مستوى بشرطة
 phrase-structure rules قواعد البنية المركبية
 adjacency شروط التجاور
 c-command علاقة التحكم المكوني
 government العمل
 topic- comment المبتدأ والخبر
 spicifity التحديد

agentive force القوة الفاعلية
 merge ادمج
 Move! انقل!
 phonology الصَوّاة
 phonetics علم الأصوات
 human functional organization التنظيم الوظيفي البشري
 common- sense البديهية
 sychic persistence الثبات النفسى
 intentional Realist قائل بواقعية القصد
 natrual kinds الأنواع الطبيعية
 internal relational structure البنية العلائقية للداخلية
 selectional properties الخصائص التصنيفية
 perceptual content المضمون الإدركى
 folk psychology علم النفس الشعبى
 veridical perception الإدراك الحقيقى
 retina الشبكية البصرية
 optic nerve للعصب البصرى
 visual cortex القشرة المخية للبصرية
 perceptioal displacement الإزاحة الإدراكية
 clicks الطقطقات
 phrase المركب
 computational representations التمثيلات الحوسبية
 eliminative الإقصائية (الاستبعاد)
 eliminative materialism الإقصائية المادية
 generive procedure الإجراء التوليدي
 structural description الوصف البنيوي
 event semantics دلالة الحدث

pragmatics الذريعية
arbitrariness الاعتباطية
passing theory نظرية عابرة
incremental learning التعلم المتدرج
assonance التجانس الصوتي
entailment الاقتضاء
anaphora الضمير العائد
empty categories المقولات الفارغة
autosegmental المسنوي القطعي المستقل
wide content المضمون الواسع
variables المتغيرات
naturalized epistemology الإبستمولوجية العلمية الطبيعية
regulative principle المبدأ التنظيمي
radical translation الترجمة المتطرفة
informant الراوية
coordinate structure constraint القيد على بنية العطف
drift الانتحاء
recursive تكرار
constituants المكونات
plato's problem مشكلة أفلاطون
generalized learning mechanisms آليات التعلم المعممة
innateness hypothesis الفرضية الفطرية
parser المحلل
malapropism سبق اللسان في نطق الصوت
methodological naturalism المقاربة للطبيعية المنهجية
methodological dualism المقاربة للتنائية المنهجية
anti-foundationalism معارضة النزعة الأسسية

معرفية epistemic
القياس الاحتمالي abduction
الانتقاء الطبيعي natural selection
جهاز اكتساب اللغة Language Acquisition device
النحو الكلي Universal Grammar
الشعور consciousness
جوهر ثان (عقل) res cogitans
شرط التقرير assertability condition
الاستنتاج a priori
الاستدلال a posteriori
القوانين الجسرية bridge laws
العلم الإثني ethnoscience
المادية materialism
الشعور الممكن potential consciousness
العصبونات neurons
التربط association
التقييد conditioning
النفوذ إلى الشعور Access to consciousness
الرأس أولاً head first
الرأس أخيراً head last
وسيط الرأس head parameter
نظرية الربط للعامل binding theory
مبدأ الصلابة rigidity principle
الإبصار الأعمى blindsight
المبدأ الرابط connection principle
طفرة mutation
جمل ممشي الحديقة garden path sentences

theory-theory	نظرية النظرية
reconstruction	ترسيب
rule-governed	محكومة بالقاعدة
epistemic boundedness	المحدودية المعرفية
discrete	متمايز
lateral geniculate	التجنيب الجيني
modularity	القالبية
adjacency	التجاور
instantation	التشخيص
multiple embedding	الدمج المتعدد
quantifiers	المسورات
linguistic agent's on things	منظور الفاعل اللغوي عن الأشياء
access to conciousness	النفوذ إلى الشعور
access in principle	النفوذ من حيث المبدأ
extention	ما صدق
phonology	صوالة
bilabial stop	الصوت للشفتاني الوقفي
Receptors	المدرجات
null subject	الفاعل للصقر
empty operator	المتغير الصفر
trace	الأثر
phonetic value	القيمة الصوتية
late insertion	الإدخال المتأخر
argument - structure	علاقات البنية الموضوعاتية
quantifier-variable	علاقات السور بالمتغير
body - mind problem	مشكلة العقل - الجسد
body - body problem	مشكلة الجسد - الجسد

شبكية المعنى holism
الثبات النفسي sychic persistence
التفريد individuation
التحليل analysic
التركيب (التأليف) synthetic
قائل بواقعية القصد intentional Realist
شرط التأكيد assertability condition
اللانفاذ impenetrability
نظرية النظرية theory-theory
Sense معنى
Denotation تعيين المعنى (الحقيقي) خارج اللغة
Intension مفهوم
القصدية intentionality

References

- Almog, Joseph (1991) "The what and the how." *Journal of Philosophy* 5: 225-44.
- Angell, C. Austen (1995) "Formation of glasses from liquids and biopolymers." *Science* 267: 1924-1935.
- Atlas, Jay (1989) *Philosophy without Ambiguity*. Oxford, Clarendon Press.
- Austad, Steven (1994) "Communication complexity and modality in non-human primates." In Carleton Gajdusek, Guy McKhann and Liana Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience*, X.1-2, pp. 89-93.
- Austin, John (1962) *How to do Things with Words*. Oxford, Clarendon Press.
- Baillargeon, Renée (1993) "How do infants learn about the physical world?" MS, University of Illinois.
- Baker, Lynne Rudder (1987) *Saving Belief: A Critique of Physicalism*. Princeton University Press.
- Baker, Lynne Rudder (1988) "Cognitive suicide." In R.H. Grimm and D.D. Merrill, eds, *Contents of Thought*. Tucson, AZ, University of Arizona Press.
- Baldwin, T.R. (1993) "Two types of naturalism." *Proceedings of the British Academy* 80: 171-99.
- Barinaga, Marcia (1994) "Neurons tap out a code that may help locate sounds." *Science* 264: 775.
- Bilgrami, Akeel (1987) "An externalist account of psychological content." *Philosophical Topics*.
- Bilgrami, Akeel (1992) *Belief and Meaning*. Blackwell, Oxford.
- Bilgrami, Akeel (1993) "Discussion." In Noam Chomsky et al. *Language and Thought*. London, Moyer Bell, pp. 57-68.
- Bradley, David (1994) "A new twist in the tale of nature's asymmetry." *Science* 264: 908.
- Braisby, Nick, Bradley Franks and James Hampton (1996) "Essentialism, word use, and concepts." *Cognition* 59: 247-74.
- Brock, William (1992) *The Fontana/Norton History of Chemistry*. New York and London, Norton.
- Bromberger, Sylvain (1992a) "Types and tokens in linguistics." In S. Bromberger, *On What We Know We Don't Know*. University of Chicago Press, pp. 170-208.
- Bromberger, Sylvain (1992b) *On What We Know We Don't Know*. Chicago, University of Chicago Press.

- Bromberger, Sylvain (1996) "Natural kinds and questions." In Matti Sintonen, ed., *Essays on Jaakko Hintikka's Epistemology and Philosophy of Science*. Poznan, Studies in the Philosophy of Science and the Humanities.
- Bromberger, Sylvain and Morris Halle (1996) "The Content of Phonological Signs," MS, MIT.
- Brook, Andrew (1994) *Kant and the Mind*. Cambridge University Press.
- Burge, Tyler (1986a) "Individualism and Psychology." *Philosophical Review* 95: 3-45.
- Burge, Tyler (1986b) "Intellectual Norms and Foundations of Mind." *Journal of Philosophy* 83: 697-720.
- Burge, Tyler (1986c) "Cartesian error and the objectivity of perception." In Philip Pettit and John McDowell, eds., *Subject, Thought and Context*. Oxford, Clarendon Press, pp. 117-36.
- Burge, Tyler (1989) "Wherein is language social." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky*. Blackwell, Oxford, pp. 175-91.
- Burge, Tyler (1992) "Philosophy of language and mind." *Philosophical Review* 101: 3-51.
- Carey, Susan (1985) *Conceptual Change in Childhood*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Carol (1986) "Analytic study of the Tadoma method: Language abilities of three deaf-blind subjects." *Journal of Speech and Hearing Research* 29: 332-47.
- Chomsky, Noam (1951/1979) *Morphophonemics of Modern Hebrew*. University of Pennsylvania Master's Thesis. New York, Garland Publishing. (Revised version of 1949 BA thesis.)
- Chomsky, Noam (1955/1975) *Logical Structure of Linguistic Theory*. Plenum, New York; excerpted from unpublished 1955/56 MS.
- Chomsky, Noam (1957) *Syntactic Structures*. The Hague, Mouton.
- Chomsky, Noam (1964) *Current Issues in Linguistic Theory*. The Hague, Mouton.
- Chomsky, Noam (1965) *Aspects of the Theory of Syntax*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Noam (1966) *Cartesian Linguistics*. Harper and Row, New York.
- Chomsky, Noam (1968) *Language and Mind*. Harcourt Brace Jovanovich, New York. Extended edition 1972.
- Chomsky, Noam (1969) "Some empirical assumptions in modern philosophy of language." In S. Morgenbesser, P. Suppes and M. White, eds., *Philosophy, Science and Method: Essays in Honor of Ernest Nagel*. New York, St Martin's Press, pp. 260-85.
- Chomsky, Noam (1975) *Reflections on Language*. Pantheon, New York.
- Chomsky, Noam (1977) "Questions of form and interpretation." In Noam Chomsky, *Essays on Form and Interpretation*. North Holland, New York, pp. 25-59.
- Chomsky, Noam (1980) *Rules and Representations*. Oxford, Blackwell.
- Chomsky, Noam (1981a) *Lectures on Government and Binding*. Dordrecht, Foris.
- Chomsky, Noam (1981b) "Principles and parameters in syntactic theory." In N. Hornstein and D. Lightfoot, eds., *Explanations in Linguistics*. London, Longman, pp. 123-46.

- Chomsky, Noam (1986) *Knowledge of Language*. New York, Praeger.
- Chomsky, Noam (1987) "Reply" [to reviews of his 1986 by A. George and M. Brody]. *Mind and Language* 2: 178-97.
- Chomsky, Noam (1988a) *Language and Problems of Knowledge: The Managua Lectures*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Noam (1988b) "Language and Problems of Knowledge." *Synthesis Philosophica* 5: 1-25.
- Chomsky, Noam (1990) "Accessibility 'in Principle'." *Behavioral and Brain Sciences* 13: 600-1.
- Chomsky, Noam (1991a) "Linguistics and adjacent fields: a personal view." In A. Kasher, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 3-25.
- Chomsky, Noam (1991b) "Linguistics and cognitive science: problems and mysteries." In A. Kasher, ed., *The Chomskyan Turn*. Oxford, Blackwell, pp. 26-53.
- Chomsky, Noam et al. (1993a) *Language and Thought*. London, Moyer Bell.
- Chomsky, Noam (1993b) "A minimalist program for linguistic theory." In K. Hale and J. Keyser, eds., *The View from Building 20*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 1-52.
- Chomsky, Noam (1995a) "Language and Nature." *Mind* 104: 1-61.
- Chomsky, Noam (1995b) "Bare Phrase Structure." In G. Webelhuth, ed., *Government and Binding Theory and the Minimalist Program*. Oxford, Blackwell, pp. 383-439.
- Chomsky, Noam (1995c) *The Minimalist Program*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Chomsky, Noam (1998) "Minimalist inquiries: the framework." MS, MIT.
- Churchland, Patricia (1994) Presidential address of the APA Pacific Division, March 1994.
- Churchland, Paul (1979) *Scientific Realism and the Plasticity of Mind*. Cambridge University Press.
- Churchland, Paul (1981) "Eliminative materialism and the propositional attitudes." *Journal of Philosophy* 78: 67-90. Reprinted in Scott Christensen and Dale Turner, eds., *Folk Psychology and the Philosophy of Mind*. Hillsdale, NJ, Erlbaum, 1993.
- Churchland, Paul (1994) Review of Searle, 1992, *London Review of Books*, 12 May.
- Clark, Andy and Annette Karmiloff-Smith (1993) "The cognizer's innards." *Mind and Language* 8: 487-530.
- Cohen, Leonore (1941) *From Beast-Machine to Man-Machine*. Oxford University Press.
- Cudworth, Ralph (1838) *Treatise concerning Eternal and Immutable Morality*. American edition of *Works*, ed. T. Birch.
- Darwin, C. (1859/1968) *The Origin of Species by Means of Natural Selection*. Edited by J.W. Burrow. Harmondsworth, Penguin.
- Davidson, Donald (1980) "Psychology as philosophy." Reprinted in *Essays on Actions and Events*. Oxford University Press, pp. 229-39.
- Davidson, Donald (1984) *Inquiries into Truth and Interpretation*. Oxford University Press.
- Davidson, Donald (1986a) "A coherence theory of truth and knowledge." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 307-19.

- Davidson, Donald (1986b) "A nice derangement of epitaphs." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 433-46.
- Davidson, Donald (1990a) "The structure and content of truth." *Journal of Philosophy* 87: 279-328.
- Davidson, Donald (1990b) "The second person." MS, University of California, Berkeley.
- Davies, Martin (1991) "Individualism and perceptual content." *Mind* 100: 461-84.
- Dennett, Daniel (1988) "When philosophy encounters artificial intelligence." *Daedalus* 1998 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 283-95.
- Dennett, Daniel (1991) Review of McGinn (1991). *TLS* 10 May.
- Descartes, René (1649/1927) Letter (to Morus). In R.M. Eaton, ed., *Descartes Selections*.
- Devitt, Michael and Kim Sterehny (1989) "Linguistics: what's wrong with 'the right view'." *Philosophical Perspectives* 3: 497-531.
- Dijksterhuis, E.J. (1986) *Mechanization of the World Picture*. Princeton University Press.
- Dobbs, Betty Jo and Margaret Jacob (1995) *Newton and the Culture of Newtonianism*. Humanities Press, New York.
- Dreben, Burton (1992) "Putnam, Quine and the facts." *Philosophical Topics* 20: 293-315.
- Dummett, Michael (1986) "A nice derangement of epitaphs: some comments on Davidson and Hacking." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 459-76.
- Dummett, Michael (1991) *The Logical Basis of Metaphysics*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Dummett, Michael (1993) *The Seas of Language*. Oxford, Clarendon Press.
- Barman, J., ed. (1992) *Inference, Explanation and Other Philosophical Frustrations*. Berkeley, CA, University of California Press.
- Edelman, Gerald (1992) *Bright Sun, Brilliant Fire*. New York, Basic Books.
- Egan, Frances (no date) "Computation and content." MS, Rutgers.
- Epstein, Samuel (1999) "UN-principled syntax and the derivation of syntactic relations." In Samuel Epstein and Norbert Hornstein, eds., *Working Minimalism*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Evnine, Simon (1991) *Donald Davidson*. Stanford University Press.
- Fodor, Jerry (1975) *The Language of Thought*. New York, Crowell.
- Fodor, Jerry (1983) *The Modularity of Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry (1987) *Psychosemantics*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry (1990) *A Theory of Content*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry (1994) *The Elm and the Expert*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Fodor, Jerry and Ernest Lepore (1992) *Holism: A Shopper's Guide*. Oxford, Blackwell.
- Frege, Gottlob (1892/1945) "Über Sinn und Bedeutung." *Zeitschrift für Philosophie und Philosophische Kritik* 100: 25-50. Reprinted in part as "On sense and nominatum" in Ernest Nagel and Richard Brandt, eds., *Meaning and Knowledge: Systematic Readings in Epistemology*. Harcourt, Brace & World, New York, pp. 69-78.

- Friedman, Michael (1993) "Remarks on the history of science and the history of philosophy." In P. Horwich, ed., *World Changes: Thomas Kuhn and the Nature of Science*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 37-54.
- Garfman, Haim (1996) "Is the 'bottom-up' approach from the theory of meaning to metaphysics possible?" *Journal of Philosophy* 93: 373-407.
- Galilei, Galileo (1632) *Dialogues on the Great World Systems*, as translated by Thomas Salusbury, 1661.
- Gay, Peter (1970) *The Enlightenment: An Interpretation*. London, Weidenfeld and Nicholson.
- Gibson, Roger (1986) "Translation, physics, and facts of the matter." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 139-54.
- Gleitman, Lila (1990) "The structural sources of verb meanings." *Language Acquisition* 1: 3-55.
- Goodman, Nelson (1978) *Ways of Worldmaking*. Hassocks, Harvester Press.
- Gould, Stephen J. (1982) *The Panda's Thumb*. New York, Norton.
- Griffin, Donald (1994) "Animal communication as evidence of animal mentality." In Carleton Gajdusek, Guy McKharrn and Liana Bolis, eds., *Evolution and Neurology of Language: Discussions in Neuroscience* X.1-2, pp. 67-71.
- Hagoort, Peter, Colin Brown and J. Groothusen (1993) "The syntactic positive shift (SPS) as an ERP-measure of syntactic processing." *Language and Cognitive Processes* 8: 439-83.
- Hagoort, Peter and Colin Brown (1994) "Brain responses to lexical ambiguity, resolution and parsing." In Charles Clifton et al., eds., *Perspectives on Sentence Processing*. Hillsdale, NJ, Erlbaum, pp. 45-80.
- Halle, Morris and Alec Marantz (1993) "Distributed morphology and the pieces of inflection." In K. Hale and S.J. Keyser, eds., *The View from Building 20*. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 111-76.
- Harman, Gilbert (1980) "Two quibbles about analyticity and psychological reality." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 21-2.
- Haugeland, John (1979) "Understanding natural language." *Journal of Philosophy* 76: 619-32.
- Herbert of Cheshire (1624) *De Veritate*. Translated by M.H. Carré, University of Bristol Studies No. 6, 1937.
- Higginbotham, James (1985) "On semantics." *Linguistic Inquiry* 16: 547-93.
- Higginbotham, James (1989) "Elucidations of meaning." *Linguistics and Philosophy* 12: 465-517.
- Hobbes, Thomas (1889) *The English Works of Thomas Hobbes*, Vol I. Edited by William Molesworth.
- Holton, Gerald (1996) "On the art of scientific imagination." *Daedalus = Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 125: 183-208.
- Huarte, Juan (1575) *Examen de Ingenios*. Translated by Bellamy, 1698.
- Humboldt, Wilhelm von (1836/1988) "Über die Verschiedenheit des Menschlichen Sprachbaues." Berlin. Translated by Peter Heath as *The Diversity of Human Language-Structure and its Influence on the Mental Development of Mankind*. Cambridge University Press.
- Hume, David (1740/1978) *A Treatise of Human Nature*. Edited by L.A. Selby-Bigge. Second edition revised by P.H. Nidditch. Oxford, Clarendon Press.

- Hume, David (1748/1975) *An Enquiry concerning Human Understanding*. Edited by L.A. Selby-Bigge; third edition revised by P.H. Nidditch. Clarendon Press, Oxford.
- Hume, David (1841) *The History of England: From the Invasion of Julius Caesar to the Revolution in 1688*. London, 6 volumes; T. Cadell.
- Jackendoff, Ray (1994) *Patterns in the Mind*. New York, Basic Books.
- Jacob, François (1974) *The Logic of Living Systems: A History of Heredity*. Translated by Betty E. Spallmann. London, Allen Lane.
- Jacob, Margaret (1988) *The Cultural Meaning of the Scientific Revolution*. Philadelphia, PA, Temple University Press.
- Jacob, Margaret (1991) *Living the Enlightenment: Freemasonry and Politics in Eighteenth-Century Europe*. Oxford University Press.
- Jaeger, H.M. and Sidney R. Nagel (1992) "Physica of the granular state." *Science* 255: 1523-31.
- Jenkins, Lyle (1999) *Biolinguistics: Exploring the Biology of Language*. Cambridge University Press.
- Jerné, Niels Kaj (1985) "The generative grammar of the immune system (Nobel lecture)." *Science* 229: 1057-9.
- Jespersen, Otto (1924) *The Philosophy of Grammar*. London, Allen & Unwin.
- Kant, Immanuel (1783) *Prolegomena to any Future Metaphysics*.
- Kayne, Richard (1994) *The Antisymmetry of Syntax*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Kenny, Anthony (1984) *The Legacy of Wittgenstein*. Oxford, Blackwell.
- Koyré, Alexandre (1957) *From the Closed World to the Infinite Universe*. Baltimore, Johns Hopkins Press.
- Kripke, Saul (1972) *Naming and Necessity*. In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Dordrecht, Reidel, pp. 253-355.
- Labandeira, Conrad C. and J. John Sepkoski (1993) "Insect diversity in the fossil record." *Science* 261: 310-15.
- La Mettrie, J.O. de (1747) *L'Homme-Machine*. Critical edition, A. Vartanian, ed., Princeton University Press.
- Lange, Friedrich Albert (1925) *The History of Materialism*. London, Kegan Paul.
- Larson, Richard and Gabriel Segal (1995) *Knowledge of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Lasnik, Howard (1989) *Essays on Anaphora*. Dordrecht, Kluwer.
- Lepore, Ernest, ed. (1986) *Truth and Interpretation: Perspectives on the Philosophy of Donald Davidson*. Oxford, Blackwell.
- Lewis, David (1983) "Languages and language." In David Lewis, *Philosophical Papers*, vol. I. Oxford University Press, pp. 163-88.
- Lewontin, Richard (1990) "The evolution of cognition." In D.N. Osherson and E.E. Smith, eds., *An Invitation to Cognitive Science*, vol. 3. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 229-46.
- Lewontin, Richard (1994) MS, Harvard.
- Llinás, Rodolfo (1987) "'Mindness' as a functional state of the brain." In Colin Blakemore and Susan Greenfield, eds., *Mindwaves: Thoughts on Intelligence, Identity and Consciousness*. Blackwell, Oxford, pp. 339-58.
- Locke, John (1690/1975) *An Essay Concerning Human Understanding*. Edited by P. Nidditch. Oxford, Clarendon Press.

- Lormand, Eric (1996) "How to Be a Meaning Holist." *Journal of Philosophy* 93: 51-73.
- Lyons, John (1977) *Semantics*, 2 vols. Cambridge University Press.
- Malt, Barbara (1994) "Water Is Not H₂O." *Cognitive Psychology* 27: 41-70.
- Marr, David (1982) *Vision*. New York, W.H. Freeman.
- Marshall, John (1990) Foreword to Yamada (1990).
- Marshall, Jonathan (1989) "On making representations." In C. Brown, P. Hagoort and T. Meijering, eds., *Vensters op de Geest*. Utrecht, Stichting Grafiet.
- McGinn, Colin (1991) *The Problem of Consciousness*. Oxford, Blackwell.
- McGinn, Colin (1993) *Problems in Philosophy*. Oxford, Blackwell.
- Mehler, Jacques and Emmanuel Dupoux (1994) *What Infants Know*. Oxford, Blackwell.
- Mercier, Adèle (1992) "Linguistic competence, convention and authority: individualism and anti-individualism in linguistics and philosophy." PhD dissertation, UCLA.
- Mijuskovic, Ben Lazare (1974) *The Achilles of Rationalist Arguments*. Martinus Nijhoff.
- Miller, George and Noam Chomsky (1963) "Finitary models of language users." In R.D. Luce, R. Bush and E. Galanter, eds., *Handbook of Mathematical Psychology*, vol. II. New York, Wiley, pp. 419-91.
- Moravcsik, Julius (1975) "Aitia as Generative Factor in Aristotle's Philosophy." *Dialogue* 14: 622-36.
- Moravcsik, Julius (1990) *Thought and Language*. London, Routledge.
- Mountcastle, Vernon (1998) "Brain science at the century's ebb." *Daedalus*, Spring 1998 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 127: 1-36.
- Nagel, Thomas (1993) "The mind wins!" Review of Searle (1992) *New York Review*, 4 March. Reprinted (1995) as "Searle: why we are not computers" in T. Nagel, *Other Minds*. Oxford University Press, pp. 96-110.
- Neville, Helen, J. Nicol, A. Barss, K. Forster and M. Garrett (1991) "Syntactically based sentence processing classes: evidence from event-related brain potentials." *Journal of Cognitive Neuroscience* 3: 151-65.
- Passmore, John (1965) *Priestley's Writings on Philosophy, Science and Politics*. New York, London: Collier-MacMillan.
- Pateman, Trevor (1987) *Language in Mind and Language in Society*. Oxford University Press.
- Peirce, Charles Sanders (1957) "The logic of abduction." In Vincent Thomas, ed., *Peirce's Essays in the Philosophy of Science*. New York, Liberal Arts Press, pp. 235-55.
- Petruose, Roger (1989) *The Emperor's New Mind*. Oxford University Press.
- Piattelli-Palmarini, Massimo (1986) "The rise of selective theories: a case study and some lessons from immunology." In W. Demopoulos and A. Marras, eds., *Language Learning and Concept Acquisition: Foundational Issues*. Norwood, NJ, Ablex, pp. 117-30.
- Popkin, Richard (1979) *The History of Skepticism from Erasmus to Spinoza*. Berkeley, CA, University of California Press.
- Pustejovsky, James, ed. (1993) *Semantics and the Lexicon*. Dordrecht, Kluwer.

- Pustejovsky, James (1994) "Coercion and cocomposition." MS, Brandeis.
- Pustejovsky, James (1995) *The Generative Lexicon*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Putnam, Hilary (1975) "The meaning of 'meaning'." In *Philosophical Papers*, vol. 2: *Mind Language and Reality*. Cambridge University Press, pp. 215-71.
- Putnam, Hilary (1978) *Meaning and the Moral Sciences*. Routledge & Kegan Paul.
- Putnam, Hilary (1986a) "Meaning holism." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 405-26.
- Putnam, Hilary (1986b) "Meaning and our mental life." In Edna Ullmann-Margalit, ed., *The Kaleidoscope of Science*. Dordrecht, Reidel, pp. 17-32.
- Putnam, Hilary (1988a) *Representation and Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Putnam, Hilary (1988b) "Much ado about not very much." *Daedalus*, 1988 = *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences* 117: 269-81.
- Putnam, Hilary (1992) "Replica." *Philosophical Topics* 20: 347-408.
- Quine, Willard (1960) *Word and Object*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Quine, Willard (1969) "Reply to Chomsky". In Donald Davidson and Jaakko Hintikka, eds., *Words and Objections: Essays on the Work of W.V. Quine*. Dordrecht, D. Reidel, pp. 302-11.
- Quine, Willard (1972) "Methodological reflections on current linguistic theory." In Donald Davidson and Gilbert Harman, eds., *Semantics of Natural Language*. Reidel, Dordrecht, pp. 442-54.
- Quine, Willard (1981) *Theories and Things*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
- Quine, Willard (1986) "Reply to Gilbert H. Harman." In E. Hahn and P.A. Schilpp, eds., *The Philosophy of W.V. Quine*. La Salle, Open Court, pp. 181-8.
- Quine, Willard (1987) "Indeterminacy of translation again." *Journal of Philosophy* 84: 5-10.
- Quine, Willard (1990) *Pursuit of Truth*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
- Quine, Willard (1992) "Structure and nature." *Journal of Philosophy* 89: 5-9.
- Ramberg, Bjorn (1989) *Donald Davidson's Philosophy of Language*. Oxford, Blackwell.
- Reid, Thomas (1785) *Essays on the Intellectual Powers of Man*. Edinburgh, John Bell.
- Rhyn, Michael (1993) "Understanding 'belief'." *MAN* 28.4, December.
- Romaine, Suzanne (1994) *Language in Society*. Oxford University Press.
- Rorty, Richard (1986) "Pragmatism, Davidson and truth." In E. Lepore, ed., *Truth and Interpretation*. Oxford, Blackwell, pp. 333-55.
- Scheffler, Israel (1955) "On synonymy and indirect discourse." *Philosophy of Science* 22: 39-44.
- Schiffer, Stephen (1987) *Remnants of Meaning*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Schofield, Robert (1970) *Mechanism and Materialism*. Princeton University Press.
- Schweber, Silvan (1993) "Physics, community and the crisis in physical theory." *Physics Today*, 46: 34-40.
- Searle, John (1980) "Minds, brains and programs." *Behavioral and Brain Sciences* 3: 417-24.
- Searle, John (1992) *The Rediscovery of the Mind*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Segal, Gabriel (1987) "In Deference to Reference." PhD dissertation, MIT.

- Smith, Barry (1992) "Understanding language." *Proceedings of the Aristotelian Society*, pp. 109–41.
- Smith, Neil (1999) *Chomsky: Ideas and Ideals*. Cambridge University Press.
- Smith, Neil, Ianthi-Maria Tsimpli and Jamal Ouhalla (1993) "Learning the impossible: the acquisition of possible and impossible languages by a polyglot savant." *Lingua* 91: 279–347.
- Soames, Scott (1989) "Semantics and semantic competence." *Philosophical Perspectives* 3.
- Spelke, Elizabeth (1990) "Origins of Visual Knowledge." In D.N. Osherson, S.M. Kosslyn and J.M. Hollerbach, eds., *An Invitation to Cognitive Science*, vol. II. Cambridge, MA, MIT Press, pp. 99–127.
- Stich, Stephen (1983) *From Folk Psychology to Cognitive Science*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Stich, Stephen (1996) *Deconstructing the Mind*. Oxford University Press.
- Strawson, Galen (1994) *Mental Reality*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Strawson, Peter (1950) "On Referring." *Mind* 59: 320–44.
- Strawson, Peter (1952) *Introduction to Logical Theory*. London, Methuen.
- Stryker, Michael (1994) "Precise development from imprecise rules." *Science* 263: 1244–5.
- Thackray, Arnold (1970) *Atoms and Powers*. Cambridge, MA, Harvard University Press.
- Tremblay, Mireille (1991) "Possession and Datives." PhD dissertation, McGill University.
- Turing, Alan (1950) "Computing Machinery and Intelligence." *Mind* 49: 433–60.
- Uebel, Thomas, with comments by Christopher Hookway (1995) *The Vienna Circle Revisited*. Centre for the Philosophy of the Natural and Social Sciences, London. DP 6/95.
- Ullman, Shimon (1979) *The Interpretation of Visual Motion*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Waldrop, M. Mitchell (1990) "Spontaneous order, evolution and life." *Science* 247: 1543–5.
- Weisskopf, Victor (1989) "The origin of the universe." *Bulletin of the American Academy of Arts and Sciences* 42.
- Wellman, Kathleen (1992) *La Mettrie: Medicine, Philosophy and Enlightenment*. Chapel Hill, Duke.
- Wheeler, John (1994) *At Home in the Universe*. New York, American Institute of Physics.
- Witherspoon, Gary (1977) *Language and Art in the Navajo Universe*. Ann Arbor, MI, University of Michigan.
- Wright, Crispin (1989) "Wittgenstein's rule-following considerations and the central project of theoretical linguistics." In A. George, ed., *Reflections on Chomsky*. Oxford, Blackwell, pp. 233–64.
- Yamada, Jeni (1990) *Laura*. Cambridge, MA, MIT Press.
- Yolton, John (1983) *Thinking Matter*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.
- Yolton, John (1984) *Perceptual Acquaintance*. Minneapolis, MN, University of Minnesota Press.

المؤلف في سطور:

نعوم تسومسكى

أستاذ شرف في جامعة ماساتشوستس للتقنية في الولايات المتحدة، وهو مؤسس النظرية اللسانية التي تسمى "النحو التوليدي" وأشهر المنظرين في إطارها خلال العقود الأربعة الماضية. وله عدد كبير من الكتب ومئات المقالات ومئات المحاضرات في اللسانيات والفلسفة والتاريخ الفكري، ومن أشهر كتبه في اللسانيات: "البنى التركيبية"، و"مظاهر نظرية التركيب"، و"المعرفة اللغوية: طبيعتها وأصولها واستخدامها"، و"اللغة ومشكلات المعرفة"، و"برنامج الحد الأدنى". كما اشتهر بنشاطه في نقد السياسة الخارجية الأمريكية والسياسة الإسرائيلية فكتب في هذين الموضوعين عشرات الكتب ومئات المقالات وألقى مئات المحاضرات وأجرى مئات المقابلات الصحفية والإذاعية والتلفازية.

المترجم في سطور:

حمزة المزيны

حاصل على الدكتوراه من جامعة تكساس - في أوستن - الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٨١م، في اللسانيات.

يعمل أستاذا في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود - الرياض

ألف وترجم عددا من الكتب منها:

- ١- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي، "اللغة ومفكلات المعرفة"، دار توبقال، المغرب، ١٩٩٠م.
 - ٢- مراجعات لسانية -١. سلسلة "كتاب الرياض"، العدد ٧٩، يونيو ٢٠٠٠م.
 - ٣- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي ستيفن بنكر، بعنوان: غريزة اللغة: كيف يُبدع للعقل اللغة. الرياض: دار المريخ، ٢٠٠٠م.
 - ٤- العولمة والإرهاب: حرب أمريكا على العالم. ترجمة لعدد من المحاضرات والمقالات التي كتبها تشومسكي وكتاب آخرون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م. القاهرة: دار مديول للنشر، ٢٠٠٣م.
 - ٥- ترجمة كتاب اللساني الأمريكي نيفد جستس، بعنوان، محاسن العربية في العيون الغربية، أو: دلالة الشكل في اللغة العربية في مرآة اللغات الأوروبية. تحت الطبع. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية.
- بالإضافة إلى عدد كبير من الأبحاث العلمية والمقالات في الدوريات العلمية والصحف السعودية والعربية.